سعيد أبو الحسن



نيران على القمم

سيرة ذاتية



نيران على القمم

سيرة ذاتية

سعيد أبو الحسن

نيران على القمم

سيرة ذاتية

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٤



نيران على القمم : سيرة ذاتية / سعيد أبو الحسن . ـ
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٤ . ـ ٤٢٤ ص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٩٢٣ : أبو الحسن ، سعيد ح ٢ ـ العنـوان
٣ ـ أبو الحسن

مكتبـة الأسـد

الايـداع القانوني : ع ـ ٩٠٣ /٩/١٩٩٤

الفصل الأول

الولادة - الأسرة

أولادي الأعزاء

كثيراً ما كنتم تلحون علي لأقص عليكم بعض الحوادث التي عشتها أو عايشتها — وكنت ألاحظ دائماً الأثر العميق الذي كانت تتركه أحاديثي عن الماضي في نفوسكم .

تريدون أن تعرفوا شيئاً عن الاستعمار ، عن كفاح الشعب ضد الاستعمار ، عن الثورة ، عن المعارك المجيدة ، عن السياسة وملابساتها .

تريدون أن تعرفوا ما كان موقف والدكم من المشاكل القومية المختلفة ، كيف تعلم ، كيف عاش ، هل أدى واجبه كمواطن وكانسان ، وما هو رأيه في قضايا الحياة الكبرى ؟ كيف كان يعيش والدكم في صغره ، في القرية ، كيف كان يعيش جدكم وجدتكم ومعاصروهما من أبناء الجيل السابق — وكيف كانوا يفكرون ، وكيف كانوا يقاتلون ويتعاملون . فلقد كبرتم في منطقة من بلادكم وغير المنطقة التي ولدتم فيها ، وغير المنطقة التي ولد فيها والدكم وعاش فيها أجدادكم الأقربون . وكنتم تستغربون الكثير من عادات أهل المنطقة التي كبرتم فيها .

وتريدون أن تعرفوا أوسع ما يمكن من المعلومات عن تلك المنطقة الأخرى ومشاكلها وعادات أهلها . ولقد أتيح لكم أن تزوروا منطقة والدكم وأهلكم . لكنها كانت زيارات خاطفة لا تتيح لكم الاطلاع الكافي على كل شيء . ولا تتيح لكم ، بصورة خاصة ، ان تعرفوا ما تريدون معرفته عن ماضي تلك المنطقة . فأنتم رأيتموها تنعم بالأمن والاستقرار والمدارس المنتشرة فيها والثقافة شاملة جميع سكانها ، ورأيتم شيئاً من الرخاء يعم أرجاءها . رأيتم الشبان يتسابقون إلى خدمة العلم (الجندية) وهم يعتبرونها أكبر شرف يلصق باسم المواطن .

ولم تشاهدوا الجهل والبؤس والفوضى ، لم تشاهدوا جيوش الاحتلال الأجنبي ، لم تشاهدوا المستعمر وفظائع الاستعمار ، لم تروا الزمن الذي كان الناس فيه يكرهون الثوب العسكري ، لأن هذا الثوب كان يذكر الناس بقوة الاستعمار قبل كل شيء

ولذلك تريدون أن تعرفوا شيئاً عن ذلك كله : اذكر عدنان وهو يرجو مني أن أحدثه عن معركة من المعارك ومعن وهو يسألني عن مرحلة من مراحل النضال السياسي ورافع وهو يطلب إلي أن أقص عليه حادثة من حوادث حياتي الخاصة يوم كنت صبياً صغيراً . وحينما كبرت أميرة بدأت توجه إلي الأسئلة ذاتها .

وكنت أريد أن ينحصر الحديث بيني وبينكم — ولكني فكرت في قلة الكتب العربية التي تهتم بالحياة الاجتماعية الشعبية ،حياة القرى، حياة الفلاحين والعمال ، في فترة مهمة من تاريخنا الحديث ، ورأيت أن أهالي منطقة من المناطق يجهلون كل شيء تقريباً عن حياة أهالي المنطقة الأخرى بسبب من صعوبة المواصلات والتجزئة التي فرضها الاستعمار على

بلادنا ، فجعل كل بقعة منها تعيش وكأنها منفصلة تمام الانفصال عن سائر البقاع . وحسبت ان رغبة القراء لن تكون أقل من رغبتكم في معرفة ما تتوقون إلى معرفته ، وانه من الضروري أن يجد الناس في الزمن الآتي سجلاً لحياة الشعب في حقبة من الحقب ومنطقة من المناطق ، الحياة الحقيقية كما هي لا كما يشوهها مصوروها من رجال السياسة ، الحياة بجمالها وقبحها ، بانتصاراتها وانكساراتها ، الحياة وكأنها شريط يستعرض ، تهتم قبل كل شيء بالانسان ، بابن الشعب ، بالفلاح بالعامل ، بالقاعدة التي صنعت التاريخ ، لا بالزعامة التي استغلت تضحيات القاعدة ، ولا بالقيادة التي استثمرت مجهودات الجماهير وعواطفها وعرقها ودموعها ودماءها .

ولذلك قررت أن يتخذ حديثي إليكم صورة الكتاب ، وأن يطبع وينشر ، فلعل باحثاً يقع عليه في المستقبل فيجد فيه مصدراً من مصادر التاريخ الاجتماعي والسياسي — للتاريخ الانساني النضالي لفترة معينة من حياة العرب في بقعة ضيقة من بقاعهم العزيزة .

والذي أرجوه هو أن تقرؤوا هذا الكتاب وان يقرأه غيركم فلا تملوا ولا تضجروا ، ولا يمل ولا يضجر ، بل تجدون فيه ويجد شيئاً يستحق ما صرف فيه من وقت ، ما أنفق في قراءته من ساعات .

أرجو ألا تسألوني بعد هذه المقدمة لماذا كتبت اليكم ولكم هذا الكتاب ، وإن أكن مستعداً لتقبل كل سؤال تطرحونه عن بعض الحوادث التي تبقى بين السطور أو وراء الكلمات .

لأن هذا من حقكم — على أنني أؤكد لكم أنني لم أخف عليكم حادثة واحدة أخجل ان اطلعكم عليها .

ولكني لم أشأ أن أسرد إلا الحوادث التي حسبتها ذات شأن أو تأثير في حياتي أو حياة المجتمع الذي عشت فيه .

ما عليكم بعدما عرفتم هذا إلا مباشرة القراءة فلا أريد أن أطيل الوقوف بينكم وبينها :

أول مشهد وعيته منذ ولادتي ، ولم يفارق ذاكرتي أبداً ، هو مشهد عدد من البغال الدهماء ، المزينة صدورها وأعناقها بعقود جلدية مزينة بالودع الأبيض ، في حوش دارنا . فكأنما ارتبطت حياتي بالكوارث وآثار الكوارث منذ بدايتها . فقد سألت والدي عن تلك البغال ، وأفهمني بلغة يدركها الأطفال ، ان هذه البغال لأقارب لنا ، من أسرتنا ، من لبنان . وأنهم قادمون لنقل القمح من بلادنا إلى بلادهم لحدوث مجاعة كبرى لديهم بسبب الحرب الكونية . وانقطاع الواردات من الخارج ، ومصادرة السلطة العثمانية الحاكمة آنذاك لجميع المحاصيل لحساب جيشها ، ولولا بسالة أهل بلادنا ـــ جبل حوران ـــ لما بقي في البلاد حبة من القمح لنا أو لسوانا . وكان بعض الأقارب من لبنان يقدمون للاقامة بيننا طوال مدة الحرب ـــ المجاعة .

من هذا المشهد الأولى الذي تفتح عليه وعيي ، انطلقت أحدد مكاني من الدنيا : اذا كان هؤلاء هم أقاربي من لبنان فنحن اذن من أصل لبناني ـــ من المتن بالتحديد ـــ ووجودنا في هذه البلاد ، وفي جبل حوران بالذات وجود طارىء نسبياً ، وهذا الوجود يفسره هذه الهجرة الجزئية التي شهدتها بذاتي : فنحن اذن ـــ بوجودنا كله ـــ نتائج كوارث قديمة : حروب ضد الدول الغازية ، أو حروب أهلية ، أو معارك قبلية .

وسألت والدتي عن عمري . فعرفت أنني في ذلك العام عام ١٩١٦

(كما علمت فيما بعد) كنت في الرابعة وأنني ولدت في سنة كان عيد الأضحى يقع فيها في شهر تشرين الثاني (١) . وكانت لي أخت واحدة تكبرني بسنتين — فهي ولدت سنة سامي باشا الفاروقي — والولادات تؤرخ بالغزوات — أي السنة التي كانت فيها ثورتنا الثالثة أو الرابعة على الأتراك تقمع بجيش تركي قائده اسمه سامي باشا . وكانت والدتي تتيمن كثيراً بي — فقد رافقت ولادتي مظاهر تعتبرها علامات خير : فقدولدت فجر ثالث أو رابع أيام العشر — وهذا يعني أن عمري يوم العيد كان اسبوعاً . ولعيد الأضحى عندنا مكانة لا تدانيها مكانة .

وقد حلمت أمي قبل ميلادي بأيام أن فارساً وسيماً وجيهاً شاباً جاء يسأل عن بيتنا وينزل علينا ضيفاً ولا يريد أن يرحل وكان كل شيء في هذا الفارس يدل على أنه ذو شأن عظيم . هذا الفارس هو أنا : هذه كانت قناعة والدتي ولا يمكن لأحد أن يناقشها فيها . ورافقت ولادتي أيضاً وفرة في المحاصيل ، وازدهار في تجارة والدي ، وأغنامه وخيوله . . ورافقتها أيضاً عملية بناء وتجديد لدارنا ، فقد أضفنا اليها من الغرب غرفة كبيرة عالية السقف رحبة ، يقوم سقفها على قنطرة جميلة طرح عليها الخشب الجميل من الناحيتين ، وطرح فوقه (دفوف) متحاذية غطي الخط الفاصل بين كل دفتين بقدة رقيقة كالقشرة مزينة بالرسوم . ويتبع هذا (البيت) كما يسمون الغرفة عندنا . خزانة صغيرة شمالية غربية خصصت لحفظ المؤن التي تحتاج إلى البرودة كالسمن والدبس والزبيب واللحم المقدد وهذه كانتأهم مدخراتنا تلك الأيام . أما الحبوب والألبان ومشتقاتها ، فكان لها مكان آخر ، في بيت شمالي ، بابه إلى الجنوب ،

---

(١) ولدت فجر يوم الأربعاء ٣ ذي الحجة ١٣٣٠ — ١٣ تشرين الثاني ١٩١٢ فكان يوم عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة ١٣٣٠ في ٢٠ تشرين الثاني

وفيه كنا نمضي الشتاء ، حوالي موقد مصنوع من الصفيح ، يصنعه سمكري في بلدتنا ، ونوقد فيه القصل (عيدان الحنطة) ، والجلة ، وهي زبل البقر المجفف ، والبعر ، و (الكسح) وهو بقايا الحيوانات شبه المتحجرة في الكهوف ، كان يقوم بجلبها أناس يتجرون بها . ونوقد أيضاً (الزبارة) وهي عيدان الكرمة ، والشيح ، والفحم الحطبي . لكن هذه المحروقات (المترفة) كانت تخصص لغرفة والدي ، وهي غرفة يقيم هو فيها إلى جانب قهوته ويستقبل فيها الضيف — وكان من مميزات هذه الغرفة ان لها نافذة إلى الجنوب تطل على قطعة أرض أمام بيتنا غرس فيها والدي بعد ذاك التاريخ شجرة من التوت الشامي ملاصقة للشباك كبر حجمها وطابت ثمراً ومنظراً ، وللغرفة نافذة ثانية تطل على حوش الدار وهو فسحة منخفضة مسورة تربط فيها الحيوانات ، حيواناتنا أو ركائب الضيوف . ويفتح على الحوش من الغرب اسطبل (بايكة) نؤوي فيه ما كان لدينا من ابقار وخيل : فقد كان لدينا ثوران للفلاحة ، ثوران جميلان قويان يسميان الفدان ، ومن هذه التسمية اصطلاح أهالي منطقتنا على تسمية مجموع الأراضي التي يستطيع فدان واحد أن يزرعها ويفلحها في العام (أرض فدان) وما يفلحه الفدان في النهار الواحد يدعى(مفلح فدان) — ويطلقون على أرض (نصف الفدان) اسم (أرض ثور) أي أنهم يرمزون إلى مقدار الأرض برأس البقر .

وإلى جانب الفدان كانت لنا بقرات (جولانيات) — أصلها من منطقة الجولان — للحليب . وكانت هذه البقرات مدللات نناديها بأسمائها . وكانت عندما تعود من الرعي مساء تجأر حين تقبل على البيت منادية عجولها ، فنستقبلها بالترحيب ونناديها بأسمائها من بعيد . وعندما

تصل الواحدة منها وتبدأ بارضاع عجلها كنا نمسح ما علق بجلودها من غبار وقش وهي تهوم برأسها فرحة سعيدة بما تعطي وما تنال ، وتلحس جلد عجلها وتضفي عليه من حنانها الشيء الكثير .

إلا أن هذه الوداعة وهذا الحنان كان يمكن أن ينقلبا شراسة ووحشية وعدواناً عندما تثار احداهن وتستعيد طبيعتها الوحشية . .

وقد خبرت ذلك بنفسي فيما بعد وكدت أفقد حياتي خلال هذا الاختبار . فقد حدث مرة ان كنا جميعاً ، ما عدا والدي ، نلعب بأرض الدار ، فيما دخلت من البوابةإحدى بقراتنا — وكانت مغضبة نتيجة لتعرض بعض الصبية لها قبل وصولها إلى الدار ، وكانت لها عجلةرضيع — وبدلاً من أن تستدير يساراً وتنزل إلى الحوش حيث تنتظرها عجلتها هاجمتنا فأفسحنا لها المجال لتمر باتجاه صدر الدار ، ولكنها استدارت وكان ، أحد اخوتي يسند ظهره إلى جدار الدرج ، ووجهه إلى الجنوب — فرجعت البقرة إلى الوراء وتحفزت لتنطحه في صدره ، وكان قرناها منتصبين إلى الامام كخنجرين حادين وفي أسرع من لمح البصر وبصورة غريزية أحسست ان أخي سيقتل حتماً اذا لم تمنع البقرة من نطحه — ولم يكن هناك مجال للتفكير أو التردد . ففقزت في الهواء ، وأمسكت بقرني البقرة ، ودفعتها الى الوراء ، وكان جسمي وحده عازلاً بين قرنيها وصدر أخي — لقد أنقذت أخي . ولكن البقرة حملتني بقرنيها ودارت بي دورة ، وألقتني من فوق أرض الدار إلى أسفل الحوش ، وكانت أرض الحوش صخرية . إلى هنا كنت ما أزال واعياً — أما اللحظة التي وعيت فيها بعد ذلك بزمن لا أدري كم هو ، فقد وجدتني في فراشي ممدداً والضمادات تحيط برأسي تغطي عدداً من الجروح البليغة — لقد تعرضت

اذن لخطر حقيقي ، فأنقذت حياة أخي واكتسبت بذلك شهرة — ومقابل ذلك سقطت مرة في البركة فكدت أغرق لو لم تسارع أختي الكبرى فتنتشلني .

وكانت لنا فرس شهباء من الأصائل المشهورات من فصيلة (أم عرقوب) وكانت جميلة سريعة هادئة ، وكان من أسباب سعادتي أن أمتطيها وأذهب بها أوردهابركة ماء قريبة من بيتنا ، اسمها (بركة الغنم).

وكنت أكثر سعادة عندما أركب خلف والدي حين يذهب إلى قص الغنم (جز الصوف) . فقد كان لنا قطيع من الغنم عند راع من البدو من عشيرة المساعيد ، وكانت علاقاتنا مع الراعي وأهل بيته علاقات عائلية صميمية — إذا ذهبنا لقص الصوف حملنا معنا البن والسكر والشاي والحلاوة بخرج على الفرس . والراعي وهو صاحب بيت واسع ، يذبح واحداً أو أكثر من خرافنا للرجال الذين يقومون بعملية جز الصوف بمقصات كبيرة من الحديد — فهم كانوا يقومون بهذا العمل تعاوناً — ويكتفون بما يقدم اليهم من طعام وشراب وحلويات وجزة صوف لكل واحد—أما أنا فكنت أقضي نهاري في الهواء الطلق ، ألعب مع أترابي من الأولاد، ونأكل ، ونشرب ، ونلاعب الحملان ، حتى ينتهي العمل . وأعود خلف والدي كما قدمت ، وكان القصاصون يغنون ألحاناً جميلة تتناسب وحركة أيديهم — كنا نترك الصوف عند الراعي الذي يرسله على الجمال بعد ذلك — وكنت أشهد عملية أخرى تجري لهذه المناسبة وهي عملية وسم الخراف وهي طبع علامة على اذن الخروف وفوق أنفه بالسيخ المحمى بالنار .

وبعد الكي مباشرة يوضع مكان الكي قليل من اللبن الممزوج بالملح—

وهكذا تعرف عائدية الخراف وتحمل الوسم ذاته الذي تحمله أمهاتها. وكذلك نشهد عملية(الفلاج) أي اقتسام الخراف بين أصحاب الغنم والراعي المكلف حراستها ورعيها . وكان له ربع المواليد ، وعليه أن يؤدي مقداراً معيناً من السمن ، واللبن القطيع (المسحوب زبدُهُ) الذي كنا نصنع منه (الكثاء) وهو الأسم المحرف للاقط .

ومما أذكر ذكرى خاصة انني سمعت والدي يغني لأول مرة وآخر مرة في حياتي ، في إحدى هذه الرحلات الممتعة ، كنا سارين قبيل الفجر ، وآخر النجوم تتهيأ للتواري خلف ضوء الفجر الجميل القادم . وإذ أنا أسمع والدي يرفع صوته الجميل ببيت من العتابا لم أسمعه من شخص آخر أبداً ، وما سمعته بعد ذلك من شخص آخر أبداً . كان البيت يقول :

سريت بليل وبوجهي بنات ال — نعش ، والهم بقلبي بنى تل

هذول البيض يا محمد والبنات ال — غوى ، ولين وانطوني قفا

وإذا عرفنا ان بنات النعش هي مجموعة النجم القطبي ، واننا كنا متجهين شمالا وبوجهنا بالفعل مجموعة النجم القطبي ، أدركنا مدى جمال البيت في تلك المناسبة .

وكان يقوم بالعمل الزراعي لدينا رجل اسمه (الشريك) أو (المرابع) وهو كما يدل عليه اسمه — يقوم بعمله مقابل ربع الغلة . فنحن نقدم الأرض وآلة الفلاحة والبذار ، وهو يقدم عمله وهو تقديم العلف للفدان وسائر الحيوانات ، والفلاحة والزرع والحصاد ، يأخذ علاوة على ربع الغلة مقداراً من القمح مؤونة له ولعائلته ، يأخذها سلفاً ، ويأخذ بعض

العينيات كاللباس والعطاءات المتنوعة — وهو — عملياً وبحكم وجوده الدائم في البيت خارج أوقات العمل في الحقول ، وطوال أيام الشتاء بخاصة ، يقيم معنا ويأكل معنا . فلم ألاحظ قط أي فرق بيننا وبينه وسيرد ذلك بالتفصيل فيما بعد . فنحن كنا من الطبقة الشعبية أو (العامية) حسب الاصطلاح المحلي أي مجموعة الملاكين الصغار الذين حصلوا على الأرض انتزاعاً من الاقطاعيين القدامى ، أو شراء بمال جنوه بعملهم كمرابعين لدى مالكين آخرين ، أو كعمال زراعيين موسميين .

وستجيء المناسبة لاستفسر من والدي عن كل هذا فلقد بدأت أحدد وضعنا في المجتمع تدريجاً مع الزمن . لاحظت أولاً أننا من طائفة يسمهونهم الدروز ، وهم يسمون أنفسهم « الموحدين » أو « بني معروف» ويسمون مذهبهم مذهب التوحيد . وهو الاسم التاريخي لهم .كنت أرى والدي يعمل تاجراً في دكان يقع داخل القرية ، بينما بيتنا كان خارج القرية بين الكروم على بعد نحو خمسمائة متر من حدود البناء المتراكم المتلاصق الذي تتكون منه قريتنا .

وبناء قريتنا من الحجارة السوداء — البازلت — وكان لوالدي شريك من الطائفة المسيحية — الروم الأرثوذكس — اسمه أسعد العيد وكان رجلاً يستحق الاعجاب والتقدير — وكانت علاقاتنا المتبادلة على أحسن ماتكون العلاقات متانة وصفاء . وكان ذلك يوحي بأن الرباط القومي أكثر أصالة وأقوى مما يظن — وقد تأيد ذلك — بأني رأيت في صغري رجلاً نابلسياً اسمه الحاج عبد الرزاق من الطائفة السنية ينزل علينا ضيفاً طوال أكثر من شهر .وكان الحاج عبد الرزاق الذي يرتدي لباس أهل نابلس العربي مع العقال الأسود الغليظ فوق كوفية صوفية رمادية منقطة بالأسود بينما كان زي والدي زي شيوخ الدين المسلمين وهو يذكرني صورة وزياً بالشيخ

محمد عبده — وآسف أنني لا أملك صورة لوالدي ، ولكنني لا أرى صورة الشيخ محمد عبده مرة إلا ذكرت والدي لقرابة الشبه بينهما.

وكان لوالدي علاقة تجارة مع الحاج عبد الرزاق فقد زاره في نابلس وذهب واياه إلى حيفا وعكا ولم يؤثر في علاقتهما المتينة النظيفة اختلاف مذهبيهما ولم يجد التعصب طريقاً إلى قلبيهما — رابطة القومية ورابطة العمل والانسانية رابطة قوية .

وجدت — اذن — في بيت بلغ فيه التسامح الديني والمذهبي وبالتالي الفكري مستوى رفيعاً .

والمشهد الثاني الذي ما يزال عالقاً بذهني عن تلك الأيام هو يوم عودة فرساننا من العقبة ، حيث كانوا قد ذهبوا للانضمام إلى جيش الأمير فيصل بن الحسين . وما زلت أذكر يوم وصل أحد أصدقائنا البدو أمام دارنا ، وأناخ ناقته وأعطاناكمية من السكر والأرز ، فرحنا بها فرحاً كبيراً . لأنه كان قد مضى على انقطاعها زمن ليس بالقصير .ومأأزال اذكر أيضاً يوم ذهبنا لاستقبال فرساننا العائدين وكان بينهم أحد أخوالي وبعض الاقارب وكانت وجوههم قد أصبحت شديدة السمرة — من شدة الحر ، حتى إني عندما حملني خالي بين يديه تعرفت اليه في صعوبة.

وكان وصولهم يعني إن الزحف العربي باتجاه دمشق قد بدأ . ولهذا ما لبث هؤلاء الفرسان ، ومئات غيرهم ممن انضموا إلى الجيش الزاحف نحو الشمال ، ان غادرونا بين هتاف الشعب واهازيجه ودعاء النساء بالنصر . وكان والدي بين هؤلاء الفرسان الذين دخلوا دمشق وعادوا منها ببنادق ألمانية أو عثمانية جديدة تركها الجيش المحتل المنهزم مع كميات كبرى من الذخيرة . وكم كانت فرحتنا عندما عاد والدي على

فرسه الشهباء ، ومعه هذه البندقية الالمانية (السواري) يلمع خشبهاالأحمر وفولاذها الأزرق النظيف ، ومعه من الذخيرة ما تكاد الفرس أن تنوء بحمله .

كان علي في تلك الأيام أن ابدأ الذهاب إلى المدرسة وكانت مدرسة بلدتنا كناية عن غرفة كبيرة مستطيلة يتصدرها المعلم وهو شيخ معمم ، عرفت فيما بعد ان ما كان يعرفه من العلم لا يتجاوز القراءة والكتابة ومبادىء العمليات الحسابية الأربع . وكانت قراءته وكتابته بلا قاعدة: يحسن قراءة النصوص بحركاتها دون أن يعرف شيئاً عن سر هذه الحركات ولماذا تنتهي اللفظة بضمة بدلاً من أن تنتهي بفتحة أو بكسرة ، ودون أن يدرك الفرق بين المفرد والمثنى والجمع . وكان أول كتاب يبدأ به « الالفباء» أو « سلاسل القراءة » . وكان الطفل يترك لنفسه يتعلم بجهده الخاص ، مقتدياً برفاقه ومستعيناً بمن هم أقدم منه . وجميع الأولاد في هذه الغرفة يقرؤون بصوت عال . وكان بينهم بضع فتيات انتحين جانباً من الغرفة وهن يتلقين الدروس مع الذكور بدون تفريق . وكان يترتب على كل تلميذ أن يقدم للمعلم طعامه يوماً كاملاً ، ابتداء من أقدم التلاميذ حتى أحدثهم : وتتكرر هذه العملية حسب نتيجة قسمة أيام السنة الدراسية على عدد التلاميذ . والتلميذ الذي يصيبه الدور يحمل للمعلم ترويقته وهو ذاهب صباحاً إلى المدرسة ، وصباحاً يعني شروق الشمس ، مهما تكن ساعة الشروق في أي فصل .

ثم يحمل اليه غداءه ظهراً وعشاءه مساء . أو يحمل اليه ما يكفيه لوقعاته الثلاث دفعة واحدة عند الصباح الباكر ، حسب تساهل المعلم أو تعنته .

وكنا نحمل كتابنا ولوحنا وأوراقنا وأقلامنا في كيس له حمائل

نتمنطق به ذهاباً وإياباً .فالمدرسة لم يكن فيها مقاعد ولا طاولات . وكنا نجلس على الأرض فوق جلد (سلخ) نجلبه من البيت ، وقد نضع الجلد فوق صندوق فارغ من الخشب — والمعلم كان يجلس مواجهاً لنا فوق دكة يعلوها جلد أو حشية صغيرة . وإلى جانبه عصاه يلوح بها تهديداً ويضرب بها من الأولاد من لا يحفظ درسه ، أو من يقترف ذنباً يعود إلى المعلم وحده تقديره وتقدير عدد الضربات التي يستحقها مقترفه .

وكنا نكتب على أطباق صغيرة من الورق نضعها فوق الكتاب و على اليد ، ونتعلم الحساب على ألواح صغيرة من التنك نكتب عليها بحبر محلي مصنوع من ترابة حمراء أو ألواح من الحجر الأسود (الاردواز) . وعندما ننتهي من تعلم الأبجدية ننتقل إلى كتب أصعب منها تتراوح بين أجزاء من القرآن مثل جزء (عم) — و (قد سمع) — أو أجزاء من العهد القديم (التوراة) أو العهد الجديد (الاناجيل) . ثم أخذت الكتب تتنوع فعرفنا مجاني الأدب بأجزائه الستة ، ثم بعد عدة سنوات (جواهر الأدب) بأجزائه الثلاثة أو الأربعة — لم أعد أذكر عددها بالضبط.

وكان يترتب على التلميذ أن يسمّع درسه يومياً — فيقف مكانه ،أو يقف إلى جانب المعلم ، ويرفع صوته قارئاً درسه ، والمعلم يصحح له بعض الأغلاط . واذا كان الدرس قصيدة فالتلميذ يقرؤها بصوت عال منغم وباللهجة المتناسبة مع موضوع القصيدة — فاذا كانت إحدى قصائد عنترة فان المدرسة تتحول إلى جو حماسي تكاد تشعر معه أنك في معركة. وأول يوم سمعت فيه أحد التلاميذ القدامى يسمع شعراً ، عدت إلى البيت أخبر والدي وأسأله متى سيكون في مستطاعي أن أحصل على كتاب « الصياح » هذا . وأفهمني أبي أن ذلك يتوقف على اجتهادي، فمتى

حفظت الكتب الصغيرة العادية انتقلت إلى الكتب الكبيرة ، ومن جملتها الكتب الشعرية .

لا بد لي أن أسجل بعض التقاليد التعليمية التي كانت سائدة والتي زالت من الوجود بعد ذلك ـــ كان المعلم يحمل قضيباً يضرب به من لا يحفظ درسه أو من يعتدي على رفاقه أو من يعصي أوامر معلمه ، أو من يتكلم مع رفاقه ، وأحياناً يستعمل « الفلق» وهو قضيب ربط بطرفيه حبل كالوتر فكان المعاقب بالضرب الأشد يلقى أرضاً وتوضع قدمه أو قدماه بين الحبل والقضيب (العصا) ويمسك بطرفي الفلق اثنان من التلاميذ ويشدان الحبل على رسغي القدمين حتى يصعب افلاتهما ، ويبدأ المعلم الضرب بالقضيب على الأخمص حتى يكتفي حسه الانتقامي أو التأديبي ، وصراخ المعاقب يعلو ويعلو حتى يمزق شغاف القلب ـــ وكثيراً ما كانت تدمى القدمان من شدة الضرب ، وكان المعلم يضع بعض المرات تلميذين معاً بالفلق الواحد توفيراً للوقت والجهد ، وأذكر مرة ـــ وهي المرة الوحيدة التي ذقت فيها طعم هذا العقاب الوحشي ـــ انني وضعت بالفلق مع أحد الأقارب ـــ وكان الوقت شتاء . وكنا نلبس جرابات من الصوف ، شغل البيت ، مزينة بخطوط ملونة حمراء وخضراء ، فأخذ المعلم ـــ الشيخ الوقور ـــ يهزأ بجراباتنا ، وأراد منا أن ننزعها ليكون الضرب أشد إيلاما ـــ ثم عدل عن ذلك لأنها المرة الأولى ولأننا من التلاميذ « العاقلين » فاكتفى بأن ضربنا من فوق الجرابات .

وكان المعلم يستعمل طرقاً أخرى من العقوبات كالصفع و « مسك» الاذن وفركها ، كما كان يمكّن تلميذاً من امساك اذن رفيقه اذا أجاب عن سؤال لم يستطع الآخر الاجابة عنه .

وكان هذا يسبب عداوة بين التلاميذ وثارات تؤخذ خارج المدرسة ، وكان من حسن حظي — أو من سوء حظي آنذاك — أنني كنت تلميذاً « شاطراً » ولذلك كثر عدد الذين أمسكت آذانهم وكثر عدد خصومي وعدد « القتلات » التي استوفوها مني خارج المدرسة بفضل حصافة المعلم المحترم و « حسن » تدبيره ! . .

ومن الأمور التي ما زلت أذكرها عن تلك الأيام ، والتي كان لها أثر كبير في حياتي، اننا استقبلنا شاباًلبنانياً من أسرتنا . وكان هذا الشاب(١) مولعاً بالقراءة ، وقد ملأ خزانة صغيرة في غرفتنا الجنوبية الشرقية تسمى « الخرستانة» ملأها كتباً متنوعة وأوراقاً — فكان يقرأ هذه الكتب ويخط شيئاً في تلك الأوراق — وبعدما أصبحت أحسن القراءة صرت استعير منه قصة بعد قصة : فقرأت بسببه — وبفضله — قصة علي الزيبق وعنترة بن شداد العبسي ، وسيرة بني هلال وتغريبتهم وألف ليلة وليلة والملك سيف بن ذي يزن .

وفتحت قراءة هذه القصص عيني على شؤون العالم ، قبل الأوان، ونما حبي للاطلاع فصرت أريد أن أعرف كل شيء عن أسرتي وعن بلادي وعن الدنيا كلها : صرت أسأل عن كل شيء يخطر ببالي . فأجاب حيناً ويبقى سؤالي بلا جواب أحياناً أخرى .

سألت أمي عن أهم حوادث طفولتي قبل وعيي فقالت ان أهم الحوادث على الاطلاق هو اصابتي بمرض في عيني أدى إلى فقداني

(١) هو السيد علي عاقلة أبو الحسن الذي توفي في دمشق عام ١٩٧٣ وهو والد الأستاذ طارق أبو الحسن.

البصر مدة سنة كاملة . إلى جانب أمراض الطفولة الأخرى . وان عيني لم تنفتحا بعد هذا الزمن الطويل إلا بفضل كي ني يافوخي أجراه لي شيخ خبير من ورثة الطب العربي المتناقل عبر الأجيال . وأن أمراضي الكثيرة لم تشف إلا بفضل شربي حليب فرس أصيل جُلب لي من أسرة كان لديها فرس مرضع آنذاك وكان هذا من أسباب الصلات الطيبة بيننا وبين تلك الأسرة . وان المرض بلغ بي إحدى المرات حد الموت . وتجمع الجيران حولي ثم عدت إلى الحياة بأعجوبة .

وكان جدي لأمي من أسرتنا ، أما جدتي لأمي ، فكانت من أسرة حلبية الأصل . وكنت أحب جدي وجدتي حباً لا مزيد عليه ، وكانا يبادلاني هذا الحب فأمضي أكثر أوقاتي في بيت جدي عند أخوالي .

أما والدي فكانت لي معه جلسات طويلة وحكايات لا تنتهي . لم أعرف جدي لأبي ، حسين وجدتي لأبي ، حمده ، لأنهما توفيا قبل ولادتي — ولكن عرفت أن جدي هو الذي هاجر من لبنان في النصف الثاني من القرن الماضي ، وكانت جدتي لأبي من أسرة معروفة من سكان غوطة دمشق الغربية ، وعرفت خال والدي الذي زارنا أكثر من مرة، وكان فارساً من فرسان الغوطة المعروفين واسمه الشيخ قاسم قرقوط (أبو حسين) ، وكان لي عم واحد وعمتان . وكان والدي وإحدى عمتي متشابهين يختلفان كل الاختلاف عن عمي وعمتي الآخرين فكأنهما فصيلتان متباينتان شكلاً وموضوعاً .

الفصل الثاني

والدي في صغره

وروى لي والدي سيرة حياته بالتفصيل منذ ولادته حتى طفولتي.

ولد في مدينة السويداء حيث كان جدي يقيم في بيت يملكه هناك — ودخل مدرسة كانت لبعثة بروتستانتية فبرز في هذه المدرسة وكان الأول فيها حتى ان البعثة رشحته ليذهب ويكمل دروسه في مدرسة تابعة لها في زحلة — لبنان — غير أن جدتي مانعت في ذلك ورفضت خوفاً من أن يقتل المسيحيون والدي ثأراً لحوادث ١٨٦٠ المشهورة. وهكذا وبسبب الخلافات الطائفية والخوف الدائم منها فقد والدي فرصته الكبرى في هذه الحياة وهذا هو السر في أنه كان أكثر الناس تسامحاً، فكان له أصدقاء من جميع الطوائف، وما كان يفرق في معاملته بين أي مواطن ومواطن.

وعندما أنهى الصف الأخير في مدرسة السويداء، ترك المدرسة، وخطر ببال جدي حينذاك أن يترك السويداء ويسكن في بلدتنا (عرمان) قريباً من أقاربه المقيمين فيها. فباع بيته في السويداء وهو بيت قديم فيه أعمدة رومانية ونزح.

وعرمان هذه القرية من صلخد (صرخد التاريخية المشهورة) كان لها دور كبير في تكوين الحياة الشعبية في المنطقة كلها — فكانت مجموعة كبيرة من الأسر المهاجرة من لبنان، أو حلب، أو راشيا،

أو وادي التيم ، أو غوطة دمشق ، أو منطقة صفد في فلسطين ، وكان لها شيخ ، مثل كل قرية ، من عائلة الأطرش ، ولكن هذا الشيخ كان من أقوى الشيوخ ، اذا تكلم باسم قريته — في العلاقات مع القرى الأخرى — وكان أضعف الشيوخ في علاقاته مع أهل القرية — وهو وضع عجيب شهدته مرات كثيرة في حياتي — بعد ذلك .

وشهد والدي وهو بعد ، صبي ، حدثاً من أهم الأحداث التي سيطرت على تفكير الشعب وحياته وطبعت مستقبله وحددت رسالته إلى الأبد .

وهذا الحدث هو الثورة العامية ١٨٨٧ — ١٨٨٨ (١٣٠٨ هجرية) وقد كان لعرمان دور حاسم فيها ، وكان المؤتمر الأول والأهم لرجال العامية قد عقد في قرية خربة تملكها عرمان اسمها « المجدل » وقد سميت بسبب هذا المؤتمر « مجدل الشور » — أي مجدل الرأي أو الشورى.

وكانت خلاصة الحركة العامية أنها ترمي إلى تملك الفلاحين للارض التي كانوا يزرعونها لحساب الشيوخ . فقد كان النظام الاقطاعي السائد يعتبر الأرض وما عليها ملكاً للشيخ وان جميع السكان ليسوا سوى فلاحين يقيمون في بيت لا يملكون منه سوى بابه الخشبي أو الحجري (١) فاذا غضب عليهم الشيخ يحملو ن هذا الباب اذا كان من خشب ويرحلون إلى قرية أخرى يطلبون جوار وحماية وسلطة شيخ آخر . وكان الفلاحون يستثمرون الأرض لحسابهم ولكنهم يخضعون للسخرة : أي أنهم يؤدون عملاً جماعياً لمصلحة الشيخ ، أيام الفلاحة وأيام الحصاد — ويقدمون

---

(١) بيوت كثيرة قديمة البناء كانت أبوابها من حجر ، قطعة واحدة تدعى « حلس » تدور حوالي محورين يدوران في نقرتين احدثتا في العتبة « تحت » وفي الحنت « فوق ».

للشيخ كل جدي من نتاج ماعزهم ، أو خروف من نتاج أغنامهم . ولا يحق لهم اعداد القهوة وتقديمها للضيوف في بيوتهم . بل كان جميع الضيوف ضيوف الشيخ . والفلاحون يقدمون شيئاً من الغلة في نفقات الضيافة — حتى الأعراس كانت تقام حفلاتها في بيت الشيخ — والنتيجة ان الفلاح لم يكن من مصلحته أن يغرس أي نوع من أنواع الشجر ، لأنه ليس مطمئناً إلى بقائه . غير ان ذلك الوضع المزري الذي قبل به هؤلاء القوم الهاربون من المذابح ، ومن الحروب الأهلية ، ومن عسف الامراء الشهابيين ، أو الحكام الأتراك . أول سكناهم الجبل ، لم يعد من المعقول بأن يقبلوا به وقد زال خوفهم ، ووعوا وضعهم السيء ، وذكروا ما كان لهم ولأسرهم من مكانة في بلادهم الأولى ، حصلوا عليها بالجهد الدائم ، وبالعرق والدم المسفوحين بلا حساب . ولم يشاؤوا أن يظلوا مستسلمين إلى مصير لا يتفق وأبسط حقوق الانسان ولا يحقق تطلعاً من تطلعاته . فثاروا وتمردوا وأعلنوا استيلاءهم على الأراضي بالقوة ودارت بينهم وبين الشيوخ وأنصارهم معارك دامية ، سقط خلالها أكثر من خمسين قتيلاً . وكان لابد للشيوخ من التوسط والقبول بحل يبقي لهم شيئاً بدلاً من فقدان كل شيء ، فأظهروا أنهم فريقان ، وتقرب أحد الفريقين من رجال العامية وبواسطته قبل هؤلاء بأن يبقى للشيخ نصف ربع أراضي القرية (ثمنها) ما عدا الشيخ الذي تظاهر بالانضمام إلى الثورة وهو شيخ عرى ، فقد أبقي له الربع كاملاً مقابل هذا الانضمام الظاهري ومقابل ما كان بيته يتحمله من نفقات تجاه الدولة العثمانية التي كانت ترفض التعامل مع الشعب مباشرة بل تتعامل معه بواسطة شيوخه.

أحدثت هذه الثورة التي استمدت اسمها من كومونة باريس هزة

عميقة وحولت حياة السكان من طور إلى طور (١) فقد انقلبت أغلبية السكان إلى مالكين صغار يستثمر كل منهم أرضه بنفسه ، أو بواسطة المرابعة– وتعارف الناس في قريتنا على تحويل قسم من الأراضي القسم المحيط بالقرية مباشرة ، ويدعى (الجدار) واعله (جدار القرية أي حائطها ومحيطها) إلى كروم ، وكان ذلك يحتاج إلى تبديل في طريقة الاستثمار المتبعة آنذاك : فمجموع أراضي القرية كان يقسم إلى عدد محدود من الأسهم كل سهم يسمى فداناً – وكانت هذه الأراضي توزع على أصحابها بمعرفة خبراء من أهل القرية اسمهم « القسامة » وهم نوع من المساحين بالممارسة . يستعملون في قياسهم الأراضي حبلاً « مرسة» طوله خمسة وعشرون ذراعاً – وكانت اعادة القسمة والتوزيع جائرة كل حين ، لأن الملكية كانت تعتبر شائعة واعادة التوزيع تتيح لكل مالك أن يستفيد من استثمار أرض أخرى استثمرها غيره – ولكن الأهالي لم ينتبهوا إلى مساوىء ذلك ، لم ينتبهوا إلى ان اعادة القسمة من مصلحة المالكين غير المجتهدين ، من مصلحة المهملين الذين يأخذون بالقسمة أرضاً استصلحها سواهم وهيأها لتعطي أكبر مردود . بينما يأخذ هذا العامل أرضاً أهملها سواه وعليه أن يبدأ جهده من جديد .

من هنا كانت للجذار أو الجدار أهمية كبرى : لأنه استثنى من اعادة التقسيم والتوزيع ، واعتبر ملكاً ثابتاً فصار جهد صاحبه له ولورثته من بعده . وأنشئت الكروم ، كروم العنب ، والأشجار الأخرى وبخاصة التين – واشتهر الجبل بعنبه اشتهاراً واسعاً منذ أوائل هذا القرن.

---

(١) الذي يظهر من شعر شبلي الأطرش أنه حمل على الحركة العامية ورجالها حملة شديدة فشتم وهجا واقذع والتفسير الحقيقي أنه كان يوالي أقاربة اولا ويساير العامية لعله يوجهها ويحرفها ولما عجز عن ذلك ظهر على حقيقته.

هذه الهزة العميقة أوقعت الرعب في نفوس الاقطاعيين القدماء — فلجؤوا — كما هي العادة في كل زمان ومكان — إلى الدولة العثمانية يستنجدون بها لاخماد ثورة الفلاحين — وقديماً كان الاستعمار حليف الاقطاع مثلما كان الاقطاع حليف الاستعمار — .

سعى الشيوخ فاستقدموا جيشاً تركياً لجباً ليعاقب الثائرين (١) . وكان ظاهراً أن عرمان كانت هدف هذا الجيش . ولكنه لم يذهب اليها مباشرة، بل رابط في السويداء ، وأرسل نحو ١٤ جندياً بحجة المطالبة بضرائب أو غرامات فأساء الجنود التصرف ووجهوا اهانة إلى بعض الأهلين ، فانقض هؤلاء عليهم وحاصروهم داخل المضافة التي كانوا ينزلون فيها ، فأقفلوا الابواب على أنفسهم وأخذوا يطلقون النار من النوافذ ، فحفر الأهلون السطح وانقضوا على الجنود من فوق ، وقتلوهم جميعاً ، ما عدا واحداً كان من أبناء البلاد ، هرب وأخبر المسؤولين في السويداء بما جرى

ما أرويه من هذه النقطة فما بعد رواه لي والدي باعتباره كان حاضراً هذه المعركة ، وكانت أولى معاركه اذ كان عمره يومها (١٨٩٦) ثمانية عشر عاماً . سار الجيش التركي من السويداء إلى عرمان بطريق خراب عرمان ، وهو طريق يخرج من قرية الكفر ، فيمر بخراج سهوة الخضر ، حتى يدخل أراضي عرمان المسماة « الخراب » — وهذه الأراضي كانت في الزمان القديم كروماً ذات جدران عالية من حجار البازلت . وداخل

(٢) يعترف شبلي الأطرش في قصيدته المعروفة بالعامية :

إلى ان الخلق عافت لحاها	وصارت تطلب الدوله العليه
وقالوا اليقتلوا السبع المجنزر	خير من اليموت بسم حيه

كل كرم آثار بيت إو(حوش) يتبعه معصرة عنب أو زيتون ، وقد أدى تنظيف الأرض من الحجارة إلى تكوين كومات كبيرة من الحجارة تدعى الواحدة منها (الرجمة وجمعها الرجوم) وتتخلل هذه الكروم أكوام أزلية من الصخور المتماسكة منذ أن قذفت بها البراكين من جوفها وتدعى الواحدة منها (خشعة وجمعها خشاع) (١).

كان الجيش يريد أن (يكبس) البلدة المجاهدة ، أي يفاجئها ليلاً ليحتلها احتلالاً سهلاً . ولكنه تاه بين جدران الخراب وخشاعه ورجومه ، تاه ودارحوالي نفسه طوال الليل . وحين بزغ الفجر كان الفلاحون السارون لمباشرة أعمالهم في حقولهم : قد وصلوا إلى الخراب ، فلمح بعضهم طلائع الجيش اللجب — فعادوا وفزعوا (٢) القرية بكاملها. خرج كل قادر على حمل السلاح — أيا كان السلاح : البارودة ، أو السيف ، أو البلطة (الفأس) أو الحربة أو الخنجر ، وحتّى العصا والمقلاع — وخرجت معهم النسوة (٣) يحملن الماء والزاد وألسنة لا تكل عن الدعاء والتشجيع .

ولم ينس قادة المقاتلين أن يرسلوا مفزعاً إلى القرى المجاورة : صلخد — ملح — متان . وصل المقاتلون إلى أقرب مكان من الجيش، وأشرفوا على طلائعه . فاذا هذه الطلائع ما تزال تدور ولا تدري من أين تنفذ إلى طريق القرية — ووضع المحاربون خطة دفاعية هجومية استلهموها من واقع الجيش .

---

(١) في اللغة (الخشعة جمع خشع) : الأكمة المتواضعة .

(٢) فزع — استنجد ، أهاب بالقوم ان يخرجوا للقتال (لغة عاميه) .

(٣) في هذه المعركة اشتهرت المجاهدة سعدى ملا عب .

هناك كرم كبير واسع – يحيط به جدار عال متهدم اسمه أبو شبابيك يخترقه طريق زراعي من الشمال إلى الجنوب ، ففي الجدار اذن ثغرة من الشمال وأخرى مقابلة من الجنوب . أحاط المقاتلون بالجدار وأعدوا بواريدهم للاطلاق عبر الطاقات (الشبابيك) في صمت ، وقرروا ألاّ تطلق النار إلا بعد أن يبدأ أحد المقاتلين الذي كلف مهمة قتالية سرية يعرفها هو وحده ، ويكون اطلاقه النار هو اشارة البدء بالمعركة ، كان هذا المقاتل الموثوق بمتانة أعصابه ، وحسن تسديده ، يشرف على الثغرة الجنوبية من الكرم ، وقد دخلت طليعة الجيش الغازي ، وهي مؤلفة من الفرسان ، من الثغرة الشمالية ، وسارت طابوراً طويلاً داخل الكرم . ولما أصبح الفارس الأول (قائد الطابور) في الثغرة الجنوبية تماماً ، ويهم بعبورها ، أطلقت الرصاصة الأولى فقتلت حصانه ، فسقط الحصان في الثغرة وسدها تماماً ، بحيث تعذر على بقية الطابور أن تعبر ، ولاسيما أنها ذعرت للمفاجأة ، وأخذت عشرات الطلقات تنهال على الفرسان والجياد من كل صوب ، وكانت المسافة القريبة تجعل كل طلقة في فارس أو في جواد – وأرادت الطليعة التقهقر غير أن العبور كان ما يزال مشغولاً بالعابرين وحدث ذعر عام وبدأت معركة من أنجح المعارك التي شاهدها تاريخ النضال التحريري بالوطن العربي – تدخل المشاة والمدفعية ، واشتد الضغط – والمهاجمون (ويقدر عددهم بأكثر من ألفين) مسلحون بأحدث الأسلحة ، والمدافعون مئات قليلة ، سلاحهم البارودة التي تحشى من فوهتها ، وسائر الأسلحة القاطعة التي سبق ذكرها . روى لي والدي قال : « كان في كل متراس مقاتلان ، احدهما يرمي ، بينما الثاني يكون قائماً بحشو بارودته – فيتخذ هو وضع الرامي ويحشو الآخر بارودته ، وهكذا . . » .

وصمد أهالي عرمان ، ساعتين إلى ثلاث ساعات ، صمود الابطال ، وعجز الجيش عن احراز أي تقدم — عند ذاك وصل أهالي صلخد ثم أهالي ملح ولدى وصولهم بادروا إلى الهجوم فوراً ، وبعدهم بقليل وصل أهالي غيرهما من القرى المجاورة ، وتحولت المعركة من الدفاع إلى الهجوم وكان هجوماً صاعقاً رائعاً — كانت مجزرة أبيد فيها هذا الجيش التركي إبادة تكاد تكون كاملة .

وكان سلاح الجيش ينتقل إلى أيدي المقاتلين حتى أصبحوا جميعاً تقريباً مسلحين بسلاح جديد لم يكونوا قد عرفوه من قبل . فهذه بنادق ومعها ذخيرتها ، بنادق سهلة الحشو ، سهلة الاطلاق ، سهلة التصويب ، بعيدة المدى .ستظل معركة « خراب عرمان » مفخرة لعرمان وجاراتها ، ومصدر الهام للمناضلين من كل جيل .

حينما وصلت أنباء المعركة إلى الباب العالي هزت أركانه هزاً عنيفاً ، فصدرت الأوامر بارسال جيش عرمرم بقيادة ممدوح باشا .

وكانت معارك هائلة . وكان احتلال من جديد ، وكان نفي لحوالي أربعمائة من المقاتلين من القرى المختلفة ، وكان والدي أحد هؤلاء المنفيين (المسركلين) ، وهذا هو السبب في ذكر هذه الحوادث في سيرة حياتي الشخصية ، ذلك أن هذا الحادث بالذات سيكون الحادث الذي سيقرر حياتنا كأسرة ، وحياة الآخرين من مواطنينا ، بالتأثير والتأثر المتبادلين. وكان أبرز المنفيين أحد الشيوخ الذين اشتركوا مع الشعب في مقاتلة الغزاة وهو الشيخ ذوقان الأطرش والد سلطان الأطرش ، الذي سيكون له شأن أي شأن ، في مستقبل الثورات الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي .

نقل المنفيون في باخرة من بيروت إلى طرابلس الغرب — وقد

أصيبت الباخرة بعطل في عرض البحر ، فكادت تغرق ولم يقبل الباب العالي باعادة المنفيين بعد هذا الحادث الخطر ، بل أصر على اصلاح الباخرة في أحد الموانىء ومتابعة الرحلة إلى الميناء الليبي الجميل .

وبدأت شخصية والدي تتكون تكوناً نضالياً ناضجاً بفضل هذه الحوادث التاريخية : العامية ، معركة الخراب ، معارك الدفاع أو الهجوم ضد حملة ممدوح ، الأسر ، النفي .

وفي عرض البحر ، بدأت تتكشف لعيني الشاب المقاتل ، المتعلم قليلاً جداً ، حقائق لم تكن لتخطر ببال : هو لم ينس أن الجندي الذي نجا من معركة عرمان الأولى كان عربياً من أبناء البلاد ، وأن هذا الجندي هو الذي ذهب إلى السويداء ليستنجد ، ولم ينس كذلك أن هذا الجندي ذاته قد يكون بين طلائع الجيش التركي الذي أبيد في الخراب ، ولكنه لم يكن يتصور ان بعض الرجال من طبيعتهم الانتهاز والخيانة ، حتى في إبان المحن والكوارث . ولا كان يتصور ان بعض الرجال يتعهرون في أقدس المواقف وبأشرف القضايا . قدر الأتراك أن يتخذوا لهم من بين المنفيين مخبراً يتجسس على رفاقه وبني قومه — وهذا المخبر سيكون وبالاً على الكثيرين منهم طوال سنوات النفي الأربع .

أجل — لقد استمر النفي أربع سنوات — وزع المنفيون خلالها على قطعات الجيش العثماني المختلفة — وكان والدي فارساً في الألاي السابع والثلاثين — ولكن وضع المنفيين بالجيش كان وضعاً غريباً ، فليس لهم حق سائر الجنود ، وهم تحت المراقبة . ولكن يظهر أن توزيعهم على القطعات كان يسهل مراقبتهم ، ويفرقهم بعضهم عن بعض ، حتى لا يتمكنوا من اقامة حياة مشتركة ، ولا يقوموا بأية حركة .

أبرز الحوادث التي رواها لي والدي عن حياة المنفى ، بالأضافة إلى حادث المخبر النذل ، ما يلي :

١ — كان الأتراك يحرصون على اذلال العرب بأي شكل ، ويخلقون بينهم وبين الالبان (الارناؤوط) عداوات وشجارات في كل مناسبة .

٢ — أسرع والدي إلى المطالعة ، فتعلم اللغة التركية وأصبح يتكلمها كأبنائها ، بعد وقت قصير من استقراره في طرابلس ، وهكذا صار يدرك كل ما يدور حوله ، ويطلع على كل مؤامرة تحاك ضده وضد رفاقه .

٣ — رفض أن ينادى باسمه الطائفي ، فكان الأتراك ينادون المنفي من أبناء الجبل بقولهم (درزي فلان . .) وهذه طريقة للتفريق بين عربي وعربي أصبحت تقليدية لدى جميع المستعمرين ، والغزاة ، والامبرياليين ، رفض والدي هذا وأجبرهم على مناداته بقولهم (عرب محمد . .)

٤ — أتاحت له اللغة أن يدخل في نقاش مع الأتراك حول أيهم أفضل : العرب أم الترك ؟ وكان لديه جواب صاعق أفحمهم وهو : « لو كان الترك أفضل لجاء النبي تركياً . أما وقد جاء النبي عربياً فذاك يعني أن العرب أفضل » هذه الطريقة في التفكير ليست عصرية ولا علمية . ولكنها كانت طراز التفكير آنذاك . وكانت بدايات سديمية غامضة لحركة القومية العربية ، داخل الامبراطورية العثمانية .

٥ — دار حديث بينه وبين عربي شيخ من طرابلس حول موقع الجبل ،وقربه أو بعده من البحر ، وأدهشه أن الشيخ كان يتحدث كأنه

زار الجبل . ثم عرف من الشيخ أن هناك علماً اسمه علم الجغرافيا وهذا العلم يعرف الانسان بأي بلد من خلال الكتب والدراسة . ولهذا كان والدي أول من طلب إلى معلم في الجبل أن يأتي لولده بكتاب « جغرافيا» وهكذا كنت أول طفل في الجبل قرأ كتاب الدكتور فانديك في الجغرافيا.

٦ — دخل في معارك واشتباكات مع الضباط دفاعاً عن الكرامة . وكان يراجع المشير القائد الأعلى ، بلا خوف ولا وجل ليشكو اعتداءات الضباط وظلمهم .

٧ — حاول الهرب مرتين باتجاه تونس وكان الاعراب يلقون القبض عليه ويعيدونه إلى طرابلس .

٨ — سمع به ذوقان الأطرش فاستدعاه لزيارته ليتعرف اليه ، وأثنى على سلوكه ، وأطرى أعماله في جمع من رفاقه .

٩ — اتسع افق تفكيره وولدت في نفسه بوادر ثورة على واقع مجتمعه ، لا تقف عند حدود اقتسام الأراضي وتملكها ، بل تتعداها إلى محاولة تغيير الواقع والسعي إلى ما هو أفضل : صار لا يقبل العادات والتقاليد قبولاً أعمى ، بل يناقش صلاحها أو عدم صلاحها . فهو لا يقبل بأن يصنف الناس حسب ميراثهم العائلي أو المالي — بل يريد أن يكون للانسان تصنيف مستمد من نفعه للمجتمع ، من عمله المنتج ، وخدماته المؤداة ، وهذا أدى إلى الاكثار من أعدائه ومنتقديه ، حتى من بين أقاربه — فالثورة على العادات الموروثة تهدد ما يسمونه « المراكز المكتسبة» ، فشيخ كل عائلة يخشى أن ينكر حقه في مركزه ، اذا ظهر في عائلته رجل أفضل منه مواهب وشيخ الضيعة أيضاً ، وشيخ البلاد كذلك، وهذا ينطبق على الحالة الزمنية انطباقه على الحالة الدينية . فالمراكز الدينية كانت

تورث كالمراكز الزمنية ، دونما نظر إلى كفاية الوارث واستحقاقه: فما دام ابن فلان فهو يرث مركزه بلا جدال ولا منازعة .

١٠ — آمن بالعلم وبأنه الطريقة الوحيدة للخروج بالعرب من حالة التخلف إلى حالة الحضارة —وكان همّهُ أن يعلم أولاده . وسنرى كيف كان نجاحنا مصدر فرحه الاكبر ومثار اعتزازه الأول .

١١ — أصبح يكره القوالين غير الفعالين ، أصبح ثائراً على هذه الظاهرة الخطيرة في حياتنا المتخلفة ، وهي أن يقاس الانسان بكثرة كلامه وارتفاع صوته ، مع صرف النظر عن حقيقته ، وعن نوعية عمله وسلوكه . ولطالما عبر أمامي عن كرهه هذا ، واحتقاره هذا النوع من الناس ، وابتعاده ، ما أمكن ، عن مجالسهم ، وضياع الوقت معهم.

١٢ — وكردة فعل على ذلك ، آمن بالعمل وحده ، معتبراً إياه شرف الانسان وجوهره — رافضاً أن يكون للانسان أي مجد أو فخر إلا ما حققه هو نفسه ، بعمله الدائب المخلص ، ونظافة يده وقلبه ولسانه. كارهاً جميع المظاهر والشكليات . ثائراً على الكذب والنفاق والتزلف. متذمراً مما كان يجري في مجتمعنا ، من هدر للوقت ، وتكريس لحياة الفراغ والبطالة .

١٣ — لم يقبل بأن يتزوج كما يتزوج سائر الناس بدفع المهر (الفيد) إلى والد العروس ، وجعله يتصرف فيه وينفقه بلا هدف . بل أجبر والد العروس — جدي ، أن يعتبر هذا المهر حصة من رأسمال يقدم والدي مثله ويقوم بالاتجار به بالاشتراك مع خالي ، الذي كان يومها في مطلع شبابه — وبهذا حقق أهدافاً كثيرة : منها أنه اعتبر الزواج رابطة تجعل من الاسرتين أسرة واحدة — وأنه يحرص على رفع مستوى

الاسرتين معاً بلا تفريق بينهما – وأنه يرى المال وسيلة لا غاية ، والعمل المشترك أمراً سامياً ورابطة مقدسة – وكان عمله هذا في الواقع سبباً في إسعاد الاسرتين .

كان سابقاً زمانه ، وجعلنا سابقين زماننا ، فسبب لنفسه ولنا ، كما سببنا لأنفسنا عذاب المتاعب ، وأحلى أنواع الكفاح : الكفاح الاجتماعي .

١٤ – كان يقول لي دائماً : عش سنة واحدة حصاناً ولا عشر سنوات كديشاً ، وهو بذلك يعبر عن مبدأ خطير : وهو أن الحياة ليست بعدد سنيها – بطولها – بل بمحتواها بمضمونها ، بما يحققه صاحبها خلالها

* * *

الفصل الثالث

طفولة ودراسة واحتلال

حين بلغت الخامسة من عمري قادني والدي إلى المدرسة التي تقدم وصفها ووصف نموذج معلميها . وكنت كلما كبرت أدركت أكثر فأكثر ما كان يدور حولي — فقد لاحظت مثلاً — ان بعض معلمينا لم يكن نشاطه يقتصر على التدريس ، بل كان يستقبل رجالاً ليكتب لهم حجباً ليتوفقوا في حبهم — وكان بين هؤلاء — بخاصة — شاب علقت صورته في ذاكرتي وهو يتلوى ويتأوه ، ويستغيث بالمعلم : انها لا تستجيب له فيريد أن تفعل بواسطة الحجاب ، — وهذا الشخص كنت أراه في مناسبات اجتماعية متنوعة وأنا شاب وكهل ، ولم أره مرة إلا ذكرت حالته المضحكة تلك — ولم أدعه يشعر بذلك ، مازال حيا حتى كتابة هذا الفصل ، ومع ذلك فهو لا يدري أنني أدري . . مسكين . . إلا أن هذا لم يمنعه أن يكون محارباً شجاعاً ، وأن يصاب بكسر إحدى ساقيه في إحدى المعارك المقبلة .

سأروي الحوادث من الآن فصاعداً بترتيب أزمنتها — فمن الآن فصاعداً صرت واعياً وذاكرتي تسجل كل شيء وكانت العادة عندما يحفظ التلميذ كتاباً أن يكتفه المعلم ويسير مع التلاميذ وراء المكتوف في موكب متجهين نحو منزل أهل المكتوف ، وهم يغنون طوال الطريق :

يا مين يفك المكتوف   ويعمل معنا هالمعروف

وعند وصولهم يستقبلهم والد التلميذ عند بوابة الدار ، ويقدم للمعلم اكرامية يدسها في يده ، ويمد يده فيفك ابنه ويقبله .

والمقصود بفك المكتوف هو دفع الاكرامية – ثم يدخل الجميع إلى المنزل حيث يقدم لهم المحلى (وهو الرز المطبوخ بالسكر والقرفة ، أو بالدبس العنبي والقرفة وفوقه طبقة من الجوز في كلتا الحالتين) أو السليقة وهي القمح المسلوق الممزوج بالسكر أو الدبس والمغطى بالجوز أيضاً ، حفلة لطيفة على مافيها من بدائية وبساطة لأنها كانت تحفز كل تلميذ على أن يكون هو المكتوف التالي وتسعد الابوين ايما اسعاد .

كنا في المدرسة ذات يوم واذا بالمعلم يستقبل شيخ القرية وبعض وجهائها ويدور بينهم حديث – ثم ينصرفون فيخبرنا المعلم بأننا سنذهب غداً إلى الخراب لاستقبال جنرال فرنسي قادم من السويداء – لقد تبدل الزمن فجأة فاذا نحن التلاميذ الصغار نقوم بدور غير دور الدراسة . سننتظم صفوفاً ونستقبل فاتحاً ، غازياً ، أجنبياً . لم نكن نعي آنذاك عام ١٩٢٠ ما دار في ميسلون ودمشق . وكيف ندري ونحن على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من دمشق ولا جرائد ولا راديو ولا هاتف ، ولا سيارات حتى ولا طرق ممهدة ؟

ومنذ الصباح الباكر بدأنا نسير باتجاه الخراب – طريق السويداء القديمة التي سلكها الجيش التركي أكثر من مرة ، وسلكها حينما أبيد في الخراب ، هذه الطريق ذاتها يسلكها الآن غاز جديد . وصلنا إلى موقع على مسافة نحو ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من القرية ووقفنا بانتظار الزائر المنتظر . لم يبق رجل في القرية : كلهم خرجوا للاستقبال . لم يكن لديهم من الوعي ما يسمح لهم بالتمييز بين الفاتح والزائر ، بين استقبال المحتل

الجديد أو الفرجة على رجل أجنبي يأتي البلاد لأول مرة . لقد ارتدى كل واحد أجمل ثيابه ، وتزاحموا بالأكتاف ، ولا يتقدم واحد منهم واحداً وضعه العرف الاجتماعي أمامه . الشيخ في الطليعة ، ثم رؤساء العائلات — وترتيب كل منهم معروف مكان ختمه على الورقة معروف (عندما تنظم مضبطة أو عريضة جماعية يختمها وجهاء القرية فكل واحد يختم في الموضع المخصص له والذي كان مخصصاً لأبيه وجده من قبله) وعندما يصطفون في حفل ، أو يدعون إلى التحلق حول الطعام ، فهذا الترتيب محفوظ : بمعنى أنه لا يحق لأحد أن يتقدم قبل أن يمر أصحاب الاختام — هذا كان منتهى المطامح . .

وصل القائد المنتظر على صهوة جواده بلباسه الأصفر (الذي تعلمنا فيما بعد ان اسمه الخاكي أو الكاكي) وقبعته المستديرة ذات الواقية الأمامية ، وعلى كمّيه وحوالي قبعته أربع أو خمس شرايط مذهبة — أشقر اللون مديد القامة . وكان يرافقه رجل مدني عرفنا أنه الترجمان وعدد من الجنود — وعند وصولهم ترجلوا وتسابق الرجال إلى مصافحة القائد — وبدأ مرافقوه يوزعون صورة الجنرال غورو — وأهم ما عرفناه يومها ان الجنرال غورو بطل ، وأنه أكتع ، وان يده المفقودة فقدها في إحدى المعارك مع الالمان . نحن الأطفال كان كل همنا من الاستقبال الفرجة ، وكل مكسبنا الصورة . واستأنف الزائر ومرافقوه السير نحو القرية ، والأهلون وراءهم ، ونحن وراء الجميع ، ولم ندرك بعد هذا شيئاً مما جرى أو يجري — فالشيخ ورؤساء العائلات وحدهم يستقبلون ، ويجاملون ويتزلفون . والمواطن العادي ما يزال بينه وبين الاهتمام المباشر بشؤون بلده وشجونه مسافة طويلة لن يجتازها إلا بنضال وتضحيات . .

ولا يفوتني أن أسجل هنا — فقد لا تتاح لي الفرصة مرة أخرى لأفعل —

إن أزياءنا تلك الأيام كانت أقرب إلى أزياء البداوة المتطورة المترفة: فالرجال بالكوفية والعقال ، والجبة الجوخ المطرزة بالبريم الحرير الذي قد يكون مذهباً أو مفضضاً . فوق القمباز أو الصاية وهي كالقمباز لكن من قماش أخف ، والشروال (السراويل) ، وتحت الكوفية والعقال الشعر الطويل المتدلي حتّى الكتفين مضفوراً (جدايل) أو محلولاً ، والعيون السود الواسعة يزيدها الكحل الأسود (الأثمد) اتساعاً ويعطيها جمالاً وحشياً يصل أحياناً حد اثارة الرعب .

أما نحن الأطفال فترتدي هذه الأزياء ذاتها ، ما عدا العقال فلا نبدأ نلبسه إلا بعد أن نبلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . والكوفية تتراوح بين الشاش الأبيض العادي مغموساً باللون النيلي (الأزرق) أو بلا غمس، والشاش الأسود الذي يولع به بعضهم ، والحرير الأبيض أو السكري المهدب .

ويشذ عن هذا الزي العام زي الرجال المتدينين ، أو الذين لهم صلة بالدين : فهؤلاء حليقو الرؤوس تماماً ويلبسون عمامة بيضاء مكورة فوق طربوش مغربي ، بلا كوفية تحتها اذا كانوا قد بلغوا منزلة رفيعة في التدين ، وفي هذه الحال لابد من لحيةوشاربين تترك على طبيعتها ، ومن العار أن يمسها مقص ، ما عدا منطقة العنق تحت الذقن كان قسم منهم يحلقه بالموس ، وهذه العمليةتدعى (الحَنْجرة) أي حلاقة الشعر النابت بجوار الحنجرة وتطور هذا مع الزمن فصار يمكن أن يكون المعمم من هذا النوع بشاربين بلا لحية . ويأتي بعدهم في المنزلة الذين يلبسون العمامة فوق الكوفية ، أو الكوفية فوق العمامة (والعمامة يلازمها الطربوش المغربي في جميع الأحوال) وهؤلاء بعضهم ملتح وبعضهم بشاربين فقط.

وفي الدرجة الثالثة من المتدينين يأتي الذين يلبسون فوق رؤوسهم الحليقة طاقية بيضاء تعلوها كوفية ، وتعلو الكوفية عصابة تعقد من أمام، شبيهة بالتي نراها في الرسوم على بعض المصريين . ولكن المصريين يلبسونها فوق الطاقية وبدون كوفية — وهؤلاء كانوا بشاربين بلا لحية ، لأن ترك الشاربين كان الزامياً لجميع الرجال ، ومسهما بأي شكل عيب ، والتعريض بهما عيب والقسم بهما أعظم قسم من يحنث به يفقد احترامه بين الناس .

والاسم الشامل الذي يطلق على الذين لهم صلة بالدين « العُقّال » بينما يطلق على البقية وهم الأكثرية اسم « الجهال » — والعقال يستحيل عليهم التدخين والتلفظ بأية لفظة نابية ، بينما الجهال لا شيء يمنعهم من التدخين — اذا شاؤوا — على أن التدخين كان نادراً حتى بين الجهال في أيامنا تلك — والصدق أكبر مزية ينحلى بها « العقال » حتى أنهم لا يقبلون أن يحلفوا ولا يمكن أن تسمع أحدهم يقول « والله » وذلك تكريماً لاسم الجلالة من جهة ، وعلى افتراض أن الصدق عندهم مسلمة لا تحتاج إلى دليل ، من جهة أخرى .

والعمل المتواصل ديدن الجميع : أشرف الاعمال العمل الزراعي ، الأرض الطاهرة الوفية تعطيها حبة فتردها لك عشراً أو عشرات ، وتودعها نواة مغلقة فتردها لك شجرة وارفة الظل يانعة الثمار . إلا أن الاجتهاد والمثابرة كانا متفاوتين : فقد تكونت بعد الحركة العامية طبقة من المالكين المتوسطين أو الصغار أصابت من الثروة حداً جعلها تترك العمل للمرابعين والاجراء — أما هي فتفرغت للراحة واستقبال الضيوف ، والقيام برحلات إلى القرى المختلفة لزيارة الأقارب ، أو أقارب الاقارب .

أو الأصدقاء ، لمجرد قضاء الوقت تارة ولمناسبات الفرح ، أو العزاء، أو حل المشاكل تارات أخرى . وهذا يؤدي إلى تعطيل للعمل في طول البلاد وعرضها ، يرافقه تبديد للثروة في استهتار وعدم شعور بالمسؤولية لا مثيل لهما— ويرافقه حب للظهور قتال ، وتمسك بالقشور فتاك ، وثرثرة وافتتان في أساليب الحديث والحوار لقتل الوقت وكسب الشهرة الفارغة . مما سيجيء وصف بعضه في تضاعيف هذا الكتاب .

لنعد — بعد هذه المعترضات — إلى حيث وصلنا من استقبال أول ممثل للدولة الفرنسية المنتدبة — والذي يتعلق بي أنا من هذا الأمر هو افتتاح المدرسة الرسمية في قريتنا بعد ذلك بسنة أو سنتين — لقد جاءنا أستاذ من قبل الحكومة يرتدي اللباس الأوروبي ويدرسنا العربية والفرنسية بل الاصح يدرسنا كل شيء بالفرنسية . واللغة العربية لغة ثانية تدرس كلغة فقط — أما العلوم كلها فكانت بالفرنسية : التاريخ — الجغرافيا— الحساب — والحديث بالفرنسية كان يتدرج من الالزامية المتساهلة حتى الالزامية المؤيدة بالعقوبة عند المخالفة . وصار هنالك شارة Signal وهي كناية عن قطعة خشبية بحجم حجرة الدومينو ، يعطاها من يقترف مخالفة النطق بلفظة عربية ، ويصبح همه أن يتخلص منها فيعطيها مخالفاً آخر وهكذا .

ولكننا في الواقع كنا متعطشين للعلم ، وجاءتنا الفرصة فأقبلنا عليها نغتنمها ولا نضيع الوقت — وما كنا لندرك أبعاد السياسة ، وما كانت سننا ولا وعينا الاجتماعي المحدود ، ليسمحا لنا بالتمييز بين نظام حكم وآخر ، ولا بين احتلال واستقلال . ولا سيما أننا لم نكن نرى في القرى غير مدير الناحية ، وهو أحد زعماء قريتنا ، وحرسه المؤلف من خمسة

وعشرين خيالاً يرتدون لباساً عربياً موحداً من الكوفية والعقال ، وجبة الجوخ المطرزة ، إلى الجزمة الخيالية الحمراء ذات (الكعب) الحديدي ، والشرابة الكبيرة الملونة المقصبة أيضاً . فهم على جيادهم كأنهم صور بديعة متحركة ، ببنادقهم الالمانية أو العثمانية الجديدة ، واذا ساروا فتسمع لاعقاب جزماتهم صوتاً رتيباً يرافقه هزات الشرابة يميناً وشمالاً وصعوداً وهبوطاً كانت هذه المناظر تثير فضولنا واعجابنا ، وندرك أن وراءها مالاً يدفع ونفوذاً يصنع . ولكننا لم نكن قد بدأنا ندرك أبعاد قضيتنا القومية ؛ فذلك الادراك سيجيء مع الزمن .

كنا في المدرسة أجيالاً متفاوتة : كان هنالك من هم أكبر مني بسنوات ، ومن هم في عمري ، ومن هم أصغر — ونظمت الصفوف في المدرسة ، بعد أن جلبت لها مقاعد خشبية ، وصار الاستاذ يجلس على كرسي وراء طاولة ووراءه اسبورة (اللوح الأسود كما كنا نسميه آنذاك) — وكنت الأول في صفي ، ولولا سني لكنت الأول في الصف الأول ، ولكن ذلك سيجيء في أوانه .

وكان المعلم ذا نفوذ واسع في القرية ، لا يقتصر نفوذه كمدرس ، بل يتدخل في الشؤون العامة والخاصة ، يوجه ، ينبه ، يزور ويزار . وكان آباؤنا يتسابقون إلى دعوته إلى بيوتنا لتناول الطعام . وكان حين يجيء يحمل معه قطعة من الشوكولاته للاطفال في البيت .

وأخذنا ندرك أنهم جعلوا من جبلنا دولة سموها « دولة جبل الدروز المستقلة » وهكذا أصبح « جبل حوران » « جبل الدروز » بقدرة الحكومة المنتدبة والموالين لها من الزعماء — والخمسون ألف من السكان ، دولة ، مرتبطة بالمفوضية العليا الفرنسية في بيروت مثلها مثل بقية الدويلات

السورية . وجرى الاحصاء العام وأعطينا تذاكر نقوس (هوية) باسم الدولة الجديدة . ونصبوا شيخ قرية عرى ، سليم الأطرش حاكما للدولة البدعة وأعطوه لقب « أمير » وقبل ذلك لم يكن في الاسرة الطرشانيةأي أمير ، بل كان كل شيخ قرية منهم يحمل لقب « شيخ » فقط فيقال « الشيخ فلان » أو « فلان الشيخ » بتقديم الاسم أو اللقب لا فرق ، وحمل بعض الشيوخ لقب باشا أو بك أطلقه عليهم الاتراك أو الحكم الفيصلي ، وتدرج الناس في عهد الفرنسيين فأطلقوا لقب « بك » على الشيوخ وعمموا هذا اللقب فأطلقوه على كل زعنفة من زعانف رؤساء العائلات .

بدأت حياتنا في المدرسة تنتظم شيئاً فشيئاً — صارت الحصص معروفة ، والمواد المقررة أيضاً ، وصار يتخلل وقت الدراسة وقت للراحه ، ودخلت في حياتنا دروس الرياضة البدنية ، والالعاب ، وكرة القدم ، فضلاً عن تطوير ألعابنا القديمة ، مثل كرة اليد (الطابة) ، وسباق العدو ، والسبركة (١) ، والكعاب (٢) ولعبة الكلة

(١) السبركة (سين مشددة مكسورة وباء مكسورة وراء مشددة مكسورة) لعبة تقوم على اساس جماعي : فهناك حجر كبير وسط الساحة اسمه حجر السبركة . يحرسه أحد اللاعبين ويهاجمه اللاعبون من جميع نقاط الدائرة المحيطة الواسعة (دائرة الساحة)

— يهاجمه لاعب من هنا ولاعب من هناك ، ويحاول المهاجم وضع قدمه على حجر السبركة وهو يصيح (سبركة) ، فاذا فعل ذلك دون أن يصده حارس السبركة يكون هو الرابح ويتولى بدوره حراسة الحجر — والا فليستمر اللعب حتى ينجح مهاجم آخر وتستمر اللعبة ساعات ويتبدل الحراس واحداً بعد واحد إلى نهاية اللعب (حين يتعب الجميع) — ويكون صد الحارس للمهاجم بأن يمسه بقدمه ولا يجوز استعمال اليدين لا من قبل المهاجم ولا من قبل المدافع .

(٢) العاب الكعاب كثيرة ومعروفة ، تستخدم فيها كعاب الذبائح من الغنم والماعز بعد تنظيفها ، وتقوم على اساس ان يربح اللاعب كعاب خصمه ، أو يخسر هو كعابه ، ولها قواعد محددة يعرفها الناس .

(المَاز) (١)والفشك (٢)،والدوش(٣) وسواها،وكلها تنتج قوة البدن ودقة الحركات والاصابة . وكانت الامتحانات تجري دورياً كل ثلاثة أشهر، ثم في نهاية العام الدراسي ، وتوزع الجوائز على المتفوقين ، والجوائز كانت من الكتب الفرنسية المصورة على الأغلب ،ولكن لباسنا ظل على حاله ، ظل اللباس التقليدي ، كلباس أهلنا ، ما عدا العقال ، وتطورت هيئة الرأس فأصبح الشعر يقص ولا يترك منسدلاً أو مضفوراً كما كان في الماضي ، وبدأنا نعتني بالنظافة والمظهر أكثر فأكثر . وبدأ بعضنا يسير مكشوف الرأس ، وهذه بادرة نظر اليها باستهجان بعض المتزمتين في القرى .

والحدث البارز في حياتنا الدراسية — إلى جانب ذلك كله — كان يوم تقرر اشتراك تلاميذ المدارس في احتفالات عيد الاستقلال . حدد العيد في الخامس من نيسان من كل عام . وكانت الحكومة تلزم الاهالي جميعاً بالذهاب إلى السويداء للاشتراك في الاحتفالات : فتزحف البيارق وتحتها رجال القرية جميعاً حاملين السلاح ، هارجين ، مرتدين أجمل ملابسهم — وكانت تنصب الخيام وبيوت الشعر الواسعة ، بمعدل بيت على الأقل لكل قرية ، فضلاً عن الخيام المزركشة الاخرى — السرادق — التي ينصبها الشيوخ البارزون لاستقبال كبار الرسميين .

(١) كذلك العاب الكلة (الدحل أو الماز) فهي معروفة وتقوم على اساس الربح والخسارة مثل الكعاب .

(٢) الفشك لعبة تقوم على اساس وضع الفشك الفارغ منتصبا واصابته بالكلة أو الدحل أو المار وهو كرة زجاجية ملونة معروفة ومن اصاب الفشكة ربحها ، ويقدر الربح والخسارة بمقدار عدد الفشك الذي يكسبه أو يخسره اللاعب .

(٣) الدوش حجر مستدير منحوت مرفق وسعه وسع الكف تقريباً وتقذف به كرة حجرية من بعيد حتى تدخل الكرة في حفرة صغيرة معينة ، والربح أو الخسارة يتوقفان على النجاح في ذلك أو عدمه .

وكان التزاحم في الكرم على أشده ، فهذا شيخ مشهور بالكرم ينحر كذا من الذبائح يومياً ويسكب السمن حتى يسيل في ساقية ، وذلك يملأ حلة كبرى (خاقين) من الشراب (ماء وسكر وليمون مصبوغ بمادة ملونة) فيشرب المارة من هذا الشراب طوال يومهم ، وتدور المقارنات ، والتفضيلات ، وتنقل الشائعات ، وتولد الخصومات ، ثم المعارك ثم المصالحات — ثم . . . ثم أجنبي خلق هذا كله ليضحك ، ويلهو ، ويطمئن دولته إلى أن شعباً يلهو بهذه التوافه . وله هذه المظاهر من التخلف المزري ، لا يخشى جانبه ، وسيبقى خاضعاً راضياً بنعمةالحكم الأجنبي إلى الأبد فالحكم الأجنبي يضمن له موارد لهذا الترف السافر ، ويحميه من رداتالفعل الممكنة وما دام يشجعه ، ويصفق له ، ويقره على عاداته ، ويفرح بتخلفه ، فهو نعم الصديق ونعم المتفهم لواجبه .

وكان يوم : قيل لنا : « أعدوا لباساً من الخاكي لأنكم ستشتركون في احتفالات العيد هذا العام » . وكان ذلك في عام ١٩٢٤ — وجلب القماش والخياط المناسب وأعد اللباس الشبيه بالسكري ، وشعرنا لأول مرة في حياتنا بالنشاط والاستعداد للحركة — وكان اللباس فضفاضاً بعض الشيء ، فالخياط كان على عجلة من أمره ولم يكن من الخياطين البارعين ، ومع ذلك فقد كان هذا حدثاً بارزاً في حياتنا — وأخذنا نتباهى بلباسنا الجديد الذي ارتديناه للاستعراض ، قبيل سفرنا إلى السويداء ببضعة أيام . وكان السفر إلى السويداء سيراً على الاقدام اذ لم يكن هناك سيارات ولا وسائل نقل أخرى — ولنا اسوة برجال القرية الذين يسيرون تحت بيرقهم على الأقدام أيضاً . والمسافة بين عرمان والسويداء تبلغ نحواً من خمسة وثلاثين كيلومتراً عن طريق الخراب — الكفر — الرحى — السويداء — واذا كان الرجال يقطعونها في يوم واحد فنحن الصغار يحب أن نقطعها في يومين —

والكفر هي منتصف الطريق فيجب أن نبيت فيها — ونزلنا ضيوفاً على شيخ القرية ، الشيخ أسعد مرشد . وقد أعد لنا عشاء كأننا ضيوف كبار ولاسيما ان معلمنا معنا ، وان تلاميذ الصف الأول كانوا كباراً وان لباسنا الخاكي يوحي بالهيبة والوقار . وكان تلاميذ الصف الأول هم العرفاء ، وكل فريق منا يعرف عريفه — وتحضرني هنا ذكرى لا أرى بأساً في إيرادها لأنها تدل على أنني بدأت أخرق العادات والتقاليد غير المعقولة منذ صغري : فحين كنا متحلقين حوالي المنسف نتناول طعام العشاء ، شعرت بالظمأ ونظرت حولي فلم أجد ماء ، وكنت خجولاً فلم أجد من المناسب أن أطلب الماء من أحد المضيفين (المعازيب) كما تقضي العادة ، فقمت لأشرب من الطاسة الموضوعة على حافة خابية الماء . وكان يترتب على قيامي عن الزاد ألا أعود اليه ، حسب العادة ، فقال لي العريف : « كل واشبع ، لماذا قمت ؟ » فقلت له : « إنني قائم لأشرب ، ولم أشبع بعد ، سأعود إلى مكاني هذا أستأنف الأكل » — فدهش الحاضرون جميعاً لأن مثل هذه الجرأة في الزمان والمكان اللذين جرت فيهما تعد ثورة اجتماعية . .

لم أشأ أن أسخّر انساناً ليجلب لي الماء ولكني لم أجبن فأبيت جائعاً من أجل ارضاء عادة سخيفة . .

وحينما وصلنا ، في صباح اليوم التالي ، إلى قرية الرحى على بعد خمسة كيلومترات من السويداء تقريباً ، لم يكن بيرق بلدتنا قد وصل بعد ، فوقع المعلم « الحصيف » في حيرة : هل يتابع السير بنا إلى السويداء فندخل وحدنا بدون البيرق ، أم ننتظر البيرق لندخل معاً ؟ وبدلاً من أن يتخذ قراراً رأى أن يرسل تلميذين يسألان الحاكم الفرنسي رأيه في الحل المناسب . ووقع الاختيار علي وعلى رفيق لي باعتبارنا أقدر الجميع

على التكلم بالفرنسية . وذهبنا سيراً على الاقدام إلى السويداء ، ووصلنا إلى « بيت » عرمان ، فوجدت خالي هناك . وطلبت اليه أن يرشدنا إلى مكان الكابتن كاربيه ، فقال لنا أنه يتناول طعام الغداء على مائدة أحد الشيوخ في خيمة مجاورة . وقادنا إلى تلك الخيمة : ودخلت وكأنني دخلت إلى عالم آخر . فهنا على مائدة مستطيلة ، أمامي عشرات من الضباط والمدنيين والسيدات يتناولون الطعام ويشربون — فتقدمت إلى كاربيه ، وسلمت عليه ، وسألته عما يجب أن يفعل معلمنا (الذكي) وأجابني ، في لطف ، بأنه ليس من الضروري انتظار البيرق ، فليدخل التلاميذ وسيلتقون بالبيرق في السويداء بعد وصوله اليها ، خلال هذا الحوار القصير كانت عيون الموجودين جميعاً مركزة علي ، ودهشوا لهذا « الصغير العرماني» — حسب تعبير كاربيه — الذي يتحدث بلغة فرنسية سليمة — ويظهر أنني كنت صبياً لابأس بشكله ، فاذا بالأيدي تتلقفني ، وتتجاذبني السيدات لتهنئتي مصافحة باليد ، وتقبيلاً على الجبين أو الخد ، واذا أنا أخرج من تلك المقابلة شخصية ذات شأن ، واذا كل البلدة تتحدث عني .

وعدنا إلى الرحى ، ثم عدنا من الرحى إلى السويداء مع المعلم والتلاميذ ، بعد أن أبلغنا الأستاذ نتيجة سفارتنا وهكذا كان من نصيبي ونصيب رفيقي ، الذي ظل صامتاً يتفرج فقط ، أن نسير عشرة كيلو مترات زيادة على المسافة التي سارها الجميع . ولكن مكافأة أخرى كانت تنتظرني .

ففي الأيام التالية برد الجو وأخذ الثلج يتساقط ، وكنت سائراً في الشارع أعدو باتجاه المخيم ، حينما فوجئت بكاربيه يناديني من على الرصيف بقوله « أيها الصغير العرماني » فالتفت اليه وكان قد أخذ يعدو باتجاهي ، وتناولني بين يديه وأدخلني دكاناً على ناصيةالشارع وطلب

إلى صاحب الدكان — وكان اسمه حبيب — أن يقدم لي شراباً يدفئني . فقدم لي شراباً أخضر اللون حين جرعت أول جرعة منه عرفت أنه من النعناع وشعرت بالحرارة تنتشر في كياني كله . وحينما انتهى تساقط الثلج شكرت الحاكم وصاحب الدكان وودعتهما وانصرفت — وكان هذا أول عهدي بالحاكم الذي سيكون المسبب المباشر لثورة ١٩٢٥ .

لعله من المناسب أن أشير هنا إلى أنني حضرت احتفالات العيد مرة أخرى في نيسان ١٩٢٥ ، ولأن الثلج كان يفاجيء المحتفلين أكثر الأعوام فقد قرروا تغيير موعد العيد إلى الصيف أو الخريف ، وستعلن الثورة في تموز ١٩٢٥ ولن نتحدث عن هذا العيد مرة أخرى ، فيكفينا من المساخر مسخرة واحدة . .

ولكن لابد لي هنا من وقفات خارج حياتي المدرسية وقفات في حياتي كانسان — واكتشافاتي لما حولي من حقائق الحياة .

ففي عام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ كان قد توفي شيخ قرية متان مصطفى الأطرش ، وكان الرجل مشهوراً بجرأته ومعاركه التي خاضها ، واشترك في مأتمه الألوف المؤلفة جاؤوا من كل حدب وصوب : من لبنان — من دمشق — والغوطة — من اقليم البلان — وجبل الشيخ — والجولان — من كل قرى الجبل — واشترك الرجال والنساء ، وذهبت والدتي مع الذاهبات وكنت معها ، وكانت جدتي لأمي أيضاً ، ولا أدري من كان من أفراد العائلة : ففي هذه المناسبات تفرغ البيوت وتتوقف الأعمال ويتجلى التخلف في أبشع مظاهره .

كأن الحياة تتجمع في حادثة وفاة ، وكأن الذي لا يحضر المأتم ليس جديراً بالحياة . ونزلنا ضيوفاً على إحدى عمات والدتي المتزوجة

في متان من رجل من عائلة قطرب ، وكان وصولنا مساءً فالمسافة بين القريتين اثنا عشر كيلومتراً ، وفي صباح اليوم التالي شهدنا الحشد الهائل: وفود لا حصر لها تأتي وتقدم التعزية بالصوت الجهوري وألف عبارة من الالسنة تدل على البراعة في الكلام أكثر مما تدل على صدق العاطفة ، وتحضر الجماهير من لبنان وهي تردد ندبها وتنظم هذا الندب المليء مبالغة وبلاغة . « وأبو علي » كنية المتوفي ، تتردد على جميع الالسنة ومن جملة المشاهد التي لفتت نظري خروج فرس المرحوم في مأتمه ، الفرس مزينة وعلى مقدمة سرجها صورة للمرحوم ، يؤطرها سيفان متصالبان ، يمسك بكل واحد منهما رجل ، يسير بمحاذاة الفرس من أحد جانبيها ، ويقابله زميله من الجهة الأخرى ، والفرس تسير وهي تحرك رأسها ، وقد رشوا الفلفل في عينيها لتسيل دموعها وتظهر وهي تبكي فارسها — الانسان ذو العواطف الزائفة يزيف عواطف الحيوان كذلك . — ..

ومشهد آخر لفت نظري أيضاً وهو وصول سيارات وكانوا يسمونها بالاسم الفرنسي أوتوموبيلات ،وكانت من نوع الفورد ذي الخيمة. ولكن مشاهدتها لأول مرة كانت حدثاً بالغ الاهمية .

كانت السيارات تحمل الرجال الرسميين الفرنسيين القادمين من السويداء . وانتهى المأتم ، وعدنا أدراجنا بعد أن ازعجنا بيت عمة والدتي ، وأهملنا بيتنا ، وتكون لدي اشمئزاز من المآتم ، ومن هذه العادة السخيفة ، وهي اهمال الأحياء من أجل الاموات ، ورافقني هذا الاشمئزاز طوال عمري : وتصورت وراء هذا الحادث عادات مستحكمة متحكمة طاغية ، لا يناقشها أحد ولا يفكر في نفعها أو مضرتها أحد . خلقها الاقطاع ، وفرضها على المواطنين ، وقد تخلصوا من الاقطاع ،

ولم يتخلصوا من هذه العادات وهي من صنعه ومن مبررات وجوده ، ومن أسس نظامه. كنت أشاهد الاطفال والرضع على أكتاف أمهاتهم والذباب على وجوههم وداخل محاجر عيونهم الدامعة العمشاء المصبوغة بالأحمر الزاهي ، وهو لون قطرة شعبيةيسمونها الدودة . والأم لا تهتم بالطفل بل تكتفي بأن تضع بين يديه قطعة من الأنابيب الملونة (وهي من السكر المسكوب بشكل مستطيل كالأصابع) تذوب وتسيل ملء كفيه، وفوق رأس والدته — وهو على كتفها — والذباب يجد لنفسه مرتعاً خصباً من السكر الذائب الوسخ ، وفي الوجه والعيون الملطخة بالسكر وبالوسخ أيضاً — كل هذا من أجل أن تشترك الأم المحترمة في مأتم لا علاقة لها به من قريب أو بعيد . وستظل المآتم سبباً رئيسياً من أسباب التخلف في بلدي زمناً طويلاً طويلاً . .

* * *

الفصل الرابع

في مواجهة الكوارث

في تلك الفترة الممتدة من ١٩٢٣ — ١٩٢٥ وفد وباء الجدري . ووباء الجدري كارثة مخيفة ، كنت أرى آثارها في الوجوه الكثيرة المنقوشة من الأجيال السابقة ،فمن ينجو من الموت لا ينجو من التشويه. ولا أدري كيف تيسر تطعيم تلاميذ المدارس ، تلقيحهم ضد الجدري ، ولا أدري لماذا لم تقم الحكومة بتلقيح الجميع ما دامت تملك اللقاح — هذه المشكلة لا أعرف كيف حدثت كـــل ما أعيه منها هو أن أربعة من إخوتي : اخوين واختين أصيبوا بالجدري وأنا حصلت على اللقاح لأنني تلميذ ، وكنت لهذا السبب أقوم بخدمة إخوتي المصابين المعزولين في الغرفة الشمالية الشرقية من بيتنا ، فأقدم لهم الطعام أو بعض الخضر — ولا طبيب هناك ولا من يطببون — وكانت لي أخت هي التي ولدت بعدي مباشرة . كنت أحبها كثيراً ، فهي شريكة ألعابي ، وهي صديقتي ، وهي خصمي عند اللزوم . وكانت آية في الجمال والذكاء.

وكان لابد من ضحية تخرج من دارنا — فكانت هي الضحية ، توفيت وكانت أول صدمة عاطفية حزينة عميقة في حياتي . لقد بكيتها وكان بكائي إياها عن بكاء العمر كله — اذ انني نادراً ما بكيت بعد ذلك.

ونجا إخوتي الثلاثة الآخرون : الاخت بتشويه ذهب بجمالها ورونقها والاخوان بلا أي أثر للجدري تقريباً — وعدم اصابتي لأنني طعمت ضد

الجدري على الرغم من احتكاكي باخوتي المصابين . جعل أهلي وغيرهم يؤمنون باللقاح الوقائي ضد الجدري . وبدأ شعاع من العلم يتسلل إلى العقول التي كانت تنسب كل شيء إلى القضاء والقدر . .

قضية ثالثة كانت تزعجني في قريتنا – في بلادنا عموماً – هي كثرة الولادات ، فكل سنتين تقريباً كان يولد لي أخ أو أخت . وكانت والدتي المرهقة بأعمالها المنزلية ترهق أكثر فأكثر بالارضاع وزيادة المسؤولية ، وكانت المرأة التي تلد تقضي أربعين يوماً نفساء ، لا تقوم خلالهابأي عمل تقريباً – والتي تعمل خلال ذلك للطفل الوليد وللبيت هي الداية المرهقة التي تقوم بالتوليد وبكل الأعمال الأخرى – وكان كل طفل ولد على يدي داية يدعوها « ستي » بعدما يكبر . ومصيبة المصائب هي أن طعام النفساء خلال الأيام الأربعين مكون من الثوم وحده . أكداس من الثوم تقشر وتطبخ مع البيض واللحم المقدد ، أو اللحم الطازج ، وتتناولها النفساء ، ويتناولها معهاكل أفراد العائلة ، لعدم وجود من يطبخ لهم طبخاً خاصاً بهم . ورائحة الثوم تملأ البيت وتملأ فضاء القرية ، وهم ينسبون اليه فضائل لا تحصى ، وانه هو الذي يقي النفساء جميع الأمراض ، لفقدان الطب والاطباء . وإلى جانب الثوم المزعج ، كان هناك شراب حار لذيذ يدوم أربعين يوماً أيضاً : هو المغلي ، أو شراب خليط منالبهارات : الزنجبيل مع القرفة مع الخولنجان ، مع اليانسون – وكانت هذه البهارات تدق وتغلي في إبريق كبير من الفخار وتقدم للنفساء وللزائرين في طاسة يرش فوقها الجوز الأبيض الممتاز طبقة كثيفة ، ويؤكل الجوز ويشرب المغلي بالملعقة : لونه عنبري مشوب بالبنفسجي ورائحته عطرة وطعمه لذيذ – فكانت لذة المغلي تنسيني ازعاج الثوم– وكان الزوار الذين يأتون للتهنئة بالمولود ويشربون المغلي (ينقطون)

المولود بوضع بعض النقود في طاسة المغلي بعد أن تفرغ — وكثيرون منهم لم يكونوا يفعلون ذلك ، أما لكونهم أقارب ، واما لأنهم لم يسبق ان نقطوا من قبل أهل الطفل .

وكنت ألاحظ أن والدي — بحكم عمله بالتجارة — يغدق على بيتنا بحبوحة نحسد عليها : فالبهارات يجلبها من دمشق بكمية كبيرة — والجوز بالصناديق — والبرتقال والتفاح بالصناديق ، والكعك الشامي والحلويات الشامية الأخرى كذلك .

كان بيتنا بعيداً عن القرية واقعاً إلى الشمال منها . فوق هضبة صخرية ، تحيط به الكروم وثلاث برك احداها أمام بيتنا تماماً اسمها بركة « أم خرج » لكونها مؤلفة من قسمين كأنهما عينا الخرج ، وبركة « منيفة» وهي عميقة مستديرة وتستعمل مياهها للشرب ، وهي شمال غرب بيتنا .و « بركة الغنم » وهي غربي بركة منيفة تفصل بينهما طريق عالية . وعلى جدار بركة الغنم الغربي اشترى والدي كرماً ، وعلى جدارها الجنوبي يقع بيدرنا — ثم أجرى عملية تبادل مع أحد شيوخ القرية فأعطاه كرماً لنا يقع شرقي البلدة وهو أقرب إلى داره وأخذ منه كرماً يجاور كرمنا.

وكان جمع الكرمين على هذا النحو واسمهما معا « كرم الفضيلي » ، نسبة إلى أمير عربي كانت آثار قصره تظهر قريبة من هناك ، كان ذلك أهم عمل يقوم به والدي في ترسيخ حياتنا الاقتصادية إلىجانب اهتمامه الكبير بتربية المواشي : الغنم والماعز . وهذه المواشي ، كانت توضع لدى رعاة من البدو مقابل حصة من النتاج كما تقدم باستثناء عدد من الماعز ، كان يبقى حوالي القرية ، ويؤخذ منه الحليب واللبن والسمن اللازمة للعائلة — إلى جانب البقرات التي كانت تعيش في البيت عيشة الدلال والترف .

وكانت العادة في القرية ، لتجميع الحليب والاكثار من السمن ، أن تجري عملية مقارضة بين النساء ، فتأخذ ربة البيت حليب المتقارضات معها اسبوعاً أو اسبوعين ، وتعطيهن حليبها مثل هذه المدة ، ويخططن بالكلس الأبيض على الحائط كميات الحليب العائدة إلى كل من المتقارضات — لأن ذلك كان قبل عهد الكتابة لدى النساء .

وكنا ننعم بأنواع من اللبن لذيذة نظيفة تغري بالاكثار منها : فالى جانب اللبن الخاثر (الرائب) كان هنالك لبن الظرف (وهو الذي يحفظ في جلد نعجة نظيف يفرز الماء والمصل من مسامه ويغسل بالماء ويكون معلقاً ليسهل غسله باستمرار ويكون لبنه بين الرخاوة والشدة أقرب ما يكون إلى ما يدعونه « اللبنة » في لبنان ودمشق) — وكان هنالك اللبن (القنبريس) حسب لفظنا ، ولعله الانبريس أو الانبريس حسب لفظ المدن — وكان يصنع من الحليب الموضوع في جرة كبيرة يضاف اليه الملح ، ويفرز ماؤه من ثقب في مقدمة الجرة السفلى ، مسدودة بعود صغير ، ويفتح هذا الثقب بصورة دورية فينزل منه الماء المتجمع في أسفل الجرة ، ويتحول الحليب إلى لبن لم أذق بعد تلك الأيام ، أطيب منه . وتغسل الجرة باستمرار من الخارج ويرفع ما يعلو وجهها من قشرة تتكون من تفاعل الملح بالحليب — ويكون فم الجرة مغطى بقطعة من الشاش الأبيض ، تغسل بإستمرار ، وتعاد إلى مكانها ربطاً حوالي عنق الجرة . ولبن الكيس وهو اللبن الخاثر يوضع في كيس ليتحول إلى « لبنة».

كل هذه الأنواع من اللبن يكون زبدها فيها — وهنالك اللبن القطيع هو جامد اللبن المسحوب زبده — المخيض أو الشنينة — وهذا النوع من اللبن كان يحفظ في جرة ويغطى بالزيت ، كما هو أحياناً ، ومقطعاً

إلى كرات صغيرة ــ زناكل ــ أكثر الأحيان . ومنه يصنع الكثأ ــ الاقط ــ وهو اللبن المجفف تحت الشمس .

أما الكشك فيصنع أما من اللبن الرائب واما من الحليب والملح يمزج به البرغل ويغطى ويبقى عدة أيام حتى يتخمر ، ثم يعرض للشمس حتى ييبس ويطحن ويصبح جاهزاً للطبخ .

بعد ما تملك والدي الكرم الموحد الكبير ــ الفضيلي ــ أخذ اهتمامه يتحول من التجارة إلى الزراعة ــ وصار شغلنا الشاغل تعزيل الكرم من الحجارة ، وبناء جدار من حجر البازلت يحيط به من جميع الجهات لحمايته من الحيوانات ومن السارقين .

وكان الخطر الذي يتهدد نشوء الكروم والبساتين عندنا هو البدو ــ فالبدوي يكره أن تسيج الأرض وأن تتحول من مراع إلى كروم وبساتين ــ فالمرعى في متناوله ولمصلحته ، أما الكرم والبستان فليس له فيهما نصيب ــ وهو يميل إلى التخريب ، وحتى بعدما يصير الكرم كرماً ، يعدو عليه ويسرق من نتاجه ، ويحاول أن يزعج صاحبه ، طمعاً في أن يجعله يتخلى عنه ، ليعود مرعى عدة مرات . صراع بين الحضارة والبداوة يظهر أن أمتنا مرت به مرات عديدة في تاريخها الطويل .

كنا نذهب جميعاً إلى الكرم ومعنا طعامنا وشرابنا ــ ننقل الحجارة ونناولها والدي وهو يبنيها صفاً صفاً ، وهكذا شهوراً وشهوراً متتالية حتى يقوم جدار كامل يستغرب الانسان أن يكون قد بناه رجل واحد بمعونة أهل بيته . وكان القسم الأول من الكرم مغروساً عنباً مثمراً ، أما القسم الثاني فقد غرس والدي قسماً منه وأبقى القسم الآخر سليخاً لزراعة

الحبوب والخضار والبقول . ولما صار القسم الثاني مثمراً عاد فجدد القسم الأول مستبدلاً باغراسه أغراساً جديدة .

وبعد بناء الجدار والغرس تحول إلى ازالة الصخور من الأرض — فقد كانت صخور كثيرة منغرسة في أنحاء مختلفة من الكرم ، وكان يقتلعها بالمخل (العتلة) وكثيراً ما يجزئها ، يكسرها ليسهل عليه اقتلاعها ، وذلك حفراً بآلات البناء المعروفة ، ثم يدق فيها الاسافين حتى تنفلق وكان لديه من آلات البناء : المهدة — والشاقوف — والبيك — والترابيك وكان يلفظ الترتبيك — والبيك مدبب بسيط أما الترابيك فمدبب مضلع (له أربعة أضلاع كما يدل عليه اسمه بالفرنسية) . وكانت هذه الآلات قد تركها لوالدي البناؤون الشويريون (من الشوير في لبنان) الذين بنوا لنا القسم الجديث في بيتنا وهو كناية عن غرفتين بينهما ايوان مفتوح ، مع مطبخ ودرج سماوي يصعد إلى السطح ، وأصبح سطح القسم القديم متصلاً بسطح القسم الحديث ، فصار المنزل من المنازل شبه الكاملة في قريتنا .

ولكي أكمل تقريباً رسم وضعنا ، ونحن على أبواب الثورة ، لابد من ذكر بعض الحوادث البارزة في هذا المجتمع المتحرك. كان اسم اللجاه ، ومعركة اللجاه ، وحرب اللجاه ، يدور على الالسنة — وأعرف ان حملة شنت على اللجاه من قبل أهل الجبل لأن عرب اللجاه قتلوا بعض أهل الجبل ، وسمعت عن معركة (محجة) ولكنني في الواقع لا أستطيع أن أميز بين ما عرفته بالتذكر وما عرفته من خلال السماع والمطالعة بعد ذلك — ولهذا لا أقف كثيراً عند معركة اللجاه أو محجة . وآسف أن تكون معارك العرب الداخلية من جملة أسباب ضعفهم ومعوقات وحدتهم .

إنما أذكر حادثة أخرى — داخلية — هي معركة صلخد . فقد اقتتل أهالي صلخد فيما بينهم : آل الشوفي (الشوافنة) وأنصارهم من جهة ، وآل الشومري والجرمقاني وأنصارهم من جهة أخرى . وقد ترتب على ذلك جلاء أو إجلاء آل الشوفي عن صلخد ، التي فقدت ما يقرب من سبعين قتيلاً . وقد رأيت عدداً من شبان آل الشوفي في بيتنا يقيمون مدة ، ويسهر عندنا أقاربنا وأصدقاؤنا احتفاء بهم ، وينتقلون من بيتنا إلى بيوت أقاربنا أو أصدقائنا — وحينما يحدثون والدي يقولون « يا خالي » وهو كذلك — ثم بحثت عن ذلك فعرفت آن والدتهم من آل الصغير ، من عرمان ، وباعتبار آل الصغير وآل المتني في عرمان هم من عائلتنا وقد تبدل اسمهم خلال رحيلهم من لبنان إلى حوران ، نسبة إل جد صغير لفت النظر بصغره المفرط بينما أهله مشهورون بالاجسام الطويلة العامرة ، ونسبة إلى المتن اللذي نحن منه ، فأصبح كل واحد من آل الشوفي كأنه ابن أخت كل واحد من آل أبو الحسن — أو الصغير — أو المتني — وعادات وارتباطات عشائرية طالما قرأنا عنها في كتبنا . . وعرفت عدداً من فرسان قريتنا المشهورين لمناسبة هذه السهرات .

وكنت أرى في بيوتنا ضيوفاً من آل أبو راس ، من الرحى ، وأسأل عن سبب قدومهم فأعلم أنهم يسعون إلى الصلح بين عائلتنا وآل نصر في نجران — لماذا ؟

لأن أحد أفراد عائلتنا — سعيد الصغير (١) في السويداء قتله رجل من آل صلاح الدين — وهؤلاء يمتون بالقربى إلى آل نصر ، وتقاليد الأخذ بالثأر كانت تقضي بأن يذهب رجال العائلة المسلحون فيداوروا (يرصدوا

(١) المرحوم هو والد الأستاذ سعيد الصغير الأديب المؤرخ المعروف وقد سمي باسم والده لولادته بعد مقتله .

حسب التعبير الحديث) بيوت آل نصر في نجران ، ويضعوا علامات داخل بيوتهم ، ترمز إلى مقدرة المداورين على قتلهم لو شاؤوا ، فكانوا يضعون الفشك في اجران القهوة (المهابيج) أو تحت رأس الرجال النائمين ، أو يطلقون بضعة عبارات نارية باتجاه بيوت معلومة ، ويعودون على خيولهم ليلاً إلى عرمان — أكثر من مائة كيلو متر ذهاباً وياباً كانوا يقطعونها كل مرة . والعائلة الموتورة التي لا تداور الواترين تفقد اعتبارها بين العائلات . وكان آل أبو راس مشهورين بمزايا القضاة العشائريين ، مشهورين بحل المشاكل ، ولذلك كانوا يزوروننا وظلوا كذلك حتى حلت المشكلة وعقدت الراية ، راية الصلح .

في تلك الأيام أيضاً كان والدي قد صفى شركته التجارية مع خالي وانصرف أكثر فأكثر إلى العمل الزراعي — كما أسلفت — وفي أحد الايام فوجئنا بزيارة رجل من قرية مجاورة عليه هيبة ووقار — ولا أذكر اسمه بسبب ما سيأتي من حوادث . جاء هذا الرجل وعرض على والدي أن يشاركه في تجارة وقال لوالدي : « ان استقامتك المشهورة تغني عن كل اعلان — ولذلك أرى أن تضع ما سأرسله اليك من بضاعة في إحدى غرف بيتك وسترى أنك تبيع وأنت في المنزل ، تبيع بالجملة لتجار المفرق وتبيع بالمفرق عند اللزوم» . واقتنع والدي وقبل بالشركة أو وقع في الفخ — كما سنرى — وما لبث أن جاءت قافلة جمال محملة بضائع كدسها والدي في غرفة بيتنا الشمالية الشرقية التي كانت تمتاز بأن لها باباً إلى الخارج وبابا إلى الداخل بطريق الايوان — وأخذ يمارس عمله التجاري إلى جانب عمله الزراعي — وقد أغراني مرة ما فيها من التين المجفف فأخذت منه بضع تينات وأكلتها من دون استئذان والدي وانقضى عمري كله وأنا متحرج من هذا العمل ولم أغفره لنفسي — مع أنني متأكد من أنني

لو سألت والدي أن يعطيني تيناً لأعطاني الكيس كله وحاسب شريكه به — فضلاً عن أن التين الطازج كان يحيط بدارنا ويملأ كرمنا . ولعل هذا من العلامات البارزة في نوعية أخلاقي — ألم يقل لي والدي : « الصدق أولاً والصدق آخراً ، والامانة من الصدق » .

ليس من أجل هذا أذكر هذه الشركة — بل من أجل شيء آخر : فقد كان والدي يستوفي ثمن البضاعة — كما كانت العادة الغالبة آنذاك— أشياء عينية : كالسمن والحبوب والصوف — وكان يرسل ما يتجمع لديه إلى شريكه ويسجل ما يرسله في دفتر ذاكراً التاريخ وعدد العبوات واسم الناقل صاحب الجمال ومقدار الاجرة المدفوعة له . وفي أحد الأيام قدم الشريك المحترم ليطالب والدي بثمن البضاعة : فاستغرب والدي وفتح الدفتر وأخذ يقرأ للشريك الكميات المرسلة وما يقابلها من ثمن بتاريخ الارسال .

وصعق والدي لأنه تكشف له أن هذا الشخص المتزيي بزي رجال الدين ليس سوى محتال كبير — وأدرك سر عرضه الشراكة عليه وتساهله المبدئي . ورفضه أن يأخذ أي توقيع مقابل بضاعته مكتفياً بتلاوة الفاتحة . وكان لابد من مقاضاته . فرفع الدعوى عليه ، أو رفعها هو على والدي — لا أذكر ذلك — لدى المحكمة البدائية بالسويداء —وكان رئيس المحكمة السيد علي عبيد الشاعر الثائر المعروف ووالد الصديق الشاعر الأديب الأستاذ سلامة عبيد — وبعد عدد من الجلسات وسماع الشهود من الذين قاموا بنقل العينيات وتسليمها إلى الشريك ، أصدر رئيس المحكمة قراراً لصالح والدي . وكان قراراً مشهوراً تحدث عنه الناس طويلاً لطرافة الدعوى وندرتها في بلاد اشتهر أهلها بالصدق والاستقامة . وظلت صورة رئيس المحكمة العادل الذي وصفه لي والدي

تداعب خيالي حتى سعدت بمعرفته بعد ذلك بنحو عشرين عاماً ورويت الحادثة للاستاذ سلامة عبيد بعد ذلك بسنين كثيرة . . أما الشريك فسيجيء يوم أرد له فيه (الجميل) وأنقذ من براثنه صديقاً كان قد أوشك أن يقع بينها . . .

تلك الأيام ، ١٩٢٤ و ١٩٢٥ كنا نسمع همساً بما يقوم به الحاكم كربيه من مقاطعة الزعماء وعزلهم عن الشعب ومن سجنه للذين لا يتقيدون بالمقاطعة ، وتسخيرهم للعمل في رصف الشوارع والطرقات ، وتكسير الحصى الذي يفرش فوق الحجارة المرصوفة ، وفرض الغرامات الباهظة ، واتيان الأعمال المنفرة المختلفة . وحضرت كولد طلعة ، اجتماعاً كان يتحدث فيه رجل يرتدي اللباس المدني ويسمونه « الرحالة » ، ولم أدر أن هذا الرجل هو الذي سأقرأ كتبه كبيراً — حنا أبي راشد .

وكنا خلال العطلة الصيفية نساعد أهلنا في أعمال الحصاد ونطارة الكروم نهاراً ، وأنا مع والدي في الكرم ليلاً وقد تولدت بيني وبين الكرم رابطة روحية عميقة فكنت ألجأ اليه ،وأناجيه وأتعرف إلى دواليه واحدة واحدة ، حتى صار في مستطاعي أن أعرف نوع العنب من ورق الدوالي : فهذا أحمر وهذا أسود وهذا سلطي أو عجلوني ، وهذا عاصمي وهذا بلدي وهذا دربلي ، وهذا شموطي ، وهذا قاصوفي وهذا حلواني وهذا خلدري (خضري) أو ممسك الخ . .

ومن الحوادث المؤثرة في حياتي . ما لقيته من عطف بنت صغيرة من عمري أو تصغرني قليلاً — فكانت تهتم بي تتسقط أخباري من أخيها أو من غيره ممن يرافقوني إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخر .

كنا طفلين في تفكيرنا وتصرفاتنا ، نحلم بالمستقبل البعيد ، نحلم

بأن نصبح شخصيتين بارزتين في القرية ، وليس أمامنا يومذاك أفق أوسع من أفق القرية — لقد علمتني تلك الفتاة معنى الطهر والبراءة ، علمتني كيف يستمد الانسان القوة والطموح والمثابرة والاصرار على النجاح ، من رابطة روحية ، تقوم بينه وبين انسان آخر ، يتفاهمان ، يتحابان واذا كل شيء بينهما مشترك ، واضح نقي ، يحفز إلى تخطي العقبات ، وتسلق الذرى ، نحو الهدف الأسمى ، نحو الكمال المطلق ، والجمال المطلق . بنت الجيران هذه ما انفككت أذكرها بالخير وسأظل حتى أخرج من هذه الدنيا ولاسيما أن ظروف وفاتها وافتراقنا سيأتي ذكرها في هذه الذكريات في وقت حدوثها .

وكانت هناك مناسبات نلعب فيها تمثيلية العريس والعروس — تلتقي مجموعة من الصبيان وينظمون مسرحية عريس وعروس — يقع الاختيار على العروس أولا ، وتكون عادة أجمل الموجودات . والعروس تختار عريسها — وتمثل حفلة عرس كاملة ، غناء وضرب دفوف ، وانتقال من نقطة نسميها بيت والد العروس ، إلى نقطة أخرى نسميها بيت والد العريس . وتزف العروس إلى العريس . فيأخذ بيدها ، ويجلسها إلى جانبه بعض الوقت ، ويتحلق الآخرون في دبكات وأهازيج جميلة ، ثم ينصرف الجميع وينتهي دور العروسين . بهذه الجلسة المشتركة ، في جو مرح وكان ذلك يترك بعض الأثر في النفوس الحساسة ، فأنا كنت أشعر نحو من تنتقيني عريساً لها — وما أكثر ما كان يحدث ذلك — بشيء من الخجل ، فيصبغ وجهي بالأحمر ، ووجهها كذلك كلما جمعتنا إحدى المصادفات . وكان ذلك يثير شيئاً غير قليل من الحسد والغيرة في نفوس بعض الرفاق ، من لا يقع عليهم الاختيار . فتحدث بيننا مشاحنات ، ومشاجرات ، وتهديد ، ووعيد ، ومقاطعة كثيراً من الاحيان .

وكنت أسهر بين الرجال عندما يكون لدينا ضيوف : فوجود الضيف يستتبع دعوة عدد من الرجال ، من الاقارب والجيران والأصدقاء ، وبعد تناول العشاء يمتد السمر حتى ساعة متأخرة من الليل . وتدور الاحاديث حول المشاكل اليومية : الموسم ، المطر ، التعدي على المزروعات ، حالة الكروم . ظهور أنواع جديدة جيدة من العنب أو البطيخ أو غير ذلك ، وقد يتخلل ذلك رباب وشعر شعبي عن الحرب والحب ، والأخلاق ، أو قراءة قصص عنترة ، وبني هلال ، والملك سيف بن ذي يزن ، والسندباد (من ألف ليلة وليلة) .

وتدور الأحاديث عن معارك الجبل ضد البدو في سبيل الاستقرار والأمن ورد الغزوات ، وقطع دابر السلب والنهب ، ولاسيما الاعتداء على الكروم والمزروعات ، وسلب المواشي بطريقة الغزو المعروفة. وعن معارك الجبل ضد الاحتلال العثماني ، ووصف البطولات الخارقة الفردية والجماعية . وكلما بدأ متحدث حديثه ـ عن إحدى المعارك جاء بالضرورة على ذكر المفزع الذي يجيء بأعلى صوته طالباً النجدة . وكيف كان يخاطب القوم بالسؤال التالي : « وين راحوا النشامة ؟ » ـ « أين راحوا الشجعان » ـ « النشامة وين راحوا ؟ » ـ « مرخصين الروح مهببين الريح وين راحوا » ـ « أين راحوا الذين يرخصون أرواحهم ويجعلون الريح تهب في الاتجاه المناسب » ـ والناس يجيبونه : لعينيك يا صايح النشامة جوك يا صايح . (جاؤوك) (١)

ولابد أن يجيئوا بخاصة على ذكر النار الموقدة فوق القمم : نار الحرب ، وهذه النار يقصد بايقادها ايصال الانباء الخطيرة بأسرع وسيلة

(١) وصفت هذه الأمور في كتابي « بنو معروف بين السيف والقلم »

ممكنة ، في عصر ما قبل اللاسلكي والهاتف ووسائل الاتصال العصرية المتطورة الأخرى .

ففي أقل من ساعة توقد النيران على قمم : جبل الشوف ، جبل الشيخ ، تل القليب (في جبل حوران) فاذا كل البلاد التي يقيم فيها بنو معروف قد أخطرت بالحادث الداهم ، واتخذت استعداداتها في عفوية تكونت وسط التجارب والمحن .

وهكذا كانت النيران على القمم ، الهم المقيم لكل مواطن في هذه الديار ، يرقب رؤيتها باستمرار ، ويستجيب لما ترمز اليه بلا تردد ، ويتحمل مسؤوليته بلا تذمر . انه الواجب ، الواجب الوطني القومي ، واجب الرجولة تجاه ذاتها وتجاه الحياة التي لا تصبح مستحقة إلاّ بهذا التحفز الدائم وهذه الهمة المستنفرة أبداً .

من خلال تلك الأحاديث التي كنت أصغي إليها واستوعبها صرت أعرف كل شيء عن قريتي وتاريخها المشرف ، وعن عائلاتها ورجالاتها : عرفت تفاصيل معركة الخراب المشهورة ومعارك ممدوح التي سبق ذكرها ، وعرفت تفاصيل معارك أقرب عهداً منها وهي معارك عام ١٩١٠ المعروفة بحرب سامي باشا (سامي باشا الفاروقي قائد الجيش التركي في تلك الحرب) . عرفت مثلاً أن بيرق عرمان (ويكنى بالبيرق عن مجموع المحاربين من القرية الذين يسيرون تحت راية حربية واحدة اسمهاالبيرق) هو الذي دهم جيش سامي باشا الفاروقي الذي كان معسكراً في قرية الكفر يستعد لغزو عرمان،دهمه بهجوم مفاجيء ساعة العشاء ، فأفسد على الجيش عشاءه ، وأوقع في صفوفه خسائر فادحة فضلاً عن الرعب والذعر اللذين استوليا على الجنود . وكيف انتقم الجيش عندما استولى

على عرمان فيما بعد فاستدعى ثلاثة من آل صيموعة (وهي العائلة التي يتوارث أبناؤها حمل البيرق في عرمان جيلاً بعد جيل) وأعدمهم رمياً بالرصاص ونكل بالأهلين تنكيلاً طورانياً جديراً بآل (ارطغرل) .
وعرفت أن أهلنا استبدلوا بسلاحهم القديم الذي كان يُحشى من فوهته ، والذي استعملوه طوال القرن التاسع عشر ، سلاحاً جديداً له فشكة جاهزة تلقم أمام المغلاق وتطلق في سهولة ويسر واسم السلاح الجديد المرتيني أو الباليكي أو بارودة أم زر — وقد شاهدت هذه الأنواع الثلاثة خلال طفولتي في أيدي رجالنا حتى بعدما حلت البنادق الالمانية (الماوزر)، والعثمانية (العصملية المعدل) محلها ، خلال الحرب العالمية الأولى .

ومن الأشياء الطريفة التي سأعرفها فيما بعد أن مصطفى كمال ، اشترك في معارك سامي باشا في الجبل وكان برتبة نقيب ، وهزم في إحدى هذه المعارك . وهذا يدل على اتساع تفاعل الأحداث الثورية وتداعيها وتأثيرها في كيان الدولة المحتلة ، حتى اضطرها إلى استخدام كل قواتها للتغلب عليها .

عرفت المزيد من التفاصيل عن طريقة والدي في معالجة الأمور وحسمها . عرفت أنه كان قد تبنى مواقف محددة من كل مسألة ، وان هذا كان يسبب له مضايقات ، ويخلق له خصوماً حتى بين الأقارب الأقربين ، ولاسيما الذين لم يكونوا قد قرؤوا شيئاً ، ولا سافروا ، ولا خالطوا الناس خارج محيطهم القروي الأمي الضيق .

كان — مثلاً — اذا التقى أحداً من مواطنيه خارج الجبل لا يقبل أن يعامله على أساس مركزه التقليدي الموروث في القرية ، بل يعامله على أساس أنه شخص عادي لا يعرف كيف يجب أن يتصرف في معاملة الناس.

ويقوده ويفرض عليه طريقته في التعامل : طريقة الرجولة والاستقامة والصدق والكرامة . وحدثني عن طرائف حصلت بينه وبين أصحاب «الاختام » في القرية الذين كانوا لا يكترثون له ولامثاله من غير طبقتهم ، ما داموا داخل جدران القرية وأمام معارفهم وأهلهم وأقاربهم فيها ، حتى اذا وجدوا أنفسهم مع أبي خارج هذه الجدران جعلوه قائدهم ورائدهم حتى يعودوا إلى القرية . فتعود حياة النفاق والتزييف والمظاهر الكاذبة ، إلى السيطرة .

كان يكره الظالم أياً كان نوعه ومصدره ، وينتصر للمظلوم دونما نظر إلى انتمائه الطائفي أو الاقليمي ينتصر له حتى على أبناء قريته وطائفته وعشيرته .

فقد حدث مرة — على سبيل المثال — ان مدير ناحية تركياً في صلخد كان له عميل في قريتنا سلطه على الاهلين من الحضر والبدو — فصار يأمر وينهي . يفرض الاتاوات على الجميع — وفي يوم من الايام جمع ابل عشيرة من عشائر البدو — رعاة الجبل — وحبسها في ساحة واسعة رافضاً إطلاقها إلا مقابل دفع مبلغ كبير ، ولم تكن العشيرة مذنبة في شيء : فلم تعتد على مزروعات ولا على حمى (١) — وكانت ضوضاء النوق وصراخ أصحابها واستغاثاتهم تشق عنان السماء ، ولا من يجرؤ على التوسط ولا من يجرؤ على مجرد السؤال . وجاء وجهاء العشيرة إلى والدي فاستنجدوا به — وشرحوا له الموقف على حقيقته ، وحينما اقتنع بأن القصد هو الابتزاز دون سواه قال لهم : « اتبعوني » وسار أمامهم حتى أتى موقف الابل ، وخاطب الغاصب في حزم ، طالباً إليه أن يخلي

---

(٣) الأرض الحمى — الممنوع رعاية المواشي فيها مدة من الزمن .

سبيل الابل فوراً — فرفض مشيراً إلى أن « سعد الدين » مدير الناحية التركي يدعمه . فتقدم والدي منه فهم الغاصب بأن يضربه بعصا من لوز تنتهي بكرة يدعونها (الدبسة) فانتزعها والدي منه وصفعه على جبهته صفعة قوية تركت جرحاً مكان الأصابع الأربع ، وانطلق البدو بابلهم ، وهم فرحون يهزجون « راية البيضا تغشى محمد » واحتفظ والدي بالدبسة للذكرى .

وظلت لدينا طوال وجودنا في القرية— ولجأ الرجل إلى سعد الدين التركي .

ولكن والدي شرح لهذا الأخير بلغته ما كان من أمر « زلمته » فاقتنع . ولاسيما أنه رأى آثار الجرح في الجبهة ، وهي أقوى وسائل الاقناع في ظل قانون الغاب .

أتحدث فقط عن الأمور التي حدثت قبل معايشتي لوالدي . أما التي حدثت بعد ذلك فستأتي في مكانها من هذه الذكريات

الفصل الخامس

جيلنا أمام المصير

لقد كنا فتية صغاراً ، وكانت لنا حياتنا الصاخبة — خارج نطاق حياة أهلنا : كانت لنا مواسم : مواسم للصيد ، صيد العصافير — نصلي لها الفخاخ حول « المنقع » صيفاً وخريفاً. والمنقع بقعة مستديرة من الأرض نصقل وجهها بالماء ، ونسوّي لها حافة قصيرة ، ونملؤها ماءً ، فيبقى الماء طوال النهار ، ونخفي الفخاخ بالتراب الناعم حوالي المنقع ، بحيث لا تبين منه إلاّ حبة القمح المربوطة بالخيط ، والتي إذا ما نقدها العصفور تحركت بخيطها فانطبق الفخ على عنق العصفور — والفخ كنا نصنْعه من ضلع عجل أو ضلع الغنم أو الماعز ، وظل يتطور إلى أن صار يصنع من أسلاك الحديد ، ويستورد من دمشق .

ولكن ذلك حصل في آخر مرحلة من مراحل فتوتنا ، بحيث عرفته الأجيال اللاحقة أكثر مما عرفناه نحن — وأنواع العصافير التي كنا نصطادها : هي المطوّقة ، أو المطواقة والزرعية ، وهما معروفتان ومن فصيلة واحدة تعيش على ما تلتقطه من الحبوب المبذورة ولهذا سمي النوع الثاني الزرعي — نسبة إلى الزرع — و (لكنهم يلفظونها بكسر الزاي) وهو يشبه المطواق (الذي يسمونه في لبنان المطوق) تماماً ولكنه أصغر حجماً منه وصوته يختلف عن صوته من حيث القوّة والنّغم .

وإلى جانب هذين النوعين الرئيسيين كانت هنالك أنواع أخرى : كالقبّرة (ويسمّونها عندنا الجعطون أو الجعيطي)– والغريب أنني لم أجد أصلاً لهذا اللفظ في المعاجم بل وجدت ألفاظاً من جذر (جعظ) وأكثرها يدل على الاستكبار وقصر الرجلين ، مع الضخامة وشدة الاقبال على الأكل . ولعلّ هذا هو أصل اللفظة بعد أن استبدل بالظاء المعجمة طاء . وكان أبو سنّ وهو عصفور شرس شديد الحركة ، كنا نخشى عضّته عندما نخلصه من الفخ ، وقبل أن نذبحه – ولعلّ استعداده للعضّ هو الذي جعله يُسمّى (أبو سنّ)والعصفور الدوري والمرُيعي أو مشغّل الرعيان وهو المعروف بـ (الفرّي) والزرزور . وإلى جانب الصيد بالفخاخ كان هناك الصيد بالنبلة واسمها عندنا ، النقّيفة – نصنعها بأنفسنا ونصطاد بها – أكثر ما نصطاد – عصافير البساتين : السُّمّن (السمّان) ، الصفّر ، أبو تين ، الحسّون أو عصفور الشّوك الجميل ، والورور ، القرقساء أبو الحنّ ،والحـمّرة ، والهدهد ، والتزغلّ – أو طيور الماء ، مثل القطا ، أو صوص الماء أو أبو غليون ، يسمّونه هكذا لطول منقاره طولاً مفرطاً . والبطّ البرّي (الخذري)

وأذكر أن أول خدعة كنت ضحيتها ، حدثت لي ، بسبب أبو غليون – هذا – فقد كان واحد منها يرتاد بركة منيفة وهي مستديرة وعميقةفكان يقف ، عند حافة الماء ، يلتقط طعامه من صغار الضفدع (البرُعُط) أو الفراش أو الذباب أو غير ذلك ، ولطالما رأيته في وقفته تلك وأنا أسير على الطريق المحاذية للبركة . وكان بين مستوى الماء ومستوى الطريق ارتفاع اربعة أو خمسة أذرع . كنت أراه في أسفل فآخذ حجراً أرميه به ، فلا أصيبه . عمدت إلى النقيفة ، في إحدى المرات ، فرميته بحصاة منها فكسرت أحد جانحيه ، فظل واقفاً لا يستطيع الطيران ،

ولا أنا أجرؤ على النزول إليه لالتقاطه . خوفاً من منقاره الطويل جداً.
ولم أكن في سن تساعدني على المحاكمة ، لأعرف أن الأمور ليست بالمظاهر ، وأن طول المنقار ليس دليلاً — وحده — على القوة أو العنف ، بل هو أداة لالتقاط الطعام من الاعماق — وفيما أنا كذلك إذ مرّ بي شاب من معارفنا فرجوت منه أن ينزل ويلتقط طائري الذي اصطدته— فأبدى كل استعداد فنزل وأخذ الطائر وصعد . ولكنه بدلاً من أن يعطيني إيّاه هرب به راكضاً بسرعة كبيرة — وأنا شبه مشدوه لأنني ما كنت اعتقد أن شاباً بهذه السن وهذه القامة العالية يلجأ إلى مثل هذه الخسّة فيغتصب عصفوراً من صبي ائتمنه واستنجد به . ولكن ربّ ضارة نافعة ، فمنذ ذلك الحين غيّرت موقفي من كبار المناقير ، طيراً كانوا أو بشراً . ولم أعد اسمح بأن يخدعني أحد بمظهره .

كانت إحدى المتع التي أتمتع بها آنذاك أن أمتطي فرسنا الشهباء « أم عرقوب » وأوردها بركة الغنم فتشرب وأنا على متنها حتى اذا ارتوت ضربت الماء باحدى يديها أو رجليهاوحمحمت فأدير رأسها واتجه بها نحو البيت . ركضاً خفيفاً — ومن الحوادث التي لا أنساها حادثة تخلينا عن هذه الفرس الغالية فقد زار والدي شيخ من شيوخ البادية اسمه فلاح أبو مدحل وراح يرجو منه أن يبيعه نصف حصته من الفرس أي الثلث وكان قد اشترى الثلث الذي يملكه من شريك آخر يكون المربط لديه. ويعرف القراء الكرام حتماًأن الخيل الأصايل تباع مُجزّأة فهي كلها تعتبر مؤلفة من أربعة وعشرين قيراطاً وقد تكون ملكاً لعدد من الشركاء يملك كل منهم عدداً معيناً من القراريط ، ويكون المربط لدى أحد الشركاء حسب العقد ، العقد اذا انجبت الفرس عدداً من الامهار أو

المهرات فإن الشريك الذي لديه المربط يقود أحدها أو احداها إلى الشريك الآخر أو إلى كل شريك حسب حصة كل منهم .

باع والدي الثلث بمائة ليرة عثمانية ذهباً وليرتين وامتطى الشاري الفرس وذهب وقلبي وعيناي ترافقه . وقد أنجبت لديه مهرتين وكنا ننتظر أن يقود لنا احداهما باعتبار أن لنا فرساً من كل ثلاث أفراس . كنا ننتظر ذلك عندما حدث ما سيجيء ذكره في حينه .

مرّ بنا أنّ أهلنا يكرّمون عيد الأضحى تكريماً استثنائياً . فهو عيدهم وكفى .. يقضون الليالي العشر الأولى من شهر ذي الحجة في سهرات دينية متصلة وصباح اليوم الأول من أيام العيد تبدأ المعايدات التي تستمر ثلاثة أيام كاملة ، وحتى أربعة . ومنذ الصباح يقوم الأولاد ويقبلون أيدي والديهم ويلبسون ألبسة جديدة ويبدؤون اللعب والغناء ويشاركون أهلهم في استقبال المعيّدين الذين يتوافدون أفواجاً ، عائلة ، عائلة ، وقبل الثورة ، أيام العزّ ، كان يخرج والدي إلى البوابة ويطلق خمسة عيارات نارية من بندقيته كلما أقبلت سربة مهمة من المعيدين وحينما يصلون يقدم اليهم الشراب البارد أو الساخن ، حسب الفصل ، والسكاكر والطعام ، حينما يكونون من الأقارب ، أو يصادف وصولهم ظهراً ولكنهم كانوا يكتفون بلقمة أو لقمتين ، على سبيل البركة أو الممالحة ، ثم يكملون طوافهم ، ونقوم نحن ، بدورنا بزيارة أقاربنا ومعايدتهم ، وكان والدي يصطحبني ، أكثر الأحيان ، فقد ارادني رجلاً قبل الأوان .

ومن المواسم التي لا يجوز نسيانها لأنها أخذت تختفي من مجال الحياة القروية إعداد المؤونة السنوية . فمن المعروف أن القرويين يعملون طوال السنة ولا يحصلون على مقابل لعملهم إلاّ في الصيف . نتيجة

عملهم كلها تحصل صيفاً وهم مقبلون على الخريف ، البارد في الجبال ، ثم يليه فصل الامطار والبرد الشديد الذي يمتد حتى أواخر الربيع . نحو نصف السنة يكون المطر والثلج مسيطرين . وقد مرّت بنا أعوام كان الثلج ، فيها ، يتساقط باستمرار أياماً متتالية حتى يبلغ ارتفاعه أمتاراً وكثيراً ما كنا نصعد من أرض الدار إلى السطح فوق الثلج ، من دون استعمال الدرج أو السلّم . والثلج يجب جرفه يوميّاً تخفيفاً عن السقف ، ومنعاً للدّلْف (الوَكْف) . وبعد جرف الثلج ترش السطوح بالعُوْر (وهو التبن الناعم جداً الذي ينزل تحت الغربال ، حين غربلة التبن ، قبل تقديمه للحيوانات ، وتدحل بالمدحلة) أي تدحى بالمدحاة ، وهي حجر اسطواني الشكل جعل في وسط قاعدتيه تجويفان يوضع فيهما طرفا (الماعوس) وهو كناية عن زاوية من خشب أو حديد جعل في قمته مقبض وطرفاه ينزلان في التجويفين المشار اليهما فيؤلف الماعوس ، مع المدحلة ، مثلثاً قاعدته المدحلة تدور ، في يسر ، حوالي المحورين اللذين في طرفيها ، فيجرها الرجل جيئة وذهاباً فوق السطح حتى يظل مرصوصاً متماسكاً ، لا تتخلله المياه . وكثيراً ما كانت العواصف تحول دون الصعود إلى السطح لدحلها وعندها كان الدلف يأخذ مداه ويضايقنا مضايقة شديدة إلاّ أن بيتنا نحن كان متقناً ونادراً ما يكف . وكثيراً ما كنا نستيقظ صباحاً فاذا الثلج قد كوّن طبقة كثيفة جداً تحول دون خروجنا من البيت فنعمد إلى الراحات ونجرف الثلج لنفتح لنا طريقاً فيه . والحيوانات لا يمكنها المسير فوق هذا الثلج وبياضه الناصع يبهر عيونها ولذلك كان يقدم اليها العلف والماء ، وهي في مرابطها ، وكثيراً ما كانت تغطي سطح البركة طبقة كثيفة من الثلج والجليد ، بحيث لا نستطيع أخذ الماء منها ، فنلجأ إلى إذابة الثلج للشرب والغسيل . وأذكر مرّةً أن هذا

الحصار الثلجي دام خمسة وأربعين يوماً لم تستطع ماشية خلالها أن تخرج من اسطبلاتها وأحياناً كثيرة كان شريكنا (المرابع) يصابحنا وهو يشق طريقة حتى يفتح لنا باب الدار وأذكر بعض الأدوات التي كان لابدّ من وجودها ، في كل بيت ، للتعامل مع الثلج . فهناك الراحة أو الرفش وهي معروفة اليوم (بالكريك) وهناك الرَّحْت وهو مثل الراحة ولكن كفه من الخشب وهو أسهل لجرف الثلج عندما لا يكون متجمداً . اما اذا تجمّد فلا بد من استعمال الراحة أو الرفش .

كان فصل الأمطار بالنسبة إليّ عيداً دائماً . فأنا أحب المطر وأرتاح اليه وأشعر بلذة لا تساويها لذة ، حين أراه ينهمر ، ولا سيّما حين ترافقه الرعود والعواصف ثم ينقشع الجو فجأة ويظهر ، في الأفق ، قوس قزح بألوانه الكاملة ، الواضحة ، البديعة . كنت أرقص وأغنّي ، حتى ان أهلي كانوا يزجرونني وينهرونني ويتضايقون مني ، ولكني كنت أعود إلى ذلك ، حين أنسى ما حدث .

إزاء ذلك ، كان لابدّ أن نتموّن بحيث يكون ، ، داخل البيت ، كل ما تحتاج اليه العائلة . وإلاّ فمن أين تتدارك حاجتها ؟ فحين يحصد القمح ويرجد إلى البيادر ، ويُدرس ، ويُعَرّم ويذرّى ويُصبّب ، يُعَدّ منه الصويل وهو القمح المغسول بالماء ، ثم المجفّف تحت الشمس والمخزون بالكواير ويطحن منه عادة كمية كافية لاعداد الخبز لمدة معقولة . وهناك البرغل وهو القمح المسلوق في الحَلاقين وهي حلة كبيرة مركّب عدد كبير منها إلى جانب البُرَك أو المُطوخ (جمع مطخ وهو البركة الكبيرة) والحلاقين تتسع الواحدة منها لنصف طن من القمح تقريباً يوقد تحتها القصل (سُوق سنابل القمح) حتى ينضج القمح وينقل إلى السطوح حيث يجفف ويخزن في الكواير — جمع كوارة وهي وعاء

مستطيل الأضلاع وله فتحة صغيرة في أحد جوانبه يؤخذ منها الكمية اللازمة للطبخ ويُحكم سَدّها .

وفي أوائل الشتاء كانت تقام في القرية حفلات تعاونية لسحق هذا البرغل وتدعى العملية (سميد البرغل) ولعلها من السميد . في هذه الحفلات يجتمع عدد كبير من النساء في البيت وتُحمل إلى هذا البيت عدة أرحية (جمع رحى) ويدعونها عندنا جاروش (جمعها جواريش ويبدأ سميد البرغل : بعض النسوة يرششنه بالماء (ينمشّنه)، والبعض يُدرن الأرحية بالتناوب ، والمسمود منه يمرّ على سلسلة من الغرابيل والمناخل لفرزه وتصنيفه فيخرج منه : المُفَلْفَل وهو للطبخ العادي ، المجدّرة وما يماثلها والمناسف وسواها . ثم برغل الكبّة وهو أنعم من المفلفل ويستعمل لإعداد الكبّة بجميع أصنافها المشهورة في سورية ولبنان ،وبعده يجيء السويق وهوأنعم من برغل الكبّة ويستعمل لحاجات كثيرة غير الأكل أو الأكلات لأنه يدخل في صنع كثير من أنواع المعجنات والحلويات .

ورْشة متكاملة تدوم ليلة كاملة نسرح فيها نحن الأولاد ، ونمرح ، نساعد في العمل ما أمكن ونتبادل النكات والحزازير ، وضروب المزاح المختلفة ، فيما بيننا ، أو مع هذا الحشد من النساء . وتنتهي الحفلة بأكلة مترفة من العُمَيْشَة : وهي مزيج من برغل الكبة المخلوط بالكشك والماء والسمن ، يؤكل مع البصل النيء وهي أكلة لذيذة من الأكلات الموفقة التي تلجأ اليها ربة البيت عند نفاد الخبز من البيت ليلة تنشغل باعداد العجين ، وتخميره لتقوم بخَبْزه على الصاج في صباح اليوم التالي . ومن نافل القول أن هذا كله قد زال بعد توافر المطاحن

الحديثة وتبدّل أو تطوّر الكثير من عادات الادّخار والغذاء . ولزوالها حرصتُ على ذكرها لمن يهمه معرفة كيف كنا نعيش قبل هذا الزمن.

وخلال الصيف تعلف المعاليف ، وهي نعاج حايلة غير مولّدةذلك العام ، أو كباش أو خراف . يجزّ صوفها وتُترك لتأكل ما تشاء من سنابل الشعير على البيدر ، ثمّ تلقّم (تزقم حسب تعبيرنا) مزيجاً من الحبوب والتبن والماء يعجن وتضعه المرأة في وعاء أمامها وتمسك برأس المعلوفة ، فوق الوعاء ، وتصنع من الخليط كرات بقدر ما يتسع حلق الشّاة ، فتدفعها بيدها في فم الشاة وهذه تأكل راضيةً أو كارهة ، ولكنها ما إن يجيء عيد الصليب ، على الحساب الشرقي ، أي ٢٧ أيلول من كل عام،حتى تكون المعلوفة قد أصبحت تموج لحماً وشحماً وأليتها قد تضخمت ، حتى أن بعض المعاليف تعجز عن القيام . وتغسل المعاليف بالماء يوميّاًمن أجل نظافتها ، وتخفيف الحرّ عنها ، ويبدأ ذبح المعاليف بعد عيد الصليب ، لأن الطقس يكون قد مال إلى البرودة ، وصار اللحم المقدد في منجاة من الفساد . تذبح المعاليف — وهذا موسم — فيصنع منها الدهن ،أي أن لحمها يقطّع ويُسلق بالملح الكثير ضمن الشحم ويُغْلَى مدة طويلة ، حتى ينضج تماماً ، ثم يترك ليبترد فيتكون فوقه وخلاله، غطاء من الشحم يحميه من الفساد ، ثم يوضع داخل جرار خاصةمطليّة من داخل طلاءً يحول دون أي رشح ، أو دخول هواء ، ويؤخذ من هذا (الدهن أو القاورمة) ، طوال السنة ، لاعداد الطبخات المختلفة .

ولكن المعاليف فيها غير هذا اللحم الذي يقدّد : فيها أكلات كثيرة حاضرة : فيها الكبد ، والرئة ، والقلب ، والكليتان ، وهذه تصنع منها أوّل أكلة ، وهي المحمّصة بمرق البندورة ، وتقدم مع الكبّة النيّة. هذه أول أكلة يدعى اليها الأقارب ، والجيران ، والأصدقاء لأن البيت

إذا كان قد ذبح معلوفتين ، أو أكثر ، يكون لديه كمية كبيرة لابُدّ من استهلاكها . وعدد الجزارين في القرية محدود ، والجزار يقوم بعملية الذبح ، والسلخ ، والتقطيع ، والفرم ، ولهذا تتم العمليات بالدور ، في القرية ، ويدوم موسم العزائم (الولائم) مدة طويلة . وبعد المحمّضة تأتي الغمّة وهي الأحشاء المحشوّة بالبرغل أو الأرزّ المخلوط بالحمص، والمتبّل بالبهارات المختلفةترافِقُهُ المقادم والكوارع ، ويدعى إلى الغمّة عدد أكبر لأنها وليمة كبرى . ثم تأتي الهريسة ، وهي جميع ما في الشاة من عظام ، تكسّر وتطبخ بالقمح المقشّر والبهارات، ويدعى اليها عدد كبير أيضاً . والهريسة هي أطيب أكلات هذا الموسم ، في نظري . وتأتي في خاتمة الأكلات ، لأن العظام توضع في سلال وتعلق في الهواء البارد ، ولا خوف عليها من فساد حتى تكون الأكلات الأولى قد نفدت.

وهناك أكلة تأتي ، بعد مدة ، وتقتصر على أفراد العائلة ، وهي الامعاء ، فهذه تفرغ وتنظف جيداً وتحفظ في مكان بارد حتى تفرغ ربات البيوت من الاعمال الأخرى ، وتحشى الامعاء وتطبخ على مهل، وهي أكلة لذيذة أيضاً .

المشكلة الكبرى : الماء :

كانت في حياتنا ، مباهج كثيرة ، كل شيء موفور — الحياة تتدفق من العروق والعيون ، حيوية لا حدود لها ، قوّة ، وشعور بالقوّة ، أخلاق عالية ، حياة عائلية ممتازة . ولكن كان هنالك أمر يغلّف ، بغلاف أسود كئيب ، كل هذه المباهج : كانت هنالك مشكلة عاناها جيلنا أجيالاً ، وهي قلة الماء ! أجل ، على الرغم من هذه الثلوج الكثيفة ، التي وصفت ، وهذه الأمطار الغزيرة التي

كان الجبل يعاني جفافاً قاتلاً وظمأً مهلكاً ــ هذه الأمطار والثلوج كانت ، حينما تجيء ، تملأ برك القرية ومطوخها ، ثم ، ما يفيض عن ذلك ، يذهب في أودية تشكّل ، في الشتاء ، أنهراً حقيقية تذهب منحدرة باتجاه السهل الحوراني ، أو الصحراء ، وتظل تركض حتى أغوار فلسطين ومستنقعات البادية وسبْخاتها . وحين تشحّ الامطار والثلوج ، في سنة تالية ، أو سنوات تاليات ، يكون الماء المخزون قد نضب ، ولا نهر لدينا ، ولا ينابيع في قريتنا ، وفي أكثر القرى. فعند ذاك يجب أن نجلب الماء من مكان يبعد عنّا حوالي ١٠ــ ١٢ كيلومتراً: إمّا من ينابيع حبكة شرقاً ، وإمّا من ينابيع الغجغجيات شمالاً . ونعيش حياة تقتير بالماء لا مثيل لها . يذهب الواحد منا ــ وكثيراً ما قمت بهذه المهمة ــ ومعه دابّة ، أو دابتان ، على كل منهما (شَدّ) مؤلف من سحّارتين في كل منهما تنكتان ، فيكون حمل الدابة أربع تنكات أي ثمانين لتراً إلى مائة لتر من الماء كل حمل والمجموع نحو مائة أو مائتي لتر تصل إلى البيت . ولا يمكن القيام بأكثر من رحلة يومياً ، لبعد المسافة : هذه الكمية يجب أن تكفي لشربنا وشرب حيواناتنا وللطبخ والغسيل ولشرب الضيوف المحتملين وغسيلهم . وحينما يتأخر فصل الأمطار ، يكون علينا أن نقوم برحلة الورد هذه سُرَى (سروة) أي قبل الشروق ، أو مساءً بحيث نعود ، بعد الغروب ؛ كنا نذهب فتياناً وفتيات ، ومن يعرف مناخ الجبل ، يعرف كم كنا نقاسي من البَرْد . كنت أشعر وكأن أناملي تتساقط من كفيّ . كنا نرتجف ، ونفضّل السير على الأقدام لكيلا نتجمد من الصقيع . وكان المزاح ، أو الغزل البريء المفتعل يساعدان على تصعيد الدم إلى رؤوسنا . ولكن البرد كان ينخر عظامنا . وكنا ، أحياناً ، نصادف مجموعات كبيرة من

البدو والحضر ترد الينابيع المتعددة ، فننتظر دورنا ، وأحياناً ، نتزاحم ، ونختلف ، ونتشاجر وكانت بئر (أبو الحصين) ، في حبكة ، تحل المشكلة فهذه البئر الغزيرة كانت تفجّر ما يعادل اثنتي عشرة تنكة ، في اللحظة الواحدة ، أي أنه كان بامكان اثني عشر من الواردين ملء دلائهم دفعة واحدة .

وباستمرار ، طوال الليل والنهار . اسجّل هذه الأمور لكيلا ينسى الناعمون بالماء المتدفق الآن في البيوت ما عانته الأجيال السابقة التي ناضلت للوصول بالبلاد إلى التحرر والحكم الوطني ، وبالتالي الحصول على هذه النعم المترادفة .

* * *

الفصل السادس

الثورة

في يوم من شهر تموز عام ١٩٢٥ ، وقد صار نيسان ، وعيد استقلاله ، وحفلاته المضحكة وراءنا ، والناس منهمكون بأعمال الحصاد ، وكروم العنب تنتظر آب لتبدأ عطاءها السخي ، أجمل عنب في الدنيا ، سرى نبأ هز القرية من أولها إلى آخرها : سلطان ضيف القرية اليوم . إنه نازل في بيت سلمان برق (رزق) والأهالي يتوافدون للسلام عليه . وأهمية النبأ متأتية من أن سلطان الأطرش في عرمان أمر له مغزى فريد ، لا يدركه غير المطلعين على تاريخ الرجل ، وتاريخ القرية . أما الرجل فهو حامل لواء الثورة على الفرنسيين المحتلين ، وقد قام بثورته الصغرى المحصورة منذ سنتين ، وقصفت الطائرات داره فهدمتها وأدرك أن حركته ، التي قام بها تحت ضغط الاثارة ، اثارة أسر ضيفه أدهم خنجر — وهو أحد الثائرين اللاجئين — لم تكن بعد في أوانها ، والناس لم يكونوا بعد مستعدين للثورة الشعبية الشاملة لجميع أنحاء الجبل فقبل الوساطة والمهادنة ، ولكنه كان يضمر شيئاً . والذين يعرفونه كانوا يعرفون أنه يضمر الثورة . فهو من الرجال القلائل الذين لا ينامون على ضيم ، ولا ينسون داراً تهدمت ، وحرمة جوار انتهكت . فضلاً عن احتلال أجنبي بغيض يجب أن يزال .

هذا هو الرجل ، ضيف عرمان . أما عرمان — القرية — فهي مفتاح حرب ، هي البؤرة الثورية الدائمة التوهج : أقضت مضاجع الأتراك العثمانيين ، وأتراك تركية الفتاة ، وفي تاريخها ابادة جيوش ، وكفاح وبطولات ولا أروع . وكانت بعيدة عن ثورة سلطان الصغرى ، المعروفة بالثورة الأولى ، قبل ثلاث سنوات ، لأن سلطان — كما قلنا — قام بتلك الثورة تحت ضغط الاثارة ، ولم يشاركه فيها غير اخوته وبعض أبناء عمه ، وبعض رفاقه المقربين جداً (١) .

وحلوله في عرمان ، اليوم ، ادراك منه لحقيقة تاريخية ، ان الثورة إن لم تبدأ من بؤرتها ، من موقدها ، من معينها ، فلن تكون ثورة ، ولن تعم سائر القرى . وجو القرية متوتر ، والرجال في حركة ، ضجيج ، صهيل خيول ، ترقب لأمر أدركته ضمائر الرجال بالحدس ، قبل أن تتحدث به الألسنة .

كان والدي المطل على الخمسين قد أصبح أبيض الشعر تماماً ، وكان جالساً في أرض الدار ، في ظل ما بعد الظهر ، حينما دخل بيتنا زائر كان صديقاً لنا ، وهو أكبر من والدي ، ولكنه كان على صلة وثيقة به ، يتشاوران في كل شيء ، ويبحثان كل أمر . دخل وسلم وجلس إلى جانب والدي ، وأنا ، الصبي في منتصف الثالثة عشرة من العمر ، أصغي لما يقال ، وأنظر إلى القرية من بيتنا البعيد عنها ، انظر وأرقب شيئاً بالحدس ، كما يفعل غيري . نظر كل من الرجلين إلى صاحبه وقال الزائر . :

---

(١) في الواقع لم تكن عرمان بعيدة تماماً عن أسباب ثورة سلطان الصغرى فقد كان قريبنا الشهيد محمد الصغير هو الذي رافق أدهم خنجر حتى أوصله إلى دار سلطان ، فكان توقيفه وخرق حرمة الدار سبباً لتلك الثورة.

— إنها الثورة ، يا أبا سعيد ، هل تدرك ما نحن فيه وما نحن مقبلون عليه .

— إنني أحس ذلك ، يا أبا قاسم ، فلقد مررنا بمثل هذه الحالة من التوتر والانفعال الشديد مرات كثيرة من قبل ، أتذكر الخراب : وممدوح ، وسامي باشا .

— كيف لا أذكر . وككل مرة ، سنحارب نحن الشعب ، ونخوض معارك ضارية ، وسيقتل منا الكثير الكثير ، وسنتشرد ونجوع ، وستدمر بلادنا ، وسيصبح بيننا العديد العديد من الايتام والأرامل ، ولن يلتفت إلينا أحد . . ومن يعش ير .

— أجل الشعب يقوم بواجبه ، وبعضهم يستغلون تضحياته . ولكن لامجال للنقاش الآن . فالواجب أولا(١) وانصرف صديقنا ، وبقي والدي صامتاً يفكر وانا أحدق في وجهه الصبيح المتجهم وأدير في رأسي الصغير الحديث الذي سمعته ، والذي لم أنسه طوال حياتي ، والذي سأفيد منه ايما افادة في حياتي السياسية المقبلة .

وما هي إلا دقائق حتى ضجت سماء القرية بطائرتين حربيتين فرنسيتين قدمتا — ولاشك — لرصد تحرك سلطان ورفاقه ، وفي بداهة وعفوية منقطعتي النظير ، قفز كل رجل مسلح في القرية إلى سطح منزله وبدأ اطلاق النار على الطائرتين . وكان والدي من أسرع القافزين إلى السطح ، وأنا معه . وأخذ يطلق الرصاص وأنا أجمع الفشك الفارغ عندما يلفظه مغلاق البارودة وراءه أو إلى جانبيه . وفي لحظة من اللحظات ، قال لي بعد إحدى الطلقات : « لقد أصيبت الطائرة ، لقد خرج دخان من بيت

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة . كان الشاعر الناطق بلسان الشعب يقول :

اذا قتلنا ولا يدري بنا أحد — قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطي السوية من طعن له نشب — ولا سوية اذ تعطى الدنانير

النار فيها . رأيته بأم عيني » (١) — من هو الثائر المجهول الذي أصاب الطائرة : من يدري : لـ يكون والدي الذي رأى الاصابة لحظة حدوثها وعلى اثر طلقة أطلقها . وأعلن أنه رآها تصاب . وقد يكون غيره من أبناء القرية وكانوا عدة مئات فوق سطوحهم ومئات الطلقات تصعد معاً نحو الطائرتين وكل رجالنا رماة مهرة ، المهم أن الطائرة أصيبت . وان هذا العمل يعني أن الثورة قد بدأت فعلاً ، بلا رجوع . وبدأت بحادث يعزز ثقة الثائر بسلاحه ومقدرته على مقاومة السلاح الجوي ، كما كان قادراً في السابق على مقاومة السلاح البري . وسقطت الطائرة في قرية متان المجاورة وأسر طياراها الاثنان . كان ذلك في ١٩ تموز ١٩٢٥.

وفي اليوم التالي هاجم الثائرون مركز البعثة الفرنسية في صلخد فأحرقوه . وفي اليوم الثالث انقضوا على أول كتيبة فرنسية ، كانت في طريقها اليهم ، وكانت مخيمة في قرية الكفر ، عند منتصف الطريق بين السويداء وعرمان ، فأبادوها . وفقد عدد من الثوار البارزين وجرح عدد آخر . وبدأت أواجه قضايا جديدة : كان في طليعة القتلى عدد من أبرز الرجال المقاتلين في بلدتنا عرمان ، أذكر منهم سلمان برق (رزق)، حمد العطواني ، مهنا الصغير ، الأخوين سعيد وسلمان الصغير ، ومن المشهورين خارج قريتنا : مصطفى الأطرش (شقيق سلطان) ، وشهاب غزالة (حامل بيرق ملح الذي خلد ذكره في تلك المعركة) وعدداً من أقاربه . ليست مهمتي تأريخ الحوادث ، فأنا أكتب ذكريات ، وقد ذكرت الأسماء التي سمعتها يومذاك وأنا صغير . أما القتلى الذين لا أعرفهم أو لم أسمع بهم في ذلك الحين فكان ذكرهم في الاحصاءات التاريخية الاخرى ، كالاحصاء الذي قام به مشكوراً الاستاذ سلامة عبيد

(١) بيت النار — مكان المحرك في الطائرة حسب التعبير الشعبي .

في كتابه « الثورة السورية الكبرى من خلال وثائق لم تنشر – ١٩٧١ ».– أو الاحصاء الأوسع والأشمل الذي أورده – مشكوراً كذلك – المؤرخ الثائر الأستاذ جميل العلواني في كتابه « نضال شعب وسجل خلود »١٩٧٣.

لاحظت أن بعض الوجوم غشي الوجوه عند وصول أنباء المعركة. ولكن الفرح والاعتزاز بالنصر كانا أقوى من الوجوم : فلا مأتم ، ولا بكاء ، بل أهازيج وأفراح ، واستعداد دائب للمعارك القادمة. النساء يبكين في صمت عندما يكن منفردات ، أما أمام الناس فلا بكاء ولا حزن : عليهن أن يشجعن الرجال بدلاً من تثبيط عزائمهم وكان لابد من ملاحظة أن بعض البيوت ستخلو من الرجال مثل بيت قريبينا سلمان وسعيد ولدي حمّود الصغير . وهذا من أول معركة . فكيف ستكون الحال بعد ذلك : هذا ما أخذت تردده الألسنة . ومسألة أخرى كنت أسمعها عندما يكون الأقارب وحدهم : كانوا يعتزون بأنهم يدفعون الثمن الابهظ . ولا ننس أننا مازلنا في الطور العشائري ، فالعائلية كانت ما تزال رباطاً قوياً : المفاخر للجميع ، والعار على الجميع . والفرد لا شأن له ، فهو ليس أكثر من خلية في الجسم العائلي .

والاعتقاد بأن العمر محدود ، وبأن الموت ليس سوى نقلة من جيل إلى جيل ، الاعتقاد بالتقمص ، بأن الروح لا يضيع عليها تنفس واحد ، فهي ما أن تنتهي في هذا الجسد حتى تبدأ في جسد مولود انساني جديد بلا أي فاصل أو انقطاع (ألا يذكرنا هذا بجدلية تلازم النهاية والبداية إلى الأبد) هذا الاعتقاد ، بالإضافة إلى دوافع الرجولة الاخرى ، كحب الوطن ، والاستقلال والحرية ، كانت جميعاً وراء هذه الشجاعة النادرة، التي يتميز بها مقاتلونا .

لم تكن لدى الناس فرصة للتفكير في القتلى والجرحى فالأحداث تتتالى في سرعة كبيرة . فالانتصار في معركة الكفر أدى إلى الاستيلاء على الكثير من السلاح والعتاد : كل سلاح الكتيبة أصبح بيد المنتصرين وكان عدد الثوار الذين اشتركوا في هذه المعركة محدوداً ، فالثورة ماتزال في بدايتها وحوالي بؤرتها الأولى فقط ، ولذلك كان عدد الذين تسلحوا بسلاح الحملة الفرنسية كبيراً نسبياً .

وبعد المعركة لجأ الفرنسيون ، في السويداء إلى القلعة . وبدأ الحصار . صار على الثوار أن يحاصروا القلعة ، وأن يحتاطوا لما قد تجيء به الطوارئ . ولكن أنباء الانتصار الساحق في الكفر جعلت الثورة تعم الجبل كله. فلم يعد الأمر مقتصراً على المقرن (المنطقة) الجنوبي بل شملت الثورة السويداء وسائر أنحاء الجبل .

وبعد عشرة أيام . من معركة الكفر ، كانت حملة (ميشو) قد زحفت عبر (ازرع) وعسكرت على ماء المزرعة الواقعة على بعد اثني عشر كيلومتراً من السويداء . وبدأت المناوشات معها . وفي أول احتكاك رئيسي اشتركت فيه الطائرات والدبابات والمدفعية ، فضلاً عن الفرسان الصباحين المغاربة ، تراجع الثوار وعادوا إلى قراهم ليلاً ليتهيأوا للهجيج ، والهجيج يعني خروج جميع الناس من القرى والالتجاء إلى الصحراء ، في القرى القريبة من الصحراء ، أو إلى اللجاه ، في القرى القريبة من المنطقة الصخرية وهو تدبير طالما لجأ إليه أهل الجبل في حروبهم السابقة. وخيم الوجوم على القرى لورود هذه الانباء السيئة . وبدأنا نتأهب لترك منازلنا . كان والدي قد عاد مع العائدين ، وكانت القرية فيما يشبه الحشر .

وفي اليوم التالي ، حوالي الظهر ، بدأت ترد أنباء أخرى مناقضة تماماً لانباء اليوم الأول: لقد بدأت تتسرب أنباء مفادها أن شيئاً ما قد حدث في المزرعة فبدل الموقف . وكنا ننتظر ، ونترقب في لهفة عندما سمعنا صوت حداء يدخل القرية من الغرب ، واذا قريبنا البطل محمد الصغير يصل وقد اعتمر على رأسه عمرة ضابط فرنسي برتبة مقدم ، وحصانه ينوء بحمل الأسلحة والذخائر . ولاقاه الناس ليستخبروا منه ، فأنباهم بأن حملة الجنرال ميشو قد أبيدت ، وأن ما يلبسه هو ومايحمله حصانه أصدق دليل على ذلك . ثم يبدأ غيره من المحاربين يصلون إلى القرية ، أذكر من أسمائهم اسم شهاب الصبي ومحمد زويهد اللذين جاء كل منهما بعدد من الرشاشات والبنادق وكميات كبيرة من الذخائر ، وجاء واحد غيرهما بمدفع .

وأخذت الأخبار تتزايد كمية ووضوحاً : لقد هاجم الثوار الحملة من جانبها وورائها فاستولوا على قوافل تموينها وامداداتها ، ثم بدؤوا يفتكون بالجيش كله بمعركة التحام لم تسجل وقائع الثورة أروع منها : عدة آلاف من القتلى ، وأسلحة وذخائر من جميع الأنواع ملأت البلاد ، ودبابات ومدرعات حطمت وقلبت وأحرقت . إنه النصر المؤزر الكامل ، والهزيمة الساحقة للأعداء . وفر ميشو وبعض الفلول من جيشه ، وصار الجبل حراً ليس فوق أرضه جندي فرنسي واحد غير المحاصرين في القلعة .

ومنذ معركة الكفر بدأ الشعر الشعبي يسجل وقائع الثورة ويشيد بالانتصارات ويمجد البطولات . والشاعر الذي كان شعره على جميع

الألسنة هو صالح عمار أبو الحسن ، وطبيعي أن نردد ، نحن الصغار ، أبياته السهلة وبخاصة ما يمجد قريتنا . فقد استقبل نبأمعركة الكفروأرسل قصيدته المشهورة (١) :

البارحة جانا خبر انو انفتل دولابها
عرمان سألت عالكفر ذبح العراضي دابها

() العراضي : جمع عرضي – تصحيف للفظة التركية (اوردو) : جيش – والجمع جيوش

الفصل السابع

الغارات الجوية

عرمان وقتل الجنود الأتراك في مضافة ابراهيم الجرمقاني ثم عرمان ومعركة الخراب المشهورة، التي أبيد فيها جيش تركي ، ثم عرمان ومعركة سامي باشا الفاروقي وترويع جيشه في الكفر هذه بالذات ، وانتقامه الوحشي باعدام حملة البيرق ، ثم عرمان واسقاط الطائرة وانطلاق الثورة الجديدة وابادة كتيبة الكفر ، كل هذا أبرز اسم قريتنا وجعلها هدفاً رئيسياً لطائرات الفرنسيين . ودخلنا مرحلة القصف الجوي، كانت الطائرات تجيئنا باعداد مختلفة تتراوح بين الطائرتين والعشرين طائرة . عددتها بنفسي عشرين أكثر من مرة . كلفت نفسي مهمة رصد الطائرات ، واعطاء العلم بوصولها وهي على بعد خمسة عشر كيلومتراً من القرية ، أي حينما تكون فوق الكفر فقد كانت تلك الطائرات من ذوات المحركات والجناحين المتوازيين وكان بصري حديداً ومقدرتي على الرؤية من بعيد لاتحتاج إلى دليل . ودارنا منفردة . وحينما تكون السماء صافية– وهو الوقت المفضل للغارات الجوية–كنت أشاهد الطائرات قادمة ، فأخبر أهلي فتسرع والدتي وإخوتي إلى الاختباء في البايكة (الاسطبل) على اعتبار ان جدرانه سميكة وكلها من حجر البازلت الأسود وكذلك سقفه ، أي أنه مسقوف بالربد – وهو حجارة بازلتية

سوداء عريضة مستطيلة تقوم مقام الاخشاب —ويصعد والدي إلى السطح وبندقيته بيده ، كما يفعل كل رجال القرية : فالرجال المسلحون لا يختبئون ، بل يقاومون ويبدأ اطلاق النار منذ الدقيقة التي تصبح الطائرات فيها ضمن المدى المجدي للسلاح . وهذاالسلاح الألمانيوالعثماني المعدل كان ذا فعالية ممتازة . وقدأثبت ذلك بخاصةفي معركة المزرعة . وكانت هذه المقاومة من جميع جهات القرية توقع الطائرات في الارتباك فتلقي قنابلها كيفما اتفق . وقليلاً ما تصيب أهدافها . وكنت أكثر الأحيان أبقى مع والدي ، فأنا لا أريد أن أختبىء ، ولماذا أخاف مادام والدي يطلق النار وأنا إلى جانبه ، ولي به أسوة. وكان أحياناً يشجعني بأن يسمح لي بالضغط على زناد البندقية وهو يصوبها فتنطلق الرصاصة وأعتز بذلك إيما اعتزاز . وقد حاولت مرة أن أطلق رصاصة من دون مساعدته فأوقعني ارتداد البندقية أرضاً . لقد كنتقصيراً صغيراًفي تلك السن ولا قبل لي بالبندقية الالمانية السواري .

ولكن الرجال لم يكونوا دائماً في القرية ، فقد كانوا يذهبون للاشتراك في حصار القلعة . وهناك كانوا يمنعون كل اتصال بين القلعة والخارج . ويمنعون الطائرات التي تنقل المؤونة إلى المحاصرين من أن تستطيع انزال حمولتها فوق القلعة تماماً ، بل كانت الحمولة تقع خارج أسوار القلعة فيأخذها الثوار . وكثيراً ما أسقطوا الطائرات الناقلة . حتى أصبح المحاصرون في حالة بؤس ويأس . وعندما عاد والدي من إحدى مناوباته في حصار القلعة وصل متعباً يعلوه الغبار ، فنضا عنه بعض ثيابه بعد أن علق بندقيته وأحزمة الفشك ، وأحضرت له والدتي الماء ليغتسل ، فتنفس الصعداء وقال :

« إنهم لا يخجلون هؤلاء الذين كان صراخهم يبلغ السماء ، لقد وجدناهم ونحن عائدون سيراً على أقدامنا ، وجدناهم مقيلين تحت أشجار السنديان بين الرحى والكفر وسيجيئون غداً ويقولون إنهم أبلوا حوالي القلعة البلاء الحسن . وإنهم قتلوا العشرات » .

قد قطع حوالي خمسة وثلاثين كيلو متراً ذهاباً منذ أيام وها هو يقطعها إياباً اليوم . فمن حقه أن يغضب لتلكؤ البعض وتهاونهم في أداء واجبهم . قبل ، حينما كان شاباً ، كان مشهوراً بمقدرته على المشي حتى أنه رافق في إحدى المرات حملة من الخيالة سارت إلى الصحراء لترد غزواً عشائرياً مسلحاً ، رافقالخيـّالة ذهاباً وإياباً ولم يقبل بأن يسير مع المشاة . أما الآن فالأمر مختلف . إنه لا يملك الطاقة نفسها وفكر في أن يتصل بشريكه في الفرس ليأخذ الأم أو إحدى بنتيها ، ولكن الخبر الفاجع ما لبث ان وردنا بمقتل شريكنا وأفراسه الثلاث بقنبلة واحدة في غارة جوية تعرض لها مخيمه بسبب لجوء بعض الثوار إليه .

المهم أنه ، حينما كان الرجال غائبين في مهمات قتالية ، كانت الغارة الجوية أشد فتكاً ، كانت تصيب القرية فتهدم البيوت ، وتقتل الأفراد ، والحيوانات فجارنا الشاب داود أبو هدير ، الذي كان يعمل مكربلاً (مغربلاً للتبن) ، كان يعود من عمله ذات صباح ، وكان طريقه يمر فوق السطوح المتصلة في القسم الشمالي الشرقي من القرية ، فأصابت قنبلة السطح الذي كان عليه فطيرته ومزقته ، فسقط على الأرض أشلاء جمعت في كيس ، كل عضو من مكان . والسطح الذي تهدم من الربد ، وبلغت القنبلة أرض ذلك الاسطبل ، وهدمت جدرانه . اذن ليس الاختباء في الاسطبلات مجدياً . يجب الخروج من الأبنية والاختباء في الكروم

بعيداً عن المساكن . وهكذا صرنا نذهب إلى كرمنا الشمالي (الفضيلي) وكان مسيل ماء شتوي (قناة) يخرقه من الشمال إلى الجنوب محاذياً جداره الغربي . فكنا نجلس في هذا المسيل حتى تنتهي الغارة . وفي إحدى المرات وصلت بعض الشظايا إلى جوارنا . وكانت الشظية أوسع من الكف مهتّشمة الأطراف من الصعب أن يشفى من تصيبه . وكنا أحياناً نلتقي وجيراننا في الملجأ ، في كرمنا . وفي إحدى المرات كان القصف شديداً ، والطائرات العشرون تلف وتدور وتقصف وتقصف ، فإذا ابنة جيراننا تغطيني بطرف فستانها الصغير – يا للسذاجة ! يا للطفولة البريئة ! هكذا اعتقدت ان رداءها يحميني . ولعله فعل ! . . فأنا حتى الآن ما زلت أذكر تلك الحركة العفوية ، ذات الأثر العميق في نفسي .

وكنا أحياناً نفاجأ بوصول الطائرات ، فلا نجد متسعاً من الوقت للذهاب إلى الكرم فنلجأ إلى الاسطبل .وفي إحدى المرات، حدث هذا ، فصعد والدي إلى السطح وصعدت معه . وكانت سطوح القرية غاصة بالمقاتلين وحين انتهاء الغارة رأينا ، والدي وأنا ، ان خرافاً وجداء صغاراً لنا قد جفلت ونزلت إلى كرم مجاور لبيتنا ، يخص أناساً من آل الدبيسي . وكانت قد لجأت إلى جوار جدار أحد البيوت الملاصقة للكرم . فنزلت وراءها لأعيدها إلى البيت ووالدي ما يزال على السطح يرقبني ، وبندقيته بيده . وفيما أنا أقف جانب الجدار أجمعها لأسوقها ، اذا شيء ينفجر في الحجر الذي فوق رأسي تماماً فيحطمه وينثر حطامه في شعري ، وتعتريني هزة شاملة . لقد كانت رصاصة . واذا والدي الذي كان يرقب ما حدث يصيح بي « هل أنت سليم »؟فأمر بيدي على رأسي وانفض شظايا الحجر من شعري وأجيبه : « نعم سليم » وعدت إلى البيت مشدوهاً ، ووالدي يذرع السطح جيئة وذهاباً ويقول : « لا حول ولاقوة

إلا بالله العلي العظيم » لقد كانت رصاصة مقصودة أطلقها أحد أولئك الرجال المجتمعين فوق سطح المنطار ، وهو أعلى سطح في مجمع القرية مجاور لبيوت آل الدبيسي . وفهمت من والدي أنه يريد اطلاق النار عليهم . ثم لما رآني سالماً عدل ، ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد . فقد كان على المذنبين أن يأخذوا علماً بأن والدي لا يسكت على هذا العمل العدواني . وقد أخذوا علماً بالفعل ، وجاء رجال العائلة جميعاً لزيارة والدي والاعتذار منه . مبررين عمل أحدهم ، بعذر أقبح من ذنب ، وهو اعتقادهم أنني كنت شخصاً آخر ، ولم يعرفوني . رحم الله ذلك الشاب الذي أوشك أن يقتلني ، فلقد قتل في إحدى المعارك ، لقد مات ميتة الابطال . .

وفي إحدى الغارات الجوية كانت دارنا هدفاً مباشراً للقنابل : فقد انفجرت قنبلتان قرب الجدار الغربي للاسطبل فأطارتا شجرات التين من كرم الجيران ، وسقطت قنبلة في كرمنا الواقع أمام الدار فغارت في ترابه العميق ولم تنفجر ، وظلت هذه الحفرة أكثر من سنة قبل أن يهال التراب فوقها وتردم بفعل الفلاحة . وكنا نحاول أن نسبر غورها بعصا طويلة أو حبل ولكن بلا جدوى . وسقطت قنابل أخرى في كرمنا الشمالي (الفضيلي) ، وسقطت قنبلة في مدخل القرية الغربي ، فأحدثت حفرة كبيرة ، ظلت القرية سنين طويلة ترمي فيها بالقمامة حتى ردمتها . وكانت قد طارت من قلب هذه الحفرة صخرة كبيرة سقطت على بعد أمتار منها ، وهذه الصخرة كانت شبه كروية لا يقل قطرها عن مترين بجميع الاتجاهات . وكان ولد مشرد من بقايا اللاجئين أيام الحرب العالمية الأولى ، اسمهُ صابر نصر — على ما أذكر — قد جلس وتمدد فوق الطريق المجاورة ، حينما سقطت هذه القنبلة ، فغمره التراب والحجارة غمراً كاملاً وانتشل حياً بعد انتهاء الغارة .

وفي فترة من فترات اشتداد الغارات الجوّية المتلاحقة على عرمان، أخذت العائلات تهجر القرية وتلجأ إلى القرى المجاورة لبعض الوقت، فحين تشترك عشرون طائرة دفعة واحدة على قرية صغيرة كقريتنا ، وحين تقذف هذه الطائرات قنابل ضخمة كالتي تحدثت عنها ، ويكون أثرها كالذي وصفت ، وحين تبدو أمام الأهلين بعض القنابل التي لم تنفجر بحجم البرميل الكبير ، فيفكونها ويعبئون من عبوتها ثلاث تنكات من البارود يصبح البقاء في القرية أمراً عسيراً ، بالنسبة للنساء والأولاد على الأقل . وكان لوالدي ولأخوالي ، أصدقاء أقرب من الأقارب في قرية « تل اللوز » الواقعة إلى الشمال الشرقي من قريتنا . وهي مبنية فوق تل كبير ، وبجوارها الكثير من الكهوف والمخابىء ، ولم تكن مستهدفة بالضرب ، حتى ذلك الحين . فصعدنا إلى تلك القرية ونزلنا ضيوفاً على أصدقاء والدي وأخوالي : صعد النساء والأولاد من دارنا ودار جدي لأمي ، وظل الرجال في القرية للدفاع عنها وللاشتراك في أية معركة محتملة . وأعجبتني القرية التي لجأنا اليها ، أعجبتني كرومها ذات الأرض الرملية والعنب الممتاز ، والتين واللوز ، بقدر ما أعجبني لطف أترابي من أبنائها وبناتها . فكنا نصعد معاً نحو الشمال على ظهور الدواب لجلب الماء من عيون « الغجغجيات » الواقعة في جبل عرمان ، ونمرح ونضحك كثيراً ، كأننا في نزهة في صميم السلم والطمأنينة — وكنت أنزل إلى عرمان لأبقى بضعة أيام إلى جانب والدي ، فلم أشأ أن أحسب على الصغار اللاجئين بصورة نهائية ، ووالدي كان يرحب بي ، إلا أنه كان يرتبك لوجودي خلال الغارات التي لم تنقطع . فيطلب إلي أن أختبىء ، بينما هو يصعد إلى السطح ايقاوم الغارة مثل غيره من رجال

القرية . ولكني كنت أرفض وأقول له : « لن أتركك وحدك ، فما يصيبك يصيبني » .

على أن فترة اللجوء لم تطل كثيراً : ذلك أنا كنا قد تجاوزنامعركة المزرعة بأكثر من شهر وصارت الاحاديث عنها مشهورة ووقائعها معروفة ، وقصة ابادة الآلاف من الجيش الفرنسي أصبحت واقعة تحدث العالم كله عنها . وانتشر الشعر الشعبي يروي ويصف ويمجد البطولات الفردية والجماعية . وغارات الطائرات المزعجة التي كان يتخللها اسقاط طائرة هنا وطائرة هناك أصبحت أمراً عادياً .

وذات يوم . . كنا قبيل الغروب في البيت حينما دخل علينا فجأة يوسف المتني ،ابن عم والدتي.دخل وبندقيته معلقة بكتفه اليمنى وأحزمة الفشك تغطي وسطه وتتصالب على صدره وظهره مثل أكثر المحاربين ، وتتدلى من محزمه أيضاً بضع رمانات (قنابل يدوية) . وبعدما سلم وجلس ، أخبرنا بأنه وصل لتوه من السويداء وأنهعائد اليها فوراً ، فقد جاء ليأخذ مقص الشريط الشائك الذي كان لديه لأنه سيحتاج إلى استعماله في معركة وشيكة الوقوع . كنا نحب يوسف ، كأنه واحد من بيتنا . لما كان يتصف به من شهامة ، وشجاعة ، وصدق ، واستقامة. لقد كان مثالاً للفتى العربي ، أيام كانت الفتوة والفروسية تعنيان عالماً من الفضائل يضيق عنه عالمنا الحاضر . . جاء وجلس معنا فترة قصيرة وودعنا وانصرف عائداً إلى السويداء ، سيراً على الاقدام—كما جاء منها— ولم نكن ندري أننا كنا نرآه لآخر مرة . قطع سبعين كيلو متراً جيئة وإياباً ، ثم سار من السويداء إلى المسيفرة ، مع المهاجمين فمن أجل معركة المسيفرة التي كان قد تقرر مباشرتها . جاء ليأخذ المقص فعلى

المهاجمين أن يفتحوا لهم طريقاً عبر الأسلاك الشائكة إلى خنادق العدو (استحكاماته حسب التسمية الشائعة عندنا) .

وظهر اليوم التالي بدأت الأخبار تصل عن معركة كبرى يحتدم أوارها في المسيفرة . لقد هاجم الثائرون الجيش الذي كان يتجمع لغزو الجبل في القرية الحورانية السهلية — المسيفرة — هاجموه فرساناً ومشاة قبيل الفجر ، لا تحميهم صخور ولا شجر . وانطلق عيار ناري أيقظ الجيش ، فأطلق في الجو أضواء كاشفة وراح يحصد الثوار برشاشاته ومدافعه ودباباته وسائر أسلحته . فمن الثوار من نكص على أعقابه ، ليحمل موجة الاخبار الأولى ، والأكثرية الساحقة رأت أن الهجوم أسلم وأنبل فتابعت هجومها ، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي مزقت الصفوف . ودارت معركة شرسة طوال ذلك اليوم ، من الفجر حتى الليل ، برز فيها من ضروب البطولة ما لا مثيل له إلا في الملاحم والأساطير . داخل الخنادق دار القتال : على جدران الخنادق قتل المهاجمون ، واحتل عدد كبير منهم سطوح القرية ، ومن على السطوح بدأوا يقتنصون الجنود في أعماق خنادقهم — وحينما جن الليل خرجوا من القرية تفادياً للتطويق من قبل قوات جديدة قدمت لنجدة العدو . خرجوا حاملين معهم الكثير من أسلحة الجيش ، وعتاده وخيوله ، وبغاله ، ولكن الخسائر بالأرواح كانت كبيرة جداً ، كبيرة وغير معقولة بالنسبة إلى ثورة شعب صغير على دولة كبيرة . كان يجب عليه أن يقتصد بالرجال ما أمكن له الاقتصاد . ولكن البطولة — كما كانوا يفهمونها آنذاك — لها قوانينها التي لا تنطبق على قوانين الثورات المنظمة التي جرت إبان الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

لا أريد أن أنتقل من الرواية إلى الفلسفة : ففي ضحى اليوم الثالث ، كنا حوالي الطبق نتناول الطعام ، حين دخل علينا حسن صيموعة ، زوج إحدى خالاتي ، ويده مضمدة ، لأنه أصيب فيها برصاصة ، وبندقيته بيده — وراح يروي لنا ما جرى في معركة المسيفرة : « يوسف أعطاكم عمره » — ووقعت اللقمة من يد كل منا وكففنا عن متابعة الأكل ، وأخذت الدموع الصامتة الصابرة تسيل — « والشيخ أبو محمد سعيد الحجلة — وفارس أبو خير — وداود الصغير — وفندي جابر — وسلامه صيموعه حامل البيرق — وتناوب على حمل البيرق ثلاثة من آل صيموعة قتل منهم اثنان وجرح الثالث (حسن) — وجبر الجرمقاني .. وعشرات غيرهم — استشهدوا جميعاً بين أكثر من ثلاثمائة قتيل من مختلف أنحاء الجبل » — كل بيوت القرية كانت مصابة — من أذكر ومن لا أذكر ؟ كان لابد لي من تذكر الاقارب — وهذا طبيعي — ولكني ذكرت المرحوم الشيخ أبو محمد سعيد الحجلة لقد كان شيخاً مهيباً وقوراً تقياً ، عمري ما نسيت وجهه الواسع الأبيض ، المستبشر ، وعينيه الواسعتين المملوءتين عطفاً وانسانية ، والشعرات البيضاء تتخلل لحيته السوداء فتزيده جمالاً وتأثيراً — أذكر أنني حملت له شيئاً ما مرة أرسله إليه والدي معي ، فلاطفني ملاطفة لا أنساها ، وملأت صورته البهية نفسي حباً وإعجاباً وقدم لي قطعة من البقلاوة أحسب أني لم أذق أطيب منها في حياتي وهو اذ يختتم حياته النقية بالاستشهاد يكبر في نظري ، ويكبر في عيون الناس ، حتى لينتصب عملاقاً لا يدانيه أحد . أم أذكر فارس أبو خير ذلك الشيخ الوقور ذا الوجه الصبيح المشع نوراً ، أم أذكر داود الصغير (أبو سليمان) وهو بطل من الأبطال استشهد

وجرح ولده سليمان في ساعة واحدة – أم أذكر فندي الصغير الذي نقلوا عنه أنه ظل يقاتل اثنتي عشرة ساعة كاملة ، أفرغ خلالها صندوقين من الفشك (الذخيرة) من وراء مدحلة (مدحاة) فوق أحد السطوح ، وحينما غابت الشمس وقف،وقال بأعلى صوته : « إذا كان بينكم من هو أشجع مني فليصعد إلى هنا » لقد نسي رحمــه الله أنه كان على مسافة أمتار معدودة من خنادق العدو ، وان العدو لم يكن ينتظر غير هذه الاطلالة ليرميه فيصيبه في جبهته الشماء ، فيستشهد – من أذكر ولا أذكر؟ لم أذكر إلا بعض الوجوه التي كنت أعرفها ، وصورتها لا تفارق مخيلتي .

* *

الفصل الثامن

ماوراء التاريخ

غير أنني أفكر الآن في تلك المعركة البطولية وأسأل نفسي : هل كانت هذه المعركة نتيجة تدبير خبيث ؟ لقد كان الفرنسيون يتوقعون مثل هذا الهجوم ، كما يظهر من أقوال كتابهم ، فهل كان توقعهم من قبيل الاستنتاجات العامة أم كان نتيجة مسعى لجر الثائرين إلى كمين مميت ؟ من يستطيع أن يجزم بذلك ؟ ما يمكن قوله –بكل تأكيد– هو أن أي قائد ثورة يدرك حدود المسؤولية ، ويدرك معنى الاقتصاد بحياة رجاله ، ومعنى إحداث أكبر هزة ممكنة لدى العدو بأقل خسارة ممكنة من الثائرين ، ومعنى أن استمرار اشتعال الثورة أهم من احتراقها السريع المتوهج ، ما كان ليقدم على مهاجمة موقع كموقع المسيفرة . ولكن . . نحن كنا وما نزال نقاتل بروح القبيلة ، وعادات القبيلة ، وغباء القبيلة . هذا مع اعتزازي بالبطولة الفذة التي برهن عليها مقاتلونا في معركة المسيفرة ، تلك البطولة التي شهد بها الأعداء أنفسهم في كتاباتهم (يراجع لطفاً ما نقله الاستاذ سلامة عبيد عن دوتي ، مؤلف كتاب « الفرقة الجهنمية ») ، ان الهجوم الذي يصفه دوتي لا يقل روعة عن أعنف هجوم تقوم به فرقة من أعظم جيش في العالم . المهاجم الذي لا

يموت ألا وهو ممسك بجدار خندق عدوه ، أو الذي يموت واقفاً ، كما يقول دوتي . ولكنني أفكر الآن في الصورة التي كانت ستكون عليها الثورة ، لولا خسارتنا الجسيمة بالرجال في المسيفرة . هؤلاء الذين قتلوا في المسيفرة كانوا قادرين وحدهم على خوض معارك عديدة عندما يتقدم الجيش نحو الجبل ويدخل أرضنا الوعرة ، وكانت الثورة ستستمر ، ومع شيء من حسن السياسة والتدبير ، كانت ستعم البلاد ، وكان الجلاء قد تم عام ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ بدلاً من عام ١٩٤٦ . ذلك أن الذين قتلوا في المسيفرة كانوا من خيرة المقاتلين ، كانوا من الطلائع . .

لقد أسهبت في الجمل الاعتراضية . فلأعد إلى سياق حديثي . بعد الذي سمعناه من حسن صيموعة ، وبعد رجوع خالي الاثنين وبكل منهما بعض الجراح البسيطة ، بعد معرفة أسماء القتلى والجرحى ، خيم على قريتنا جو من الكآبة الخرساء : كل يبكي فقيده ، ولكنه يبكيه صامتاً ، راضياً مسلماً ، يبكيه مفتخراً ، رافعاً رأسه ، لأن الشهيد لا يجوز أن تقام عليه المناحات ، ولا يجوز أن ينظر إلى موته خلافاً لما ينظر إلى عرسه : عرسه عرس الحياة الدنيا ، واستشهاده عرس المجد والخلود . وصعب على الناس ما سمعوه من قيام الفرنسيين باحراق جثث الشهداء : يا للمحرقة المقدسة ! أكثر من ثلاثمائة شهيد بينهم الجرحى الذين أجهز عليهم البرابرة يحرقون هكذا ولا يجدون من يتولى مواراتهم التراب ! صعب ذلك على الناس . ولكن تسارع الحوادث لم يترك مجالاً للتفكير ، والتأمل ، وتغذية الاحساس وانمائه . .

فبعد أقل من اسبوع بدأ الزحف على الجبل . بدأ الزحف على السويداء بقصد انقاذ حامية القلعة وعبر معارك قاسية ، وضروب من

البطولات الاسطورية لثوارنا ، تمكن الجيش من دخول السويداء وانقاذ حامية القلعة . ولكنه ، بدلاً من البقاء فيها ، كما كان يظن ، انسحب وغادر الجبل . كان يقوده الجنرال غاملان ، أحد أبطال الحرب العالمية الأولى ، انسحب لأنه ، بدخوله ، فقد الكثير من رجاله وفقد ما هو أهم من ذلك — من الناحية التعبوية — فقد قافلة امداده من سيارات وحيوانات . ولم يكن قادراً على تأمين خطوط تموينه بين ازرع والسويداء أو المسيفرة والسويداء ، لأن الأرض ما تزال بيد الثوار ومازالوا يمسكون بزمام المبادرة .

بعد بضعة أيام عاد الجيش يحاول غزو الجبل فحدثت معركة (عرى ورساس) الأولى . كانت معركةضارية أبلى فيها محاربونا بلاء حسناً . فهم ،حينما تكون المعركة في أرض مكشوفة ، خارج الأسوار والحصون والتحصينات ، لا يجاريهم أحد في فنون الكر والفر وايقاع الإصابات بالعدو . أذكر أني كنت أتابع سير المعركة بالسماع فأقول : انهم يتجهون شمالاً — ثم : إنهم ينحرفون غرباً — ثم : انهم يتجمدون مكانهم . وكانت المعركة بالفعل — كما تبين بعدما عاد المقاتلون ورووا تفاصيلها لنا — قد تحركت بهذه الاتجاهات وأوقعت بالعدو خسائر فادحة . فقد استولى مقاتلونا على الكثير من السلاح والذخيرة . وارتفعت ، يومها ، أسهم رجال الدين ، الذين تشبثوا بأرض وعرة ، ولم تستطع قوة العدو المتفوقة ان تزحزحهم من متاريسهم بل ارتدت خاسرة خاسئة ، تاركة وراءها العديد من القتلى . وخسرنا عدداً آخر من الشهداء .وانسحب الجيش بطريق المزرعة . وبذلك أصبح الجبل بكامله محرراً تحريراً كاملاً ، وسيبقى كذلك نحو ستة أشهر . ولا يفوتني هنا أن أصف حال نساءالقرية ، ابان مثل هذه المعارك ، التي كنا نسمع دوي مدافعها من

بعيد ولا نعرف كيف تدور ، وماذا يجري فيها . كنت أرى عدداً من النساء يتجمعن ، غربي القرية ، في فيء الجدار الغربي للقرية ، وهن يتبادلن الأحاديث والتعليقات ، ويدعين للثوار بالنصر . ان أقبلت عليهن امرأة تحمل جرة ملآنة قلن .

— ملآنة بعون الله ! النصر لنا إن شاء الله !

وان مرت بهن امرأة تحمل جرة فارغة ، وهي ذاهبة لتملأها ، قلن :

— كفانا الله شر الجرة الفارغة ! فال الله ولا فألك !

وان قالت احداهن أنها رأت رجلاً قادراً على القتال متخلفاً في القرية ، أطلقن عبارات الاستنكار ونعتن الرجل بالجبن والخنوع ، وحملن عليه حملة شعواء ، وشكلن وفداً منهن لتوبيخ الرجل وارساله إلى القتال أو اخراجه من القرية — على الأقل — . وكانت احداهن تقوم بأعمال حسابية بالبحص (الحصى) وتترجم الخمسات والسبعات إلى تنبؤات بالنصر أو الهزيمة .

كنت معجباً بالحزن الممزوج بالكبرياء ، أو بالكبرياء الحزينة ، معجباً بالدموع غير المرئية تخبئها القلوب الكبيرة الصابرة ، المفكرة في النصر والشرف ، أكثر من تفكيرها في الراحة والسلامة .

لقد جلت الجيوش عن الجبل ولكن الغارات الجوية لم تنقطع . وفي هذه الآونة ، ومنذ قيام الثورة ، انقطعنا عن المدارس. ويا ليت الأمر اقتصر على ذلك . فلقد جاءنا معلم شيخ مشهور بتدريس الديانة . ولعدم وجود مدرسة أخرى التحقت بمدرسته مكرهاً . وأول شروطها أن نحلق شعر رؤوسنا ، فحلقناه . وكان من حسنات الكوفية البيضاء أن تغطي

هذا المنظر المجافي للجمال ، منظر الرأس الحليق . وكان الشيخ مثالاً للسماجة والجبن . فقدكان لا يدرك أي معنى للمسؤولية : فاذا سمع هدير الطائرات أسرع بالخروج هارباً ، باحثاً عن ملجأ ، تاركاً تلاميذه في فوضى ورعب جماعي ، غير منتظر — على الأقل — ان يخرجوا قبله . ولم يكن أحد في القرية أشد خوفاً منه غير بيطار دمشقي كان يُرى ، كلما اقتربت الطائرة ،وهو يركض خارجاً من القرية إلىالبيادر والكروم وهو يصيح : « يا حفيظ — يا حفيظ ! » وكان مشهوراً عن هذا البيطار انه كان يحدث عن شجاعة والده فيصفه بكل صفات البطولة . وحينما يسألونه : « كيف مات ؟ » كان يجيب : « مات بالخريعة » أي خوفاً .

ولنعد إلى معلمنا الشيخ المحترم . لقد كان يلبس عباءة فضفاضة وعمامة بيضاء ضخمة . وعباه كانا أبدا منتفخين ، محشوين بصرر الملبس ، والزبيب ، والقضامة ، إلى جانب المناديل الكبيرة لتتسع لمخاطه الذي لا ينضب . كان في فمه ابداً شيء ما يمتصه أو يمضغه . وكان مكوياً في أسفل ساقيه ، فكان يبدل ضماد الكي وحبات الحمص منه أمام التلاميذ . وكان هذا المنظر يؤلمني ، ويصيبني بالقرف والغثيان . والحسنة الوحيدة التي أذكرها له هي أنه أحدث في نفسي رد الفعل الشافي من التأثر بالمظاهر ، وعدم الانخداع بها . فما كل من لبس العمامة شيخ ، ولا كل من تعلم أصبح مثقفاً ، وان الذوق السليم أهم من العلم والتقوى ، ولا قيمة لهما من دونه . هذا إلى جانب حسنة أخرى أفدت منها ، وهي أنه كان يعرف قواعد اللغة العربية معرفة جيدة . وبدأت أنظم الشعر في عهده . وأذكر أن أول أبيات موزونة نظمتها كانت عن

الثعلب والعنب (القصة المشهورة) وما زلت أذكر منها هذه الأبيات الثلاثة :

ثعلب بين الكروم طالب الأكل يحوم
شاهد العنقود في رفعة مثل النجوم
فأتاه مسرعاً أكلة منه يروم . .

وهكذا أكون قد بدأت أنظم الشعر وأنا في الثالثة عشرة من عمري.

بعد خروج الجيش من الجبل خريف ١٩٢٥ ، تحرك الثوار باتجاه الغوطة لدعم الثورة هناك . وفي هذه الاثناء ، وفي إحدى الليالي شوهدت النار موقدة تتأجج على قمة القليب (أعلى قمة في جبلنا) ، وقد أوقدت جواباً لنار كبرى كانت قد شوهدت على قمة جبل الشيخ . لقد كان هذا اعلاماً باشتعال الثورة في المناطق المحيطة بجبل الشيخ ، في وادي التيم واقليم البلان— وأسرع أهالي الجبل لنجدة الثائرين ، ونقل النازحين منهم إلى داخل الجبل . وشاهدت مواكب هؤلاء اللاجئين : شاهدت رجالهم يحملون بنادق انكليزية ذات سبطانة حديدها سميك (مضاعف) وكانوا يسمونها — لهذا السبب — « أم حديدين » ، وكانوا يسوقون أمامهم قطعان ماشيتهم من غنم وماعز وبقر . أزياء نسائهم كأزياء نسائنا : اللباس الأسود الطويل والفوطة البيضاء فوق الرأس ، ولكن بدون شكات الذهب التي تعلو الجبين . أما رجالهم فكانوا يرتدون الكوفية بدون عقال — أو يرتدون العمامة . ولبس العقال بينهم نادر . ويختلف رجالهم عن رجالنا بأنهم يتولون رعاية قطعانهم بأنفسهم ، بينما نحن في الجبل قطعنا هذه المرحلة وأوكلنا أمر الرعاية إلى البدو الشركاء — كما ذكرت سابقاً.

بات على الجبل أن يقوم بتموين سكانه وتموين اللاجئين اليه ،وكل

واحد يدرك مدى هذه الصعوبات ، ولاسيما أن أكثر الرجال القادرين على القيام بأعمال الزراعة كانوا يحملون السلاح ويهتمون بالمعارك .

كانت أخبار المعاركالدائرة فيالغوطة ، وجبل الشيخ ، واقليم البلان ، وجهات راشيا ، ومرجعيون ، ترد إلى الجبل ، يحملها عائدون أو جرحى ، ويحملون من جملتها أسماء القتلى ووصف البطولات الخارقة التي ظهرت هناك ، إلى جانب الأخطاء الفادحة التي صدرت عن بعض قادة الثورة وبعض الثائرين . وكانهذا يدلعلى الارتجال وعلى عدم الانضباط ، وفقدان القيادة الواحدة ، المسيطرة الحازمة ، المخططة — آه يا روح القبيلة ! يا أكبر عدو لأمتنا العربية ، كم سببت لها من نكبات ونكسات ، ولم تستطع أن تشـّفىمن دائك العضال ، لا في معاركها الاقليمية ولا في معاركها القومية ! . .

بالنسبة الينا ، نحن الباقين في القرى ، فقد أمضينا آخر خريف١٩٢٥ وشتاء ١٩٢٦ في شبه راحة **تامة** — لقد بعدت المعارك عنا والغارات الجوية خفت بسبب الطقس ، وأمضينا بضعة أشهر ونحن — التلاميذ — يرافقنا معلمنا الشيخ كالكابوس . والقرية كانت في حداد صامت رهيب. أقسى ما كان يصادفني رؤيـــة الأرامل والايتام : عندما أدخل بيوت الأقارب التي خلت من الرجال ، كنت أشعر أنني أدخل إحدى خرائب التاريخ — النساء في لباسهن الأسود ، والعيون المقرحة ، والخدود المجرحة ، من آثار البكاء ، والصراع الداخلي الصبور . والأطفال وهم يسألون عن آبائهم متى سيعودون، والأجوبة المتحايلة تقطر مرارة ، كل ذلك كان من المزعجات التي تضيق بها الروح ، وتتحطم الأعصاب ..

وفي الشتاء عاد المقاتلون أيضاً إلى الجبل ، بانتظار الربيع . .

الفصل التاسع

إعادة الاحتلال والتهجير

(النزوح)

وجاء الربيع ، وجاء نيسان ، نيسان ١٩٢٦ هذا الذي لم أنسه وخاطبته قائلاً في أواخر ١٩٦٢ :

نيسان أقلقت دنيانا فكم حملت   أيامك الخضر من شر نيسان
أتيتنا بزحوف لا انتهاء لهـا   فكل شبر من الريان ميدان
لا هدنة في نهار نستريح بهـا   وكل ساعاتنا في الليل جولان

في أواخر نيسان (٢٤ منه) بدأ الزحف على محورين محور بصرى — صلخد ، ومحور المسيفرة — السويداء وكان المقاتلون من منطقتنا (المقرن القبلي) يستعدون للقاء الجيش بين بصرى وصلخد . ونحن ، الصغار ، أقفلت مدرستنا ، وشيخنا الشجاع صار أحرص على ايجاد مخبأ لنفسه منه على تعليم تلامذته . نحن الصغار يجب أن نفعل شيئاً — آباؤنا ينتظرون الجيش الزاحف على بعد أقل من عشرين كيلومتراً من القرية ، ونحن نبقى جامدين : هذا غير معقول : فعقدنا اجتماعاً واتخذنا قراراً خطيراً : سيحمل كل منا أية قطعة سلاح ، ونذهب إلى قلعة صلخد ، ونحاصر فيها وندافع عنها . وكان منظراً مفرحاً مبكياً منظرنا ونحن نسير بأسلحتنا الغريبة ونتجه ، ونحن ننشد الأناشيد الحربية ، إلى صلخد . كنت أحمل

حربة بندقية ألمانية مستقيمة . عريضة . مدببة ، علقت غمدها بحزامي على الجانب الأيسر ، وجربت عدة مرات كيف أجردها وأغمدها ، وكنت مزهواً بلمعانها . وكان رفاقي يحملون حربات مماثلة أو سيوفاً أو خناجر . ولم يكن مع أحد منا سلاح ناري فالأسلحة النارية كانت فوق مستوانا ، وكانت مشغولة مع أهلنا ، مع المقاتلين الكبار .

وبلغنا صلخد الواقعة على بعد أقل من خمسة كيلومترات من قريتنا ، وأخذنا نتسلق تلك القلعة — كان الصعود صعباً ، فالتل رملي بركاني وجوانبه شبه مستقيمة. ولما بلغنا اعلاه ونحن نعتقد أننا سندخل القلعة مباشرة ، وجدنا أنفسنا أمام خندق عميق واسع يحيط بالقلعة من جميع جوانبها . وكنا نشاهد ذلك أول مرة في حياتنا . وألقينا نظرة على الخندق وعلى القلعة وراءه ، وعرفنا أي درب نسلك : نزلنا الجانب الأول وصعدنا الثاني ، وإذا نحن في القلعة . ورحنا نتجول في أقسامها ، في ممراتها الداخلية المظلمة ، في أقبيتها الصامتة الرطبة ، وقد أدهشتنا عظمة البناء الشاهق ، وضخامة الحجارة المستعملة في البناء — ووصلنا إلى الجهة الغربية من القلعة واسترحنا هناك ، وتناولنا ما معنا من طعام ، ورحنا ننتظر اقتراب صوت المعركة . كنا نسمع أصوات المدافع ، ولكن هذه الأصوات — بدلاً من أن تقترب باتجاهنا — أخذت تبتعد باتجاه الشمال . وانتظرنا. والأصوات كانت تبتعد أكثر فأكثر . فاستنتجنا أن اتجاه الجيش قد تغير . وقد يكون مقاتلونا هم الذين أجبروه على ذلك . وفهمنا — فيما بعد — ان الجيش حاول أن يقوم بخدعة ، فأوهم انه سيتجه إلى صلخد ، وكان في الحقيقة ينوي الاتجاه نحو السويداء بعد أن يكون قد جمد مقاتلي الجنوب بين صلخد وبصرى . ولكن المقاتلين — كما أخبرونا بعد ذلك — كانوا قد أدركوا حقيقة نيته وسارعوا إلى قطع الطريق عليه عند رساس

وعرى والمجيمر . ودارت معارك بطولية فوق الهضاب وحتى في السهول بين الزرع . وتكبد العدو خسائر فادحة بالرجال والمعدات، واستولى رجالنا على المزيد من الأسلحة.أما المعارك التي لاقاها الجيش المتقدم على محور المسيفرة — السويداء فحدث عنها ولا حرج . لقد دفع العدو ثمن كل شبر من الأرض ، وسجل التاريخ لرجالنا بطولات خالدة على الدهر.

كنا قد عدنا من مغامرتنا الصبيانية آخر النهار ، وقد تبين لنا أن قيادتنا (البعيدة النظر) نسيت أن تحتاط لزاد يكفينا يومين — على الأقل— وللأشياء الضرورية للنوم في تلك الليالي الباردة وعلى ارتفاع أكثر من ١٥٠٠ متر عن سطح البحر . ولكننا شعرنا أننا أصبحنا رجالاً ، وأننا سنكون النسق الثاني في القتال — ومارسنا — أول مرة — القيادة الجماعية. فقد كنا ثلاثة أو أربعة نتولى قيادة الكل . واستقبلنا نساء القرية بالزغاريد ودعون لنا بطول العمر ، وبأن يحرسنا الله من كل عين غادرة .

وجاءت الأخبار بأن السويداء قد احتلت . وكانت بداية مرحلة جديدة في حياتنا ، مرحلة محفوفة بالأخطار ، حافلة بالأحداث : فعندما احتلت السويداء هذه المرة ، وأدرك الناس أن الجيش المحتل لن يغادرها مختاراً أو مضطراً كما فعل في المرة الأولى ، بدأت عمليات التسليم ، وفي الوقت ذاته بدأ الفرنسيون يشكلون مفارز الفرسان من المتطوعين. فيدفعون للمتطوع اثنتي عشرة ليرة عثمانية ذهباً . وهذا المبلغ كان شديد الاغراء بعد سنتين من الفاقة والعذاب . وأول من تطوع أبناء العائلات الكبيرة والمقربون منها . وبدأت نبوءة والدي وصديقه تتحقق.

وبعد مدة قصيرة بدأ الزحف لاحتلال (المقرن الجنوبي) أي منطقة صلخد . بدأ الجيش المؤلف من نحو اثني عشر الفاً من الجنود ، يتقدم

من بصرى ، محتلاً ذيبين ، متقدماً باتجاه أم الرمان ، فعنز ،فالمشقرق ، فصلخد ، وخاض رجالنا ، على طول الطريق ، معارك ضارية كبدوا العدو فيها خسائر كبيرة . ومن أبرز هذه المعارك معركة أم الرمان ثم معركة تل الحبس بحيث لم يدخل الجيش صلخد حتى دفع ثمن كل شبر من الأرض . وخسرنا عدداً آخر من الأبطال . أذكر من بينهم ، بالنسبة إلى أسرتنا ، البطل أحمد الصغير (أبو علي) . وكان البطل محمد الصغير (رفيق أدهم خنجر) قد قتل في معارك جبل الشيخ خلال انتشار الثورة خارج الجبل . وتميزت معارك الزحف على صلخد بوجود المتطوعة الجبليين بالإضافة إلى متطوعة المناطق الأخرى : وهكذا كان الجيش مؤلفاً في أكثره من العرب ، يقوده ضباط فرنسيون ، يحتل بلداً عربياً ثائراً لحساب دولة مستعمرة . مفارقة ! هكذا كانت حالنا وهكذا ظلت حتى تم لنا التحرر والاستقلال بعد سنين وسنين ! . . .

ماذا كان يعنيه احتلال صلخد ؟ كان يعني تمركز الجيش في قلعة تشرف على جميع أنحاء المنطقة إلى مسافةعشرين كيلومتراً . وتعني امكان تدمير قريتنا بالمدفعية العادية فضلاً عن المدفع البعيد المدى الذي ركزوه في القلعة . على أننا لم ننتظر ذلك . كان لابد من مغادرة القرية ، لا بد من الهجيج . وماذا يعني الهجيج : يعني أن تغادر كل أسرة منزلها وليس معها غير أخف الأشياء حملاً ــ حسب امكانات النقل ــ وتترك الباقي مخبوءاً في حفرة تحت الأرض ، في مكان ما ، في المنزل أو في جواره ، أو في الكرم مثلاً ــ وخرجنا من القرية وليس معنا سوى بعض المتاع على حمارتين ، بينما كان اخوالي يملكون جملاً وفرساً ودواب أخرى ، وكانت كل عائلة من القرية تسوق دوابها وتسير باتجاه الشرق ، نحو الصحراء ، إلى تل « المشتى » ، وقد خرجت من البيت دامع العينين ،

تاركاً حماماتي الحبيبات ، تلك الحمامات المكاويات المتراوح لونها بين الرمادي والأزرق ، يتخلله بعض البياض ولمعة من اللون البنفسجي حوالي العنق ، والتي كنت أبذل كل عنايتي لإكثار عددها وابقائها نظيفة فرحة ، تطيب حركاتها ويطرب هديلها . وكان والدي قد عرف حبي إياها فأحدث لها أمكنة تبيت فيها ، وذلك بأن غطى أطراف خشب السقف في الايوان على الجانبين بدفة عريضة محاذية للجدار ، بحيث تكونت طاقة أو عش بين كل خشبتين ، وأصبحت الدفة أرض الطاقة أو العش والجدار قعرها.

غير أن عدداً من رجال القرية المتقدمين بالسن قرروا البقاء في القرية بانتظار التطورات ، عازمين على حمايتهامن التدمير ، لأنهم رأوا ، ببعد نظرهم وبحكم تجربتهم ، ان هذه المئات من الأسر المؤلفة من نحو ثلاثة آلاف نسمة أكثرهم من النساء والأطفال سيعودون قريباً إلى القرية ، فاذا لم تكن القرية عامرة فأين سيجدون المسكن ؟ إن الخروج من القرية كان من أجل اتقاء خطر المعركة الدائرة ، ولكن بعد المعركة هل نترك للمحتل بلادنا ؟ هذا الذي فطن له المسنون من قريتنا جنبنا المصير الذي آل إليهاخواننا الفلسطينيون بعد ذلك ،مصير اللاجئين . خرجنا من القرية مع أخوالي ، وودعنا والدي إلى خارج القرية وداعاً شبه أخير ، ومضينا ، قوافل بائسة ، ضائعة ، لا تدري ما سيكون مصيرها . .

كان كرمنا المجاور للبيت مزروعاً شعيراً بلغ ارتفاعه مبلغاً لا عهد لنا به من قبل وكان قد أوشك أن ينضج حينما غادرنا القرية . يقولون عندنا ، في مثل هذه الحال : « الزرع شامت بأصحابه » . فخلال طريقنا باتجاه الشرق ، عبرنا مئات من حقول الحنطة والشعير ، وكلها كانت ناجحة جداً تبشر بموسم نادر . نترك كل ذلك ونبتعد وليس مع العائلة

من عائلاتنا أكثر من مؤونة بضعة أيام . ليس أمامنا بلد مجاور آمن يقبل باستقبالنا وايوائنا واطعامنا ، وأقرب بلد هو الأردن وهو خاضع للانكليز . والانكليز — مهمايختلفوا مع الفرنسيين — فلا بد أن تلتقي مصالحهم الاستعمارية كما التقت يوم تقاسموا بلادنا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . والسعودية بعيدة . خرافة كانت تدور على ألسنة الثائرين لمخادعة الناس وايهامهم أن جيشاً سعودياً كان قادماً لنجدتهم بقيادة « ابن جلوى » . وها نحن نترك كل شيء ، ذاهبين إلى لا شيء ، ذاهبين إلى المجهول ، إلى التيه . ومع ذلك كان لابد من الابتعاد حتى لا نتعرض لأهوال المعركة مباشرة تاركين ذلك للرجال . ولكني لاحظت ان الرجال المقاتلين هم أيضاً مهاجرون معنا . كلهم بسلاحهم الكامل. اذن كانت هي النهاية : كانت الثورة بشكلها الكامل تلفظ أنفاسها الأخيرة . وكيف تستمر الثورة على هذا النحو العشوائي ؟

كل ثائر يقود نفسه . كل ثائر يمون نفسه ، يقطع الطعام عن زوجه وأولاده ليأخذه معه إلى المعركة أو ليشتري بثمنه ذخيرة . فليس هناك تخطيط للتسليح أو الامداد بالذخيرة أو أي عمل جماعي منظم . الآراء بعدد الرجال . فكان كل رجل هو صاحب الرأي السديد ولا أحد يسمع أو يطيع . ولماذا يطيعون اذا كانت القيادة لا تطلع أحداً على شيء ، ولا تعترف لأحد بحق الرقابة ، أو الانتقاد ، أو الاعتراض ؟ لقد تساوى في المعاملة الثائر الذي لم تفته معركة واحدة ، والعميل الذي أمضى مدة الثورة في قلاع الفرنسيين ولم يعد إلى بيته إلا في طليعة جيش الاحتلال . كانت التناقضات أكثر من أن تحصى : وقد شهدت بنفسي قافلتين تسيران باتجاه الشرق ، قافلة زعيم وقافلة فلاح بائس . وكتبت في

الثلاثينات وصفاً لهما اذ كانت صورتهما ما تزال عالقة بذاكرتي حية تنبض . ولا أجد بأساً في إيراد هذا الوصف هنا ، كما كتبته واحتفظت به من أيام الدراسة . وهو يبدو هكذا واقعياً غير متأثر بما استجد عندي من أفكار وفلسفات جاءت مع العمر والعلم .

« قافلتان : أصبحت وطأة الطيارات ثقيلة . وأخذت الجيوش تكثر من التجوال في أنحاء الجبل فاختص الجيش الذي يقوده الجنرال أندريا باكتساح الناحية الجنوبية من الجبل . وما لبث أن احتل قلعة صلخد الشهيرة المسيطرة على جميع القرى الجنوبية والشرقية من سهول حوران حتى الصحراء السورية .

أخذت المدافع تضرب القرى فأضيف خطرها إلى خطر الطيارات. وأصبح البقاء في المنازل من المستحيلات فهرع الناس إلى كهوف الصحراء السورية— في تل المشتى وخربة المجنون (مجنون ليلى) — يتقون فيها شري الجو والأرض . وكان كل يحمل معه أثمن ما يملك .

وكانت بين القوافل السائرة من الجبل إلى الصحراء قافلتان تستدعيان الاهتمام لما اتصفتا به من صفات يمكن تعميمها على سائر القوافل : قافلة مؤلفة من ثلاثين جملاً وأربعة بغال وعشرين رجلاً بعتادهم الحربي ، وقافلة مؤلفة من رجل وامرأة : قافلة زعيم وقافلة فقير . قافلة حملت المال في الصناديق الحديدية ونقلت كل خفيف الحمل غالي الثمن » كما يقول الجبليون . وسارت الجمال بأجراسها وجلاجلها وكأنها تشعر بقيمة ما على ظهورها . وسار الرجال ملثمين تحت كل منهم جواد عربي يتصل نسبه بـ « دهيمان » أو « أبي عرقوب » أو « عبيّان » ومع كل منهم بندقية ألمانية حديثة العهد بالتنظيف والدهن وسار

الفرسان ينشدون الأناشيد الحربية الحماسية ويكثرون من مراجعة الأبيات الآتية على ذكر الزعماء مثل :

البيت مـا يبنى بليـا (بـلا) عمـــادي
وسلطان عمود البلاد وطنيبها (طنبهـــا)

ساروا لا يكترثون لقنابل الطيارات والمدافع لأن النكبة تحترم القوي متبعة في ذلك سنة في الطبيعة زائفة جائرة . .

وفي الوقت نفسه كانت القافلة الثانية تقصد الجهة نفسها على طريق أخرى : رجل شاب وسمته الآلام بمياسمها البارزة الأثر وامرأة عجوز بدينة هي جدته . المرأة لا تستطيع السير على القدمين لتقدمها في السن. ولم يكن لدى حفيدها مطية ينقلها عليها . فكان عليه أن ينقلها على ظهره. ولكنه بحاجة إلى نقل ما يقتاتان به ويلتحفان ، وإلا لخسرت تجارته لأن الصحراء بأيامها الحارة ولياليها القرة تنتظرهما . فما العمل ؟

(الشدة) تفتق الحيلة . اهتدى صاحبنا إلى طريقة لم يهتد اليها أحد قبله : أخذ ينقل جدته إلى مكان ما ثم يعود إلى حيث ترك زاده وغطاءه فيحملهما إلى حيث جدته فينقل هذه إلى الامام ويعود إلى الزاد والغطاء. وهكذا دواليك . كل هذا والعرق ، عرق التعب والهم والنقمة على مسببي شقائه ، ينحدر من جبينه سلاسل سلاسل فيحمر وجهه ويشعر بأن الهواء لا يكفيه فيتنفس من حلقه وأنفه وسائر ثقوب بدنه معاً . .

هو يقطع في أربعة أيام ما تقطعه القافلة الأولى بنصف يوم . وهو — مع ذلك — عرضة للطيارات والمدافع لا يستطيع إلى مقاومتها سبيلا . ولم يكن لديه من السلاح الا بندقية محزومة فوق لحافه لا يمكنه استعمالها

لأنه لم يكن لديه ما يبتاع به خرطوشاً ، ودعاء شخصي يطلب به من الله العون والخلاص من هذه الحالة .

كانت القافلتان تسيران حتى كان الليل فاذا بالقافلة الزعيمية جمالها وبغالها على معالفها وجيادها على مرابطها، ورجالها في خيمة « مسوبعة» – على سبعة أعمدة – تدار عليهم القهوة العدنية ويصغون إلى شاعر ينشد الأناشيد الثورية على نغم الرباب . واذا بالقافلة الفقيرة يمد الشاب حصيراً بالياً على الأرض ، ويضع حجرين خشنين كوسادتين وينام إلى جانب جدته وفوقهما لحاف خفيف . ولا يلبثان أن يستغرقا في النوم تحت حراسة السماء الصافية والنجوم البراقة المتلألئة ، في سهل فسيح لا يعلم آخره إلا الله .

وقطعنا آخر القرى العامرة ، ودخلنا البادية ، البادية المترامية الأطراف المتميزة بنبات الشيح ذي الرائحة الخاصة المستحبة ، والشمس الساطعة والاستواء اللامتناهي . وقطعنا وادي راجل – وهو مجرى ماء شتوي كبير ينحدر من الجبل ويطوق تخوم الجبل من الشرق ثم ينحدر جنوباً بشرق موغلاً في الصحراء . قطعنا الوادي قرب خربة تدعى « ام عوينة» وفيها بئر عميقة واسعة ماؤها زلال بارد كالثلج ، غزير يكفي بدو تلك المنطقة، شربنا وسقينا دوابنا ، وتابعنا مسيرتنا شرقاً صاعدين إلى جبل أو تل المشتى وهو ليس بعيداً من وادي راجل ، وهذا التل – كما ما أزال أذكره حتى الآن – مستطيل من الشمال إلى الجنوب ، جداره الغربي مرتفع عن الأرض ارتفاعاً تدريجياً ، هو مرتفع من الشمال أيضاً . أما من الشرق والجنوب فينحدر سفحاه انحداراً ليناً حتى يتساوى مع الصحراء ، فتضيع معالم التل وتبقى الصحراء . وفي هذا

التل مغارة كبيرة نصبنا خيامنا بالقرب منها من أجل اللجوء اليها خلال الغارات الجوية . وأطلقنا دوابنا ترعى ما تجده من نبات صحراوي جاف . وكان المخيم كبيراً يمتد من الشمال إلى الجنوب مصاقباً استطالة التل . وقد اختص بهذا المخيم أهالي بلدتنا ، وربما خالطهم عدد قليل من أهالي قرى أخرى . لكنه عرف بـ « منزل أهل عرمان » على أساس الغالبية. وكانت حياتنا اليومية تلخص بعدد من الأعمال قليل : جلب الماء من بئر أم عوينة على ظهور الجمال والخيل (الكدش) والحمير . وهذا عمل يقوم به رجال مسلحون مع مساعدين لهم غير مسلحين . ورعاية الدواب وهذا عمل نقوم به نحن الفتيان . واعداد الخبز والطعام ،وهذا ما تقوم به النساء . ويقوم بعض الرجال المسلحين بالسبر إلى أقرب القرى العامرة لتسقط الاخبار . كما كان يجيئنا رجال من القرى فيطلعوننا على آخر تحركات الجيش وآخر الاخبار الأخرى .

الفصل العاشر

يوم تذهل المرضع عن طفلها

وعندما احتل الجيش قرية متان ، بدأت الطائرات تغير على مخيمنا . فنحن ، من المشتى ، كنا نرى تل الهيجاني المرتفع ونرى الحزب الواقعة على امتداد وادي راجل : براق من الشمال (وهي غير براق الواقعة بين حدود الجبل الشمالية ومحافظة دمشق) — وأم عوينة في الوسط ، وأم قصير من الجنوب ، كانت هذه الغارات لا تخيفنا ، فمغارتنا أو كهفنا أمنع من أي ملجأ في العالم . ولكن لذلك استثناءات ، ففي إحدى الغارات كنت مع رفاق لي ، كلهم من عمري أو أصغر مني ، نحرس الدواب إلى الجنوب الشرقي من المخيم ، وكنا لاهين بألعابنا وحركاتنا وغنائنا وصراخنا حينما فوجئنا بطائرتين فوقنا . لم يكن أمامنا مجال للتحرك نحو الكهف ، فأوعزت لرفاقي أن ينبطحوا أرضاً ، ففعلوا . ولعلي بدأت منذ تلك اللحظة أمارس بعض أعمال القيادة — وفعلت مثلهم ، ولكن وجهي إلى فوق ، أتابع حركة الطائرتين . ورأيت — ويا لهول ما رأيت — رأيت جسمين ينفصلان عن إحدى الطائرتين ويلمعان تحت هذه الشمس الساطعة وفي هذا الجو الأزرق الصافي كلمعان الفضة ، وأخذا يقتربان من الأرض . كان أحد الجسمين عمودياً فوق مكاننا وكان الآخر أبعد قليلاً إلى الجنوب . ولا أريد أن يموت رفاقي خوفاً فلم اقل لهم شيئاً ولكني ، في الأعماق ، صرت أدعو الله أن ينجينا من الهلاك

الذي كان يبدو حتمياً . ولقد كان فعلاً كذلك . . لولا . . لولا أن هذا الجسم قد انفتل قبل أن يصطدم بالأرض فسقط على جانبه بدلاً من أن يسقط رأسياً على كبسولته . وارتطم بالأرض لحظة كان الجسم الآخر ينفجر هناك بين مواشينا . أما هذا القريب فقد كان لارتطامه رجة عنيفة وقد نسف علينا من الرمل ما كان كافياً لغمرنا . وكنت أغمض عيني بانتظار النهاية . وما هي إلا دقائق حتى كان الرجال قد أسرعوا إلى انتشالنا من تحت الرمال ، وتهنئتنا بالسلامة . وكانت هناك — حيث سقطت القنبلة الأخرى — ناقتان قد تحولتا إلى أشلاء مبعثرة . وقام الرجال برفع القنبلة من حفرتها ونقلوها إلى المخيم : كانت بحجم البرميل ، طولها طول البارودة الألمانية الطويلة (هذا هو المقياس الوحيد الذي كان في متناولنا) — وقد فككها رجالنا ، وكانوا قد اعتادوا ذلك من قبل ، وأفرغوا من جوفها كمية هائلة من البارود الأصفر — وكانوا يمزجونه بأنواع أخف منه ويحشون به الفشك الفارغ ليعيدوا استعماله في معارك جديدة . .

وذات يوم ، قرب العصر ، كان الرجال يتطلعون إلى الغرب حيث لفت انتباههم غبار كثيف ظهر من سيره ان ما يثيره يسير باتجاه الشرق ، أي نحو المخيم . وخطر ببال رجل أرعن أن يصرخ بأعلى صوته : «الجيش الجيش ! اهربن يا نساء » . وكانت ساعة من تلك الساعات التي تحتبس فيها الأنفاس ، وتفقد العقول سيطرتها ، ويتكلم العصب ورد الفعل فقط . هرعت النساء مسرعات شرقاً ، تحمل المرضع طفلها ، وتحمل كل واحدة ما استطاعت أن تتناوله من أشياء ضرورية . ويتسابق الأولاد بينهن ووراءهن وأمامهن . وكنت أراقب ما يجري في وعي كامل وبرودة تامة : رأيت الرجال يسرعون إلى تناول بنادقهم وأحزمة فشكهم

ويتراكضون غرباً لملاقاة « الجيش » . ورأيت حادثاً لم يفارق ذاكرتي حتى الآن : رأيت رجلاً معروفاً بشجاعته الفائقة ، يتناول بندقيته المعلقة بمسمار في عمود الخيمة الخشبي . ولم يستطع — لشدة انفعاله— أن يرفع سير البندقية (قشاطها) من على المسمار . فانتضى خنجره من محزمه وقطع السير قطعاً وأخذ بندقيته ولحق بالرجال . ما كنت أتصور ، قبل هذا المشهد ، ان الرجال يفقدون سيطرتهم على أعصابهم إلى هذا الحد . . وبعد فترة تقارب نصف الساعة تكشف الغبار المريب عن عدد من خيول « الشيخ » — شيخ قريتنا — كانت عائدة من أم عوينة حيث كانوا يوردونها الماء يومياً . وهكذا تبين أن طبقة الشيوخ هي التي تسبب لناالبلاء في السلم والحرب ، في الخطر والأمن على السواء . وقام الرجال يلومون الرجل الأرعن ويؤنبونه لتسرعه . وركضنا نحو النساء لنعيدهن مع الأطفال . وهناك رأيت والدتي حائرة يكاد الدم يتفجر من عروقها . وحينما سألتها عما بها ، انهمرت الدموع من عينيها وهي تجيب : « لقد نسيت أخاك الرضيع « صالح » بالمغارة » . وعدنا مسرعين ، فوجدنا أخي ما يزال نائماً لم يدر أنه تعرض لخطر الضياع في لحظة خوف طاغ . ولكننا أخبرناه بذلك بعدما كبر .

وبدأت مشكلة التموين تفرض نفسها على مخيمنا : فما استطعنا حمله من زاد أوشك أن ينفد . والموسم القائم ما يزال في بدء نضجه لأن حصاد القمح في الجبل يتأخر عنه في الأمكنة الأخرى . ومع ذلك فقد قرر أحد أخوالي أن يقوم برحلة إلى أقرب قرية عامرة على تخوم الصحراء ، وهي قرية خازمة ، ليرى هل نضج القمح أم لم ينضج . وعرضت عليه أن أرافقه ، فرحب بي وأردفني وراءه على الفرس ؛ وسرنا غرباً باتجاه « خازمة » . وكانت بندقيته العثمانية الطويلة « المعدل » أمامه . وحينما

وصلنا قبيل الظهر إلى جوار خازمة فاجأتنا طائرة لم نشعر بها إلا حين صارت فوقنا تماماً . وأخذت تطلق علينا النار من مدفعها الرشاش فيقع الرصاص حوالينا ويثير غباراً يعلو حتى مستوى رأس الفرس . وأراد خالي أن يترجل ويطلق النار على الطائرة . لكن الطائرة كانت قد تجاوزتنا شمالاً توجه نار رشاشها إلى حمار شيخ كان على الدرب أمامنا . وأخذ العجاج الذي تثيره الرصاصات من حوله يغطيه وحماره . ولكنه لم يصب وظلت الطائرة مسرعة باتجاه الشمال لم تستدر . ويظهر أن مهمتها كانت هناك في « ملح » أو جوارها واننا كنا بالنسبة اليها هدفاً ثانوياً عارضاً . المهم اننا وصلنا إلى الزرع وملأنا الخرج سنابل وعدنا إلى مخيمنا .

وأخذت الأنباء ترد عن قرب زحف الجيش من متان إلى ملح ، بعد أن اتم احتلال القرى المجاورة لمتان وركز مدفعاً كبيراً بعيد المدى فوق تل الخضر ، وأنه سيقوم بحركة التفاف تمكنه من أخذ مخيمنا بطريقه . وكانت هذه الأنباء تثير القلق في النفوس . فالجيش يقدر عدده باثني عشر ألفاً ، وبامكانه أن ينتشر فيغطي مساحات شاسعة من الأرض . ومما كان يؤيد هذه الانباء أن الطائرات صارت تستكشف مواقعنا يومياً . عدة مرات في اليوم الواحد .

وفي مساء أحد الأيام تردد في المخيم نبأ قدوم القائد العام للثورة ، سلطان الأطرش ، إلى مخيمنا . ووصل القائد فعلاً . وعقد اجتماع حافل في أوسع خيمة . وقد حضرت هذا الاجتماع متفرجاً . فرأيت قائد الثورة من قرب وسمعته يتحدث . ولم أكن قد رأيته من قبل إلا من مسافة بعيدة أو في الصورة . سمعت حديثه فأعجبني القسم الحربي منه ، ولم يعجبني القسم السياسي : ففي القسم الحربي خطط لمعركة الغد ، وكان

موجز ما قاله هو : سيتحرك الجيش من متان إلى ملح صباح غد . وسيحاول حتماً الالتفاف حول مخيمكم هذا . وقد قررنا إعداد كمين محكم له في سلسلة الخرب المكونة من أم قصير وأم عوينة وبراق . سنحتل هذه الأماكن الحصينة قبل الفجر ونبقى فيها حتى تبلغها طلائع الجيش : يمنع احداث أي حركة ، أو اشعال نار ، أو غير ذلك . نريد أن نفاجىء العدو مفاجأة كاملة . ولن يطلق أحد النار قبلي ، ونرجو أن يعيننا الله فنرد الجيش خاسراً ونبعده — على الأقل — عن العيال .

أما القسم السياسي الذي لم يعجبني فكان حديثه عن ترتيبات ما بعد الاحتلال ، الذي ظهر أمراً لا مفر منه قال ان على جميع الأهالي أن يغادروا الجبل لتبقى الثورة قائمة . أما الذي لم يقل عنه شيئاً فهو من أين سيأكل الناس ؟ أين سيقيمون ؟ ماذا سيكون مصير الجبل لو أخلي من السكان وترك للفرنسيين المحتلين ؟ أنا الذي رأى القافلتين اللتين وصفتهما سابقاً ، والذي تعرض مع خاله وآخرين لرصاص الطائرات من أجل بضع سنابل ، لا تكفي لغذاء شخص واحد . أنا الفتى القاصر الذي رأى والدته تنسى أخاه الطفل في الكهف عندما داهمها الخوف ، لم يعجبني هذا الكلام ، ولم يعجبني بخاصة سكوت الرجال عليه . فمن بين هؤلاء الرجال من باع آخر كيل من الطحين ليشتري هذه الفشكات التي يطلقها صباح غد في المعركة ، ومن تحمل العرى أو الثياب الرثة له ولزوجه وأولاده ، وهو يعرف أنه لن يستطيع أن يبتعد كيلو متراً واحداً من حيث نحن بوسائله الخاصة ، ويعرف أكثر من ذلك — ويا للأسف — أن أحداً لن يمد له يد المعونة ، وأنهم إذا مروا به في الطريق ، لن ينقلوه على دوابهم ، ولن يتفضلوا عليه بحفنة من طحين أو بدرهم من مال ، ويعرف أكثر وأكثر أن لديهم صناديق مقفلة من المال ، وبعد

الغروب حينما كان أخوالي وأمي والجميع بالبيت ناقشت خالي الأكبر بالأمر ولمت الرجال على سكوتهم . ومما قلت له : « كيف تسكت وأنت تعرف أن ما قاله لم يكن الرأي الصواب ، وانكم أعجز من أن تعيشوا بعيدين عن دياركم اسبوعاً آخر ؟»فاشتد غضب خالي وأخرسني بقوله: «ناقصنا أن يعلمنا الأولاد ما يجب أن نفعل » . فسكت على مضض ولكنني ما زلت حتى اليوم راضياً عن نفسي لأنني سجلت أول رفض علني لعقلية القطيع .

أما القسم الحربي الذي أعجبني من حديث القائد ، فقد شهدت نجاحه صباح اليوم التالي : كان الرجال جميعاً قد تحركوا ليلاً إلى المواقع المحددة لهم . وعند الفجر بدأت طيارات العدو تمر فوقنا . فعلمنا أن نبأ تحرك الجيش كان صادقاً . وعند الشروق ، أو بعده قليلاً ، بدأت المعركة . كنا نسمع بوضوح أصوات البنادق والرشاشات والمدافع . وكان العدو يذكر مخيمنا ببعض القذائف من مدافعه بين الحين والآخر . ولكن رجالنا ردوا الجيش على أعقابه وأكرهوه على تبديل خط سيره . لقد كان في طليعة الجيش مفارز من أبناء الجبل ومن الشراكسة ومن الصباحيين المغاربة . وركز رماتنا على خيول هؤلاء جميعاً ففرشوا أرض المعركة بجثث العديد من هذه الخيول وأجبروا الجيش كله على التحول غرباً . لقد كانت معركة بطولية هذه المعركة التي عرفت بمعركة « أم عوينة » . وقد دامت حتى الظهر تقريباً . ونحن نشهد تحركاتها من بعد لارتفاع موقع مخيمنا وانخفاض موقع المعركة . ولم تخفت أصوات البنادق إلا حينما بات الجيش بعيداً عن مداها المجدي ، أو حتى عن مداها غير المجدي . وعند العصر عاد رجالنا ينشدون أناشيد الحرب الحماسية ثملين بخمرة الانتصار ، حاملين معهم العديد من البنادق المستولى

عليها مع كميات كبيرة من الذخيرة ، التي خلفها الجيش وراءه . وجاء دورنا لنبتهج بالانتصار على طريقتنا : فالفشك الفرنسي يمكن اطلاقه من بندقية فرنسية ، أو من بندقية « أم زر » العثمانية القديمة .

فاستعرنا بنادق من هذا النوع أو ذاك وأخذنا نطلق العيارات النارية في الفضاء . لم نكن نحسب للعواقب حساباً . فما دامت الذخيرة كثيرة فلا بأس في استهلاكها . عقلية القبيلة الخالية من أية مقدرة على التخطيط أو الاحتياط . المهم أننا فرحنا وابتهجنا ولاسيما أننا عرفنامن العائدين أن الخسائر كانت معدومة تقريباً في صفوفنا . فقد استشهد ثائر واحد وجرح آخر مقابل عشرات من القتلى ومئات من الجرحى في صفوف العدو . لقد عد المقاتلون خمسين حصاناً في ساحة المعركة . أما القتلى من الرجال فقد نقل العدو جثثهم معه ولكن بقع الدم كانت تدل على أن عددهم كبير جداً .

واحتل الجيش ملح وعرمان في طريقه إلى صلخد من حيث انطلق فاكتملت الدائرة . وساق رجالنا الذين أنقذوا القرية من الدمار إلى صلخد . وسيحدثني والدي عن ذلك عند رجوعنا إلى القرية . فلقد قرر رجالنا في المخيم أن يعودوا جميعاً إلى القرية بعدما أيقنوا انه لم يبق أمامهم غير أحد احتمالين : العودة إلى الديار وترميم ما يمكن ترميمه من شؤون حياتهم ، بانتظار جولة أخرى مع المحتل — أو الهجرة إلى المجهول وترك الديار خالية ، والقضاء على كل أمل في التحرر ، خلال الزمن المنظور على الأقل . واختاروا بالاجماع الاحتمال الأول ، ولم ينتظروا هذه المرة رأي القائد ، فالقائد الذي لا يقدم الوسيلة للعيش خارج الوطن لا يستطيع أن يلزم الناس بمغادرة الوطن ، فالغاية تستلزم الوسيلة . وهم — في الحقيقة — لم يختاروا الرفاهية والطمأنينة ، لأن ذلك كان من

المستحيلات في وطن مدمر ، وفي بيوت خلت من تسعة أعشار محتوياتها ولكنهم اختاروا احتمال استئناف النضال ، بعد استعادة القوى ، والتقاط الانفاس ، وحشد الطاقات بأساليب جديدة . .

ووصلنا إلى القرية فوجدنا والدي بانتظارنا . ولكم كان فرحنا عظيماً عميقاً عندما وضعنا ما كان معنا من فراش ومتاع في غرفتنا الغربية فوق العدسة (١) الباردة المنعشة . وجلسنا على الأرض : فروينا لوالدي ما حدث معنا وسألناه أن يحدثنا بما جرى له وارفاقه في غيابنا . فحدثنا بكيفية دخول الجيش القرية يتقدمه المتطوعة ، وكيفية نهبهم لجميع المخابىء (الموازع) في القرية — إلا ما ندر — ونهب كل ما كنا نملك من فراش وأثاث . وكيف قرىء اسم أحدنا على لبادة عجمية حزمها ضابط متطوع من أبناء شهبة وراءه على الحصان ، وكيف ساقوهم إلى صلخد بأعقاب البنادق وحاولوا اذلالهم ، والحوار الذي دار بينهم وبين الضابط « زهران » أو « زهار » اللبناني الذي عاملهم بعنجهية لا توصف . ولما سأله والدي من أين هو أجاب « من دير العمل » وهو يقصد « من دير القمر » فقال له والدي : « لقد نسينامن زمان بعيد كل عصبية طائفية ولكن طريقتك في معاملتنا تدل على أنك لم تنس ولا تريد أن تنسى » فتلقى والدي جواباً أخيراً لاختتام الحوار ضربة بعقب البندقية من أحد الجنود . (وستتاح لي الفرصة لألقن زهران هذا درساً قاسياً وهو في ذروة مجده العسكري — وسيرد تفصيل ذلك في حينه) .

وحماماتي أين هي : لقد اختفت جميعاً . وفي الغرفةالجنوبية الشرقية من الدار كانت بقايا الرماد تدل على أن ناراً عظيمة قد أوقدت

(١) العدسة : أرضية الغرفة المصنوعة من خليطة من الكلس والجص والحصى بحيث تصبح شبيهة بالا سمنت ، وكان ذلك قبل شيوع استعمال الا سمنت.

من حطب الكرمة (الزبارة) ، شويت عليها حماماتي وكاد لهبها الذي أذكاه شحم الحمامات أن يحرق خشب السقف . وكرمنا : لقد سلم ولكن الجيش وهو مار في الكروم كان يمسك بالدالية ويبرمها كالحبل حتى يتركها وقد فقدت نسغها ومقومات حياتها . فلا يخلو كرم من آثار الهمجية هذه . ولكي يعيش « ثوارنا » الذين اختاروا الهجرة ، لم يجدوا أقرب متناولاً من سلب كل قطعان الماشية التي يملكهااهل الجبل والتي وجدوها مع رعاتها البدو خارج حدود القرى العامرةوفقد بذلك آخر ما كنا نستند اليه في أمور معاشنا : مائة وخمسة رؤوس من الغنم كانت تكفي لمعيشة أكبر عائلة ساقها السلابون باسم الثورة وباعوها بأبخس الأثمان . وأمام هذا الانهيار الكامل لثروتنا ، وقف والدي بيننا يجيل النظر فيناونحن ثمانية أنفس ليس فينا من هو قادرعلى العمل ودمعت عيناه وهو يقول : « الحمد لله اذ كانت الخسارة بالمال لا بالعيال . ما كان لدينا وفقدناه كان نتيجة عمل جاد مستمر ، نتيجة كدح دائب ، فرأس المال وهو العمل ، مازال موجوداً ، وما علينا إلا أن نبدأ من جديد » .

طوال عمري ، لم تفارقني صورته في تلك اللحظة : النسر الجريح ، الانسان الصابر الصامد الانوف المنتصب عملاقاً وسط العاصفة ،الفارس المغوار الذي ينهار كل شيء من حوله ، فيبدأ المسيرة من جديد ، من نقطة البداية ، هذا ما كانت ترسمه عروق والدي والدم يكاد يخترقها ويطفر منها ، وأعصابه المتوترة ووجهه المتجهم — المبتسم معاً. ومن أراد أن يدرك سر حياتي الجادة ، فليبحث عن جذوره ، في تلك الصورة التي ارتسمت لوالدي في تلافيف دماغي ، في تلك اللحظة الرهيبة التي تختصر عمراً كاملاً ، بل دهراً كاملاً . . .

الفصل الحادي عشر

عرمان في مواجهة الإنتقام
أو
نضال من نوع جديد

ولم يكن لدينا وقت لنفكر ، فالحوادث متعاقبة ، والزمن لا ينتظر الواقفين يرقبون سيره . . رحنا نهتم بالحصاد . فقد أتم شريكنا حصاد الشعير المزروع أمام البيت ، وانتقل إلى حصاد القمح في أماكن أبعد. وصار بيدرنا يمتلىء محاصيل متنوعة ، وهذا من شأنه أن يجعلنا مطمئنين إلى أن حياتنا مضمونة سنة كاملة على الأقل .

وكانت جيوش الاحتلال تتجول في المناطق المختلفة — وعرمان ممر لها في أكثر الجولات ، ومستقر لها في بعض الجولات ، ففي أحد الأيام فاجأنا جيش قادم من الشمال — من جهة الغرب — وطريقه يمر أمام بيتنا وكنا من الباب ننظر إلى طوابيره المتتابعة . وفجأة أدار ضابط رأس جواده ودخل ساحة دارنا. كان ضابطاً أشقر له لحية طويلة وتحته حصان أدهم . وترجل أمام بيتنا وطلب تبناً لجواده ، وجبناً وخبزاً لنفسه. فقدمنا له ما طلب . فأمضى فترة التهم فيها جواده علفه ، وأكل هو طعامه . وغادرنا شاكراً ، متابعاً مسيرة الجيش . وعسكر هذا الجيش في وعر كائن غربي القرية على جانبي طريق عرمان — صلخد ، يدعى (ضهر فارس) .

وبعد بضع ليال شعرت بجلبة في بيتنا ، في ساعة متأخرة من الليل ، ونهضت لأرى ما يجري . فاذا والدي يستقبل عدداً من كبار

الثائرين المسلحين ، ويعقد معهم اجتماعاً في غرفة الضيافة ، ويقدم لهم كميات من الخبز ، والجبن ، واللبن ، وغير ذلك مما في البيوت الجبلية من آدام . وبعدما فارقونا بساعة تقريباً بدأ اطلاق النار ، من الرجوم العالية ، الواقعة بين الكروم ، غربي القرية ، على مواقع الجيش المار ذكره . كان ذلك يسمى « الكبسة» في لغتنا الحربية ، أي الهجوم المباغت ليلاً . وأخذ الجيش يطلق النار في كل اتجاه . ولعلعت الرشاشات وسمعناأزيز الرصاص يمر فوقنا (١) . وفي اليوم التالي كنت آخذ بعض الخراف لترعى في جوانب كرمنا — الفضيلي — والطريق اليه تمر بالبيدر ، فرأيت آثار مرابط الخيل على كديش الشعير ، وعرفت من ذلك أن الثائرين ربطوا خيلهم هنا ، وساروا على الأقدام عبر الكروم متسلقين جدرانها ، حتى وصلوا إلى الأماكن المرتفعة التي أشرفوا منها على مواقع الخيام ، واصلوها نارهم الحامية .

وما إن بلغ الوقت الضحى ، حتى سمعت غوغاء تأتي من جهة القرية ، كيوم الحشر الذي يصفون . وعلا الغبار حتى سد منافذ الجو . وصراخ نساء وعويل : ما الذي يجري يا ترى ؟ سقت خرافي ، عائداً بهاإلى البيت ، فرأيت ، على بابنا ، رقيباً مسلحاً من المغاربة . لاحظ ارتيابي فخاطبني ملاطفاً ، ودخلت البيت فوجدت والدي صامتاً يكاد يتميز غيظاً ، ووالدتي واجمة ، وسألت : ما الذي يجري ؟. فأجابني : « إنها البغمة » — يظهر أنها كلمة تركية تعني النهب الشامل ، الذي يقوم بهجيش من الجيوش الغازية . ان الجيش ينتقم اليوم من عرمان كلها ، لأن بضعة ثائرينأزعجوه باطلاقهم النار عليه أمس . وقد دخل القرية من جميع

---

(١) ذكر سلطان في مذكراته التي نشرتها مجلة بيروت المساء اسم والدي بين أسماء الذين تعاونوا مع الثوار وآووهم.

المنافذ ومعه بغال لنقل الأمتعة . وكان الصراخ هو السلاح الوحيد أمام هذا العمل البربري . لقد أفرغوا المخازن والدكاكين من محتوياتها ، لقد تنازعوا أثواب القماش فاقتطعوها بالحراب ليأخذوها .شيء واحد لم يتعرضوا له : النساء . فقد كانت تعليمات قادتهم حاسمة صارمة بهذا الخصوص : « هؤلاء القوم — نحن — إذا مسستم واحدة من نسائهم فسيقتلونكم ولو بأسنانهم » .

وسألت والدتي عما جرى في بيتنا ، فقالت، ان جنديين دخلا وامراها بفتح صندوقها . وحينما فعلت بدأاينثران موجودات الصندوق ، ووضع أحدهما في جيبه مقصها الفولاذي الثمين ، الذي يعادل - في نظرها- كنزاً . وأخذ الثاني قالباً من السكر (قالب سكر أبيض كان يصنع على شكل مخروط) . وحينما بلغا هذا الحد دخل الرقيب المسلح (الذي وجدته واقفاً حين وصولي) وطردهما من البيت ، ووقف يحرسه ، بعدما أفهم والدي ووالدتي انه مرسل من قبل الضابط الذي تناول من طعامنا يوم دخول الجيش ليحرس بيتنا طوال النهار . وهكذا عرف ضابط فرنسي قيمة الخبز والملح . ولكنه لو علم انهذا البيت هو الذي استقبل الرجالالذين كبسوا الجيش وأطعم خيولهم كانله موقف آخر .هذا الموقف الآخر سيجيء فيما بعد ، ولكن من قبل غير هذا الضابط .

لم تمض مدة طويلة ، بعد يوم النهب الشامل هذا حتى رحل الجيش المخيم غربي البلدة حاملاً معه أسلابه وجاء بدلاً منه جيش آخر لا ليخيم مكانه ، بل ليخيم في كرمنا أمام الدار ، وليحتل ضباطه نصف دارنا ، أي الغرفتين الشرقيتين والايوان الذي بينهما ، تاركاً لنا فسحة الدار الداخلية وغرفتين كبيرتين غربية وشمالية وتوابعهما . من خزانة ،

وتبان ، ومكان وقود . واسطبل ، وحوش : أصبح جيراننا خمسة ضباط من الفرنسيين برتبة نقيب . ومعهم وصفاء ومراسلون يخدمونهم نهاراً، ويعودون إلى الخيام ليلاً ، والخيام ملء كرمنا المحاذي للدار . يا للتناقض : هذه المواويل العربية باللهجة المغربية . هذه الرطانة بين الجنود، وهي خليط من العربية والفرنسية . هذا الجيش المحتل كله من أبناء العرب ، وضباطه القادة الفرنسيون والأرض المحتلة عربية . الاستعمار يتحكم بهذه الأمة ويحارب جزءاً منها بالأجزاء الأخرى ، ونحن . في ثورتنا ، ما نزال نقيس الأمور بمقاييس الأسرة ، والعشيرة ، والقبيلة.

وحدد والدي نوع علاقاتنا مع جيراننا المغتصبين . لا تعامل . إذا طلبوا شيئاً نعطيهم ، لأننا مرغمون . أما نحن فلا نقبل منهم شيئاً.أرسلوا إلينا من طعامهم فرددناه اليهم . طلبوا منا عنباً فأعطيناهم ورفضنا قبض الثمن . وواسطة التفاهم أنا بمعلوماتي المحدودة من اللغة الفرنسية . وامتدحوا عنبنا الذي لم يروا مثله في حياتهم ، فشكرنا « لطفهم » . ولكننا كنا نحذرهم مثلما كانوا يحذروننا . فلا نحن كنا نجهل ، ولا هم كانوا يجهلون ، ان احتلالهم نصف بيتنا وكامل أرضنا المجاورة. له علاقة مباشرة بحادث الكبسة التي تعرض لها جيشهم الراحل .فالقرية — مع الأسف — كان فيها مخبرون مرتزقة، وما كان لحادث مهم كايواء الثوار ، واطعامهم واطعام خيولهم ، ان يخفى طويلاً على المخبرين . ولا سيما ان الثوار ، بعدما عادوا من كبستهم ، مروا بالقرية فاختطفوا ملازماً متطوعاً كان ينام في بيته وسط القرية ، وأخذوه معهم وهو بثياب النوم .

بقينا نحو شهر على هذه الحال . ثم رحل الجيش بضباطه وجنوده، وبدأت أعصابنا ترتاح قليلاً . وخلال تلك الفترة سمعنا باعدام ثائرين أو

ثلاثة — لم أعد أذكر — من بلدتنا ، وثقوا بوعد الضباط الفرنسيين المسؤولين بالأمان ، فاستسلموا ، وسلموا سلاحهم . ولكن الضباط غدروا بهم ، ولعدم وجود شجر أو أعمدة مكان الاعدام ، حفروا لهم حفراً أوقفوهم فيها ، وأعدموهم رمياً بالرصاص .

وبدأ المستشار الفرنسي في صلخد يشكل دائرته وأجهزته . فالمستشار كان ضابط استخبارات ، وحاكماً ادارياً مطلقاً ، يخضع له الرئيس الاداري المحلي الذي يدعى « القائمقام » ، كما يخضع له قاضي الصلح ، ومحكمة التعويضات ، التي شكلت للنظر في القضايا الناجمةعن الثورة ، قضايا السلب والسرقة بنوع خاص . وكان القائمقام ، وقاضي الصلح ، وأعضاء محكمة التعويضات أو « لجنة التعويضات » ، من أبناء المنطقة ، أو أبناء المحافظة ، المعروفين بولائهم للدولة المنتدبة المحتلة ، وعدم مشاكستهم للمستشار الفرنسي وأجهزته .

ولكن المعارك لم تكن قد انتهت . فمعركة قيصما التي اندحر فيها المتطوعة ، وأسر ضابط فرنسي ، وظل الثوار يطاردونهم حتى غربي عرمان — ونحن نشاهدهم — ولم يتراجعوا إلا بعد أن بدأ المدفع المركز فوق قلعة صلخد يقذفهم بقنابله ، ومعركة أبو زريق — تل اللوز التي خاضها فرسان المتطوعة والصباحيين وبعض المشاة (المدفعية) والتي قتل فيها عدد كبير من الجانبين ، وأعدم عدد من الشبان من قرية تل اللوز رمياً بالرصاص ، ومعركة الصوخر بجوار بكا وأم الرمانالتي كاد أن يقتل فيها ، أو يؤسر ، القائد العام للثورة ، على أيدي المتطوعة من أبناء الجبل ، ومعركة العفينة — حبران — الكفر ، التي كاد الثوار فيها أن يقعوا في الأسر نتيجة مفاجأتهم وتطويقهم من قبل قوات كبيرة ، ومعارك

غيل الرشيدة التي أبلى الثوار فيها بلاء حسناً واشتهر خلالها أحد قادة الثورة البارزين محمد عز الدين الحلبي . ومعارك اللجاه العنيفة الطويلة التي استمرت طوال عام ١٩٢٧ تقريباً والتي كان على الثائرين فيها أن يواجهوا الفرنسيين ، والبدو ، وأهل القرى الحورانية المجاورة . ولكن السلطة كانت تتوطد ، والاحتلال أصبح أمراً مقرراً .

وقبل أن أترك هذه النقطة المتعلقة بمعارك الرشيدة واللجاه ، لابد أن أروي حادثة ذات دلالة جرت في بيتنا وهي تصور نفسية أبناءالشعب البسطاء ، وقود الثورة ، المضحين تضحية عفوية ما وراءها مطمع في مال ولا جاه . تضحية خالصةلوجه الرجولة والوطن . والعزة ، والكرامة ، وهذا ما كان يفتقر اليه أكثر القادة والوجهاء من صفات فلو تحلوا بمثل مزايا رجال القتال البسطاء ، أبناء الشعب ، لكانت الثورة انتهت إلى غير ما انتهت اليه . .

كان شريكنا آخر عام ١٩٢٦ شاب اسمه يوسف أبو مالك — أصلهمن « القريـــّة» وأصله الأبعد من راشيا — وكان يقيم في بلدتنا مع أخ لهاسمه سلمان ، وله أخ آخر في القرية اسمه فهد . في أحد الأيام حضرت المشهد التالي : شريكنا ذو الجسم الملفوف العملاق المائل لونه إلى الاحمرار ولون شاربيه أشقر ، يلتقي والدي ويدور بينهما الحديث التالي :

— عمي ، أرجو ألا تؤاخذني اذا طلبت الاذن بالذهاب ، فلقد قتل أخي سلمان في معركة غيل الرشيدة ، ونحن ثلاثة أخوة ، فلا يجوز أن تخلو ساحات القتال من واحد منا على الأقل ، سلمان قتل ، وأنا يجب أن أحل محله ، وأقاتل وأثأر له ولغيره » .

— أنا لا يمكن أن أمنعك من السير في طريق الشهامة ، يا يوسف ، ولكن تعبك ، الذي ستترك الآن ، ماذا سيكون مصيره » ؟

— ان عدت حياً ، فسأعود إلى عملي ، وحقي من الغلة ، والا فان أخي فهد سيحضر من القرية ويقوم بالعمل بدلاً مني ، ويتقاضى حصتي . »

فدعا له والدي بالتوفيق والعودة سالماً . وودعه يوسف وانصرف ليتهيأ للرحيل . . . .

وأعجبت بهذا الرجل ، ابن الشعب الأصيل ، يحرص على ألا يبقى مكان أخيه خالياً بين المحاربين ، فيتخلى عن كل شيء ، ويذهب . وما ان خرج متجهاً إلى بيته المجاور لبيتنا ، حتى تبعته ، فاذا هو قد وضع أمامه زيتاً وزعتراً ، وراح يأكل ، وهو ساهم صامت وحيد — كما كان دائماً — وعبقت رائحة الزعتر ، وخجلت من الرجل ومن نفسي . دعاني إلى مشاركته الطعام ، فاعتذرت وقلت له « عمي يوسف ، أنا جئت لأدعو لك بالسلامة » . وطفرت من عيني دمعة ، وأجابتها دمعة من عين هذا الرجل البطل . وكان ذلك آخر عهدي بشريكنا يوسف أبو مالك ، الذي استشهد في معارك اللجاه . وما زلت حتى الآن أفتتح طعامي كل صباح بلقمة أو لقمتين من الزيت والزعتر ، وأنا أتذكر يوسف أبو مالك ، وأشعر بأن الذروة في الرجولة تكون حينما يذهب الانسان إلى الموت بكامل ارادته ، وهادىء تفكيره ، من أجل قضية عظيمة ، كقضية التحرر والاستقلال والوحدة .

وجاء أخوه فهد فأكمل سنته . وعاملناه كما كنا نعامل أخاه ، عاملناه كواحد من أفراد العائلة وما نسينا أنه أخ كريم لشهيدين كريمين . .

الفصل الثاني عشر

البحث عن الطريق

وخلال ذلك الصيف قدم من دمشق اسماعيل الصالح أخو صاحبي المخزن ، وكان طالباً في مدارس دمشق ، ويرتدي بذلة خاكية قصيرة (شورت) ، فقامت بيني وبينه صداقة ، أساسها رغبتي في معرفة كل شيء عن المدارس في العاصمة السورية ، وكيفية دخولها ، والدراسة فيها ، وتكاليفها ، ومواد التعليم ، والأساتذة وحياة الطلاب ، ثم أوصيت على بذلة مثل بذلة اسماعيل ، وعندما عدت بها إلى القرية ، بعد انتهاء العطلة الصيفية ، واجهتني عاصفة من المتزمتين من رجال الدين ، فصمدت للعاصفة وقبلت التحدي وقلت لأكبرهم : ان سلطته لا تتعدى بيته وأولاده ، وان والدي هو المسؤول عن تصرفاتي ولا أعترف لغيره بأية سلطة . وأعلمت والدي بما وجهه إلي (السايس) من ملاحظة قاسية . وحينما لقيه والدي ، بعد ذلك ، أفهمه أنه موافق على تصرفاتي ومن جملتها لباسي الجديد ، وأنه لا يسمح له ولا لسواه بأن يتدخل في شؤوننا البيتية ، وهكذا كنت أول من أدخل إلى جو القرية المحافظ بعض مظاهر التجديد ، إلى جانب عادة العمل خلال العطلة الصيفية من أجل الاسهام في تحمل مصاريف الدراسة ، فقد أخذت أعمل كل صيف في مخزن

خالي . ولم أكن أرى أية غضاضة في أن أحمل كمية من الحبوب من البيادر إلى المخزن ، سواء في عرمان أو في صلخد . عندما تكون الكمية قليلة وتكون الدابة غير جاهزة لنقلها . وكانت الحبوب هي العملة التي تدفع بها أثمان البضائع .

فقد عدنا إلى المدرسة وبدأت الدراسة المنتظمة . وكانت بلدتنا عرمان من أصل ثلاث عشرة أو أربع عشرة قرية أنيطت ادارة مدارسها بالرهبانية اليسوعية . فمعلموها متخرجون من مدرسة اعداد المعلمين في « تعنايل » — لبنان — والمفتش هو أحد الرهبان اليسوعيين . وكان أول معلم جاءنا بعد الثورة هو الاستاذ خليل كوّى وهو من أصل أرمني ومن سكان « تبنه » في حوران . وهو مدرس ممتاز . لغته العربية متينة والفرنسية أيضاً . وكان يملي علينا قطعاً من انشائه كانت نماذج ممتازة لطلاب العربية آنذاك . واحتللت المركز الأول في الصف المتقدم في المدرسة ورحت ألتهم الدروس التهاماً لأعوض ما فاتني من سني الانقطاع عن الدراسة ، وسني الدراسة غير المجدية في مدارس قديمة النمط رجعية الاتجاه .

وهنا لابد من تسجيل فضل جديد لوالدي ، وهو رفضه لتبديل اتجاهي ، فقد حصلت ردة رجعية في الجبل ، في أعقاب الثورة ، اعتقد ان الفرنسيين كانوا وراءها ، فقد راحوا يشجعون افتتاح مدارس مذهبية في أماكن متعددة ، ولاسيما في السويداء حيث أنشؤوا مدرسة في مقر « عين الزمان » لعلهم يستطيعون بتشجيع الدراسة المذهبية ، أن يوجدوا المزيد من التفرقة بين أهل الجبل وأهل دمشق كانوا يرمون — من وراء ذلك إلى مكافحة الاتجاه الوحدوي بانفصالية مذهبية . وجاء عدد من شيوخ المذهب يفاوضون والدي ليقبل بارسالي إلى « عين الزمان » .

مزينين لهالمستقبل اللامع الذي ينتظرني : « سيكون مفخرة عرمان بالنظر إلى ذكائه وتفوقه سيحل الشيخ سعيد محل الشيخ الشهيد سعيدالحجلة وهكذا تكون عرمان لم تفقد سعيداً إلا ليوجد فيها سعيد آخر . . »وصمد والدي صموداً مدهشاً : « لن أتصرف بمستقبل ولدي وهو صغير . بعد ما ينهي دراسته الزمنية ، سيختار هو بنفسه طريق المستقبل ديناً ودنيا » .

أنقذني والدي . ولولا بعد نظره ، لذهبت ضحية لا تملك من أمر نفسها شيئاً ، ولقضيت عمري متخبطاً في ظلام الجهل والجهالة : كمية صغيرة من هذا الثقل الذي يبهظ كاهل الأمة العربية ويؤخر تقدمها : عنيت به ثقل العائشين خـــارج العصر ، بأفكارهم وتصرفاتهم ، يعالجون قضايا القرن العشرين بطريقة أهل القرن العاشر .

بعض الحوادث التي ما تزال تحضرني روايتها مفيدة لأنها تلقي أضواء على طريقة تفكيري وتصرفاتي : لقد فهمت مما يدور حولي من أحاديث أن تياراً قوياً من الدعاوة المغرضة كان يصور الثورة الوطنية التحررية على أنها ثورة طائفية ، وان الطوائف المسلمة لا تتورع عن محاربة مواطنيها المسيحيين بحماسة محاربتها الفرنسيين المسيحيين ويشيعون أن الثائرين ينهبون أموال المسيحيين دون سواهم . ومن أخبر مني — أنا الذي رأى أموال والده تنهب نهباً مغولياً — في أن الناهبين المنتفعين بفوضى الثورة (ولا أقول بالثورة ذاتها لأن هذه لها منتفعون آخرون أعلى مقاماً) لا يميزون بين طائفة وطائفة بل يستولون على ما تقع عليه أيديهم . وفي أحد الأيام كنت ذاهباً إلى قطعة أرض لنا تقع على بعد نحو كيلو مترين من بيتنا . فشاهدت — مصادفة — أشخاصاً مسلحين أعرفهم يخرجون من

كرم لبعض المواطنين المسيحيين كانوا يتسلقون جدار الكرم إلى الطريق العام وعلى ظهورهم أحمال محزومة بالحبال حزماً جيداً ، ويدل مظهرها على أنها تحتوي على أنواع من الفراش والأواني وسواها من الأشياء المنزلية ، وبعد يوم أو يومين ضجت القرية بالحادثة وراح أصحاب الكروم يتجولون في القرية ويقولون : « لقد نهب موزعنا وهذا عيب ، وعاينا أن نرحل من هذه البلاد التي نحن أقدم سكانها ، وما كنا ننتظر من أولاد بلدنا أن يعاملونا هذه المعاملة ونحن نقاسمهم خير الحياة وشرها الخ. » فرويت لوالدي ولمن حضر من أقاربنا ما رأيت ، وسميت السارقين ، ووصفت الحالة التي رأيتهم عليها ، والسلاح الذي كان يحمله كل منهم. لقد مارست عمل صدق كنت مؤمناً أنني أؤدي به واجباً انسانياً ووطنياً.

وصلت القضية الى محكمة التعويضات أو لجنة التعويضات في صلخد. فدعيت للشهادة — وهذا الفصل من الرواية هو المهم من روايتي لها -- وكانت اللجنة مؤلفة من رئيس وأعضاء وكاتب ضبط من أهالي المنطقة، وعندما سمعوا شهادتي وأعطيت أوصافاً وتفاصيل لاشك في حقيقتها . رأيت أحد الأعضاء ، وكان معمماً ملتحياً ، يلتفت إلى الرئيس والحضور ويقول : « ان ابني (ح) هذا — وأشار إلى ولد من عمري كان يقف قربه جانب منصة المحكمة — يمكن أن أجعله يروي أية رواية بلا أساس مقابل كمشة (قبضة) ملبس » .

فانتفضت كالملدوغ ، وعصف بي الغضب ، فقلت مخاطباً « القاضي المحترم » : « ليس كل الأولاد مثل ابنك ، واذا كنت قد ربيت ابنك على هذا النحو ، فان والدي قد رباني على نحو آخر ، فأنا من أجل مال الدنيا ، لا من أجل كمشة ملبس ، لا أقول إلا الحقيقة » ،وانفجرت بالبكاء وكان لموقفي هذا وجوابي هذا فعل الضربةالقاضية على حلبة

المصارعة ، فقد ضجت قاعة المحكمة بالاحتجاجات الموجهة إلى القاضي انتصاراً لي ، وخرجت من المحكمة وأنا حديث الناس في صلخد ، واشتهرت طوال عمري بهذا النوع من الأجوبة القصيرة المفحمة ، وأخذت المحكمة بشهادتي الوحيدة ، وحكمت على السارقين وانتصر الوالد ، وانهزم القاضي . والغريب أنني أصبحت ، فيما يلي من الايام ، صديقاً حميماً لأولاده . وكثيراً ما زرتهم في بيت والدهم ، ولعله كان قد نسي ما صدر عنه ، ونسي كل شيء عن الحادث وعني . . .

لم يكتف الفرنسيون بجمع السلاح وجباية الغرامة الحربية ، فهذا وحده لم يكن كافياً لاذلال هذا الشعب المناضل بل أرادوا أن يذلوه أكثر ففرضوا عليه السخرة : والسخرة هي العمل الالزامي لجميع الذكور البالغين ، وما هو موضوع هذا العمل ، رصف الطرق ، الطرق المنطلقة من صلخد باتجاه السويداء ، أو باتجاه متان ، أو باتجاه عرمان ، ترصف بالحجارة السوداء ، بحجة أنها ستعبد فيما بعد ، رصفها الشعب كرهاً ، وبقيت مرصوفة سنين عديدة لم تفرش بالحصى ولم تعبد . ولكن عملية رصفها هي المقصودة بحد ذاتها : قسم رجال القرية البالغون على أيام الاسبوع ، فكان كل رجل يعرف يوم دوره ، ويذهب منذ الصباح ، حاملاً معه الطعام والماء ، ويظل حتى الغروب أو قبيل الغروب ، ويعود إلى القرية منهوكاً يرقد طوال الليل لا يشعر بوجود عائلته ، وعائلته كلها مهمومة لهمه ، تعبة لتعبه ، بائسة لبؤسه ، ولأني كنت معفى من السخرة عن شخصي لصغري ، فقد تطوعت للعمل عن أبي وخالي . فصرت أعمل يومين متفرقين راضياً مسروراً لأنني كنت أشعر أنني أحمل عنهما شيئاً من همومهما وكنت سعيداً لأنني كنت أشعر بأنني جنبتهما اهانات كثيرة . اذ حلت بينهما وبين ما كان ينزل على رؤوس المسخرين من

شتائم ولعنات ، وما ينهال عليهم من سياط ، فسواء كان المراقب هو الشاويش المغربي « صالح » أو الشاويش المحلي « زيتوني » كانت المعاملة السيئة هي ذاتها ولم أرَ اسوأ منهما سوى الحارس السيّار محمود مرشد : كان قصيراً ، لون بشرته كلون الدخان ، أو كلون البلوطة المشوية ، له شاربان كأنهما قُطِعاً من ذنب حصان أو من ناصية تيس شديد السواد ، وعيناه الحمراوان المغموستان بسواد التعب وسهر الليالي وسواد الكحل ، كانتا أشبه بزيتونتين نصف ناضجتين تدوران في محجريهما تحت حاجبين كثيفين تظللهما كوفية من الصوف الأحمر المنقط بالأبيض (سلك) وعقال من المرعز الأسود ، وينتعل جزمة حمراء طويلة الساق إلى ما تحت ركبتيه . كان يبدو للناظر أن نصفه في الجزمة . ولونه الخاكي الغامق (غبردين) تصل السترة منه إلى ما فوق الجزمة بقليل مغطية البنطال كله تقريباً . وعلى وسطه حزام جلدي عريض لونه بني .

هذا الكائن العجيب كان له لسان كأنه بنبع من مستودع للقذارة ، فهو ينثر القذارة كيفما تحرك ، وبأي موضوع تحدث . . لا يعرف للحياء معنى : يشتم أعف الرجال وأكرم الرجال ، وجهاً لوجه بلا أي تحرج ، أو مداراة . وأغرب منه أن يكون الفرنسيون قد عثروا على مثله بين صخور اللجاه وجندوه للتنكيل بكرام القوم . وكأنه ليس منهم ، بل كأنه غرسة جنكيزخانيـة خلفها في أرض العرب أحط جندي في جيوش المغول والتتار . .

كان محمود مرشد آلة من الآلات الكثيرة التي استخدمها الفرنسيون في تنفيذ مخطط الاذلال الذي وضعوه . وقد خصت به عرمان دون سائر القرى ، لأن عرمان كانت هدفاً رئيسياً من أهداف الاذلال .

كان يجمع وجهاء القرية الدينيين والزمنيين ويصفهم في الميدان (الساحة العامة) على شكل دائرة أو نصف دائرة ، ويقف بينهم ويشتم كل واحد منهم ، أو يشتمهم بالجملة ، ويبصق في وجوههم ، وهو يعرف أنهم – وقد جردوا من سلاحهم – لم يعد في مقدورهم أن يقاوموا . ومرة قال لهم : «أنا أحط رجل في العالم ، ولكن أنتم أحط مني ، اذ لو كانت فيكم بقية من رجولة لقتلتموني ، » .

وقررت السلطة أن تبني مدرسة . وبدلاً من أخذ حجارتها من أي مقلع من مقالع البلدة الكثيرة في هذه الأرض البازلتية ، راح محمود مرشد يتجول في القرية ويهدم جدران الغرف والمضافات وأسوار البيوت وينتقي الحجارة المنحوتة ويأمر بنقلها إلى المدرسة . وكان يسخر للنقل صاحب البيت المهدوم أو أي رجل آخر . وضجت الناس ضجة شديدة . وكانت السلطة قد نسفت دور الثائرين الذين لم يعودوا إلى القرية ونقلت حجارتها إلى صلخد لبناء مقر البعثة الفرنسية واما إلى المدرسة . وجاء محمود مرشد يوماً إلى دارنا وخيزرانته بيده ، وأخذ يستعرض جدران الغرف . ووالدي يحدجه بنظرات لا يخفى معناها الغاضب على أحد . وكان لدينا درج يصعد من أرض الدار إلى السطح فصعد إلى أعلى الدرج ولكز الدرجة العليا بالخيزرانة وقال : « خذوا هذه والتي تحتها » ولم يمهله والدي أكثر من ذلك : اذ صاح به .. « إذا لم تنزل فسوف القيك من فوق إلى تحت» . وعلت وجه محمود مرشد صفرة عجيبة ونظر إلى وجه والدي الصارم المعبر عن ذروة التصميم ، فتراجع ونزل متراخياً وهو يقول :

– « محمد قبلي الضيعة ، ومحمد شماليها » وخرج لا يلوي على

شيء ، وقد فهمنا فيما بعد أنه لقي مثل هذه المقاومة من محمد الجرمقاني ، وداره جنوبي القرية ، ولقيها من والدي ، ودارنا شمالي القرية فصاغ هذه الجملة الموجزة المعبرة .

وتمادى محمود مرشد في طغيانه حتى بات اللعنة ذاتها : فالأوامر هي الأوامر : يجب اذلال هؤلاء القوم ، ثائري الامس القريب. يجب ارهاقهم ، استنزاف قواهم . مرات كثيرة رأيت المراقب يأمر باعادة العمل : تخريب ما رصف واعادة رصفه ، ومثل هذه الأوامر كان يرافقها ضرب بالسوط ، أو الكرباج ، الذي كان له اسم علم خاص نسيته . وكانت تلك الأيام السود أول عهدي بالشتائم من العيار الثقيل. ولعل القراء الكرام يعرفون أن بني معروف مشهورون بعفة اللسان شهرتهم بعفة سائر الحواس . حتى أنهم يحرفون الالفاظ النابية لكيلا يتلفظوا بها كما هي فتخدش الاسماع والأذواق . وسمعت منها في أيام السخرة ما يكفي لأجيال . حتى الزيتوني الجبلي برع في تقليد صالح المغربي المتلمذ على حثالة الجنود الفرنسيين وجنود الفرقة الاجنبية . وكان المراقب يسخر بي ، ويعرض ببياض يدي ونعومتها ، منددداً بي ، لأنني زججت بنفسي في مضمار لا أصلح له . ومع كل هذا كنت شديد الاعتزاز بما فعلت ، لأنني ما كنت لأتصور أن ينال والدي وخالي من الاهانات ما ينال الآخرين .

كان هذا النوع من الأشغال الشاقة نصيب العامة ، نصيب الجميع وكان هنالك نوع خاص من الشغل الشاق تنحصر « نعمته» في الرجال الذين يقدمون على عمل من أعمال العصيان المدني ، أو التلفظ بكلمة احتجاج أو تذمر ، فهؤلاء كانوا يعملون بنقل الحجارة الثقيلة جداً على ظهورهم في أزقة صلخد . كحجارة الجامع الذي أزالوه بحجة أحداث

ساحة واسعة في وسط صلخد . وتركوا المئذنة وحدها وسمّوا الساحة باسمها فصار اسمها « ساحة المئذنة» ، مع أن الجامع – كالقلعة – كان يحمل كتابات تاريخية ذات قيمة أثرية كبيرة يعود عهدها إلى زمن صلاح الدين أو الظاهر بيبرس . وكان الجامع مبنياً من حجازة البازلت الضخمة وسقفه من الربد ، كان الرجل المخالف يكره على نقل الربدة على ظهره مع أن الجمل ينوء بحمل اثنتين منها . وكيف كانوا يثبتون المخالفات ، أو كيف يجمعون المخالفين ويملؤون بهم السجون .

كل موظف – بصورة عامة – كان عميل استخبارات غير رسمي . أي أنه كان مفروضاً عليه ومفترضاً فيه ألا يسكت على مخالفة تقع أمامه أو يسمع بها . ولو سكت لخاف أن يطير من وظيفته ، أو تطير وظيفته منه : إلا أنه كانت هنالك وظيفة خاصة لاكتشاف المخالفات وملاحقة المخالفين هي وظيفة « الحارس السيار » فهذا الحرس الذي أشرت اليه سابقاً كان – كما يدل عليه اسمه – مؤلفاً من خيالة يتجولون في القرى ويرتبطون مباشرة بالمستشار الفرنسي ، الذي كان ضابطاً للمخابرات في آن واحد . كانوا يرسلون إلى القرى في مهمات خاصة أو عامة . ويقيمون في القرى ضيوفاً يأكلون ويشربون وينامون ، هم وخيلهم ، على حساب الاهلين ، وينفذون مهمتهم ويرسلون تقارير إلى المستشار ويغيبون فترة ثم يعودون . ولكيلا نبقى في العموميات ، لا بد لي من الافاضة ، باخبار واحد من هؤلاء خصت به قريتنا من دون سائر القرى ، وصار اسمه رمزاً للعسف والاضطهاد : إنه الحارس السيار محمود مرشد لا يحتمل ، وكان يوآزره في عمله ، ويحل محله اذا غاب ، حارس سيار آخر من البدو ، أشقر اللون (يا للبدوي الأشقر اسمه ، على ما أذكر فهد السردي نسبةإلى عشيرة السردية) .وفي إحدى نوبات الشتم وتشديد

الضغط أقدم أحد أقاربنا فارس الصغير على ضرب محمود مرشد ضرباً مبرحاً : طرحه أرضاً وأشبعه ضرباً وركلاً . ولم أعد أذكر جيداً هل كانت « القتلة» لمحمود مرشد وحده ، أو له ولزميله البدوي معاً ،أو لزميله البدوي وحده ، ولكنها كانت « قتلة » ضخمة تناقل الناس أنباءها من أقصى الشمال . وأوقف فارس الصغير وسجن واضطهد وشُغّل بحمل ربد الجامع في صلخد نحو خمسين يوماً . ولكن عمله هذا وضع نهاية لطغيان الحرس السيار واضطر الفرنسيين إلى تبديل أساليبهم .

* * *

الفصل الثالث عشر

عتبة المستقبل

هكذا سارت الامور ، محل أو جراد أسوأ من المحل ، مجاعة في كلتا الحالتين : بؤس شامل، هجرة إلى بيروت أو يافا ، حيث كان المهاجرون ينشئون مواطن بؤس جديدة : يزدريهم الناس من أجلها ولا يحاولون أن يعطفوا عليهم بتذكر الاسباب الوطنية ــ القومية التي أنتجت هذه الهجرة وهذا الشقاء ، لم يكن أحد مستعداً لأن يرحم أعزة قوم اذا ذلوا .

وسارت دراستنا ، على الرغم من ذلك ، سيراً حسناً ، ثلاث سنوات قضيتها على هذا النحو ، دراسة ، عمل سخرة ، مكافحة جراد . كان الأستاذ خليل كوى معلمي لسنتين ثم عقبه الاستاذ انطوان بيطار من قرية عندقت في عكار ــ لبنان . وكان الاستاذ شاعراً في بعض الاحيان .وكان الفرنسيون قد بدؤوا خطة جديدة في اكتساب ولاء الناس ، كانوا قد بدؤوا ينتقون طلاباً يرسلونهم في بعثات دراسية إلى أوربة . أو إلى بيروت ، ونادراً إلى دمشق . وكانوا يختارون أبناء الزعماء أو من هم في حكمهم . فنتج عن ذلك تذمر شعبي : أيكون العلم ــ كالثروة ــ وقفاً على الاقطاعيين وأصحاب النفوذ ؟ ألا يكون للتفوق حقوق تساوي ــ على الأقل ــ حقوق الوراثة والانتماء الطبقي ؟ تحت تأثير هذا التذمر الهامس اتخذ الفرنسيون قراراً وسطاً : يبقى الانتقاء سارياً على أهل الحظوة وتجري مسابقة

بالنسبة إلى الآخرين : يؤخذ كل سنة واحد من الأولين انتقاء ويؤخذ واحد من الآخرين بالمسابقة ، وكانت المسابقة تجري على مرحلتين : المرحلة الأولى داخل القضاء لانتقاء الأوائل من أبنائه ، والمرحلة الثانية في الدويداء ، حيث يذهب هؤلاء الأوائل لقضاء شهر واحد في صف عال خاص ، يتقدمون بعده إلى المسابقة النهائية ، فيحصل الأول بين الجميع ، أي الأول في الجبل كله ، على منحة دراسية حتى يحصل على الشهادة الثانوية (البكالوريا)

وهنا لابد من شهادة أؤديها لصالح الفرنسيين : انهم يلجؤون إلى الانتقاء صراحة وبلا مواربة ، ولا يشعرون بأن عليهم أن يؤدوا حساباً لأحد . أما حينما يلجؤون إلى المسابقة فان من تقاليدهم العريقة أن يتقيدوا تقيداً كاملاً دقيقاً حيادياً بنتائج المسابقة . كان مستشار قضاء صلخد الكابتن غاندولي (Gondouly) يشجع المدارس والتلاميذ بكل ما يملك من وسائل التشجيع ، ذلك أنه كان ذا ميول شعبية واضحة . لا يداري الزعماء ، إلا بمقدار ما تلزمه بذلك أوامر رؤسائه ، ويقف عند الحدود الدنيا لهذا الالزام . كان يعرف كل شيء عن المدارس ، ويعرف — مثلاً — أنني الأول في مدرسة عرمان ، وعندما تقدمت بطلب الاشتراك بمسابقة المنحة الدراسية رحب بي ، وتصادف أنني لم أبلغ موعد المسابقة . وحدث أمر يشبه الاعجوبة ، لم أستطع له تفسيراً في السابق ، ولا أستطيع ذلك اليوم : لقد أغفل تبليغي من قبل الموظفين في المستشارية . أكان ذلك مقصوداً أم غير مقصود ؟ لا يمكن الجزم ، ولكنني أذكر أنني خاطبت والدي ظهر أحد الايام قائلاً : « إنني ذاهب إلى صلخد » . ولما سألني لماذا ؟ أجبت : « انني أشعر بأن شيئاً ما يتعلق بالمسابقة المقبلة يجب أن أعرفه اليوم : أهو موعدها ؟ أهي موادها لا أدري . كل ما أدريه أن علي أن

أذهب ، وذهبت سيراً على الاقدام لا أحمل معي شيئاً ، ووصلت مباشرة إلى المستشارية لأسأل عن المسابقة واذا — يالمفاجأة — المسابقة قد بدأت منذ قليل وقد انتهت أولى موادها وهي مادة الإملاء باللغة الفرنسية . وكان غاندولي هو الذي يراقبها شخصياً وهو الذي يطرح الاسئلة أو يملي الإملاء فطلبت مقابلته ، ودار بيننا — باختصار الحوار التالي :

— لماذا جئت متأخراً ؟

— لأنني لم أتبلغ الموعد وأنا جئت مصادفة لأستفسر .

— كيف لم تبلغ وطلبك من الطلبات المقبولة ؟

— هذا ما لا أعلمه — بل هذا ما يحيرني

— هل معك أدوات الكتابة ؟

— كلا . لم أحضر شيئاً .

فأمر أحد الموظفين بأن يجاب لي قلماً وحبراً وورقاً ومسطرة وقال لي:

« تابع من حيث وصل رفاقك ، وبعد الانتهاء تبقى لاجراء فحص الإملاء ويبقى معك أحد رفاقك . هل تعرف أحداً منهم ؟ ».

— نعم أعرف (ح) .

— اذن تبقى يا (ح) وتأخذه معك لينام في بيتكم لأن الوقت سيكون ليلاً وغداً يعود إلى قريته » .

ولو تعلمون من هو (ح) الذي اخترته ؟ إنه ابن القاضي عضو لجنة التعويضات الذي أبكاني وآلمه في المحكمة ذات يوم و (ح) هو الابن الذي كان حاضراً ذلك المشهد .

واشتركت في المواد كلها واحدة واحدة . وعند الانتهاء غادر

الجميع الغرفة وبقيت وحدي و (ح) ينتظرني . وأملى علي غاندولي النص حتى فرغ منه . وحينما سلمته الورقة ألقى عليها نظرة فاحصة ولم يتمالك نفسه أن يقول : « لقد أنقذت سمعة القضاء . لو لم تجيء لكان الأمر مختلفاً جداً » .

والواقع أنني أعتقد بأنني لم أخطيء في إملائي ولا حسابي ولا قواعدي خطأً واحداً . والانشاء كان مجالي المحبب فأنا فيه متفوق بلا منازع وقد تجمعت ظروف تاريخية ونفسية وجسدية فجعلتني ذلك اليوم كالسهم المنطلق لا تردد عن هدفه عقبة .

وذهبت مع (ح) إلى بيتهم فتناولت عشائي معه ورقدت إلى جانبه وجانب إخوته ، وفي الصباح عدت إلى عرمان وأخبرت والدي بما جرى . وكان قلقاً جداً لتخلفي .

قلت إنني رقدت إلى جانبه وجانب إخوته : وهنا لابد من ذكر عادة فرضتها قسوة المناخ في الجبل وفقدان الناس فراشهم وأثاثهم بسبب الثورة ، فكان من الطبيعي أن ينام الأولاد فوق فراش واسع جداً ، ويلتحفون لحافاً أوسع محشواً بالصوف وفوقه بساط من الصوف أوسع منه أيضاً . هذا النوع من البسط كان يصنع في الجبل أو في بيوت البدو . وستأتي بعده مرحلة صنع السجاد الجبلي المعروف ، فتلك مرحلة وهذه مرحلة .

هذه المسابقة جرت في العام الدراسي ١٩٢٩ — ١٩٣٠ . وحين أعلنت النتائج كنت الفائز الأول في القضاء . وكانت أولى فرحاتي على مستوى أوسع من مستوى القرية . وأول انتصاراتي خارجها : كان

ذلك يعني — مبدئياً — انني أحد الثلاثة الأوائل في الجبل من ثلاثة أقضية وحظي في الحصول على المنحة الدراسية يكاد يكون محدداً من الآن بنسبة واحد إلى ثلاثة .

وأبلغونا ضرورة الالتحاق بالصف العالي الخاص بالسويداء بتاريخ محدد . والذين سيلتحقون هم الثلاثة أو الأربعة الأوائل من كل قضاء . والذين أذكرهم من قضاء صلخد — وقد يكونون هم كل المقبولين : صالح السعدي ، سالم زين الدين ، يوسف ضو ، نسيب أبو جمرة وأنا إلا أن العدد ربما كان أكبر بالنسبة إلى السويداء ، لأن الصف كان يضم بين خمسة وعشرين وثلاثين طالباً .

كانت السلطة قد رتبت لنا اقامتنا في السويداء لشهر كامل ، فحددت لكل عدد منا (ثلاثة أو أربعة) ، بيتاً من بيوت الاهالي نقيم فيه ونأكل وننام ونراجع دروسنا ليلاً : نحن ضيوف من نوع خاص ، ضيوف مفروضون على المضيف ،من قبل السلطة ، ولكن كل البيوت التي تنقلنا فيها خلال ذلك الشهر كان أصحابها يستقبلوننا في أريحية وتكريم بالغين : نأكل من طعام البيت ، وقد تقام في البيت وليمة للأصدقاء فنحضرها كسائر المدعوين . وكثيراً ما كان يتصادف أن يكون أحد أبناء البيت رفيقنا في الصف العالي فنراجع دروسنا معاً . وكان نسيب أبو جمرة أحسننا حظاً : فقد كانت قريبته — عمته على الأرجح - السيدة زكية أبو جمرة مديرة مدرسة الاناث في السويداء ، فنزل ضيفاً عليها وعرفنا اليها وكانت أول مرة أرى فيها مدرّسة وأعرف أن في السويداء مدرسة خاصة بالبنات . فهذا ترف لم تكن قرانا المسكينة قد عرفته بعد . وفي الصف الخاص كان من حسن حظي أنني وجدت الاستاذ « غيران » هو المسؤول عن هذا الصف ، وهو الذي يدير الدروس ، وبخاصة الفرنسية منها .

وكانت مناسبة لنستعيد ذكرياتنا السابقة ، ولم يمض وقت طويل حتى برزت في الصف ، وأصبح الجميع يعتبرونني الأول فيه . ويتنبؤون لي بالنجاح . وهنا لابد من ظل بسيط ألقيه على هذه الصفحة المشرقة : لقد كنا نحن — أبناء قضاء صلخد — نضطر أحياناً إلى الرقاد كل اثنين في فرشة واحدة لبؤس الحالة التي وصلت اليها جميع بيوت الجبل . فأصبحنا كالاخوة وتعاملنا فيما بعد كالإخوة أيضاً ولكن بعض الحسد كان يلاحظ في نظرات الآخرين وتصرفاتهم : ان التنافس شيء محبب محمود ، أما اذا انقلب إلى تحاسد فهو شيء مذموم بغيض . اضطررت — مثلاً — لاستعارة قاموس فرنسي من طالب مجاور من السويداء معتذراً عن ازعاجي إياه ، فنظر إلي نظرة شزراء وقال :

« لم يكن ينقصنا إلا أن يجيء أبناء القرى فيزاحموننا على المنحة الدراسية ويحاولوا أن يستعملوا القواميس مالهم ولها ؟ »

قال هذا والسويداء يومذاك قرية كبيرة ليس أكثر . قالها غير مراع شعور القروي القادم من بلدة تحولت أكثر نسائها إلى أرامل وأيامى وأكثر أطفالها إلى أيتام في سبيل التحرر والكرامة ، وكظمت الغيظ وزدت تصميماً على النجاح . واستعضت عن قاموس ذلك المتباهي بمدينته باستفسار عما أريد وجهته إلى الأستاذ « غيران » ، وغفرت للرفيق لأنه لم يكن يدرك ما يقول وما يفعل ، وتلاقينا كثيراً بعد ذلك وجمعتنا صداقة ولم أذكره بما كان منه أيام جهله أو جهالته . .

وكان يتردد على الصف العالي اثنان أو ثلاثة من المعلمين الجدد من أبناء الجبل كانوا قد حصلوا على ما يعادل الشهادة الابتدائية وتقدمت بهم السن فانتسبوا إلى سلك التعليم وراحوا يتيهون على الآخرين وكأنهم يغرونهم باتباع طريقهم أي بأكل عنبهم حصرماً .

وفي نهاية الشهر أجرينا المسابقة وعاد كل منا إلى قريته . وكنا لا نزال ننتقل سيراً على الاقدام أو على ظهور الخيل .

وانتهت السنة الدراسية وانقضت العطلة الصيفية ، وعدنا إلى المدرسة من جديد ولم يردني شيء عن نتيجة المسابقة . وفي ذات يوم من شهر تشرين الأول أبلغتني المستشارية في صلخد أنني كنت الأول في المسابقة وحصلت على المنحة وأن علي أن التحق بكلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت ، وعلي أن أقابل المستشار الاداري في السويداء ، مدير المعارف ، وأنا في طريقي إلى بيروت .

فرحت بالفوز فرحاً لا يوصف ، ورحت أهيء نفسي للرحيل ، من سيرافقني ؟ قال والدي : « ليرافقك خالك توفيق » وكانت المشكلة الكبرى هي مشكلة ثيابي : فلقد كانت الثياب الجبلية المعتادة وليست البذلة ، واعتقدت إحدى خالاتي ان خياطتها لي بعض القمصان ذات الياقة يحل المشكلة ، فخاطت لي قميصين : أو ثلاثة من البوبلين المقلم ذي الألوان الصارخة فلبست احدها تحت القمباز ، وودعت والدي ووالدتي وإخوتي وداعاً حاراً ، وقد سلم والدي إلى خالي ليرتين ذهبيتين هما كل ما كان يملك من نقود ، وسافرنا إلى السويداء ، ووصلنا اليها عند الغروب ، وتذكر خالي انه يعرف صديقاً من آل رضوان اسمه حسين ، سألنا عن بيته ونزلنا عنده ضيفين مكرمين حتى الصباح ، وعند بداية الدوام ذهبت إلى دار الحكومة لمقابلة مدير المعارف (المستشار الاداري) واذا هو الكابتن فييت ، الذي كان ملازماً أول عام ١٩٢٦ وفتك بالثائرين فتكاً ذريعاً وهو يقود إحدى المفارز من المتطوعين من أبناء الجبل ، واستقبلني فييت في حفاوة بالغة . وهنأني بالنجاح ، وزاد في اكرامي

فأركبني إلى جانبه في سيارته الخاصة وطاف بي شوارع السويداء ، وهو يوصيني بالاجتهاد وبرفع رأس الجبل عالياً في بيروت ، وأفهمني أنني سأصل متأخراً عن بقية التلاميذ بسبب اجراءات المنحة ، ولكن كل شيء هنالك مهيأ لاستقبالي ، ثم ودعته وركبت وخالي إحدى السيارات في طريقنا إلى دمشق ، وكانت أول مرة أتجاوز فيها حدود الجبل ، وأول مرة أرى دمشق وقد بدت لي آنذاك مدينة كبيرة جداً ، ونزلنا في أحد فنادقها ، وفي اليوم التالي سافرنا إلى لبنان . وكان يتنازعني أمران : الاهتمام بمعالم الطريق والمناظر الطبيعية الجديدة علي من جهة ، والتفكير في المدرسة والدروس والرفاق الجدد والحياة الجديدة والمستقبل كله ، من جهة ثانية .

لقد كانت أول مرة أشاهد فيها نهراً على ضفتيه أشجار كثيفة باسقة ، هو نهر بردى ، فخارج الخريطة لم أكن قد رأيت غير الأودية الشتوية التي تكون أنهراً حقيقية — عندنا في الجبل — طوال فصلي الشتاء والربيع في السنين الكثيرة المطر والثلج ، ولكنني شهدت في دمشق نهراً لا يكف عن الجريان ، وفي الفندق المتواضع رأيت الماء يتدفق من الصنابير فأين أنت مني الآن يا أيام الورد في تشرين ٢ واجتزنا وادي القرن الذي طالما سمعت بحكايات قطاع الطرق فيه ، ودخلنا لبنان ولم يكن يومها — والعهد عهد انتداب واحتلال — أي حاجز يفصل بين هذين الجزئين من الشام (سورية ولبنان) فلا حدود بارزة ، ولا موظفو جمرك ، ولا موظفو أمن ، ولا تحقيق عن هوية المسافر ، ولا بطاقة اقامة ، ولا شيء من هذه البدع التي ابتدعها لنا الحكام « الوطنيون » ، فيما سيأتي من الأيام . .

واجتزنا سهل البقاع ، فأعجبت به ايما اعجاب . وخصوصاً بهذا المدخل المشجر الجميل لشتورة : وكانت الأشجار الباسقة الملتقية رؤوسها فوق الطريق تكون نفقاً حياً طوله عدة مئات من الأمتار ثم صعدنا الجبل وعانينا من منعطفاته ما عانينا ، وسيارة الباص تتهادى وتقف تارة بعد أخرى ليتاح لبعض الركاب أن ينزلوا ويتنفسوا ويتخلصوا من القيء ، وكنت في عداد هؤلاء أكثر من مرة لحداثة سفري بالسيارة ، وأخيراً وصلنا إلى صوفر ، وقال خالي : «سننزل هنا لأننا سنذهب إلى بيت عمتي في قبيع وغداً صباحاً نتابع السفر إلى بيروت » . .

الأشياء القليلة التي كنا نحملها كانت موضوعة في خرج فرس ، وهو خرج صغير كان شائع الاستعمال أيام ركوب الخيل ، منسوج من صوف ملون وله هدب طويل ينتهي بشرابات كبيرة . عند نزولنا من السيارة في صوفر حمل خالي الخرج على كتفه — وكان خفيفاً جداً — واتخذنا طريقاً للمشاة تؤدي من صوفر إلى قبيع ، وكان السير في هذه « القادومية » صعباً بالنسبة الينا لأن جبلنا — جبل حوران — أقرب إلى الهضبة منه إلى الجبل من حيث شكله العام ، وليس فيه مثل هذا الانحدار العنيف الذي يتصف به جبل لبنان — وليس فيه وبخاصة — هذا التنوع النباتي ، وهذه الوفرة النباتية ، فهو يكاد يكون أجرد إذا ما قيس بغزارة النبات وتنوعه في لبنان .

ووصلنا إلى بيت عمة خالي — وأناأسميها عمتي أيضاً — لأنها طبعاً — عمة والدتي . وكنت أعرفها من قبل وأعرف زوجها ابراهيم نعمان أبو الحسن وأعرف ابنها سعيداً . وقد فرحوا بوصولنا ورحبوا

بنا أشد ترحيب ، وكانت ليلتي عندهم أول ليلة أقضيها في لبنان ، وقد شعرت كأنني عدت حوالي قرن الى الوراء فاذا أنا لست غريباً عن تلك الديار ، واذا أنا أحس — بمفعول رجعي عجيب — ان جزءاً مني مكوّن من تربة هذا البلد . ومن شجره ومائه وهوائه ، ودهشت للحياة السعيدة التي يحياها أهلنا في لبنان بين الماء الوافر والخضرة الدائمة والهدوء الذي لا يعكره شيء . .

الفصل الرابع عشر

بيروت والدارس النهم

وفي اليوم التالي صعدنا إلى بحمدون وركبنا سيارة باص إلى بيروت. ونزلنا في فندق كان يدعى فندق الأحرار قبل ساحة البرج من الجنوب إلى يسار الداخل . وكان صاحبه رجل من آل الفقيه. وفي يوم وصولنا أو اليوم التالي ذهب بي خالي إلى كلية القديس يوسف اليسوعية ، وكانت ما تزال في مكانها القديم غير بعيد من ساحة البرج . وهناك طلب خالي مقابلة المدير . وخلاصة الحديث الذي دار بين المدير وخالي : هو ان المنحة التي حصلت عليها ومقدارها خمسون ليرة فرنسية ذهباً يجب أن تكفي، ليس لتسديد الأقساط المدرسية وحدها ، بل لتأمين ملابسي وكتبي ونفقاتي الخاصة ، فقد شرح خالي للأب المدير وضعنا الخاص وعدم استطاعة والدي الاسهام في شيء من نفقاتي . وكنت خلال الحديث شديد الخجل ، ولكني كنت أعزي نفسي بأن الحالة التي يشرحها خالي ليست وليدة كسل أو خنوع ، بل كانت نتيجة ثورة وتدمير ونهب ومحل وجراد . ثم أنا لا أستجدي بل يسعى خالي إلى الحصول على خفض في الأقساط يعادل ثمن ملابسي وكتبي ونفقاتي الخاصة ، وكل ذلك لم يكن يساوي شيئاً تلك الأيام : فالبيجاما كانت تساوي نصف ليرة لبنانية والقميص كذلك،

والمعطف الجديد كان لا يساوي أكثر من أربع ليرات لبنانية . وما أشد ما كانت فرحتي حينما وافق الأب المدير على الطلبات كلها ، وأصدر أمره إلى الأخ أمين الملابس بشراء كل ما يلزمني للعام الدراسي ، وإلى الأب المدبر بتخصيص ثمن الكتب مع عشرين قرشاً لبنانياً (أربعة فرنكات) للمصروف الشخصي الاسبوعي . واعتبرت داخلاً المدرسة ذلك اليوم. وخرجت مع الأخ امين الملابس فاشترى لي ملابس جاهزة كاملة . وودعت خالي ودخلت المدرسة حاملاً مع الأخ المذكور هذه الملابس إلى مخزن الثياب حيث خصصت لكل طالب طاقة تحمل رقماً. وكانت الطاقة الشاغرة التي خصصت لي تحمل الرقم (١٠١) فكتب هذا الرقم بالحبر الصيني على جميع الملابس ، وأدخلت المهجع فعرفت موقع سريري ، وعليه لوحة تحمل رقمي ، ووضعت في الدرج الصغير المجاور له منشفتي وفرشاة أسناني ومعجون الأسنان والصابونة والمشط والمرآة ، وفرشاة الثياب وفرشاة الأحذية وعلبة صباغ الأحذية ، ولقنت توعية شاملة بكيفية النوم واليقظة صباحاً ، والغسيل ، وبدأت بالاستحمام قبل ارتداء ثيابي الجديدة ، ثم لبست ثيابي بحيث لا يراني رفاقي إلا على شاكلتهم . وأذكر أنني ، خلال تصفيف ثيابي في مكانها الخاص تحسست السلم بيدي قبل أن أصعد فقال لي الأخ أمين الملابس : « هل تخاف على روحك ؟ ما قيمة الحياة ؟ » فوجدت المزحة ثقيلة وأجبته على الفور : « للحياة قيمة كبرى اذا وظفناها لحساب أمور كبرى ، وما أدراك أن تكون لي رسالة لاتراها أنت حتى في الخيال ؟ ثم هل من الحكمة أن نبيع الحياة رخيصة وبحادث تافه ؟ »

بدأت حياتي في الكلية بجواب جريء استغربت ، أنا نفسي .

كيف ألهمته لقد شعرت أنني أدخل المدرسة الثانوية نيابة عن شعب بلد، لم تتح لأجياله المتعاقبة فرص الدراسة منذ أن فصل بين ماضيه الزاهر وحاضره المتخلف عصر الانحطاط وذهاب الريح . أنا هنا لأتعلم عن الجميع ، لأتخلق بأخلاق ترفع رأس الجميع . لأتفوق نيابة عن الجميع ، فمن يخاطبني يجب أن يعرف أنه يخاطب ، من خلالي شعباً ثائراً فقد كل شيء سوى الكرامة ، هذا كان شعوري وموقفي المحدد وعلى أساسه تصرفت . .

لقد أجري لي اختبار بعدد من المواد تقرر على أثره قبولي في الصف الرابع باللغة العربية وفي الصف الخامس بالمواد التي تدرس باللغة الفرنسية. وكان اسم الصفوف : الرابع اللبناني والخامس اللبناني الخ . . أي الذي يتبع برنامج البكالوريا اللبنانية: وكان استاذ الصف العربي الأستاذ شكري البشلي وكان شيخاً جذاباً له شاربان صغيران ورأسه مستدير وجبهته عريضة بارزة . يتقن اللغة العربية ويحسن النطق بها . يميل إلى النكتة في حديثه إلى الطلاب ويملأ الصف حيوية . وأول ما دخلت الصف أخذ الطلاب ينظرون إليّ متسائلين : من أين يا ترى ؟ ولماذا جاء متأخراً ؟ وطلب الأستاذ أن أقرأ نصاً فقرأته قراءة جيدة جعلت الجميع يحسبون حساباً لمنافستي إياهم . وكان نطقي الحروف من مخارجها الصحيحة — كما هي لغة بلادي وقومي — أول ما لفت الأنظار ، ولم أكن أدري ، قبل ذلك، أن العراقيين يقرؤون مثلي ، اذ ما كنت أنتهي من قراءة النص حتى سألني أكثر من واحد : « هل أنت عراقي ؟ » لقد كان بين الطلاب عدد من العراقيين وعدد من السوريين إلى جانب الأكثرية من اللبنانيين. في هذا الصف تفوقت منذ البداية فقد وجدت نفسي في الجو الذي اعتدته تقريباً . وكان يعجبني في الأستاذ البشلي طريقته في مخاطبة الطلاب عندما

يقرأ لهم علاماتهم . وكانت العلامات توضع بالقلم الأحمر العريض وبالرسم الفرنسي للرقم العربي ، فكان يقول لمن استحق صفراً — مثلاً — « طلعت يا محلا » يقصد أغنية : « طلعت يامحلا نورها شمس الشموسة» — ويكني عن الصفر بالشمس . أو يقول : « كعكة يا أستاذ . . . » والكعكة هي الصفر أيضاً . وكان لا يبخل بالعلامة الجيدة . فقد وشح إحدى وظائفي وكـــان موضوعها تحليل قصيدة بعلامة ١٥/١٠ (خمس عشرة على عشر) فضج الصف من أوله إلى آخره ، فأجابهم : « هذه علامة مستحقة ، فما كتبه هذا الطالب فوق مستوى هذا الصف ، وقد تظل علامة يتيمة في هذه المدرسة . »

أما الصف الخامس الفرنسي فقد كان استاذه كاهن لبناني ، وقد وجدت فيه صعوبات جمة لأن الطلاب كانوا قد قطعوا شوطاً بعيدا قبل دخولي المدرسة وكانوا مؤسسين في الصفوف السابقة ، وكانت بعض المواد جديدة تماماً بالنسبة إلي ، كالتاريخ الروماني ، ومع ذلك لم أيأس وعندما اجتزنا فحص الربع الأول من السنة كنت الثامن في صفي ، وكانت درجتي « مقبولا» أي متوسطاً ، ودارت بي الدنيا وعصفت بي العواصف ، كيف ؟ أنا الثامن ؟ أأرضى وأنا ما تركت رأس الصف منذ بداية دراستي ؟ أأرضى بذلك وأنا أمثل بلداً برمته في هذه المدرسة؟ لا لن يكون ذلك . وانفجرت أبكي وأبكي ولا أكف عن البكاء . وإلى جانب البكاء كنت أعمل ليل نهار لأستدرك ما فات ، وفي الربع الثاني من السنة الدراسية كنت الثاني في الصف بدرجة « جيد » وفي الربع الثالث — فحص نهاية السنة — كنت الأول بدرجة « جيد جداً » وشعرت أنني ، عندها فقط ، استعدت مكاني ولم أفقده بعد ذلك حتى نهاية دراستي الثانوية . .

لقد تحدثت عن الدروس وحدها خلال سنتي الأولى هذه . مع أنه يجدر بي أن أتحدث عن الحياة — حياتي الجديدة — في المدرسة الداخلية— كان الطلاب الداخليون ينقسمون إلى ثلاث فئات :

الكبار ، والوسط ، والصغار ، وضممت أول دخولي إلى المدرسة إلى فئة الوسط ، فكانت لنا قاعة درسنا — قاعة المذاكرة — ولنا قاعة مائدتنا ، ولنا مهجعنا . ففي قاعة الدرس التي كنا نقضي فيها أوقات ما بين الحصص (أو الدروس) كان مقرنا الرئيسي ، فيه كتبنا ودفاترنا وأقلامنا ويراقبنا فيه مناظر هو أحد الرهبان . وتتلى فيه علينا العلامات الاسبوعية المتعلقة بالسلوك والاجتهاد مع البيانات التي تريد الادارة أن تبلغنا إياها . كنا نستيقظ الساعة الخامسة صباحاً ، وكانت هذه الساعة في فصل الشتاء تقع أواخر الليل وتكون النجوم ما تزال ظاهرة في السماء ، نستيقظ على دقة جرس من المراقب الليلي المناوب وهو أحد الرهبان أيضاً فنتسابق إلى المغسلة وكانت تتسع لنحو خمسة عشر طالباً دفعة واحدة ، وكان يهمني أن أكون من الفوج الأول . لذلك كنت أعد منشفتي وصابونتي وفرشاة أسناني ومعجون الأسنان قبل النوم ، وما يكاد الجرس يدق حتى أكون قد وصلت إلى المغسلة فاغتسل وأرتدي ثيابي بسرعة ، وكان شعري غزيراً جميلاً كنت أمشطه إلى الوراء مسبلاً ثم ، مع الزمن ، جعلت فيه فرقاً من الجانب الأيسر ، وكنا ننزل صفاً واحداً إلى قاعة الدرس فنعد دروسنا حتى يحين وقت الترويقة ، بعد الترويقة كنا نعطى فرصة قصيرة نذهب بعدها كل إلى صفه .

لا أريد أن أتحدث بالتفصيل عن كل حياتي المدرسية في بيروت فهذا أمر يطول ، ولكنني أحرص على تسجيل الأحداث البارزة في حياتي

تلك دون أن أحدد سنة وقوعها بالضبط لأنني سأقتصر على الأحداث ذات الأثر الدائم في النفس .

كان لابد أن أكون لنفسي محيطاً بشرياً أرتاح اليه وأشعر بالانتماء إليه ، فاتخذت لي عدداً من الرفاق أصدقاء مع المحافظة على علاقات طيبة بجميع الآخرين إلا اذا بادروني بالعداء ، فعند ذلك لم أكن أخاف أو أنهزم ، بل كنت أجابهوأحياناً أقاتل . إذا سئلت اليوم عن نظرتي إلى الصداقة والفرق بينها وبين الحب ، فانني أقول : أنني كنت أرتفع دائماً بالصداقة إلى درجة الحب ، من حيث الاخلاص والحرارة والعمق ، وارتفع بالحب إلى درجة الصداقة ، من حيث النقاء والعفاف والتفاني .

لم أختر أصدقائي من بلد عربي دون الآخر ، بل كنت أتخذهم متناسياً اسم بلدهم : لقد كنت أومن بالوحدة ، كانت الوحدة العربية في دمي ، فلا طائفة الصديق ، ولا لونه ولا بلده ، كانت تدخل في حسابي ، كان لي أصدقاء من الخرطوم ، من الاسكندرية ، من بغداد ، من الموصل ، من بعلبك وجزين وبشري وبسكنتا في لبنان ، من دمشق وحمص وحماه وحلب في سورية ، كان منهم المسيحي والمسلم السني أو الشيعي وكان منهم اليهودي أيضاً ، يجمع بيننا طلب العلم والحياة المشتركة والتطلعات المشتركة ، وكان جيلنا على موعد مع النضال والتحرير والاستقلال ولن أذكر أسماء أصدقائي ، فهم كثر ، ولكنني أكتفي بالقول أن معظمهم أصبحوا — فيما بعد — من رجالات لبنان الممسكين بزمام الأمور فيه من الناحية السياسية أو العلمية أو الأدبية .

كنت أقضي عطلتي الميلاد والفصح في المدرسة ؛ لصعوبة المواصلات تلك الأيام ، ولعدم استعدادي لتحمل نفقات السفر ذهاباً وإياباً ، ولرغبتي في التعرف إلى مناطق يزورها الذين كانوا يبقون في المدرسة ،

فنقوم برحلات ماتعة جداً : إلى تدمر ، إلى قلعة الحصن ، إلى قمة صنين ، إلى نهر الكلب ، ونهر ابراهيم ، إلى بحيرة طبرية ، إلى بعلبك ، إلى زحلة ، إلى اليمونة ، وعطلة الفصح كنا نقضيها في تعنايل وهي مزرعة كبيرة جميلة للآباء اليسوعيين قرب شتورة ، وكنا نقوم برحلات طويلة في سهل البقاع سيراً على الاقدام متمتعين بالهواء الطلق والمناظر الخلابة، والحياة الريفية البعيدة عن التعقيد . وكانت حواس الفلاح العريق فيّ تنتشي برائحة الجبن والحليب الطازجين ، وبركوب الخيل في تنزيهة شاعرية في ممرات طويلة تحت أقواس رائعة من أشجار الحور المتعانقة ، أو حوالي بساتين الأشجار المثمرة المسيجة بالزيزفون أو الورد ،ونزور معلقة زحْلة حيث مرصد كسارة لليسوعيين ، وحيث أقبية كسارة المابثة أنواعاً منوعة من النبيذ المعتق الممتاز وانتبه لكل شاردة وواردة ، كنت ألاحظ كل شيء : أزياء الفلاحين والفلاحات ، لهجات المناطق المختلفة ، محاصيلها ، وفرة المياه في هذه الأراضي الطيبة كانت تثير كآبتي ، كما تسبب سعادتي لأنها تشعرني بأن الحياة جديرة بأن تحب وبأن في الدنيا مناطق لديها من الوقت والوسائل ما يسمح لها بالاحساس بالسعادة والتمتع بجمال الطبيعة وهباتها التي لا تحصى .

كانت السنة الدراسية تنتهي أواخر حزيران أو أوائل تموز ، وكانت تقام حفلة لتوزيع الجوائز على الأوائل في الصفوف ، وكان نصيبي من الجوائز كبيراً حتى إنه يثير اعجاب المحبين والأصدقاء ونقمة المنافسين وحسدهم . وكنت أجمع بين جائزة اللغة العربية والفرنسية ، وجائزة الرياضيات والعلوم ، وكان من النادر أن يجمع الطالب بين هذين النوعين المتباينين من الجوائز ، هذا فضلاً عن بطاقات (المرحى) أو (الاستحسان) خلال الفحوص الفرعية طوال السنة الدراسية .

في الصف الرابع الفرنسي صادفنا أستاذ له طريقة في التدريس كانت تثير بعض الضحكات الهامسةأحياناً ، الصاخبة أحياناً أخرى ، فقد كان يقول وهو يحل إحدى المعادلات (هذا يساوي ذاك) بدلاً من لفظ الرمز الجبري أو رقم معين . وكان تدريس الرياضيات باللغة الفرنسية فكانت عبارة (CECI =CELA)تدور على كل شفة ولسان ، وزاد في اكمال جو المرح أن أستاذنا تزوج ، تلك السنة ، وأشركنا في اخبار زواجه الخاصة جداً ، ولم ننس لهذه المناسبة ، أن نذكر الجاحظ بالخير لأنه لم يهمل صنف المعلمين من نوادره .

في السنة ذاتها كنت في الصف العربي الثالث . كان أستاذنا المرحوم فارس أبي نادر مرجعاً في اللغة العربية وقواعدها وعروضها ، كان مكلفاً التصحيح في المطبعة الشرقية المشهورة التي يملكها الآباء اليسوعيون ، وهذا يدل على مقدرة خاصة جداً ، باللغة العربية ، وكان يتصف بالرزانة والوقار وحب النظام والاجتهاد . كان الذي يحصل على العلامة الجيدة عنده يعتبر أنه حصل على شهادة حقيقية في مقدرته واجادته . وكان من عادته ان يترك لنا الحرية في اختيار موضوع الانشاء من وقت إلى آخر ، وخطر لي يوماً أن آتيه بقصيدة بدلاً من قطعة نثرية . كانت القصيدة رائية القافية وأنا آسف لعدم احتفاظي بنسخة منها وعدم حفظي إياها . فقرأها الأستاذ في الصف وشجعني وأبدى لي ملاحظة ناعمة فيما يتعلق باستعمال لفظة « الزهور » مفهماً إياي أن هذه الصيغة غير قوية لغوياً ، وان تكن شائعة . ويفضل عليها لفظ الأزهار والأزاهر والأزاهير ، ولئن تكن القافية قد تطلبت هذا الوزن فعلى الشاعر ان يتغلب على ذلك ، ويتفادى استعمال اللفظة الضعيفة .

هذا الحادث وغيره من مظاهر التفوق في اللغة العربية وقواعدها

وعروضها ، وفي الترجمة من الفرنسية إلى العربية أو العكس ، أثار حسد كثير من الرفاق وعلى رأسهم أحد مواطنينا الدمشقيين من أبناء العائلات العريقة جداً . والعراقة هنا تعني امتلاك الأراضي والعقارات والأموال وشغل المناصب الكبرى في ظل الاحتلال العثماني ثم الفرنسي ، فاحتج علناً على الأستاذ متهماً إياه بالتحيز . وانتفض الأستاذ ووبخ الشاب الارستقراطي — كان يكبرني بعدة سنوات — توبيخاً عنيفاً وأفهمه أن أكبر الرؤوس تطاولاً يجب أن تنحني أمام قدسية العلم وترفعه ونقائه، وأقسم أنه كان يعيد قراءة الوظائف المتنافسة عدة مرات لعله يستطيع أن يؤخرني إلى المركز الثاني على الأقل ، إلا أنه كان يجد نفسه مكرهاً على إعطائي المركز الأول ، لأن كل قراءة جديدة كانت تكشف له مزايا جديدة في وظيفتي تجعله واثقاً من ان اعطائي العلامة الأولى هو منتهى العدالة والانصاف .

السنة التي بعدها كنت في الصف الثالث الفرنسي والثاني العربي— أستاذ الصف الفرنسي (بجميع مواده وليس مثل ترف هذه الأيام اذ يتولى كل مادة أستاذ خاص) كان الأخ جان من الأخوة المريميين وكان طرفة من طرف الاخلاص والاجتهاد ، والمزاج المتقلب ، بين منتهى السماحة ومنتهى الغضب ، كان درسه يمتليء حيوية . كان بارعاً بالجبر والهندسة ، وكنت أستوعب دروسه تماماً ، كنت أتابعه وهو يحل العمليات الطويلة على اللوح الأسود (السبورة) فاذا تصادف أن توقف عند نقطة من النقاط ، وأراد أن يستأنف المسير كان يلتفت إلي ويقول: « أين أصبحنا يا حسن » (كان يلفظ الحاء خاء واسمي عنده أصبح هكذا) فأجيبه : « لقد أصبحنا عند النقطة الفلانية وعلينا أن ننتقل إلى النقطة

الفلانية . ونسير في الحل على النحو التالي) وهكذا كان التجاوب قائماً ، والأفكار والعيون مشدودة إلى اللوح الأسود .

ومرة اختلفنا . . لم أتسبب بذلك ، فقد سلمته وظيفة لم تنل استحسانه فأبدى ملاحظاته في شيء من السخرية والعنف ، ودافعت عن موقفي وعن مضمون وظيفتي . وبدلاً من أن يترك الحوار الهادىء المنطقي يأخذ مجراه ، ثارت أعصابه وهدر وزمجر واستعمل عبارات مثل : « يا سيد حسن!، أنت أكبر من أن أوجه اليك ملاحظة، انني أمسح لك حذاءك ، انني أنظف بالفرشاة ثيابك . . » وهكذا توقف الحوار وعقبه جو مكهرب ، حملني على الانطواء على نفسي ، وصار هو يتفادى الكلام معي ، وظلت الحال على هذا المنوال فترة طويلة إلا أن عيد مولده كان قد اقترب ، وكان معروفاً عنه أنه يحتفي بهذا العيد احتفاء كبيراً. وكنا ندرك ذلك ، فقمت بتأليف لجنة سراً لتنظيم الحفلة التي نوينا اقامتها في يوم عيده ، ولم أقصد أن اتزلفه بل قصدت أن أبرهن له على أنني لا أحمل له حقداً ، بل على العكس انني أحبه واحترمه كأستاذ قدير كرس حياته للتعليم والتربية ، وإعددت له قصيدة باللغة الفرنسية ألقيتها فنالت استحساناً لم أكن أتوقعه ، وكان هو من جهته ، قد أعد قصيدة طويلة خصني فيها بمقطع كامل . لم أكن أدري أنه أعد هذه القصيدة ولم يكن يدري أنني أعددت قصيدتي ، هذا اللقاء العفوي بين عاطفتين وتفكيرين كان شيئاً مدهشاً حقاً ، كان دليلاً على أن الخلاف كان سطحياً وان الاستاذ وتلميذه كان كل منهما يقدر الآخر حق قدره ، ومرت بقية السنة على أحسن ما يرام ، عدنا سيرتنا الأولى في التجاوب خلال الدرس واستعمال الحوار الهادىء المنطقي في كل موضوع . وكانت سنة خصبة ، نهاية المرحلة المتوسطة واستشراف المرحلة الثانوية . .

الفصل الخامس عشر

نجاحات وهموم

أما أستاذ الصف الثاني العربي فكان الأستاذ كرم البستاني ، وكان أديباً شاعراً ، وهو شقيق الأستاذ بطرس البستاني مدرس الأدب العربي في كلية الحكمة ومؤلف كتاب « الأدباء العرب » . .

سنة أمضيتها تلميذاً للأستاذ كرم البستاني كانت بداية التركيز ، تركيز المعلومات وتصفيتها وبلورتها ، كان شاعراً ذواقة ، يتلو علينا أحياناً بعض شعره — وأذكر أنه كان تلك السنة يؤلف مسرحية شعرية بعنوان « الأميرة الراهبة » أو « الراهبة الأميرة » وما زلت أذكر بيتاً سمعته منه من تلك المسرحية وأثر في كثيراً ، لأنه صادف لدي نزوعاً أصيلاً إلى احتقار أي لقب أو منصب يأتيان عن غير طريق القيمة الذاتية ، القيمة الروحية والفكرية للانسان ، والبيت هو :

وإمـا يقـل عنـك : راهبـة   لأفضل من أن يقال « أميرة »

كان الأستاذ كرم يشجعني على المضي في محاولاتي الشعرية —وكنت أفعل ، وبدأت أتخلص من أثقال الماضي ، بدأت أتعمق في فهم النصوص القديمة وأميز بين أسلوب وأسلوب ، أميز بخاصة بين النظم والشعر ، وفي سهولة كنت أكتب الشعر بالفرنسية ، أو بالعربية ، بدأت تطلعاتي

تمتد إلى آفاق أوسع ، ففي العام السابق كتبت عن مهنة المستقبل في إحدى الوظائف – أنني سأكون « معلماً » لكي أفيد من العطلة الصيفية في مساعدة أهلي وفي المطالعة والتأليف .

أما هذه السنة فبدأت أسأل نفسي : هل التعليم يشبع طموحي ؟ولكن الأفق ذاته كان يومذاك أفقاً ضيقاً لمواطن في بلد محتل يحتله الأغراب مباشرة أو بواسطة عملائهم أشد نيراً من الاغراب أنفسهم .

السنة الدراسية التالية ١٩٣٣ – ١٩٣٤ كانت سنة حاسمة في حياتي– كنت متأخراً في الدروس بالنسبة إلى سني ولكن ، إذا أخذنا بعين الاعتبار سنوات فقدان المدارس في بلدي وهي لا تقل عن خمس إلى سبع سنوات ، نجد أن درجة تقدمي جيدة . ولكن هذا لا يمنع أن تفكيري كان يسبق دراستي ، كنت ناضجاً أفكر في قضايا الحاضر والمستقبل ، قضايا الاستقلال والتحرر ، قضايا القومية والوطنية والاستعمار .

كان مدرس الصف الثاني الفرنسي أحد الرهبان ويسمى الصف الثاني دائماً حسب النظام اللاتيني صف الانسانيات ، فكأنما هو الصف الذي يطل منه الطالب على التراث الانساني من الآداب والفنون ، وبه بدأنا دراسة واسعة وعميقة لآداب اللغة الفرنسية – والأهم من ذلك أنني دخلت تلك السنة الصف الأول أو صف الخطابة باللغة العربية وكان أستاذنا هو فؤاد افرام البستاني ، الدكتور فؤاد افرام البستاني فيما بعد ، كان حظي فوق كل مقياس لأنه أتيح لي أن أمضي سنتين أتلقى دروس الأدب العربي ودروس الأخلاق النظرية والعملية من أستاذ أعجبت به وما زادتني الأيام إلا اعجاباً به وبمزاياه التي تفوق الوصف والحصر ، كان قد بدأ منذ زمن إصدار سلسلة « الروائع » وكان ما يزال ماضياً في مشروعه العظيم ، كان نموذجاً حياً للمواظبة والاخلاص للعمل والتفاني فيه .

روى لي أكثر من مرة ، أنه كان يجلس إلى مكتبه فلا يفارقه حتى يكون قد وضع اللمسات الاخيرة على مقدمة جزء من أجزاء الروائع ، هذه الجلسة ربما استمرت سبع ساعات أو أكثر ، لقد ارتبطت به بصداقة روحية لا يدرك مدى عمقها وشمولها : لقد صرت أقتدي به في كل شيء الجدية في كل شيء ، لقد كان استعدادي كاملاً لذلك ، فأنا قد عايشت ثورة مسلحةورأيت الموت أكثر من مرة ، ولامسني البؤس ولامسته ، وذقت مرارة الجوع والحرمان والظمأ الطويل ، وعشت أياماً كان أكثر ما يتمناه الانسان فيها هو الحصول على جرعة ماء أو لقمة خبز يابس فما كنت لأقبل بالعبث والمرح بلا سبب ، كنت أحاسب نفسي على كل هفوة أو شبه هفوة — كانت دروس الأستاذ البستاني متعة للنظر والفكر وغذاء للروح ، لم يكن ليفوته تفصيل يتعلق . بتاريخ الأمة العربية الأدبي مع رسم كامل للوحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تكون فيها ذلك الأدب في كل مرحلة من مراحل التاريخ — كل شيء كان واضحاً دقيقاً : لا لفظة زائدة ، ولا جملة ناقصة ، لا كلمة بلا تفسـير ولا تمهد لموضوع يوحي بأن هذا الموضوع صعب أو شائك ، أبداً ، كل موضوع كان مبسطاً أمام الأستاذ ، مبسطاً أمام الطلاب ، كمن يعرض مناظر واضحة ، ضحى النهار ، من فوق رابية تشرف على كل تلك المناظر جملة وتفصيلاً (١) .

يمكنني وصف تلك السنة بأنها بداية التركيز في الفكر والتركيز في تكوين المبادىء التي ساعتنقها في الحياة العملية ، بداية تكوين شخصيتي المتميزة عن غيرها ، كان الوسط الطلابي قد بدأ يتمخض عن تحرك

---

(١) — أسفت كثيراً لانزلاق الأستاذ الكبير إلى موقف سياسي غير جدير به في السبعينات من هذا القرن . .

معاد للاستعمار — ففريق كرة القدم في الكلية رفض أن يلعب بقيادة كابتن (رئيس) فرنسي . وهذا أثار كثيراً من القيل والقال : محاولات من جهة للقضاء على هذه الفكرة الرافضة ، تمسك عنيد ، من جهة ثانية بهذا الموقف ، لأنه لا يجوز أن يقودنا فرنسي في نشاط رياضي ، باعتبار أن هذا علامة على حب السيطرة في كل المجالات .

في تلك الاثناء حدث صدام بيني وبين طالب فرنسي : أروي الحادثة بسبب مالها من دلالات ، ولأن الفرنسي كان ابن موظف كبير من موظفي المفوضية الفرنسية في بيروت : كان الطالب يدعى : جان بيير ركلو ، وذات يوم كنا وكان والده يسيطر على مالية المفوضية الفرنسية ومن جملة مايسيطر عليه أموال المصالح المشتركة ، وذات يوم كنا في نقاش حول الثورة والشجاعة ، وما إلى ذلك من مواضيع تثار من حين إلى حين بين الطلاب ، وإذا به يوجه الكلام إلي في كثير من الازدراء والغطرسة ويقول : أيها المسكين ، من أنت حتى انزل إلى مستواك وأناقشك ؟ ؟ وليس من المعقول ولا مما يتفق مع الشباب الثائر الواعي لمعنى الكرامة أن يكون جوابي مجرد كلمة ، لقد كان جوابي صفعة قوية اشتبكنا على أثرها في معركة حامية ، حاول الطلاب والناظر أن يفصلوا بيننا فما استطاعوا — وأسفر الاشتباك عن القائي اياه أرضاً ، بنيما استطاع أن يصيبني بلكمة قوية على إحدى عيني ، فتورمت فوراً ، وبدت حواليها كدمة مدمّاة (تحت الجلد) وترتب على ذلك ابعادنا عن رفاقنا ثمانية أيام ، هو إلى بيته باعتباره خارجياً ، وأنا إلى المستوصف في الكلية باعتباري داخلياً .

لقد خشي المسؤولون أن يثير مشهد عيني المتورمة رفاقي ليقوموا بمهاجمة الطلاب الفرنسيين .

ما قمت به ذلك اليوم كان مجازفة بمستقبلي كله : فأنا حاصل على منحة دراسية تدفع من صندوق المصالح المشتركة في المفوضية الفرنسية في بيروت (المصالح المشتركة أموال مشتركة بين فرنسة وكل دولة من الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسي) والمعركة مع ابن ركلو الذي كان يتمتع بصلاحيات أوسع من صلاحيات أي وزير مالية ، كانت تعني مخاطرة بفقدان منحتي الدراسية . ولكن المجازفة كان لابد منها ، فالغضب المحق تعبير صادق وضروري يجب أن يواجه به كل معتد ، وكنت راضياً عن نفسي كل الرضى ، وأيدني رفاقي المخلصون كلهم . ولامني بعض المترددين ، ولكني مضيت في طريقي غير سائل عن النتائج ، مادمت قد أثبت لواحد من المستعمرين أننا لانقر لهم بأية سلطة ، أو بأي تفوق ، ولانحتمل منهم أي استعلاء وأننا نقابلهم بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » في كل المجالات . ومازلت أذكر يوم جاء وقت تلاوة علامات السلوك الاسبوعية . لقد كانت علامتي (سيء جدا) ولكن المناظر وجه إلى الطلاب كلمة قال فيها ما معناه : « يؤسفني أن ينال فلان علامة في السلوك لاتتناسب وعلاماته السابقة كلها والتي كانت دائماً (جيد جداً) ولهذا فانني لا أتلو هذه العلامة ». ولم يتلها — فكان موقفه عظيماً في منتهى اللباقة وحسن التصرف :

من نافل القول أن أكرر هنا أن الحادثة مضافة إلى ما كان يتفاعل به الجو الفكري العام ، أحدث فرزاً شبه كامل للعناصر المؤمنة بقوميتها ، وحقها في الحياة المستقلة الحرة الكريمة ، والنضال من أجل ذلك — وصارت هذه العناصر موضوع مراقبة ، وشنت عليها حرب نفسية لجعل موقفها موضوع تندر وسخرية أحياناً وسوف تجيء حوادث تبرهن على ذلك .

تلك الأيام ، كنت أشعر أنني مقبل على حدث ما ، حدث خطير غامض ، لا أدري ما هو ، ولكنه كان يتراءى لي في كل شيء ؛ وكنت أكتب إلى والدي ببعض هواجسي . ففي كتاب مؤرخ في ٨ أيار ١٩٣٣ قصصت عليه قصة حلمين رأيتهما خلال المدة السابقة للكتاب وقد قلت بالحرف الواحد : « أسرد لكم أدناه حلمين رأيتهما أخيراً ، ولو أنني لا أعتقد بالأحلام ، بل أسرد لكم ذلك على سبيل التفكهة :

(١) رأيت نفسي مسافراً إلى عرمان ، وقد وصلت إلى البلدة وقصدت البيت دون أن أصادف أحداً في الطريق ، ولما رأيت الباب مقفولاً (مقفلاً) وقفت أمامه وطرقته مرتين دون أن يجيبني أحد . وفيما أنا كذلك اذا بالناظر يصفر لينبهنا فانتبهت مزعوجاً (منزعجاً) لكوني وصلت إلى الباب ولم أدخل الدار ولم أر أحداً . . »

(٢) رأيت نفسي في البيت (دون أن أرى أحداً منكم) ثم قصدت « الفضيلي » طلباً للتنزه وبينما أنا أتمشى يميناً وشمالاً إذ سمعت صوت انهدام قوي ، فالتفت ورأيت الحائط الغربي يتهدم والدخان يتصاعد منه ، فأسرعت نحوه وإذا بي أرى ناراً تلتهم كل ما وجدته في طريقها حتى الحجارة ، وكان الحائط كله ينهدم فحاولت أن أخمد النار وبذلت الجهد في ذلك فلم أستطع إلا اخماد جانب منها . فصرخت بأعلى صوتي ، وناديت بكل قواي . وبعد هنيهة رأيتكم مسرعين لمساعدتي ، فتوصلت أخيراً إلى إطفاء النار . ولكن بعد ذلك لم أعد أرى منكم أحداً فلم أتمكن من محادثتكم لانشغالنا أولاً باللهيب وثانياً لاختفائكم عني بسرعة» وأضفت : « وأنتم ترون أن الحلمين يتشابهان ولو اختلف وقت حدوثهما ، ولو كنت أعتقد بصحة الأحلام لحق لي أن أقدر أشياء وأشياء ، ولكن لا يجب (يجب الا) أن أقول ألا : هذه أضغاث أحلام » .

إنها مع الأسف ، لم تكن كذلك ولكنها ستتحقق بعد أكثر من عام.

ففي العام الدراسي ١٩٣٣ – ١٩٣٤ كنت ، كما تقدم ، بالصف الثاني الفرنسي والصف الأول العربي – وفي تلك السنة توطدت صلتي بابن العم حسين وعــدد ، من الشبان من أبناء عائلتنا ، تجمع بينهم تطلعات واحدة وتتجاوز نظرتهم إلى الوطن وإلى القومية حدود لبنان واللبنانيين ، يؤمنون بالوطن العربي الواحد والأمة العربية الواحدة ، وقد زاروني وزرتهم ، وكتبت إلى الأخ حسين (وهكذا كنت أنعته في رسائلي) وكتب إلي ، وزارني حوالي منتصف حزيران ١٩٣٤ ، على اثر رسالة أعجبهم ماتضمنته من آراء وطنية ، وقومية ، وقالوا لي أنها أعجبت الأستاذ حسين أبو شاهين وأنهم يدعونني لزيارتهم وقضاء بضعة أيام لديهم ، في مستهل العطلة الصيفية ، لتداول المزيد من البحث في كل تلك الأمور ، فكتبت إلى والدي بتاريخ ٢٠ حزيران أخبره بذلك وأحدد المدة التي سأقضيها لديهم من ٤ – ١٠ تموز على أن أكون في البيت يوم ١١ تموز ١٩٣٤ .

ولكن هذه السنة الدراسية كانت خصبة حافلة بالأمجاد – إذا صح التعبير – ففي الثانوية اليسوعية جائزتا شرف هما جائزة الشرف في اللغة العربية (الأدب العربي) وجائزة الشرف في الفلسفة (باللغة الفرنسية) الجائزة الأولى مخصصة لطلاب الصف الأول العربي (وصف الخطابة) ، والجائزة الثانية مخصصة لطلاب صف الفلسفة الفرنسي ، ومن الطبيعي أن تأتي الواحدة بعد الثانية لسنة كاملة ، اذا كان الطالب سار سيراً طبيعياً فنجح في القسم الأول من البكالوريا أول سنة ، وانتقل إلى صف الفلسفة ثاني سنة ، وقد قلت سابقاً أنني كنت متقدماً سنة باللغة العربية وعلى هذا

فقد اشتركت في المسابقة للحصول على جائزة الشرف باللغة العربية قبل الفلسفة بسنتين ، وكانت المسابقة ذات أهمية بالغة ، والأوراق لا تحمل أسماء اطلاقاً ، لا ظاهرة ولا مخفية ، بل تحمل شعارات، ومفتاح الشعارات مودع لدى ادارة الكلية: يعرف بعد أن توضع العلامات وتترتب المسابقات حسب الأولوية ، يعرف الشعار الفائز وبعد ذلك يعرف اسم صاحب الشعار ، وكنت قد نقبت في كتب عربية كثيرة لأجد شعاراً آختاره لنفسي ، يتفق وما أتطلع إليه في الحياة ، فوجدت شطراً من بيت أعجبني جداً وهو :

« لا تقنعن ومطلب لك ممكن » .

اخترت هذا الشعار ، ليس فقط للمسابقة القادمة على أهميتها ، ولكن لكل مراحل الحياة ومجالاتها وقد نظمت بيتين باللغة الفرنسية صغت فيهما معنى هذا الشعار ، وجعلتهما شعاري مستقبلاً ؛ وهما :

والترجمة شبه الحرفية لهما هي :

« طالما أنت واجد ، أيها البحار ، فوق المحيط ، مكاناً كافياً لسفينتك ، فتقدم وكن عنيداً » .

وكان يوم توزيع الجوائز يوماً مشهوداً فلقد حضر الحفل رئيس الدولة ، آنذاك حبيب باشا السعد — وقد فاز بجائزة الشرف في الفلسفة تلك السنة البير ساوة من دمشق — على ما أذكر — وفزت بجائزة الشرف باللغة العربية وحين تقدمت لأتسلم الجائزة من رئيس الدولة وصافحته شاكراً ، تلطف وسألني هل أنا من بيت أبو الحسن ، المقيمين في لبنان ، أم من المهاجرين إلى حوران ، فأجبته أنني من هؤلاء المهاجرين ، فشد على يدي مشجعاً ، وكانت كلمة رئيس الدولة مشجعة لي على البحث عن سبب

معرفته بعائلتنا وتاريخها وهجرة قسم منها إلى حوران . وقادني البحث إلى اكتشاف علاقة رئيس الدولة بالفريق الجنبلاطي من اللبنانيين وأهمية الدور الذي لعبته أسرتنا داخل هذا الفريق طوال القرن التاسع عشر — كان دوراً حربياً بارزاً في سلسلة الحروب الأهلية والطائفية المؤسفة في لبنان. وبدأت أشجع من اتصل بهم من أبناء العائلة على التزود بالعلم ، فان دوراً حربياً بارزاً أيام الحرب ، يدل على طاقة كامنة يجب أن تستغل أيام السلم فتنتج علماً وأدباً ، وبالتالي دوراً اجتماعياً وسياسياً لا يقل بروزاً عن الدور الحربي القديم ، فاذا كان المؤرخون قد صنفوا عائلتنا بين العائلات التي أطلق عليها اسم « جمرات العيال » في الماضي ، فلا بد أن تكون من « جذوات العيال » في الحاضر والمستقبل ، لا عن عصبية أو ضيق أفق ، بل عن رغبة موضوعية في استثمار الطاقة الكامنة في أحسن السبل ومن أجل أنبل الغايات وأسماها.

بعد توزيع الجوائز ابتدأت العطلة ، فذهبت إلى بتخنيه حيث امضيت اسبوعاً تخلله يوم واحد على الأقل قضيناه في بمريم —قرب بتخنيه —وهناك تعرفت إلى الأستاذ علي ناصر الدين ، بالإضافة إلى الأستاذ حسين أبو شاهين الذي كان الاتصال به أول أهداف الزيارة ، والواقع أنني كنت أتعرف إلى نوع نادر من الرجال في تلك الأيام ، فالأستاذ علي ناصر الدين كان من مؤسسي عصبة العمل القومي ، وكان معروفاً بأفكاره الوحدوية ، وقوميته العربية الصافية ومواقفه الصلبة في مقارعة الاستعمار وعملاء الاستعمار ، قولاً وعملاً ، كان رب بيت كبير وأملاك ، يبيعها قطعة وراء قطعة ، ليعيش مستغنياً عن الدولة ووظائفها ، وظل يبيع ويبيع حتى باع بيته ، وكان قصراً ، ولو تخلى عن صلابته واستبقى أملاكه كان قد صار من الأثرياء الكبار حينما ارتفعت أسعار الاملاك وصارت تباع بالشبر، فيما يلي من

الايام ، والأستاذ حسين أبو شاهين . كان مجاوراً وملازماً للأستاذ علي — وكان شبه مدرسة فيما يتعلق بالمبادىء القومية واللغة العربية .

لقد كان لهذه الزيارة أثرها البعيد في نفسي ، مدى عمري كله — لقد وجدت هناك صورة حية لما أفكر فيه ، وما أريده ، وتزودت بالقدوة والوعي بمشاكل الأمة العربية كلها وفي طليعتها مشكلة التجزئة وأمراض الطائفية والقبلية والاقطاع والعمالة والجهل والمرض ، والفقر والتخلف بكل مظاهره ، صحيح أنني لم أنتسب رسمياً إلى العصبة يومها — الانتساب الرسمي سيتم فيما بعد — ولكني حددت هويتي القومية وعقيدتي القومية منذ ذاك التاريخ — وصرت أعمل كأنني من العصبة ، وحينما واجهت في تلك الأيام دعوة إلى الحزب السوري القومي لم أتردد في رفض الدعوة واعتبرتها اقليمية منكرة . (كان الحزب القومي السوري آنذاك غير ما هو الآن) .

كانت الرسائل قد انقطعت عني حوالي شهر وقد شكوت ذلك إلى والدي في كتابي السالف الذكر وحينما أنهيت زيارتي إلى بتخنيه وعدت إلى عرمان وجدت والدي مريضاً جداً . لقد أخافني منظره ، أين ذلك الوجه الصبيح المشرق المشجع ؟ أين العينان العسليتان المتأججتان نوراً وحيوية ؟ إنني أمام جسد منهار ، ووجه هزيل ، وجبين فعلت به الأخاديد الأفاعيل ، كان يشكو آلاماً جسدية مبرحة تأتي على شكل نوبات ، ومركز هذه الآلام غير محدد تماماً ، ولكنه كان يشكو أيضاً آلاماً نفسية أشد وطأة : فلقد رأيته شبه يائس من الحياة — وبدأت الازمه وأحاول التخفيف عنه وتشجيعه — وكان ما بيني وبينه من المحبة العميقة يؤثر فيه نفسياً : فتحسنت حالته بعد وصولي ، وصرت أهتم بطعامه ونظافة الغرفة التي ينام فيها ، وأحيطه بكل عناية ممكنة .

لم أكن أجهل الأسباب التي أدت إلى تدهور صحته ، إلى اصابته بالوهن ، فليس شيئاً هيناً أن يفقد الانسان دفعة واحدة كل ما جناه طوال عمره — ليس شيئاً هيناً أن يكون رب عائلة مؤلفة من أكثر من عشرة أنفس ، كونها ضمن ظروف مادية مواتية ، ثم رأى كل أسباب معيشتها وسعادتها تذهب مع الريح . كان يلاحق دعوى في محاكم صلخد موضوعها التعويض عن المواشي المنهوبة — وكان — وهو الرجل الصادق النزيه الذي يؤمن بالحق والعدالة والمساواة — يرى من سلوك بعض القضاة ما يثير اشمئزازه ، ويفقده الايمان بعدالتهم ، ويجعله يائساً من الوصول إلى حقه . وكان قضاة تلك الايام من رجالات العائلات ، يحسنون القراءة والكتابة . يحسنون — وهذا هو الاهم — ارضاء المستشار الفرنسي — الحاكم المطلق ، وقد كتب إلي وأنا في المدرسة باثاً شكوكه طالباً إلي أن أكتب إلى المستشار مطالباً اياه بردع قضاته عن ارتكاب الظلم ، وقد فعلت : كتبت إلى المستشار مفتتحاً رسالتي بعبارة : اسمح لي أن أتحدث إليك بوصفك انساناً لا بوصفك ضابط استخبارات . وقد أجابني عن رسالتي جواباً يدل على أنه أدرك ما كنت أرمي إليه ، فقد قال : تأكّد أنني أتصرف دائماً كانسان إلا حينما يتعلق الأمر بأعداء بلادي . . وكان هذا هو الدرس السياسي الأول الذي تلقيته من أحد رجال الانتداب . . وأول احتكاك مباشر بيني وبينهم : ومنه تبين لي أنهم يعرفون ما أضمر ، وأن عليّ أن أعرف كيف أعاملهم . . لكن هذا سينقلنا إلى صعيد آخر فمشكلة والدي بقيت بلا حل والقضاء ظل هو القضاء وهو القدر — وماحكم به من تعويض لا يساوي جزءاً مما خسرناه فعلاً ، وعلى كل حال فسوف يظل الحكم حبراً على ورق ، اذ حاولنا تنفيذه فترة من

الزمن ، ثم تخلينا عن المحاولة راغبين في تحمل نتائج الثورة حتى النهاية ، نتائج أمجادها ، ونتائج ما ارتكب باسمها من جرائم . . .

في محاولة لتصوير الظروف التي أحاطت بحياة والدي في سنيه الأخيرة لابد من الاشارة إلى ناحية أخرى ، كانت الأراضي التي نستثمرها والتي تؤمن لنا الحد الأدنى من مستلزمات العيش « المستور » مؤلفة من قسمين :

قسم نملكه ، وقسم مرهون لدينا — والقسم المرهون تعود ملكيته إلى أصحابه الذين سبق ان اقترضوا من والدي مبالغ مقابل هذا الرهن ، وهذا النمط من التعامل كان سائداً في منطقتنا وكانت أراضي الرهن — أو الرهنيّة حسب تعبير أهلنا — في قرية أخرى ، وخلال صيف ١٩٣٣ باحثني والدي بالموضوع وقال : كيف يمكن حل هذه المشكلة ؟ فالمدينون عاجزون عن الدفع ، والأراضي المرهونة تتبدل مواقعها بسبب القسمة شبه الدورية التي تجري مرة كل عدة سنوات ، فاقترحت على والدي أن أذهب إلى تلك القرية وأعرف شيئاً عن وضع الأرض ، وعن مدى استعداد الراهنين للوفاء ، وذهبت فبدأت مراسم الضيافة : غذاء ظهراً ، يجب أن يدعى اليه كل رجال البلدة ، ويتم البحث وسط سيل من المجاملات المزعجة ووسط أحاديث تبدأ بأحوال الجو وشؤون القمر والمريخ وشؤون السياسة العالمية ، وتنتهي بأحوال البلاد ثم القرية — وبعد بحث واستقراء ودراسة رأيت أن أقنع والدي بالتخلي عن تلك الأراضي واعتبار الديون ميتة ، فالقوم لاهون بكتب التنجيم عن العمل المنتج ، ساخرون بكل من يطمع في تحصيل حق له قبلهم ، واذا صرفنا ، في أراضينا ، في قريتنا بعض العمل الذي نصرفه في هذه الأراضي البعيدة

استعضنا عن الكم بالكيف ، أو — حسب تعبير سأتعلمه بعد ذلك — استعضنا بالاستغلال العمقي أو الرأسي عن الاستغلال الأفقي ، أو التوسعي.

ثم أني رأيت من باب العدالة : أن نعتبر استثمارنا لتلك الأراضي نوعاً من الاستيفاء المباشر لديننا ، إذ أن هذا الرهن (الذي اعتبرته دائماً فائدة مستترة) هو في الأصل لضمان الدين وليس لحرمان صاحب الأرض — المدين — من استثمار أرضه، والحلول محلّه في ذلك ، فالغلة يجب أن تحسب من أصل الدين وهذا ما طبقناه فعلاً ، وكانت تلك سابقة خطيرة في الجبل، وقد سبقت بثلاث سنوات أو أربع قانون الديون المحررة بالذهب الذي سيحل مشكلة الرهون في سورية كلها على هذا الأساس بالذات . وقد صدر القانون عام ١٩٣٦ .

* * *

الفصل السادس عشر

رحيل والدي

كان والدي — اذن — في حالة مؤسفة — كان يشعر بالراحة آناً بعد آن ، فيذهب إلى الفضيلي — هذا الكرم الذي كان يحبه ، يعشقه ، يعيش به من أجله ، كما يعيش منه ، فيقضي هناك فترة بين الدوالي يملأ رئتيه من هذا الهواء ، النقي المنعش ، ثم يعود إلى فراشه ، وأكثر ما كان يخيفني اهتمامه ببناء التربة (المدفن) الذي كان قد بدأ تشييده — كان قدبناه من حجر البازلت الخام وجعل سقفه من حجارة البازلت المستطيلة أو المستديرة الرقيقة وكان ما يزال في السقف طاقة كان ينقب عن حجر يوائم لسدها نهائياً ، عجبت لهذا الانسان يعد قبره بيده في ايمان لا يتزعزع بمحدودية العمر وباليوم الآخر .

لم يكن في قريتنا طبيب — وراجعنا طبيب مستشفى صلخد فلم يستطع معرفة المرض — وأنا لم أستكن : لم أشأ أن أساير والدي في الاستسلام . أردت أن أحاول محاولة أخيرة : لا يجوز أن نقبل بالمرض لاعتقادنا أن العمر محدود — فالطب أمر مشروع بل واجب -- وقد سمعت والدي يردد ايمانه بالطب العربي وأنه عالج نفسه وهو في طرابلس الغرب بالكي فشفي . لكنني أقنعته بأننا لابد أن نذهب إلى السويداء لمراجعة طبيب المستشفى المقدم أورديه . وكان جراحاً مشهوراً . ورأيته يضيق بهذا الحديث فحدست أن الذي يضايقه هو معرفته بعدم توافر أي مال لدينا

لدفع نفقات السفر والاقامة في السويداء ، فقلت له أن هذا الأمر سأعالجه أنا وليس عليه أن يهتم به . فقد بدأت أتصرف كمسؤول ، ولا يمكن أن تقف في وجهي عقبة .

حاولت أن أجد المال ، كنت يوماً عند مدخل القرية فرأيت مهندساً روسياً علمت أنهيعمل في مشروع جر مياه عين بدر إلى صلخد وعرمان— وعدد آخر من القرى . وعرف المهندس من لباسي أنني طالب فسألني عن اسمي وعن مستوى دراستي فقلت له أنني أتممت الصف الثاني— فقال : « إذن أنت ملم بمبادىء الهندسة السطحية — ونحن بحاجة اليك فهل تقبل بأن تعمل معنا ؟ » فأجبت « بكل طيبة خاطر » فقال : بعد أربعة أو خمسة أيام سأكون قد اتصلت بمهندس الأشغال العامة السيد موجان وأخذت موافقته على تعيينك بالمياومة . فانتظرني هنا في مثل هذه الساعة من يوم كذا » .

وجئت في الموعد المحدد — فقال لي المهندس : « لقد وافق المهندس موجان على تعيينك من حيث المبدأ ولكنه يريد أن يراك ، لتحديد الأجرة ، وبعدها تباشر ، فاذهب غداً صباحاً إلى السويداء لمقابلته ، وقل له أرسلني إليك المهندس الروسي فلان » .

وفي صباح اليوم التالي عند الفجر كنت مسافراً الى السويداء سيراً على الأقدام عن طريق الخراب ، ولم يكن لدي وسيلة أخرى للسفر فلا سيارات ولاخيل ، كنت قبيل الظهر في السويداء فدخلت دار الحكومة وقابلت المهندس موجان وأطلعته على القصد من المقابلة — فأجابني في منتهى الجلافة والصلف بأنه لا يعلم شيئاً عن هذا الموضوع ، وأنه لم يتحدث إلى المهندس الروسي بشيء من ذلك ، وأنه لا يحتاج إلى عملي مطلقاً .

وكنت متأكداً من أنه يكذب ومن أن المهندس الروسي هو الصادق ، ومن أنه لا يريد أن يسهل لي الشغل لأنه وجدني أعلى مستوى مما كان يريد ولعله لم يقرأ في ملامحي ما يدل على أنني كنت مستعداً لمقاسمته أجرتي — وكان قد أثرى في مديرية الأشغال بالسويداء . .

إزاء هذه الصدمة نزلت درج دار الحكومة أربعاً أربعاً ، وقصدت أول دكان فاشتريت رغيفاً من الخبز وأداماً من لبن أو حلاوة ، لم أعد أذكر — وعدت فوراً وأكلت وأنا أمشي ، ورجعت إلى عرمان فوصلت اليها حوالي غروب الشمس قاطعاً بذلك ذهاباً وإياباً مسافة لا تقل من ٦٥ أو ٧٠ كيلومتراً — رجعت متعباً ، ناقماً ، ثائراً ، حاملاً كل هموم بلادي فوق كتفي ، عاقداً العزم على متابعة معركة التحدي حتى النهاية ، تحدي كل شيء وكل قوة .

وبقي السؤال يطرح نفسه : لمن ألجأ لأقترض مبلغاً من المال ؟ هل ألجأ للأقارب ؟ لا . فلنا معهم تجارب غير مشجعة ، ثم ، هل كانوا عمياً لا يرون حالة والدي ؟ فلو كان لديهم أي استعداد للمساعدة لكانوا عرضوا تلك المساعدة ، فلألجأ اذن إلى جارنا وكان تاجراً وحالته جيدة ولأتعامل معه على أساس من أسوأ الاحتمالات وحين فاتحته بالموضوع ، رحب بي وقال : « تكرم » . ثم أملى شروطه : سيكون المبلغ ثمن قمح نسيئة أي تحدد كمية الحنطة التي تقابل المبلغ بالسعر الحاضر — وعند تسليم الحنطة في البيدر وقبل أن يخرج من البيدر مدّ من القمح لأي إنسان آخر . يتسلم الكمية المتفق عليها حتى لو كانت آنذاك تساوي أضعاف المبلغ المقترض . ومن المعروف لدينا في الأرياف أن الحبوب تكون أدنى أسعارها في الفترة التي تسبق الموسم . فترة « عصة المنجل » ، كما

يسمونها . ذلك لأن الفلاح يكون قد انفق كل ما لديه وصار محتاجاً إلى أي مبلغ ، ولذلك فهو مستعد للبيع بأي ثمن ، وتاجر الحبوب – البوايكي أو الرأسمالي – يسهم في احداث هذا التدني في الأسعار لأنه بذلك يؤمن لنفسه الحصول على كمية مضاعفة من الحبوب ، ثم يلجأ بعد الموسم ، إلى الامتناع عن البيع فترة – شأن جميع المحتكرين – فترتفع الاسعار وترتفع ، حتى اذا باع ربح قرشه قروشاً ، قبلت بالشروط ، وشكرت لجارنا فضله ، فحياة والدي عندي أغلى من كل أموال الدنيا – وقضيت عمري أعترف بفضل الرجل .

كان سفرنا إلى السويداء في أواخر آب وأدخلت والدي المستشفى بانتظار أن يتمكن المقدم أورديه من فحصه وابداء رأيه .

كنت أيام الاستعداد لمسابقة المنحة الدراسية ، قد تعرفت إلى عدد من الرفاق ، منهم من السويداء : حسين عبد الدين ، ونايف حاتم ، وتوفيق أبو الفضل ، ومحمد أبو عسلة ، وكان حسين عبد الدين قد حصل على منحة دراسية قبلي بسنة واحدة والتحق بالثانوية العازرية في دمشق ، وقدرت أنه سيكون في عطلة ، وكان بيته قريباً من المستشفى . فقمت بزيارته ، وأخبرته بسبب وجودي في المستشفى – فسألني هل أحتاج إلى شيء ، فقلت له أنني أكون له من الشاكرين اذا أعطاني ابريقاً من الفخار ليشرب والدي منه ماء بارداً ، فأعطاني الابريق ، ورافقني إلى المستشفى حيث عاد والدي وكان لطيفاً معنا للغاية .

وجاءت اللحظة الحاسمة : قام أورديه بفحص والدي فحصاً دقيقاً وكان الاهتمام بادياً عليه ظاهراً في جميع قسماته ، وبعد الانتهاء من الفحص ، أشار إلي أن أتبعه ، فانتحى بي جانباً ، وسكب في أذني

كلمات لم تبارح سمعي طوال حياتي ، قال ، ما ترجمته بالحرف الواحد تقريباً :

— اسمع يا بني ، انك تبدو لي فتى عاقلا واعياً ، والذي سأقوله لك يجب أن تحتفظ به لنفسك ولا تطلع والدك عليه أبداً . والدك مصاب بسرطان في الكبد وجسمه أضعف من أن يتحمل أية مداخلة جراحية . وهو سيعيش من خمسة عشر إلى ستة عشر يوماً فقط . ولابد أن لك والدة وأخوة . فمن الأفضل أن يعيش هذه المدة بينكم . وسوف تقول له : « ان الطبيب أعطاني الأدوية اللازمة ولا حاجة بنا إلى البقاء في المشفى ، اذ يمكن تناول هذه الأدوية في البيت »

وأضاف الطبيب : « هذا المرض ، يا بني ، يمكن معالجته بطريقة واحدة ، وهي كمية صغيرة من الراديوم تكلف ٢٥ مليوناً من الفرنكات وأنت تعلم أن ميزانية دويلتكم أعجز من أن نقدم مثل هذا الدواء ، والشفاء مع ذلك غير مضمون ، فتشجع يا ولدي وواجه واقعك . . ومسؤولياتك » .

كيف دارت الأرض بي تلك اللحظة ، كيف عصفت بي العواصف ، كيف تلقيت النبأ الصاعقة ؟ لا يستطيع أحد أن يصف ذلك ، ولكنني — وهذا غريب — شعرت بمحبة لهذا الطبيب العظيم ، وأعجبت به إنساناً ، بقدر إعجابي به طبيباً ، هكذا يكون الصدق ، هكذا تكون المواجهة ، لقد كبرت عشر سنين في تلك اللحظة ، شكرت للطبيب لطفه ، وتجلدت وحاولت جهدي اخفاء ما كان يعتلج في داخلي ، وعدت إلى والدي ، فطمأنته ، وشجعته ، وقلت له : سنسافر وستتم المعالجة في البيت

ولكن والدي استشف الحقيقة ، ولامني على أن أخفيها عليه — وقال

لي : « أتعتقد أني أخاف الموت أو أهرب منه ــ توكلت على الله والله المستعان ، لنسافر يا ولدي » وترقرقت الدموع في قلبي دون عيني ، وحملت ما أعطانيه الطبيب من أدوية . ونقلت والدي إلى السيارة ، ثم إلى بيتنا في عرمان .

فاتني أن أذكر أن حالة الضعف التي كان عليها والدي كانت تقتضي أن أبدل له ثيابه ، فكان يضيق بذلك ويكاد يذوب حياء ، ويعتذر مني ــ فأقول له : « والدي ، افترض أنني طبيب ألا يكشف الطبيب على جسم المريض كله ؟ ثم إني ولدك ، وأنا أولى الناس بالاعتناء بك » .

عدنا إلى البيت ، سألتني والدتي عن رأي الطبيب فدعوتها إلى غرفة أخرى ، وأطلعتها على الحقيقة ــ الصاعقة ، وأخذت منها وعداً ألا تري والدي ، خلال هذه الأيام الباقية من حياته إلا الوجه البشوش ، والملاطفة الحانية المخففة للآلام ، ورتبت نظاماً توليت تنفيذه بنفسي . كنت أحمله من غرفة إلى أخرى ، مـع تحول الشمس ، فهو يقضي بعد الظهر والليل حتى قبيل ضحى اليوم التالي في الغرفة الشرقية ، ولها شباك غربي ، وشباك قبلي تظلله شجرة التوت . قبيل الضحى أنقله إلى الغرفة الغربية التي تستمد البرودة من الخزانة ومن شباك جنوبي وآخر شرقي ، فيبقى فيها إلى المساء ، وهكذا.وكان يبكي فرحاً حينما أحمله ويقول لي : « لقد صرت رجلاً ولذلك فأنا أموت قرير العين مطمئناً » كان يعزف عن تناول الطعام ولا يأكل شيئاً يذكر .كان كالشمعة : ينير ولكنه يذوب ، وما أظن موقفاً في الدنيا أصعب من موقفي تلك الأيام : والدي يذوب أمامي ولا أملك أن أنقذه وأنا أعرف ان انقاذه مستحيل ، وأنه على موعد مع الموت أعرفه أنا بالتحديد .

وعلي أن أسهر على كل شيء بنفسي — فأنا أحمل السر الرهيب تشاركني فيه والدتي من دون سائر الناس . وحين كان والدي يسمع صوت المنادي — والمنادي في القرى هو الذي يتولى نعي المتوفى — كان يقول : «آه ، ماأحب هذا الصوت إلى نفسي ، متى يا ترى ينادىعلي ؟» لقد صار يتمنى الموت — وكان قوله هذا يحزننا جميعاً ، وكانت والدتي واخوتي يخرجون ليبكوا بعيدين عنه ، أما أنا فأبقى متجلداً .

كنا نحاول أن نسري عنه فنروي له أخبار الكرم ونريه عناقيد رائعة من عنبه الناضج الجميل ، ونخبره عن البيدر وجودة الموسم ، وحين كانت الآلام تسمح له باغفاءة قصيرة ، كنت آخذ أحد الكتب فأنشد الراحة بين سطوره ، ولاحظنا أن أخبار الكرم كانت توحي إليهأن يسألنا عن حال التربة : هل غطى سقفها بالتراب هل أعد الحجر المناسب لسد بابها حينما يدفن فيها أحد » ولا يفوتني هنا أن أذكر أنه في إحدى فترات راحته التي استمرت بضعة أيام قبل ذهابنا إلى السويداء ، كان قد طلب إلي مرافقته إلى الكرم ، وهناك أشرف بنفسه على وضع الحجر الأخير في سقف التربة . (كتبت قصة عن ذلك عنوانها الحجر الأخير)

ومرة ، بينما كنت مستغرقاً في القراءة ، أفاق ورآني وخاطبني قائلاً : (بالحرف الواحد تقريباً) :

— « سعيد يجب أن تكمل دراستك ، إياك أن تقضي على مستقبلك بسبب وفاتي ، أريدك رجلاً يحقق حلم عمري — ويجب أن تفتخر بأن والدك نظيف القلب ، والفكر ، واليد ، واللسان ، عمري ما قبلت الدنية من أية ناحية جاءت، عمري ما كذبت ، ولا خفت المغامرة ، لم أقبل أن أكون عالة على أحد ، وكثيرون كانوا عالة علي ومع ذلك فلم تصدر

عني كلمة واحدة تدل على منة أو استعلاء ، وأنت تراني الآن أوشك أن أفارق الدنيا ، وأنا أكثر ما أكون سعادة وراحة ضمير — هذا كل ما يأخذه الانسان معه من الدنيا ، اذا أردتم أن تعرفوا عني شيئاً في المستقبل فاسألوا عني في بيت حسين سلام من قرية الكسيب (١) فأنا رأيت في منامي أنني سأولد هناك » .

وأخيراً ، في اليوم الحادي عشر من أيلول ١٩٣٤ ، وكان والدي قد اشتدت عليه وطأة الآلام في اليومين الأخيرين ، فقد بدأ يحتضر بعد ظهر ذلك اليوم ، كان يمر بكفه على الجانب الأيسر من صدره ويصعدها نحو رأسه وكأنه يساعد الروح على الخروج مع النفس — كل الناس يعتقدون أن الوفاة تعني لفظ الروح — أو مفارقة الروح الجسد ، أو لفظ الأنفاس الأخيرة — وبقيت إلى جانبه وأنا أتقطع ألماً وأتجلد ، من اجله ، وظل كذلك حتى انطفأت الجذوة وفارقت الحياة ذلك الجسم البديع الذي لم يبق منه إلا العظام والجلد ، ولشدة مشاركتي إياه في آلامه كنت أضعف معه حتى نقص وزني أحد عشر كيلو غراماً خلال تلك العطلة الصيفية . وتوفي والدي ذلك المساء وواريناه التراب ظهر اليوم التالي : وقد تحقق حلمه بأن كان أول من يدفن في التربة التي أعدها لنفسه واشترك كل أهل القرية ، بتشييعه . .

كنت أمام تجربة قاسية ، وامتحان عسير .كنت أكره الندب والنادبات ولا سلطة لي لأمنع ذلك . فالنساء عندنا يتحلقن حول الجثمان المسجى ويندبن ، تندب احداهن وتردد الآخريات ، منذ الصباح حتى بعيد الدفن ، ويعاودن ذلك كل ليلة حتى يكمل الاسبوع ، وتقام

---

(١) — الدكتور حسين أبو الحسن فيما بعد .

حفلة الأسبوع كحفلة يوم الدفن ، أما الرجال فلهم شأن آخر : إنهم يأتون للتعزية أفواجاً أفواجاً ، كل عائلة تأتي دفعة واحدة ، وقد تشترك عائلتان أو أكثر ، أوعدد من الجيران ، أهل حارة من الحارات ، ويقف جميع أقارب المتوفى في جانب من الساحة التي تجري التعزية ، فيها — ويأتي المعزون فيقفون مقابل أقارب الميت أو « أهل الحريبة » وقبل أن يحيوا ، يبدأ كبير المعزين التعزية ويتبعه الآخرون ، كلام كثير يقابله جواب مماثل من أقارب الميت — مجاملات عشائرية جاهلية تفتت أكباد الصالحين وتثير اشمئزازهم . وبعد الانتهاء من هذا الحوار المسرحي تطلق التحية من المعزين ويجيبهم أقارب الميت ، ثم يستدير المعزون ليأخذوا مكانهم في جانب من جوانب الساحة ، ولا ينسون أن يحيوا بالكلام أو بالاشارة الصفوف التي يمرون أمامها — وإذا كان بين الحاضرين غرباء عن القرية فلا بد من السلام عليهم ، وسؤالهم عن أحوالهم وعمن فارقوا . .

وأما أقارب الميت فلهم دور آخر : انهم يعددونه ، أي يدخلون جماعة حتى يقتربوا من الجثمان ويبدأ البكاء بصوتٍ عال ، النشيج ، الانتحاب ، مع التلفظ بعبارات : « يا مربينا ، يا عمي ، يا مفضل علينا ، يا عمي ، يا أسفنا عليك ، يا عمي ، يا حاجتنا إلى طلاتك ، يا عمي ، الخ » . وكانوا يريدونني أن أفعل مثلهم . فرفضت ، وألقيت النظرة الأخيرة على جثمان والدي ، وملء نفسي حزن عميق صامت ، فأنا وحدي فقدته ، أما هم ، فلقد علمت من صدق محبتهم له ما علمت ، يوم كان حياً ، يوم كان مريضاً يحتاج إلى الطب والدواء ، ان جارنا الذي أقرضني المال وأخذ مني أكثر من المال لهو في نظري ، أصدق حزناً من هؤلاء المتباكين. وبعد الصلاة عليه ، ودفنه ، دعينا لتناول الطعام لدى أحد الأصدقاء ، وهي

عادة متبعة ولابأس بها — لأن نساء بيت المتوفى منشغلات بحزنهن عن إعداد الطعام — وعندما اطلع فيما بعد على عادات أهل المدن فسأفضلها على عاداتنا ما عدا ما يتعلق بتقديم الطعام للمعزين من قبل أهل المتوفى ، فهذه عادة لم استحسنها ووجدت عادتنا في الريف من هذه الناحية أفضل منها ، ولكن دخلت عليها مبالغات جعلتها سيئة ، وفي المساء بعدما انصرف الجميع وقبل أن يبدأ قدومهم للسهرة عندنا ، جلست مقابل الشباك الذي كان يحب الاشراف منه على الفضاء الرحب ، وبكيت ، بكيت ، كما لم أبك من قبل ولا من بعد ، فاجأتني والدتي فشاركتني في البكاء ، الصامت ، العميق ، فترة من الزمن .

وأمضينا اسبوعاً كاملاً في استقبال المعزين ، ليل نهار ، حتى احتفلنا بالاسبوع ، وحفلة الاسبوع ، التي ألغيت بعد ثلاثين سنة تقريباً — كان مبررها ان الاقارب من خارج القرية لا يبلغهم الخبر إلا متأخراً ، فالاسبوع يكون على الاكثر لاستقبال الغرباء . . وفي يوم الاسبوع تقدم القهوة — بخلاف يوم الوفاة — كما يقدم الطعام — في بيت المتوفى وفي بيوت أقاربه وأصدقائه — أما الآن فقد ألغيت عادة الطعام هذه ، وحسناً فعل الذين ألغوها ، لأن كل اسبوع كان يكلف مجموع أهل القرية عشرات الذبائح وما يتبعها من السمن والحبوب (الأرز البرغل ،) ويسبب للمعوزين ارهاقاً حتى ليبهظهم الدين من أجل هذه المظاهر ، والغريب أنهم يفعلون ذلك وقريتهم أحوج ما تكون إلى أبسط شروط العمران ، وبيت الواحد منهم بحاجة إلى مرافق قد يكفي لتأمينها ثمن وليمة واحدة — ولكنه ينفق على الوليمة والولائم — لأنها تحقق له نوعاً من الفخر الشخصي الزائف — ولا ينفق شيئاً من أجل المرافق التي تؤمن له ولأسرته بعض الراحة ورغد العيش ، والويل لمن يظهر أفكاره هذه

فهو في نظرهم بخيل ، ولا يجدون تهمة اشد وقعاً عليه واشد عزلا له من مجتمعه أصعب من هذه التهمة — ولكن الزمن تبدل ، وتبدل كثيراً . ورايتا نهاية الحواتم . . (١)

لم يكن امامي وقت طويل لالتحق بالمدرسة فالاسبوع انتهى وهذا يعني ان نهايه أيلول باتت قريبة — وبداية تشرين تفتتح المدارس في بيروت — وامامي سنة دراسية ذات شأن سأتقدم في نهايتها لامتحان القسم الأول من الشهادة الثانوية (البكالوريا)

وعدت إلى المدرسة وانا حائر ، كيف أتصرف ؟ الذين يفقدون آباءهم هناك يضعون شارة حداد ، وأنا لا أؤمن بذلك ، فالحداد في الأعماق لا في اللباس — ومجتمعي كله لا يؤمن بالحداد :

فالموت عندنا شيء طبيعي ، مثل الولادة — الموت حق يجب أن نرحب به ، تماماً كما نرحب بالولادة ، هذه خلفية تربيتنا الاجتماعية— أما الذين يضجون حزناً وبكاء فهولاء ليسوا النخبة . انهم موضع لوم العارفين . ووضعت شريطة سوداء بضعة أيام على الجانب الأيسر العلوي من الثوب ، ثم ما لبثت أن نزعتها ولمت نفسي على أنني سايرت الرأي السائد .

لقد بدأت أحدد مواقفي من كل حادث ، بدأت امارس مسؤولياتي ، ليس كطالب فقط ، بل كرجل جعلت منه الظروف الغاشمة رب أسرة ، قبل الأوان .

أنا السنة ، أعيد الصف الأول العربي ، وأباشر الصف الأول الفرنسي — صف الخطابة — فإلى جانب الأديب الأستاذ فؤاد افرام البستاني الذي عرفنا —

---

(٢) الحواتم : جمع حاتم وهو حاتم الطائي المشهور بكرمه .

بدأت أتعرف إلى أديب فرنسي هو الأب برجي– كان ذا وجه مهيب ولحية سوداء نامية جميلة – طريقته في تدريس الأدب ناجحة : فهو يشرك الصف في التفكير والحوار . كان على أي طالب أن يقدم إليه حبة من الشوكولاته أو الملبس عند بداية كل درس ، فكان هذا موضوع تزاحم بين الطلاب ، فمن سبق في تقديم الحبة كان المجلي ، اذ أن الأستاذ لا يقبل أبداً حبة ثانية – وكان الاستاذ متعصباً جداً للأدب المدرسي (الكلاسيكي) ، ولا يطيق الأدب الابداعي ، الثوري . (الرومانسي) ولا غرابة في ذلك فالثورة في فرنسة قامت على أنقاص سلطة الملكية والاقطاع والكهنوت ، ولا ينتظر من كاهن يسوعي أن يفضل الأدب الثوري على الكلاسيكي .

غير أن هذه القاعدة ليست عامة ، وقد عرفت كهنة يقدرون الأدب الثوري حق قدره . ولكننا ما نزال في بداية السنة الدراسية ، فلنترك الحديث عن المذاهب الأدبية وخلافنا مع الاستاذ إلى صفحات مقبلة .

قبل نهاية تشرين الأول ١٩٣٤ كنت قد نظمت قصيدة رثاء لوالدي ، حين أقرأ القصيدة اليوم لا أرضى عن كل ما ورد فيها – ولكن فيها أفكاراً وصوراً ، جعلت عنوانها : « أبي أيها النسر العنيد . . » لقد كنت أصف والدي فعلاً ، بقدر ما أرسم لنفسي صورة الانسان الذي أريد أن أكون .

وبدأت فعلاً أخطط لما يجب أن أكون بدلاً من الوقوف على الأطلال . والتفكير فيما كان . كان الصراع الخفي مستمراً بين الفكرة الوطنية والفكرة الاستعمارية – وقد برز هذا الصراع فجأة ، بصورة عفوية ، إلى الوجود في مناسبة عامة . كان عيد فرقتنا ، فرقة الكبار

الداخليين ، يوم الثامن من شهر كانون الأول من كل عام ، وقد شعرنا أن أمراً ما يدبر لنا في الخفاء ، تسربت الينا أخبار خطاب سيلقيه أحد الأساتذة ، وسيتعرض فيه لبعض الأسماء من تكتلنا – كيف؟ من أية ناحية ؟ لم يكن من السهل أن نعرف ذلك قبل الحفلة . ولكن على سبيل الاحتياط ، ومن قبيل الحدس بما سيكون ، قررنا أن تكون لي في الحفل كلمة ، وقررت أن تكون هذه الكلمة قصيدة ، وأعددت قصيدة بعنوان « من هو الكبير » ! ألم يكن العيد عيد الكبار الداخليين ؟ فليكن الموضوع التساؤل عمن يستحق هذه الصفة : الكبير . .

وقد اتفقنا على أن نقابل بالصمت وعدم التصفيق الكلمة المعادية، وأن يصفق الجميع ويهللوا لقصيدتي .

وجاء يوم الاحتفال ، وكان البرنامج يتضمن عدة مواد ، وحين تكلم الاستاذ ، تناول سيرتنا باسلوب أدبي رفيع ، يتسم بطابع السخرية الراقية ، التي لا يشعر بأنها سخرية إلا كل ذواقة متمرس بمطالعة الآداب العالمية المتنوعة ، لقد صور تكتلنا على أنه رابطة لتشكيل الدولة العربية الواحدة – الامبراطورية العربية – واني ما زلت أذكر ثلاثة من الذين تناولهم في حديثه الأستاذ رزق الله شماس (العراق) والاستاذ جان عزيز (لبنان) وسعيد أبو الحسن (سورية) . قال عن الأول أنه سيكون رئيس الجمهورية ، وعن الثاني أنه سيكون وزير التربية ، وعن الثالث أنه سيكون (معاون وزير التربية) أي معاوناً للأستاذ جان عزيز – كان الخطيب يتصور أن الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، والحكم الانكليزي في العراق سيدومان إلى الأبد – ومن هنا كانت السخرية بمن

يعملون للتحرر وإقامة الدولة العربية الواحدة ، وقوبل الخطيب بالوجوم ـ لم يصفق له إلا بضعة أشخاص هم زملاؤه الأساتذة وبعض الطلاب(١)

وحين جاء دوري ، وصعدت المنبر قوبلت بعاصفة من التصفيق جعلت الأساتذة والاداريين في الحفل يتوقعون أمراً ، والقيت قصيدتي ، فكانت مفاجأة من جميع الوجوه ، وقوبلت أكثر أبياتها بالتصفيق واستعيد أكثرها ، وطريقة الالقاء ذاتها كانت إحدى المفاجآت ، فكان النصر كاملاً وكانت هزيمة الخصوم ساحقة ، ولأن هذه القصيدة أول محاولة للتعبير عن فكرة سياسية اجتماعية فلا بأس بايرادها كاملة :

من هو الكبير ؟ . .

صاح قم وانظر المدينة هبت . . من عميق السبات تزهو جمالا

أجل الطرف في الشوارع والحانات أدخله ذي القصور الطوالا

وتفرس في كل شخص تراه هل ترى للكبير فيه خيالا ؟

(١) الغريب ان النبوءة الساخرة قد تحققت على شكل آخر وعلى نطاق الدولة العربية المجزأة القائمة ـ فالاستاذ رزق الله (رزوق) شماس صار عضواً بارزاً في حزب الاستقلال العراقي وكان أكثر الأحزاب العراقية القديمة مناوأة للاستعمار وعملا للوحده العربية بمفهومها القديم . ومحرراً لجريدة الاستقلال جريدة الحزب .

والأستاذ جان عزيز أصبح شخصية سياسية بارزة في لبنان وانتخب نائباً أكثر من مرة وتولى وزارة الانباء مرة ـ وهي قريبة من وزارة التربية وهو من المرشحين لرئاسة الجمهورية ـ أما المؤلف سعيد أبو الحسن ـ فقد كان له دور في سياسة بلده سيرد وصفه في تضاعيف هذا الكتاب . وهو حين يخط هذه الصفحات ، معاون وزير في سورية ـ ولكن ليس في وزارة التربية بل في وزارة الأشغال العامة والثروة المائية وهو يعتز بصفة المواطن المناضل أكثر من اعتزازه بأية وظيفة مهما علت .

هـاك هـذا الـذي يسـير رويـداً
رافعـاً رأسـه يميـل اختيـالا

لا يـرى الشـمس من تـلألـؤ مـا فـو
ق عصـاه (*) ، ممـا يسـاوي مـالا

يرتـدي بـزة يشـير إليهـا
معظـم النـاس مكـثرين المقـالا

كلمـا طـن في قـرارة أذنيـه
كـثـير كـلامهـم فتـوالى

زاد عجبـاً وافـتر تيهـاً فبـانـت
ذهبيـات ثغـره تتـلالا (**)

وإذا مـا حيـاه من ظـن فيـه
نفس شـهم أو خـال فيـه كمـالا

حـرك الـرأس بـازدراء كـأن اللـه
شمـماً قـد صـاغـه أو هـلالا

* * *

أو تـرى الآن قـزمـة كـاد لـولا
قـوة فيـه ، لا يحـاكـي الرجـالا

(*) كانت عادة حمل العصا المزينة بالمعادن عادة متبعة لدى وجهاء ذلك الزمن وساسته البارزين .

(**) كذلك كانت الأسنان الذهبية علامة الوجاهة والغنى .

يطـأ الأرض مسـرعـاً لا يبـالـي
مـن بـني النـاس ، قيلهـم والقـالا

أسـود الـوجـه قـد تخـدد خـداه
كمـن زاول الحيـاة القتـالا

أو كمـن ظـل في البراري دهـراً
لـم يوسـد خـداه إلا الـرمـالا

وطـن تـاعـس يحـاول انقـاذه
مـن بعـد مـا أذيـق النكـالا

وعليـه أحـيـاء قـوم أذلـوا
فـأضـاعـوا الـنشـاط والآمـالا

لا يـرى اللـذة الجديرة فـي العـيش
مـع الـرفعـة الـتي قـد تـنـالا

أن يضحـى بالـنفـس والـولـد والمـال
لأجـل الـبـلاد لـيس محـالا

* * *

صـاح ، هـذا هـو الكـبير فـهـلـل
لعظـيـم وقـل : الـهـا تعـالى

كـل مـا قـد خلقـت يبـدو عجيبـاً
قـزمـة نفسـه تضاهـي الجبـالا

بينمـــا ذا الطويـــل ذو البزة الحســـنا
يحـــاكـــي جمـــوده التـمـثـــالا

لـــيس فيـــه نـــفس تـــروم المعـــالـــي
ســـاء قـــولا وســـاء أيـضـــاً فـعـــالا

* * *

إنني ما زلت حتى اليوم راضياً عن هذه القصيدة من حيث المضمون فقد حملتها بذور تفكيري وسلوكي ، وإن أكن لا أرضى عنها كل الرضا من حيث البناء ، ففيها هنات لغوية وموسيقية يمكن التساهل فيها لأنها من البواكير

الفصل السابع عشر

الرجل المسؤول في البيت والمجتمع

ثابرت على كتابة الرسائل إلى والدتي التي لم تكن تعرف القراءة ، ولكن أخي الذي يليني في السن — منصور — كان يقرأ لها رسائلي ويكتب إلي باسمها تارة ، وباسمه تارات وكنت أشجعه لأن بوادر التفكير والمقدرة على التعبير كانت ظاهرة في رسائله ظهوراً واضحاً . وظلت أعمالنا الزراعية سائرة سيرها الطبيعي بواسطة شريكنا السابق نفسه ، وكان علي أن أضاعف الجهود لأنهي دراستي ، ففي تلك السنة الدراسية ١٩٣٤— ١٩٣٥ تقدمت إلى امتحان القسم الأول من الشهادة الثانوية ، وقبل ذلك لا بد من الحديث عن بعض الأمور :

سبق أن أشرت إلى اختلاف وجهتي النظر بين أستاذ الأدب الفرنسي، من جهة ، وجان عزيز وأنا من جهة أخرى ، وفي إحدى المناسبات كان أمامنا موضوع مقارنة بين شاعر كلاسيكي وشاعر رومانسي ، ففضلنا هذا على ذاك ، وأبرزنا أثر الثورة في أدبه وأنه أدب المستقبل ، بالنسبة إلى القرن التاسع عشر ، وأن حوادث التاريخ أيدت وجهة نظرنا هذه ، وحينما اطلع الأب (برجي) على وظيفتنا جن جنونه وثارت ثائرته ، وأنبنا علناً أمام رفاقنا ، فاحتججنا على هذا التصرف ، واعتبرناه نوعاً من التسلط الفكري ، وتقييد حرية الرأي ، والتدخل في الذوق

الشخصي ، والانحراف عن الموضوعية ، وزاده احتجاجنا ثورة ، وأعلن أنه لا يطيق أن يرى بين تلاميذه ، من يجرؤ على مخالفة آرائه الأدبية على هذا النحو — وأنه سيرفع الأمر إلى ادارة الكلية .

وبالفعل فقد استدعانا المدير في اليوم التالي إلى مكتبه ، ولاطفنا ، وعرض الموضوع على أنه مشكلة لابد من التغلب عليها فهو من جهة لا يستطيع الاستغناء عن الأب برجي ،ومن جهة أخرى ، لا يقره على جميع آرائه الأدبية، وعلى هذا نصح لنا أن ننظر إلى الوظائف المدرسية على أنها وظائف مدرسية وحسب ، فلا يجوز أن نعطيها من الأهمية أكثر مما تستحق ، فهي ليست معدة لتطبع في كتاب ولن يطلع عليها غير أستاذ المادة — أما في امتحان البكالوريا فلنا أن نكتب ما نشاء ، ما دامت اللجنة الفاحصة هي لجنة حكومية من خارج الكلية ، ولن يكون الأب برجي عضواً في تلك اللجنه ، فنزلنا عند رغبة المدير ، وأعلنا هدنة دائمة بين الأب برجي وبيننا ، ولكننا في الفحص الرسمي كتبنا عن الادب الرومنطيقي كما كنا نراه نحن ، وكنا من الأوائل في الأدب الفرنسي بين المتقدمين للشهادة تلك السنة . وجاء الأب برجي يهنئنا عند اعلان النتيجة ويقول انه فخور بتلاميذه ، فشكرنا له التهنئة مبتسمين ابتسامة ذات مغزى . .

ولا بأس من إيراد بعض التفاصيل عن فحوص الشهادة ، كان الفحص يجري في دار المعلمين الابتدائية ، وكان عدد المتقدمين تلك الأيام بضع مئات فقط ، كنت قد تقدمت للقسمين الأدبي والعلمي . كما تقدمت للبكالوريا الفرنسية بعد أن درست شيئاً من اللغة الانكليزية، وكانت مشروطة لذلك ، وقد نجحت بالامتحان الخطي بالقسمين

الأدبي والعلمي من البكالوريا اللبنانية — ولم أنجح بالبكالوريا الفرنسية، لسبب ، بسيط جداً وهو أنني نسيت أن أضيف في الانشاء حرف (S) على آخر الفعل ، عندما يكون الفاعل هو الغائب المفرد « هو » فقد كنت متأثراً باللغة الفرنسية فنسيت قاعدة هامة جداً بالنسبة إلى اللغة الانكليزية — اما في الفحص الشفهي للبكالوريا اللبنانية فقد نجحت بالقسم الأدبي ولم أنجح بالقسم العلمي وكان لذلك سبب : فقد اصطدمت بالامتحان الشفهي للتاريخ والجغرافية باستاذ متعصب لفرنسة أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، وراح يسائلني عن تفاصيل في تاريخ فرنسة لم أكن أعتقد أنني ، كطالب عربي علي أن أحفظها ولا أنساها إلى الأبد : كاسم النائب العام الذي رافع ضد لويس السادس عشر أو اسم زوجة أحد الأمراء ، ولفت نظر الاستاذ إلى أن الامتحان هو امتحان للبكالوريا اللبنانية وأن التاريخ المهم هو التاريخ الشرقي — فزاد حدة وأعطاني واحداً من عشرين في التاريخ وواحداً من عشرين في الجغرافية — وعند جمع العلامات ، علامات الشفهي مع علامات الخطي ، لم تتأثر نتيجة القسم الأدبي فنجحت فيه ، وتأثرت قليلاً علامات القسم العلمي فلم أنجح فيه.

وبعد أن انتهت الامتحانات عرفت ما دار بخصوصي في لجنة الامتحانات ، فلقد كان الأستاذالأديب خليل تقي الدين في اللجنة ، وعند جمع علاماتي لفت نظره عدم التناسب بين علاماتي المرتفعة كلها وعلامتي التاريخ والجغرافية ، فقال : لا يمكن أن تكون هذه العلامة هي علامة هذا الطالب ، الذي حصل على تلك العلامات العالية جداً ، في سائر المواد ، فاذا كان مجموعه لا يجعله ناجحاً ، فعلى اللجنة أن تعيد النظر في علامتي التاريخ والجغرافية . ولكن المجموع كان كافياً ولم يعد النظر وانتهت المشكلة على خير .

غير أن الحادثة عقدتني فصرت أكره كل امتحان رسمي ، لا أؤمن بعدالة النتائج التي يحصل عليها المتسابقون — ومن أجل هذا امتنعت عن الاشتراك في الدورة الثانية للبكالوريا التي كانت تجري في آخر الصيف ، مع أنه كان بامكاني أن أتقدم للفحص الشفهي فقط فأحصل على القسم العلمي من الثانوية ، وكان في هذا ربح للمدرسة عند مقارنة نتائجها بنتائج غيرها ، ولكني كنت — كما بقيت دائماً — عنيداً لا أتراجع عن رأي ارتأيته ما دمت أعتقد أني على حق — أريد أن أحصل على الثانوية — أية ثانوية كانت — جواز سفر إلى الدراسة العليا ، أو إلى العمل ، وما دامت لدي الثانوية الأدبية الأولى ، فلأكتف بها ، ولاسيما أنني كنت متجهاً إلى الفلسفة وهي القسم الثاني من الثانوية الأدبية .

وخلال سني دراستي قدم مدرستنا من أبناء الجبل ثلاثة طلاب في أوقات متفاوتة توليت ارشادهم والعناية بهم ، لأنني كنت أقدم منهم ، وإذا أتيح لي أن أكتب القسم الثاني من هذه الذكريات ، فسأتحدث عن مصير كل واحد منهم ، عن القائمقام طرودي عامر (رحمه الله) وعن السفير الدكتور جبر الأطرش ، والدكتور فضل الله الزقوط أمد الله بعمرهما : فأحدهما في بكين والآخر في الحديدة حين أكتب هذه السطور على أنني سأتحدث عن طرودي بعد قليل .

وفي أحد الأيام وأنا في المدرسة ، استدعاني المدير وقدمني إلى شخص وقور جاء يدخل ابنه القسم الداخلي وقال : القاضي السيد . . علوية من صيدا أو صور (لم أعد أذكر) وابنه . .سلمت على السيد القاضي وابنه.

---

(١) أصبح فيما بعد ضابط في الجيش السوري وجرح في معركة فلسطين ١٩٤٨

وأضاف المدير : « صديقنا القاضي يريد أن يكلفك العناية بابنه ورعايته، وقد طلب الينا أن ندله على طالب أهل لذلك فدللناه عليك » . فشكرت للمدير ثقته – ووعدت القاضي خيراً ، وشجعت الفتى الموكل أمره إلي ، وشعرت بأنني ازددت بذلك وزناً ومسؤولية .

عدت في تموز ١٩٣٥ لقضاء العطلة الصيفية ، في عرمان ، كالعادة، ولكنني هذه السنة كنت قد أصبحت شيئاً آخر .

فما كدت أصل إلى القرية حتى استدعيت أوعى شابين فيها ، كان أحدهما يلازمني ويتلقى دروساً مختلفة في الثقافة العامة ، وبحثت معهما واقع بلادنا السيء وضرورة العمل على تغييره . وعلينا أن نعمل انطلاقاً من قريتنا ثم نتوسع شيئاً فشيئاً . وبعد بحث طويل اتفقنا على تأسيس جمعية تعمل على تحسين أوضاع القرية وتقدمها اقتصادياً واجتماعياً – ووضعنا للجمعية نظاماً وسميناها « جمعية العمل » – يلاحظ القارىء الكريم أنني سائر ضمن تخطيط عصبة العمل القومي قبل أن أنتسب إليها رسمياً – واتفقنا على إبقاء الجمعية سرية ، كما اتفقنا على أن يكون عملنا الأول تمثيل رواية اجتماعية .

وكانت لدي رواية ليوسف غصوب منشورة ، في عدد من اعداد مجلة المشرق ، ولا أذكر عنوانها بالضبط ، ولكننا قررنا تمثيلها تحت عنوان « البخيل الطماع » وخلاصتها أن فلاحاً أو ملاكاً لبنانياً كان له ابن مهاجر في أميركا منذ زمن طويل وقد هاجر هرباً من قسوة والده وبخله ، لا من أجل كسب المال ، لأن والده كان من الأغنياء ، وكان هم هذا الوالد أن يكون أكبر مالك في القرية ، ولم يبق أمامه من أجل ذلك سوى منافس واحد كان عليه أن يتفوق عليه – وسمع ذات يوم أن منافسه قد

أفلس وأنه يريد بيع أملاكه . كان ثمن الأملاك ألف ليرة عثمانية ذهباً ولم يكن بطلنا يملك إلا قسماً منها – كان هذا شاغله بينما كانت زوجته تروي لابنتها سيرة أخيها المهاجر وتعبر عن أملها في أن تراه يعود .وفي هذه الاثناء طرق باب المنزل ضيف يرتدي ثياباً على الطراز الأوروبي ، وعليه مظاهر الوجاهة والغنى – استقبله الرجل وهو يضمر له الشر ، وفيما الضيف نائم أقدم المضيف على قتله بقصد السلب ، واكتشف بعد فوات الأوان أن الضيف المغدور لم يكن سوى ولده المهاجر . الرواية من نوع الفاجعة وقد قصدت من وراء تمثيلها أموراً كثيرة : منها اظهار قباحة البخل والطمع وخطرهما على المجتمع كله اذا سار الانسان على هديهما ، ومنها المقارنة بين نفسية الأم الحالمة بعودة ابنها ومستقبل ابنتها ، ونفسية الأب الذي لا يحلم إلا بجمع المال وتوسيع الملك والاعتزاز البدائي بالثروة ، ومنها أنني أردت أن أوجه مجتمعنا الريفي المتخلف وجهة جديدة ، تهتم بما وراء العمل اليومي وهمومه ، تمهيداً انشر أفكار جديدة سنحتاج اليها في كفاحنا من أجل تحرير بلادنا من الاحتلال الاجنبي .

وكانت أمامي مشاكل كثيرة : أين أجد المسرح ؛ كيف أنيره وليس في القرية كهرباء ؟ كيف أحصل على ترخيص باقامة الحفلة وجمع الناس في ظل حكم فرنسي مباشر يحصي على الناس أنفاسهم ؟ من يمثل دور الأم وابنتها في الرواية والمرأة المتعلمة غير موجودة بعد في القرية ، وان هي وجدت ، فلا يسمح لها ذووها بالظهور على المسرح أمام الناس ؟

ولكن المشاكل ، مهما يكن حجمها ، لا تقاوم الارادة المصممة : أما المسرح ، فقد وجدته ، انه المدرسة الرسمية ، فقد كانت في القضاء قد بنيت كلها وفق مخطط نموذجي ، ايوان أو رواق مفتوح واسع تفتح

عليه ثلاث غرف : واحدة في الصدر وواحدة إلى اليمين وواحدة إلى اليسار ، سأجعل الايوان ذاته أرضية للمسرح ، ويخرج الممثلون من غرف المدرسة الثلاث ويجلس الجمهور في العراء فوق مقاعد المدرسة ذاتها ووجهه إلى المنصة .

وأما الانارة فكانت مشكلة فعلاً ، وفكرت ثم اهتديت إلى الحل : سأستعمل ثلاثة مصابيح وهاجة من نوع « اللوكس » واضع كل مصباح داخل صفيحة فارغة جديدة بعد ازالة أحد جوانبها ، مثل هذه الصفيحة تكون لماعة تعكس النور جيداً — والسمكري صديقنا والصفائح متوفرة ، واما تمثيل النساء فسيقوم به الفتيان أنفسهم مرتدين رداء نسائياً — وأما الترخيص فسأصل بالجرأة إلى أقصاها : لقد ذهبت إلى صلخد ودعوت المستشار إلى حضور مسرحية اجتماعية تثقيفية » وأن حضوره سيكون مناسبة سعيدة يراه خلالها القرويون خارج اطار عمله الرسمي . وقبل المستشار الدعوة وكان قبوله يعني الترخيص باقامة الحفلة ، ودعوت نخبة من شبان صلخد ومتان بالإضافة إلى أهالي بلدتي عرمان .

وتوليت تقديم الرواية : كنت معتمراً طاقية من الصوف الكحلي (بيريه) كتبت عليها بالخيط الحرير الأحمر حرفين متشابكين : S.A بيننا نحن كان الحرفان يرمزان إلى اسم الجمعية (جمعية العمل S.A)

وإذا سأل الغريب كالمستشار مثلاً ، فهما يرمزان إلى اسمي الشخصي لا أكثر ولا أقل ، لخصت الرواية بكلمة موجزة باللغة الفرنسية ، للمستشار الذي أعددنا له كرسياً لائقاً وسط الصف الأول ، واستأذنته في أن أخاطب الجمهور باللغة العربية ، فشكرت للجمهور حضوره

ومناصرته للشبيبة الناهضة وأبرزت الشبيبة كقوة واعية واعدة تترك للأيام أمر البرهان على صدق عزيمتها ونبل غاياتها ، وألمحت إلى أن في الحياة أموراً كثيرة غير المال تستحق الاهتمام والرعاية ، وان المال ليس كل شيء في هذهالدنيا ، ثم تتابعت فصول الرواية واستقبل الممثلون بالتصفيق الحاد وكان اللباس ناجحاً والانارة أعطت نتيجة لم نكن نحلم بها (١) ، وانتهت الرواية وودعنا المستشار مهنئاً كما ودعنا سائر الضيوف شاكرين .

وصارت حفلتنا حديث الناس في القضاء كله وخارجه .

وتصورت أن كل شيء قد انتهى . . ولكن ، بعد بضعة أيام ، بينما كنت في البيت ، جاءني رجل مسرعاً يقول : « المستشار يريدك . إنه في سيارته على الطريق » . فأسرعت إلى لقائه والطريق تبعد عن بيتنا نحو ثلاثمائة متر ، وأنا أحسب لهذا الاستدعاء المفاجيء ألف حساب وحين سلمت عليه قال : إنني بحاجة إليك في دائرتي يوم غد الساعة التاسعة صباحاً فلا تتأخر . وانطلق بسيارته عائداً إلى صلخد . بدأت أفكر في الموضوع : ليس من عادة المستشار الحاكم بأمره في المنطقة أن يتجول هكذا وحده مع سائقه وحارسه . ثم ليس من عادته أن يستدعي الناس بنفسه — فلقد كان لديه الحرس السيار يقوم بهذه المهمة . فالأمر لابد أن يكون على جانب كبير من الأهمية .

في الموعد المحدد كنت أدخل غرفة المستشار وأجلس على كرسي مقابل له عبر مكتبه . وبدأ الحوار الهجومي على النحو التالي تقريباً .

---

(١) أصبحت طريقة اختيار المسرح وانارته هي الطريقة الشائعة في المحافظة حتى نهاية الأربعينات .

— أبلغت بك الجرأة أن تدعوني إلى حفلة تقوم بها جمعية سرية غايتها توعية الناس وتحريضهم ضد فرنسة ؟

— لم يكن هذا قصدي ، بل قصدت فعلاً أن تشترك في سهرة مع الأهلين خارج نطاق العمل الرسمي .

— لا تحاول أن تنكر فأمامي نظام جمعيتك كله .

ومد يده بدفتر صعقت حين قرأت على الصفحة الأولى منه اسم الجمعية ثم موادها الأولى واحدة واحدة ، وتشتمل الصفحات الباقية على النظام الكامل للجمعية — صعقت لأنني شعرت بخيانة واحد من رفيقيّ على الأقل ، فقد كنا ثلاثة حين وضعنا النظام ، والنظام على ثلاث نسخ فقط : احداها لدي في المنزل ، وأنا لم أوصلها إلى المستشار بدليل أنه يحقق معي الآن ، اذن لابد أن يكون أحد الرفيقين (العزيزين) هو الذي وشى بي وهو الذي سلم النسخة التي في حوزته إلى المستشار . هذا ان لم يكن الاثنان قد فعلا ذلك مجتمعين أو منفردين ، سامحهما الله فما أكثر أمثالهما بيننا.

أمام الدليل المادي لم يعد الانكار هو الوسيلة المثلى للدفاع ، يجب أن أدافع عن الموقف على أنه موقف سليم ليس فيه مخالفة ، فأجبت المستشار :

— أنت ترى من حداثة النظام ان الجمعية لم تؤسس إلا على الورق، وأن نظامها ليس فيه شيء من السياسة ، وليس فيه ذكر لفرنسة ولا للاحتلال ولا للتحرير ، كل ما في الأمر أن الجمعية ترمي إلى تحسين أوضاع القرية من جميع الوجوه . . وهذا ما تفعلونه أنتم أنفسكم حين تبنون المدارس وتشقون الطرق وتجرون المياه .

– هذا صحيح ولكن نحن نفعل ما نراه مناسباً ، نحن وحدنا ، ومادمنا نحن نحكم هذه البلاد فلا نريد أن يفكر أحد نيابة عنا ، كما لا نريد أن يعمل نيابة عنا ، ولا نريد أن يعمل إلا ما نأمر نحن أن يفعل ، هل فهمت ؟

– فهمت ، ولكني أدرس في مدارسكم ، وأطالع روائع أدبكم ، وأعرف الكثير عن مبادىء ثورتكم وليس فيها ما يقر هذا الذي تقوله لي الآن.

وهنا ضحك ضحكة هازلة وقال :

– هذا ما تقرؤه في كتبنا ، ولكن الكتب كتبت لتطبق في فرنسة لا خارجها ، ثم أريد أن أسألك : « لماذا يتصل بنا رفاقك ولا تتصل بنا أنت ؟ »

– ذلك أن رفاقي قادرون على التحرك ، أما أنا فمنهمك في أعمالي البيتية.أريد أن أدبر أمور عائلتي قبل أن أعود إلى المدرسة ، نهاري في البيت والبيدر ، وليلي في الكرم ، ولست أبحث عن زعامة في القرية حتى تكون لي اتصالات بالمسؤولين السياسيين ، أي بكم أنتم .

– متى ستعود إلى المدرسة ؟

– في أوائل تشرين الأول .

– حسن ، ستبقى في القرية حتى يوم سفرك ، لن تغادر القرية إلى أي مكان ومهما تكن الأسباب ، هل هذا مفهوم ؟

– مفهوم طبعاً ، اقامة جبرية داخل القرية حتى نهاية العطلة الصيفية ، أليس هذا ما تقصد ؟

– أراك فهمت جيداً ، انصرف الآن ، واعلم أننا نرى كل شيء ، ونعرف كل شيء . .

الفصل الثامن عشر

مدرسة الحياة

خرجت من مكتب المستشار رأساً إلى عرمان ، سيراً على الأقدام طبعاً ، وكانت حصيلة التجربة الأولى في حقل العمل العام هي : ان اختيار الأشخاص يجب أن يتم في عناية أكبر ، وأن الحفلات العامة يجب أن نتفاداها قدر الامكان مكتفين بالعمل السري ، وأن القاعدة العامة في النضال السياسي السلبي هي : التدرج في نشر المعلومات : أوسع المعلومات ضمن أضيق الحلقات ، وأضيق المعلومات ضمن أوسع الحلقات وكان درساً ثميناً يساوي صيفاً كاملاً من الاقامة الجبرية .

عدت بعد الصيف إلى المدرسة وكانت هذه السنة ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ هي آخر سني دراستي الثانوية. صف الفلسفةالعامة باللغة الفرنسية استاذه الأب باستي ، وهو دكتور في الفلسفة واللاهوت ــ حنطي جميل الوجه ممتلىء الجسم ــ ذو لحية سوداء قصيرة ، واثق من نفسه ، موسيقيالصوت ، نفاذ النظرة والكلمة ، مرح المزاج ، مشرق الابتسامة ، ريان الحديث أما صف الفلسفة العربية فأستاذه الأب فارس : متقدم في السن بعض الشيء ، تخال سمرته صفرة تدل على معاناته كعراف (يسمع الاعترافات) وكمتعمق في دراسة التصوف والمذاهب الفلسفية الاسلامية التي تقوم في

أكثرها ، على محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، بين معطيات الوحي ومعطيات العقل ، كان متمكناً من مادته ، وكان — وهو الكاهن المسيحي الماروني — يحبب إليك الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد ، غير متحيز ولا متعصب ينتقل بك بين محي الدين بن عربي ، وابن الفارض بلا عناء ولا اغتراب ، هذا بعد أن يكون قد لخص لك تلخيصاً موضوعياً تاريخ الفلسفة من اناكسيمندر (Anaximandre) السباق إلى نظرية النشوء والارتقاء وإلى القول بعدم امكان خالق شيء من لا شيء ، حتى أفلاطون وأرسطو ، حتى الافلاطونية الحديثة أو المستحدثة ، ثم يربط بين الفلسفة العربية والفلسفة اليونانية في يسر غير متكلف ولا ضحل .

مادة الفلسفة العربية كانت أقرب إلى تاريخ الفلسفة . أما دراسة المذاهب الفلسفية المختلفة ومناقشتها فكانت في الصف الفرنسي ، عند الأب باستي ، المذاهب السياسية والاجتماعية، علم النفس، تاريخ الفلاسفة، الكبار الذين وضعوا أسس التفكير العصري ، كل ذلك كان يعرض عرضاً شائقاً وبأفصح بيان .

هنا ، لابد من بعض الملاحظات ، لقد كنت أشعر أنني سأغادر المدرسة إلى المجهول في نهاية السنة المدرسية ، فعلي ، اذن أن أعب من العلوم كما يفعل الظمآن الذي سيغادر النبع بلا رجوع ، لقد طالعت وطالعت : عدت إلى كتب الأدب الموسعة عن أكبر الأدباء الرومنطيقيين ، في سلسلة كانت يومها حديثة وتعرف بالمجموعة الحمراء — لون غلافها أحمر — واتبعت دورة خاصة بالأداء ، أي فن القول ، فن الالقاء ، فن القراءة ، ونوعت مطالعاتي ماداً إياها حتى الكتب الممنوعة لمخالفتها

لآراء مدارس الرهبان ، حتى اجهدت عيني إيما إجهاد ، وحتى اضطررت إلى قضاء معظم شهر حزيران وأنا على أبواب الامتحان في راحة تامة ممنوعاً من المطالعة . ولكني لم أكن أخشى أن يؤثر ذلك في نتيجة الفحص النهائي ، فحص البكالوريا القسم الثاني ، لأني كنت قد درست كل مادة في وقتها . وكان أضخم كتاب هو كتاب العلوم(علم الأحياء ، وعلم النبات) وكان مؤلفاً من حوالي ألف صفحة ، وكان لابد من استيعابه حتى يضمن النجاح — إلى جانب الفيزياء ، وعلم الفلك . ولكني كنت أحب هذه المواد جميعاً ، وكنت قد هضمتها هضماً صحياً .

ولم ننس بعد أن هذه السنة هي سنة الجائزة الكبرى ، جائزة الشرف بالفلسفة — وقد تقدمت إلى المسابقة واثقاً من الفوز بالجائزة ، لأن هنالك تحدياً بيني وبين عدد من المزاحمين الفرنسيين أو المتفرنسين ، ولأني رأيت حلماً يوحي بما سيكونه الموضوع بصورة عامة ، ورأيتني أحرز المركز الأول . ولكن تعب عيني والارهاق الذي أصبت به بصورة عامة ، حملاني على التعجيل بالسفر قبل الاحتفال بتوزيع الجوائز ، على الرغم من أن الأب باستي لمح لي إلى أنه يرى من الأنسب حضوري التوزيع ، ولم يكن من حقه أن يصرح بأكثر من ذلك — باعتبار أن النتائج تبقى سرية حتى ساعة التوزيع ، فتعلن الاسماء وتسلم الجائزة من قبل رئيس جمعية الطلاب القدماء ، وكان في تلك السنة الأستاذ الفريد نقاش ، رئيس الجمهورية فيمابلي من الايام ، وحين غادرت المدرسة أوصيت رفيقي جبر الأطرش بأن يتسلم جوائزي نيابة عني — وحين عودته إلى المجيمر — قريته — ذهبت اليه وتسلمت جوائزي ومن ضمنها جائزة الشرف وهي كتاب ضخم عن نظرية (التطور) ووصف لي جبر ما قاله

الأستاذ نقاش عن مسابقتي ، فسررت بذلك كل السرور ، وانصرفت إلى التفكير في المستقبل .

قبل أن أترك جو المدرسة نهائياً لابد من كلمة عارضة : خلال أحد الدروس ، عرض موضوع الاستعمار ، وصور على أنه علاقة بين دولة متقدمة وشعب متخلف من أجل مصلحة الشعب المتخلف: من أجل تعليمه ، وترقيته ، ومساعدته على التقدم حتى يصبح قادراً على حكم نفسه بنفسه .

لم أقبل بأن يمر الموضوع بلا اعتراض ، فقلت للأستاذ :

— « اقرأ تفرح ، جرب تحزن » الاستعمار في بطون الكتب وعلى الورق شيء جميل نبيل ، أما في الواقع فهو عكس ذلك تماماً ، إنه سيطرة دولة مستعمرة على شعب مستضعف ، إنها تجويع ، أفقار ، هدر كرامة ، ومصادرة حرية ، انه امعان في تحويل التخلف المؤقت إلى تخلف دائم — وقتل من يحاول التقدم من أبناء الشعب المستعمر بحجة اعتناق المبادىء الهدامة ، بحجة التخريب ، بحجة مخالفة القوانين : سلني أنا يا أستاذ ، سلني بماذا أجابني ممثل الاستعمار عندما قلت له أنني أريد أن أسهم في ترقية أبناء قريتي ، سلني كيف يشجع الاقطاع والأمية والجهالة من قبل أحفاد ثوار فرنسة ، وواضعي لائحة حقوق الانسان والمواطن » .

أعقب ذلك حوار اشترك فيه عدد من الطلاب منهم من أخذ جانبي ومنهم من أخذ جانب الأستاذ ، ولم أتراجع عن رأيي ، وفي اليوم التالي استدعاني أحد الرهبان وهو قصير أشقر الشعر أجعده ، من مقاطعة

بريثانية الفرنسية ، وكان معروفاً بأنه شاعر حديث وله ولع بالشعر العالمي كله . فلما خرجت من قاعة الدرس ، وسلمت عليه ، بادرني بقوله :

— ما رأيك في التمشي تحت الأشجار مدة نصف ساعة ؟

— على طريقة المشائين ؟ قلت له رأساً ملمحاً إلى مدرسة المشائين الفلسفية اليونانية التي اشتهر طلابها بأنهم كانوا يبحثون مواضيعهم وهم يتمشون .

— نعم ، هذا ما أردته .

— أنا تحت تصرفك .

وبدأ الحديث عن ملابسات ما جرى في صف الفلسفة ، انه مكلف أن يبحث معي هذا الموضوع : موضوع مشروعية الاستعمار ، وتحاورنا أكثر من نصف ساعة — وكانت نتيجة الحوار : انني لا يمكن أن أصدق شيئاً أقرؤه إذا لم يكن في الواقع ما يؤيده ، وأنا أرى أن الواقع كله يشهد ضد الاستعمار ، ثم أنا أرى أن الحرية أثمن شيء في الوجود : فاذا حرمها الشعب فهو الخاسر مهما يكن المقابل ، لأن لا مقابل يساوي الحرية حتى في أعماق الغابات الافريقية على تخلف الناس هناك . واقترحت على محدثي ، بدلاً من ضياع الوقت في بحث الموضوع بلا جدوى ، أن يطلعني على ما لديه من شعر حديث ، فقد سمعت أن لديه ديواناً لشاعر نمساوي — نسيت اسمه — وأنا حريص على الاطلاع على نماذج من شعره .

وكان اقتراحي بمثابة السحر الذي لا يقاوم لقد استجاب الأب لرأيي ، وقادني إلى غرفته ، واطلعني على آخر نماذج الشعر الأوربي المترجم إلى الفرنسية — وقرأ لي بضع فقرات للكاتبة الانكليزية كاترين منسفيلد —

وما زلت أذكر جملة مؤداها : لكثرة ما حدقت في التفاحة وتأملتها أصبحت تفاحة .

وعدت بعد هذه الساعة النادرة من المتعة الشعرية والأدبية الخالصة وقد زدت ايماناً بصحة موقفي ضد الاستعمار بينما شعرت أن محدثي لم يكن متصلباً برأيه كما كان في بداية الحوار .

وفي عام ١٩٣٦ بدأت المظاهرات الطويلة العنيفة في دمشق من أجل إنهاء الانتداب وعقد معاهدة مع فرنسة — وكنا نتابع أخبار الاضراب والاعتقالات — وكانت بيروت — كما ظلت دائماً — تتأثر بما يجري في دمشق وينذر الجو فيها بقيام مظاهرات مماثلة .

خلال هذا التحرك الوطني كنا نكتب إلى الأهل والأصدقاء في الجبل، ونطالع الصحف لنعرف ماذا يجري هناك بصورة خاصة ، لأننا كنا نعلم أن فرنسةحين مزقت البلاد السورية ، وخلقت فيها دويلات على أساس طائفي مصطنع . كانت ترمي إلى الافادة من هذا التمزيق ، حين أوانه — وقد عمدت إلى تحريك المتعاونين معها فتكتب لهم التصريحات والبيانات وحتى البرقيات إلى الحكومة الفرنسية وإلى الصحف الفرنسية ، لتوهم الرأي العام العالمي أن فريقاً من المواطنين السوريين لا يريد الاستقلال ، ولا يرضى عن الوجود الفرنسي بديلاً . ولم يكن عدد المتعلمين في الجبل يتجاوز أصابع اليدين ، ولم يكن لدى الفريق الوطني فيه وسائل للتعبير عن رأيه ، ودحض مزاعم أنصار فرنسة أمام الرأي العام العالمي ، وكنت أبحث هذا الموضوع مع رفيق من دمشق هو زهير العجلاني ، فاذا هو يهتدي إلى طريقة ممتازة — فقد كان على صلة بطالب فرنسي له صلة باليسار الفرنسي ، وكان يؤيد حركة التحرر في سورية ، ويؤيد مبدأ الاستقلال والسيادة لأي شعب — والغريب أن هذا الطالب المتحدر من أسرة أرستقراطية (كان اسمه جان جاك دندوران ابن الكونتيسة

دندوران التي ارتبط اسمها باسم تدمر الحديثة) كان بحكم رد الفعل والثقافة ثائراً على بيته وأسرته عاقداً صلات وثيقة مع اليسار وصحفه، وقد أعددت له مقالاً ضافياً باللغة العربية شرحت فيه حقيقة الأوضاع في الجبل مع ذكر كل التفاصيل التي تبرهن على أن ما يصدر عن أنصار فرنسة من تصريحات ، وبيانات وبرقيات ، انما هو صادر عن طبقة الزعامة ، الوراثية ، وعن المنتفعين بالحكم الأجنبي ، وأن الرأي الشعبي الحقيقي كان مغلوباً على أمره، لايستطيع أن يوصل صوته إلى خارج الجبل ، بسبب من ضغط الفرنسيين وتسلطهم .

وألمحت إلى الثورة المسلحة ، وأنه من غير المعقول أن يقوم مثل هذه الثورة في بلد كالجبل ثم ينقلب أهله إلى المطالبين بالانتداب أو الحماية — وعلمت أن المقال نشر في جريدة عربيه اسمها « الشرق » كانت تصدر في باريس ، وعلى أثر ذلك اعتقل في الجبل عدد من الشبان الوطنيين الذين كان معروفاً أنهم يمارسون الكتابة إلى الصحف ، وحتى تقرأ هذه الصفحات لم يعرف أحد هذه الحقيقة — لقد كانت الأعمال الوطنية بالنسبة إلي تطوعاً صوفياً لا مجال فيه للتباهي والاستغلال ، ولن يكون هذا هو العمل الأول والأخير الذي أسكت عليه لأن كل عمل في نظري كان دون المطلوب ، دون مستوى الواجب النضالي الحقيقي .

كانت الثانوية اليسوعية ، تتبع تقليداً عظيماً ، لا أدري هل ما زالت تتبعه حتى الآن ، وهذا التقليد ه إعطاء طلاب الصف المنتهي فترةلا تقل عن اسبوع خلوة للاعتكاف والتفكير في المستقبل ووضع شبه خطة للحياة، تحديد الأهداف والطرق المؤدية إلى تحقيقها .

كان الطلاب مع المسؤولين عنهم يقيمون في بيت ريفي تملكه

المدرسة بجهات الأشرفية — بيروت — يطالعون ويتأملون في صمت شبه كامل — ولا يلتقون إلا عند تناول الطعام في مواعيده . لقد حددت مواقفي ذهنياً ، حددت رسالتي في الحياة ، سأناضل من أجل تحرير بلادي ، ووحدة أمتي ، وأشرف غاية هي الاستشهاد، اذا اقتضى الأمر، من أجل الوطن والأمة ، لن أخاف شيئاً ، لن أيأس ما دام أمامي مجال لمحاولةواحدة بعد مليون محاولة . سأجعل سلوكي صورة لتفكيري ، لن أفعل غير ما أقول ، ولن أقول غير ما أفعل : كلقضية أواجهها سأعالجها على أساس أسوأ الاحتمالات ، ومادمت قد قبلت مقدماً بكل النتائج حتى الموت، فلم يبق هناك من شيء أعتبره مستحيلاً . سأبتسم في قلب الألم وسأرقص في قلب العاصفة . لا شيء يجرد خصمك الحاقد من سلاحه مثل هدوئك واتزانك ، وعدم وجود مأخذ يأخذه عليك أو نقطة ضعف يصطادك منها ، أو خطيئة ينفذ منها إلى حصونك الذاتية فيدكها على رأسك ، سأجعل من العمل الدائب سلاحي الذي لا يفل ، سأكون دقيقاً في مواعيدي ، دقيقاًفي أوقات عملي ، سأجعل الحياة صورة للمدرسة الداخلية بنظامها الذي أعجبت به ايما اعجاب .

حين كانت المظاهرات في سورية قائمةعلى قدم وساق ، خاطبني أحد المسؤولين في المدرسة ، وكان بلجيكياً قائلاً :

« أنتم تدهشونني في سورية ، تتظاهرون من أجل الاستقلال ، هذا جميل ، ولكن هل لديكم رجل دولة واحد ؟

فوجئت بالسؤال ، ولكنني لم أسكت ، بل قلت :

— عندنا على الأقل ، شكري القوتلي .

— قد يكون شكري القوتلي زعيم حي ، أو زعيم مدينة ، أو قائد فرقة ، ولكن رجل الدولة ، يا صديقي ، شيء آخر ، شيء آخر تماماً ، النظرة الشاملة إلى الأمور بعامة ، النظرة إلى التفاصيل والجزئيات ، إلى كل أمر بخاصة ، هذا شيء يجب أن يمر عليه زمن طويل طويل . .

— إنك لا تنكر ، يا سيدي ، أن أمة أنجبت مثل عمر بن الخطاب لن تكون أمة عاقراً ، ثم إن الاستقلال وممارسة المسؤوليات يخلقان رجل الدولة ، اما اذا بقينا محكومين من قبل دولة أجنبية فلن يولد عندنا رجل الدولة لسبب بسيط هو أن حاكمينا الاجانب سيحولون دون ولادته.

— يظهر أنك قد أعددت لكل سؤال جوابه ، وفقكم الله ، وسكت محدثي . وكم سررت بأن أطالع فيما بعد ما كتبه الأستاذ نجيب الريس في جريدة القبس ، بمامعناه : « يقولون لنا تعلموا لتستقلوا ونحن نقول لهم : اتركونا نستقل لنتعلم » ، إنها الجدلية الدائمة، البيضة قبل الدجاجة ، أم الدجاجة قبل البيضة .

ومع هذا ، فلم أكن غافلاً عن المساوىء التي يلحقها أبناء البلد ببلدهم عندما يكونون قاصرين ، دون المستوى المطلوب لتحمل المسؤولية . فقد قرأت في دفتر صغير احتوى على مدونات مختلفة يتراوح تاريخها بين عام ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ، هذه البداية لقصيدة مبتورة لا أذكر الآن ما كان سبب محاولتي نظمها :

يا بلادي كنت أخشى   أن يدمرك الغريب
فبدا لي بعد بحث   دائم أمر عجيب
إن أعداءك أبناؤك . .

هنا وقف القلم وليته لم يقف ، اذن لعلمت ما هو الحادث أو الحوادث الذي أوحى ، أو التي أوحت هذه البداية ذات المغزى البعيد.

الثانوية وبعد :

عدت إلى البلدة في تموز ١٩٣٦ ، وقد حصلت على الثانوية ولكن: المستقبل ، ما هو ؟ إلى أين ؟ هل تكون الثانوية هي النهاية ؟ أم تكون مرحلة على طريق الحياة الطويلة ؟ ؟

ولكن قبل كل ذلك ما هي إمكاناتي أنا ؟ هل أستطيع أن أتابع الدراسة ؟

فاتني قبل ذلك فرصتان عام ١٩٣٦ : فرصة الذهاب في بعثة إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة وقد فاتني لأن أهلي لم يفهموا من رسائلي اليهم ما هي الوثائق اللازمة ليرسلوها إلي، والفرصة الثانية فرصة أخذ وظيفة ضابط جمركي وكانت الجمارك مشتركة بين سورية ولبنان ، والسوريون يقبلون كاللبنانيين— وقد فات وقت المسابقة لهذه الوظيفة ولم تأتني الوثائق أيضاً .

رآني أحد أساتذتي ساهماً أفكر فقال : فيم تفكر ؟ قلت : في هل أتابع دراستي وكيف ، أم هل أكتفي بالثانوية وأبدأ العمل؟ أجاب: ستعمل الاثنين معاً على الأرجح ، فمن كانت له مثل قدراتك حرام أن يقف عند الثانوية ، بامكانك أن تعمل وتدرس .

حملت هذه الفكرة كأحد الاحتمالات الممكنة عندما رجعت إلى البلدة — وعلى مهل درست الاحتمالات المختلفة ، ماذا سأدرس ؟..كان كان في مقدوري أن أدرس الهندسة أو الحقوق — ولكني اخترت

الحقوق لأن الدوام ليس شرطاً ، بينما لا يمكن دراسة الهندسة إلا بدوام وتفرغ . درست وضعنا في البيت : انهم بحاجة إليّ . إلى معونة تأتيهم من قبلي ، فكيف أفكر في أخذ شيء منهم وهذا الشيء غير موجود؟ ان ما يدخل من غلة يكفي للمؤونة والنفقات السنوية ، للعيش عيش الكفاف ، ليس أكثر ، فلأحاول الحصول على معونة من الدولة ، سأراجع المسؤول عن المعارف في الجبل ، وهو رجل فرنسي رزين يدعى السيد دومنك .

ذهبت إلى السويداء وقابلته وشرحت له قضيتي : أريد أن أتابع دراستي الجامعية في بيروت . لقد كانت لي منحة للدراسة الثانوية ؟ فأجابني السيد دومنك بعبارات ما يزال صداها يتردد في سمعي ونفسي حتى الآن ، لقد كانت درساً آخر أتلقاه بمشكلتنا الحقيقية في الجبل : المشكلة الاجتماعية

— لكم أود ، يا بني ، أن أساعدك ، حكومتكم هنا ليست مستعدة لاعطاء أية معونة أو منحة للدراسة الجامعية غير أني مع ذلك أريد أن أحاول أريد أن أحصل على معونة قدرها مائة ليرة سورية لتدفع رسوم التسجيل في معهد الحقوق ، وأزودك ببطاقة إلى ادارة الجامعة اليسوعية ليدبروا لك عملاً ما ، عمل مدرس في الصفوف الابتدائية مثلاً ، إلى جانب أي عمل آخر : كاعطاء دروس خصوصية . قدم لي طلباً على هذا الأساس — وسأبذل جهدي لأخذ الموافقة عليه من مجلس الادارة.

فشكرت للسيد دومنك نصحه ، وسلمته الطلب ، وعدت إلى القرية أنتظر النتيجة ، وكانت النتيجة إيجابية ، لقد وافق مجلس الادارة على منحي مائة ليرة سورية — كان هذا المبلغ البسيط ذا قيمة كبيرة لأنه حل مشكلة

كبرى ، وزرت السيد دومنك فتسلمت المبلغ وكتاب التوصية ، أو حوالة بالمبلغ ضمن كتاب التوصية لم أعد أذكر تماماً ، وكررت شكري للرجل النبيل وعجبت للزمن الذي يحكم على مثل هذا الرجل ، أيام شبابه ، بأن يقع من على ظهر الجواد ، ويكسر عموده الفقري ، ويقضي خمسة عشر عاماً مسمراً على فراش الآلام ، ويقضي حياته يعرج قليلاً ، بينما يعربد الشريرون ، ويتمتعون بالمزيد من القوة والقدرة على اتيان المزيد من الشرور طوال حياتهم . .

سيد دومنك ها أنذا أذكرك بعد سبع وثلاثين سنة وكأن ما قدمت لي من مؤازرة حدث أمس بالذات — فأنا لم أنسك ولن أنساك — وثق انني يوم علمت برحيلك عن هذه الدنيا منـــذ زمن بعيـــد حزنت عليك ، الحزن الوحيد الذي أعرف طعمه وأراه جديراً بالانسان ، وهو الحزن على ذوي القيمة العاملين من أفاضل الناس ، ، الذين يملؤون فراغاً في الحياة ، وعند موتهم يتركون فراغاً كبيراً يصعب ملؤه ، أما الذين تكون حياتهم وموتهم سواء فلا يثير غيابهم أي حزن في نفسي .

* * *

الفصل التاسع عشر

الدراسة الجامعية والعمل

سجلت اذن ، طالباً في معهد الحقوق ، السنة الأولى ، بعدما قابلت الأب موترد ، مدير المعهد وكان عالماً بوضعي من الرسالة الموجهة إليه من السيد دومنك ، ولقيت منه تشجيعاً فريداً جعلني أعتقد أنهم يفضلون هذا النوع من الطلاب المكافحين ، المغامرين ، العصاميين ، على نوع العاطلين بالوراثة .

أرسلني الأب موترد إلى ادارة الكلية اليسوعية (الثانوية) لأتفق معهم على تدريس أحد صفوف اللغة العربية ، أعطوني الصف السادس مقابل خمس عشرة ليرة شهرياً — وكان هذا المبلغ يغطي — في تلك الأيام — نفقات المسكن (غرفة مفروشة في بناء نادي الشبيبة الكاثوليكية) ونفقات الغسيل والكي ، ونفقات الطعام على مائدة الأساتذة في الثانوية ، هذا المبلغ أمن لي ، والحالة هذه نفقات المعيشة الأساسية .

بقي أن أستدرك سائر النفقات : يسرت لي ادارتا معهد الحقوق والثانوية السبيل إلى ذلك عن طريق إعطاء الدروس الخاصة : تخصصت باعطاء الدروس باللغة العربية وكان لي طلاب من الشخصيات البارزة عملياً أو اجتماعياً .

أول هذه الشخصيات كاهن ألماني الجنسية يدعى دوفريست كان يريد تعلم العربية . واتفقت وإياه على اتباع الطريقة المباشرة . أي تعلم اللغة وقواعدها من خلال المطالعة ، بدلاً من تعلم المطالعة من خلال تعلم القواعد ، وأخذنا جريدة مؤلفة من ثمان صفحات ورحنا نطالعها ونترجمها إلى الفرنسية من افتتاحيتها إلى أخبارها إلى اعلاناتها وسائر محتوياتها . لا نخرم من ذلك حرفاً واحداً . وقد أدهشني « تلميذي » الألماني بطريقة فهمه المنظمة الدقيقة الشاملة ، الطريقة الألمانية التي تخرج على الناس بأدق المؤلفات الضخمة المبوبة أحسن تبويب ، المجملة أحسن اجمال . المفصلة أدق تفصيل — ولا أنكر أنني تعلمت منه أشياء كثيرة . تعلمت التعمق في كل شيء وعدم الاكتفاء بالمعرفة السطحية الضحلة ، وأذكر من ذلك حادثة واحدة تدل على سواها : مرت أمامنا لفظة (ضفة) النهر فلفظت الفاء مخففة وقلت له ان جمعها (ضفاف) فقال : اذن يجب أن تكون الفاء مشددة ، وإلا فمن أين جئنا بالفاء الثانية في الجمع ، ؟ الفاء الثانية جاءت من الفاء المشددة في اللفظة المفردة ، بطريق فك الادغام ، اعترف أنني دهشت لأنه نبهني إلى قاعدة كنت قد نسيتها أو لم أكن أعرفها ، وأن هذا الدرس الذي تعلمته من تلميذي كان فاتحة عهد جديد في طريقة تفكيري كلها . وشكرت له ذلك واعترفت له بأنه علمني درساً لا يقدر بثمن . المهم أن ثلاثة أشهر كانت مخصصة له لدراسة العربية كانت كافية لأن يتقن اللغة إلى حد بعيد .

التلميذ الثاني كان من طبقة اجتماعية مترفة . كان يدعى حليم ملحمة ووالده نجيب ملحمة كان ناظراً (وزيراً) للزراعة في عهد السلطان عبد الحميد . كان حليم ملحمة يجهل اللغة العربية تماماً وكمالاً فقد كانت والدته فرنسية وأمضى حياته في باريس . ولكنه كان من أصحاب الأسهم

البارزين في شركة مرفأ بيروت . ولذلك فقد خطر بباله أن يتعلم شيئاً من لغة آبائه وأجداده ، وشاءت المصادفات أن أكون أنا ابن الفلاح القادم من قرية في أقصى الجنوب السوري المعلم الذي سيتولى هذه المهمة — وقد توليتها ونجحت ، لأن التلميذ كان باهراً على الرغم من بياض شعره — وكان طويل القامة ممشوق القد أنيساً مهذباً تهذيب كل مثقف أجنبي . وبعد بضعة دروس تلقاها في غرفتي ، اتفقنا على أن أذهب إليه بعدما استقر في قصر الأستاذ حبيب أبي شهلا — الوزير اللبناني المشهور — في رأس بيروت وحينما دخلت هذا القصر المترف أول مرة بدا لي الجو غريباً بعض الشيء ولكنني كنت أتمتع بمخيلة واسعة وكنت أحمل في نفسي استعداداً لتصور جميع المناصب والمستويات في غير تهيب ولا شعور بالنقص — وبعد خمس دقائق من دخولي بدا لي القصر عادياً جداً ، فأنا فيه لأعلم نزيله واذن فهناك مقاييس أخرى لتحديد القيم ، مقاييس العلم والمعرفة وهي لا تتأثر بالأماكن أو الأزمنة ولذلك فهي القيم الحقيقية الباقية حين تزول الأمكنة وتتبدل الأزمنة ، واعترف بأن تلميذي هذا كان قريباً إلى القلب ، لطيفاً ، يتنفس ديمقراطية ودماثة خلق ، سألني مرة عما سأفعل بعد تخرجي في الحقوق فأجبته :

— إلى جانب المحاماة ، سأعمل بالسياسة

— ولكن السياسة تتطلب ثروة ، تتطلب مستوى مادياً معيناً فكيف تستطيع أن تمارسها وأنت من غير أهل الثراء ؟

— هناك ملايين مثلي أو أفقر مني في بلادنا . ولهؤلاء سياستهم الشعبية الرامية إلى تحسين أوضاعهم وتحصيل حقوقهم السياسية والاجتماعية ، وسياسة هؤلاء يجب أن يمارسوها هم بأنفسهم . وإذا أخذنا بوجهة نظرك ، إذا انتظروا ليصبحوا أغنياء حتى يمارسوا سياستهم ، فسيمر زمن طويل

لا أرى له نهاية قريبة ، وربما تبدلت آراؤهم مع الثروة فعدلوا عن سياستهم .

— ان ما تقوله خطير جداً ، ومع ذلك أتمنى لك التوفيق .

ولا أنسى تلك النظرة الجانبية النفاذة التي وجهها إلي وهو يختم هذا الحوار الخاطف ، ولا أدري هل قرأ لي شيئاً أو قرأ عني ، فيما بعد وهل تذكر مرة أخرى هذا الحوار ؟ . . المهم أنني علمته لغته .

أما التلميذ الثالث ، واسميه تلميذاً تجوزا — فقد كان في الحقيقة قائماً بمهمة ويريد مساعداً له فيها. كان اسمه الأب باريخا من الجنسية الاسبانية ، وكان موفداً من كلية يسوعية في الهند ليترجم (الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) إلى اللغة الانكليزية — وقد نصحوا اه بأن يستعين بي — وكان يتقن الفرنسية والانكليزية والاسبانية والعربية وربماغيرها . وترجمنا الديوان من الدفة إلى الدفة ، كنت أترجم له البيت إلى اللغة الفرنسية ، ونتفق على صيغة نهائية دقيقة بلا زوائد ولا ضعف كأنها بيت مصكوك صكاً ، ويفهمه هو بالاسبانية . . ثم ينقله إلى الانكليزية ويطبعه رأساً على الآلة الكاتبة .

لقد أفدت من هذا العمل فوائد لا تحصى : دقة التوقيت (نبدأ في دقيقة معينة ونتوقف في دقيقة معينة) دقة التخطيط (علينا أن ننهي هذا العدد من الأبيات خلال الساعة المخصصة لهذا العمل) ثم الدقة في النقل من لغة إلى لغة ومعرفة البدائل اللغوية والجمل المتقابلة والمتعادلة ، وهذه الفوائد رافقتني طوال عمري .

أما التلميذ الرابع فكان راهباً يسوعياً أميركي الجنسية ، وقد نسيت اسمه ، وقد علمته العربية مقابل تعليمه اياي الانكليزية ، وإليه يعود الفضل في القليل الذي أعرفه من هذه اللغة .

هكذا رتبت أموري المعيشية فأمنت لنفسي مورداً يزيد عن حاجتي حتى أنني أرسلت بعض المال إلى والدتي في بعض الأشهر ، وكان جاري بالسكنى ، رفيقي في الدراسة ، الثانوية جان عزيز. كنت أذهب إلى المعهد فاستمع إلى الدرس وأسجل ما يلقى علينا من شروح تتجاوز حدود الكتب المطبوعة ، وعند انتهاء الدروس ، كنت أقوم بأعمالي التي ذكرت ، فكان يتعذر علي — لضيق الوقت — مراجعة دروسي . وكنا نجلس أحياناً ، جان عزيز وأنا ، فنتحدث بالأدب والشعر وما اليهما ، والأستاذ عزيز شاعر مطبوع على عمق وايجاز وروعة سبك وموسيقى ، ومن الأحداث البارزة في أيامنا تلك أننا استقبلنا الشاعر سعيد عقل زائراً ، إذ كانت بينه وبين جان عزيز معرفة ، وكان سعيد عقل يومها يضع نظريته في اللاوعي ، ويعد محاضرة سيلقيها في الجامعة الأميركية (قاعة وست هول) وتلا علينا بعض مقاطعها ، وقد فهمنا نظريـــة اللاوعي أو العقل الباطن وأدخلنا على المحاضرة بعض العبارات ، اقترحناها على الشاعر الكبير ، فقبلها ، وقد سررنا بذلك ايما سرور (ما كنت أدري أن الزمن سيدور دورات واذا أنا أتصدى لنظريات الأستاذ سعيد عقل الأدبية — السياسية المتعلقة بتغيير لغة لبنان بتبني العامية اللبنانية بدلاً من العربية الفصحى ، واستخدام الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي وأنتقد هذه النظريات نقداً عنيفاً في صحف دمشق وغيرها) (١) . وقد حضرنا هذه المحاضرة وغيرها من سلسلة محاضرات ألقيت تلك السنة ، ألقاها عدد من أدباء لبنان وشعرائه ، أذكر منهم الأستاذ الشيخ خليل تقي الدين .

---

(١) اشارة إلى عبارة اللاوعي هو ذروة أو قمة الوعي مثلا ، واشارة إلى مقالاتي في جريدة النصر الدمشقية عام ١٩٦٢ عن سعيد عقل وعقدة العروبة.

أما في المعهد فقد عرفت إلى جانب الرفاق الذين عرفتهم في مرحلة الدراسة الثانوية ، أشخاصاً آخرين جاؤوا من ثانويات لبنان المختلفة ، وقد رأيت الأستاذ كمال جنبلاط لأول مرة في المعهد وكان فيه قبلنا ، كان في السنة الثانية أو الثالثة ، لا أذكر ، والأستاذ حليم أبو عز الدين ، والأستاذ قاسم العماد ، وكان من المبرزين في الفهم الحقوقي من رفاقنا في الثانوي الاستاذ نجاتي قباني . وكان معنا بعض الفرنسيين بورجوازيي الاحتلال . وتصادف أن أحدهم كان يجلس على المقعد ورائي تماماً ، وتجاوره أميرة من الروس البيض تدعى (لورا كاسبرسن) . وكان يقال انها صديقة ابن المفوض السامي الفرنسي دومارتيل — وكانت جميلة ملهمة حتى أنني شعرت بغبطة فائقة عندما استعارت مني القلم إحدى المرات ، لتكتب جملة في دفترها بعد نفاد المداد من قلمها — ولو كانت تعلم أنني كادح أعمل لأدرس . وأن القلم الذي استعارته كان هدية من عم لي في أميركا الشمالية . لما كانت تنازلت وطلبته ، ولكنني ، على مقاعد الدراسة ، لا أقبل أن أعامل من قبلها وقبل سواها إلا على أساس القيمة العلمية ، التي لا تقر تفاوتاً مادياً ولا طبقية اجتماعية ، ومن بين الطلاب الفرنسيين كان واحد من أبناء كبار الموظفين في المفوضية ، وسمعته مرة يتحدث إلى زميلة من بنات أمته ، فيتباهى بأنه استحم بماء الكولونيا — وكنت أختزن المعلومات ليوم آت — هكذا يا ابن (الـ . .) تستحم بماء الكولونيا من مال بلادنا ، ونحن أبناء البلاد لا نجد ماء لنشرب ، سنلتقي في ميادين أخرى وفي مناسبات أخرى ، غير مقاعد معهد الحقوق . . سنلتقي . .

أما أساتذتنا في المعهد ، فكنت أعرف مزايا كل منهم : أعرف مزايا الأستاذ مازاس مدرس القانون المدني ، بطلعته المهيبة ولحيته الموحية

بالاحترام ، وكان دقيقاً شمولي التفكير ، تفصيليّة في آن واحد — كان وراء أكثر التشريعات التي صدرت عن المفوضيةالعليا وبقيت طويلاً في سورية ولبنان لا تجد الحكومات لها بديلاً . كان يرافق كلامه اشارات معبرة مستحبة فعلاً .

وأعرف مزايا الأستاذ غابيا واسمه يدل على أنه ايطالي الأصل . وكان يدرس الحقوق الرومانيـــة ، وكان مالكاً ناصيـــة موضوعه ، يعرفه معرفة شاملة في مجمله وجزئياته ، وكان مشهوراً بالتبويب والتفصيل ولاسيما بما اشتهر عنه من استعمال PELITA PELITL في الترقيم ، وكان صارماً في فرص الدوام والنظام ، فلا يقبل طالباً تأخر دقائق عن موعد بدء الدرس . ولا يتساهل مع طالب يثير ضجة أو يتكلم داخل الصف ، ويروى عنه أنه خاطب يوماً طالباً متأخراً بقوله سيد . . ان كنت قادماً لدرس اليوم فقد تأخرت وان كنت قادماً لدرس الغد فقد بكرت . فاخرج اذن يا سيد . .

والأستاذ (تيلاك) مدرس مادة الاقتصاد السياسي ، وكان من أنصار الاقتصاد الموجه ، وكان القول بالاقتصاد الموجه آنذاك : يساوي القول بالاشتراكية اليوم وقد ألف الأستاذ تيلاك كتاباً خلال أو بعد الحرب الثانية . وردت فيه جملة مشهورة مؤداها (ان الدبابات الالمانية التي اخترقت الدفاعات الفرنسية ووصلت إلى باريس كانت تمثل انتصار الاقتصاد الموجه على الاقتصاد الحر) .

والأستاذ فيرّان أستاذ الحقوق الدستورية (التأسيسية) وكان مشهوراً بعدائه لنابليون الأول بوصفه دكتاتوراً . فيحمل عليه حملات عنيفة مثل : « كان يكفي أن يضع مخالبه في أسفل ورقة لتصبح قانوناً »

ولا أنسى الأستاذ « عبد النور » أمين سر المدرسة ومرجعنا الدائم ، الذي كان ييسر لنا الأمور ويؤمن لنا الكتب والمراجع باستمرار .

وأذكر من الأساتذة العرب – اللبنانيين الأستاذ قرداحي ، والأستاذ أبو صوان ، والأستاذ تيان ، وكلهم وجوه بارزة ولهم مزايا عالية لا تنسى .

وكانت المدرسة الفرنسية للمهندسين مجاورة لمعهد الحقوق ، كانت في بناية واحدة (شارع هوفلين) وكنا نرى لدى طلاب الهندسة شيئاً طريفاً يحدث يومياً ، هو تجمعهم حول الأستاذ طوّى، وهو رجل يتصرف تصرف المعتوه ، ولكنه كان قادراً على حل أكثر المسائل الرياضية تعقيداً ، فكان طلاب الهندسة يتسلون بتصرفاته ، ويفيدون من قدرته الرياضية المدهشة .

وكان بالبناية ذاتها أيضاً معهد الآداب الشرقية وكان يمنح ، بعد سنتين دراسيتين، شهادة خاصة بتاريخ الأدب العربي إلى جانب شهادات أخرى ، وكان الأستاذ فؤاد افرام البستاني ، هو المسؤول عن قسم الأدب العربي – وقد ألقى سلسلة محاضرات عن القاهرة ، عاصمة الأدب الفاطمي ، وكنت ألخص كل حلقة وأنشرها في مجلة المكشوف لصاحبها الشيخ فؤاد حبيش (١) وكان الأستاذ فؤاد قد اصطحبني إلى دار المكشوف وقدمني إلى الشيخ فؤاد ، وكان ذلك سبباً لعلاقتي المتينة بالمكشوف قبل الحرب العالمية الثانية ، (أي قبل أن تتحول المكشوف من مجلة أدبية إلى شبه عسكرية) وبالتالي لتنمية ميولي إلى الكتابة والنشر في شتّى المواضيع .

(١) امامي الحلقة التاسعة من هذه المحاضرات وهي منشورة بالعدد ٩١ تاريخ ١٤ نيسان ١٩٣٧ وعنوانها (مدارس النثر بين الكتاب والمنشئين)

وبالإضافة إلى الدراسة كان على الطالب في معهد الآداب الشرقية أن يتقدم برسالة عن موضوع محدد ، وسأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

منذ تلك السنة ١٩٣٧ تكون لدي هذا الازدواج البين في حياتي : فأنا أدرس الحقوق لأحقق حاجتي إلى العمل من أجل الحياة ومطالبها ، وأنا أثابر على حضور محاضرات معهد الآداب الشرقية وندواته المختلفة ارضاء لميولي الأدبية ، والفكرية والفنية بعامة ، وستكون حياتي كلها موزعة بين عملين رئيسيين : عمل أعيش منه ولا يشبع نفسي ولا أحبه إلا بمقدار ، وعمل أعيش له ، ولا أستطيع العيش منه في مجتمع متخلف كمجتمعنا وأحبه حباً بلا حدود ، ولكنني أتقنت العملين ونجحت فيهما كليهما .

ولكن هذين العملين أو التيارين الرئيسيين في حياتي ، وجدا طريقهما إلى الالتقاء والاتحاد في محصلة أفادت منهما جميعاً ، واكتسبت من خصائصهما جميعاً : هذه المحصلة هي الاهتمام بالقضايا الوطنيةوالقومية والاجتماعية ، وهذه القضايا بحاجة إلى الدراسة الحقوقية الجدية بقدر ما هي بحاجة إلى الاسلوب الأدبي والمنطقي ، القوي الجميل في التعبير الخطي أو الشفهي ، وكنت شديد الميل إلى مطالعة مؤلفات الحقوقيين الأدباء أو الادباء الحقوقيين ، وكنت أهتم بدروس الأستاذ فيران الدستورية وأتأمل كثيراً حملاته على الدكتاتورية والدكتاتوريين بقدر اهتمامي بدروس الاستاذتيلالك ، والتوسع بنظرياته في الاقتصادالموجه وتجاوزها حتى ارتاح على صعيد النظرية الاشتراكية في الاقتصاد والسياسة معاً ، وبقدر اهتمامي بدروس الاستاذ مازاس ودقته في وضع التشريعات

الأساسية لتنظيم الحقوق والواجبات بين الناس وتنظيم الموارد والثروات كالعقارات والمياه وسواها.

وفي هذه السنة ، وكنتيجة للمظاهرات العنيفة والمعاهدة القصيرة العمر التي أعقبتها ، تقرر أن يتسلم الوطنيون الحكم في سورية وأن يعود الثوار المبعدون إلى الديار ، وعقد رفاقنا الطلاب من أبناء الجبل اجتماعاً في عاليه قرروا فيه السفر إلى دمشق والسويداء للاشتراك في استقبال المجاهدين العائدين . وخالفت الاجماع ، فقررت عدم السفر ، وسط الاستغراب والاستنكار العامين : كان جميع رفاقي يعرفون مواقفي في الحركة الوطنية والقومية ، ويعرفون صلابة عقيدتي القومية وعدائي العنيف للاستعمار ، ولذلك لم يجرؤ أحد منهم أن يبحث عن أسباب امتناعي في دوافع معادية للثوار أو للثورة .

وسألني بعضهم شفهياً أو خطياً فأجبتهم موضحاً أسبابي :

لقد كنت أخشى أن يكون رأينا في أشخاص الثوار غير موضوعي : فلقد حملوا السلاح وقاتلوا وأبلوا أحسن البلاء . . هذا صحيح ، ولكن الصحيح أيضاً أنهم كانوا يأخذون الأمور من أقرب الطرق إليها ، وأنا العائش في أجواء عصبة العمل القومي ، وبين أعنف مؤسسيها لم أكن مستعداً لموافقتهم على هذا « التصالح »

وأوضحت لرفاقي الطلاب أن من الخير لنا أن نحمل العائدين على احترام تفكيرنا والتسليم بأننا نحن الجيل المثقف الجديد ، يجب أن نتسلم الراية ونؤدي دورنا ، باعتبار أن دورهم كثائرين ، ينتهي بعودتهم ، ومن أجل هذا كانت البراعة السياسية تقضي بألا نستقبلهم أفراداً ضائعين بين الجماهير المستقبلة ، الجماهير الغوغائية ، بل يمكن أن نذهب لنسلم

عليهم مجرد سلام بعد استقرارهم ، ونذهب نحن وفداً كبيراً له علاماته ومميزاته .

وصح تحليلي للأمور وسترى في الحلقات القادمة كيف تسلمنا الراية فعلاً وأخرج جيلنا الجديد الفرنسيين من بلادنا فكانت عمليتنا عام ١٩٤٥ مكملة لثورة ١٩٢٥ وفق قانون تتابع الأجيال وتكاملها (١) .

(١) إلى هذا أشرت في قصيدتي (الثورة والجلاء) الموجهة إلى روح المغفور له سلطان الأطرش قائد الثورة العام حينما قلت : « وأخذنا من جيلكم راية الحرب ورحنانعد مكرالماكر .»

الفصل العشرون

التطلعات

وعاد المجاهدون واستقبلوا استقبال الفاتحين . . وعين أحد المجاهدين القدماء السيد نسيب البكري محافظاً للجبل . . من قبل حكومة دمشق — وكانت هذه أول مرة يصبح فيها الجبل محافظة سورية منذ ١٩٢١ تاريخ جعله دولة مستقلة تحت الانتداب الفرنسي — وخلال حفل توديع المجاهدين في عمان — وهذا أمر عرفته فيما بعد — ألقى الأستاذ عجاج نويهض خطبة أطلق فيها على الجبل اسم « جبل العرب » فأيـده سلطان والحاضرون تأييداً صاخباً وعاد وفد دمشق اليها فأبرق رئيسه فخري البارودي إلى جريدة المقطم في القاهرة فانتشر الخبر على نطاق واسع وأصبح حقيقة قائمة . وأخذت التسمية الجديدة تغلب على ألسنة غير الرسميين منذ ذاك التاريخ وستصبح رسمية وشعبية فيما بعد حتى تحل نهائياً محل الاسم الطائفي الذي لم يرده الجبل لنفسه في أي يوم وانما فرض عليه فرضاً. (لقد ظل أهلوه يفضلون الاسم الجغرافي — جبل حوران — حتى اقترح الاسم القومي — جبل العرب — دلالة على ايمان سكانه بالوحدة العربية : وحدة الوطن والأمة والدولة) .

كان أنصار البقاء الفرنسي يتكتلون تحت اسماء مختلفة : ففي حلب أسموا أنفسهم حزب الشارة البيضاء ،وفي السويداء حزب الدفاع وهكذا . وثارت اضطرابات في الجزيرة والفرات ، وتأزم الموقف في الجبل بعد

استقرار المجاهدين العائدين واتصال الناس بهم ومحاولة كل فريق استقطابهم أو استقطاب عدد منهم على الأقل . . وكانت كلمة واحدة من سلطان — لو قالها — وهو متمتع بهذه الشعبية الواسعة، تكفي لوضع حداً للبلبلة ، ولترجيح كفة الوطنيين على خصومهم . شعرت يومها ، ربما أكثر من غيري ، بأن على سلطان أن يقول هذه الكلمة ووجهت إليه كتاباً مفتوحاً على صفحات جريدة القبس (حزيران ١٩٣٧ على الأرجح) طلبت منه فيه أن يقول كلمته المنتظرة ولكنه لم يقلها . وبدلاً من ذلك طلعوا على الناس باقتراح غريب وهو : اغلاق مكتب حزب الدفاع مقابل اغلاق مكتب الهيئة الوطنية ، وبخاصة مكتب الشباب الوطني وهو فرع من الهيئة يجمع العناصر الشابة المناضلة وبينها المثقفون القلائل آنذاك. وكان الاقتراح غريباً لأنه يساوي بين الوطنيين والعملاء . . يساوي بين من ينادي بالاستقلال ومن ينادي بالحماية الأجنبية — لم يكن هنالك من تفسير منطقي مقنع لهذا الموقف ، لم يكن هناك سوى التفسير العشائري : وهو الانحياز العائلي والتخلي عن الجماهير العريضة التي كانت دعامة الثورة المسلحة ووقودها .

وعقد اجتماع حاشد للشباب الوطني في مكتبه الرئيسي في السويداء لبحث هذا الموقف . . وألقيت يومها أول خطبة سياسية ثائرة كانت خلاصتها : انهم يريدون أن نغلق مكتبنا هذا معتقدين أن مبادئنا الوطنية التحررية لا تعيش إلا بين جدران أربعة : ألا فليعلموا ان المبادىء لا تحتاج إلى بيوت لتعيش، انها تحيا حيثما كان وفي جميع الظروف ، واذا ما أغلقوا هذا المكتب فسيكون لنا مكتب تحت كل سنديانة وفي ظل كل صخرة وفوق كل ذرة من تراب هذا الوطن .

إن ثورتنا لن تهدأ بعد اليوم حتى نحرر وطننا ونوحد أجزاءه ولن نداري أحداً ، ولا نهادن أحداً، ومقياس الأشخاص لدينا هو ولاؤهم للوطن والشعب ، دون أي اعتبار آخر ، وكان نجاح الخطاب منقطع النظير – كل المجتمعين كانوا يريدون مثل هذا القول ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون من الذي سيقوله ، ولم يكن أحد منهم يعرف الطلاب ومواهبهم المختلفة . منذ ذلك اليوم أخذت مكاني في الصف الوطني المناضل واندمجت في صميم الحركة الثورية الجديدة في بلدي . .

هنا ، لابد من وقفة : كنت قد شعرت بشيء من التعب لتعدد أعمالي وتعبها ، على حساب دراستي ، صحيح أنني لم أفوت أي درس وأنني سجلت كل الدروس وأنني حضرت كل المحاضرات في معهد الآداب الشرقية أو في الأماكن الأخرى ،(في وست هول بالجامعة الأميركية ، مثلاً ، في الندوة اللبنانية حيث ألقيت أنا بنفسي محاضرة حللت فيها شخصية الشيخ بشير جنبلاط ، الخصم العنيد لسميّة الأمير بشير الشهابي المنعوت بالكبير) كما اشتركت في بعض المظاهر الوطنية في لبنان : مثل الاستقبال الشعبي الحافل للأمير شكيب ارسلان واحسان الجابري ، ذلك الاستقبال الذي اشترك فيه عشرات الألوف والذي اشتد فيه تزاحم الناس على المرفأ واستمر الموكب عدة ساعات من المرفأ حتى دار السيد عمر بيهم في رأس بيروت – وكنت شديد الشوق إلى التعرف إلى الأمير شكيب عن قرب ولذلك اشتركت مع الوفد الذي قدم من الجبل للسلام عليه وعجبت من نباهته وتذكره أسماء الأشخاص المعروفين في الجبل ، واستعراضه بعض الأحداث الكبيرة التي مرت بالبلاد منذ مطلع القرن .

قمت بذلك كله ، ولكنني لم أتمكن من مراجعة دروسي ، وبعد

الربيع بـدأت أشعر بالتعـب ، التعـب من المنـاخ بالإضـافـة إلى التعـب من الـدراسـة والتـدريس وكـانت الحكومـة السورية قد بدأت تجري التبديلات الممكنة في الجهاز الاداري ، في محافظة الجبل بعد ما أصبحت محافظة سورية محتفظة باستقلالها الاداري والمالي ،ومن جملة هذه التبديلات تعيين الاستاذ وديع تلحوق مديراً أو مفتشاً للمعارف في المحافظة . فكتبت إليه أعلن رغبتي في العمل معلماً في المحافظة على أن أتابع دراسة الحقوق وأنا موظف ، فأجابني الأستاذ تلحوق مرحباً على أن يتم التعيين حين عودتي إلى الجبل خلال العطلة الصيفية .

وكنت خلال ذلك قد تعرفت إلى الأستاذ عارف النكدي وهو متمتع بشهرة واسعة كاداري ممتاز ، ووطني مناضل ، وكعامل بارز في الحقل الاجتماعي وفي مجالات متعددة فعرض علي وظيفة معلم في المدرسة الداودية في بلدته — عبيه — المطلة على بيروت ، وقال ان هذا يجعلني قريباً من معهد الحقوق ويسهل علي أموراً كثيرة ، فشكرت له العرض واعتذرت عن عدم قبوله ، لأنه لا يجوز أن يكون أول فوج من أبناء الجبل الذين أتيح لهم أن يتعلموا مستعداً للتخلي عن رسالة التعليم في الجبل وفاء لدين معنوي تجاه بلدهم المحتاج اليهم . وقياماً بواجب وطني من السهل ادراك أولويته ، وكان لدى الأستاذ النكدي من الخبرة بحقائق الأمور ما جعله يحاول اقناعي بأن ما أعتقده فرض عين ليس سوى فرض كفاية ، وأن هنالك من سيؤدي الواجب وينصرف كلية إلى التعليم ، بينما أنا الذي أدرس الحقوق سيكون لي — في المستقبل — عمل آخر غير التعليم ولمح إلى الواقع الذي يختلف عما كنت أتصور أو إلى أن الاصطدام بهذا الواقع سيحدث خيبة مريرة .

المهم أنني بقيت مصراً على رأيي وخلال العطلة الصيفية أكملت الاجراءات للتعيين ومنها الفحص – وشكلت لجنة لفحصي من الآنسة جوليان المفتشة الفرنسية في مديرية المعارف ، والاستاذ ميخائيل فرح قاضي الصلح ، والأستاذ خليل خضر رئيس ديوان المحافظة وتولى كل منهم فحصي في مواد معينة ، وليس من قبيل الزهو أن أقول أنني تسليت بالفحص تسلية ، فقد اكتشفت أنني أعرف أكثر مما يعرفه عضوا اللجنة الأستاذان فرح وخضر ، أما الآنسة جوليان فهي التي اكتشفت ذلك : وبلباقة السيدة الأوربية المثقفة ، قالت :

– أظن أننا نجري لك فحصاً شكلياً تنفيذاً للانظمة . وأن من الأفضل لنا أن نتحدث في أمور مختلفة : في الأدب ، في اللغة ، في مستقبل التعليم.

– كما تريدين .

وانطلقنا في حديث طويل ، قطعته هي فجأة لتسألني :

– هل تفكر في الزواج ؟ وهل لديك مشروع محدد ؟

– أفكر أحياناً ، وليس لدي أي مشروع وأنتظر أن تستقر بي الأوضاع أولاً .

– حسناً ، اذا فكرت فلدي معلمة من بنات بلدكم ، صبية ممتازة ، وكأنني حدست بعدما عرفتك ، أن أحدكما يليق بالآخر ، فاذا نويت فأخبرني .

ودعت الآنسة جوليان وخرجت . . ولكن كلماتها لم تفارقني .

كنت واثقاً بالنجاح في الفحص ، فهذا أمر مفروغ منه ، وأنتظر النتيجة مطمئناً ، وعند افتتاح المدارس سأكون قد عينت معلماً – وسأكون قد عينت في السويداء حسب وعد الأستاذ الشيخ وديع تلحوق ، لأنه

لا يعقل أن يعين ابن المحافظة وهو يحمل شهادة لا يحملهاغيره من المعلمين خارج قاعدة المحافظة . فلأنصرف إلى بعض النشاطات لعلي أكتشف بنفسي ما أوحت به الآنسة جوليان .

قبل ذلك كنت أراسل الأستاذ جاد الله عز الدين وكان أول شاب مثقف يتزوج معلمة من بنات الجبل ، وكنا نبحث في رسائلنا هذا الموضوع ونصر على ضرورة تشجيع هذا الاتجاه فنشجع تعليم البنات من جهة ونظهر عدم انجرافنا مع تيار الاغتراب الفكري والاجتماعي من جهة ثانية .

كنت سأكمل الخامسة والعشرين من عمري ، لذلك لم يكن هذا التفكير سابقاً لأوانه من وجهة نظر انسانية ولكنه كان في غير محله على الاطلاق من وجهة نظر عملية : فأنا ما كنت أملك إلا الطموح والاستعداد للعمل والتفوق فيه واحتمال الحصول على وظيفة معلم بمرتب شهري يقارب ثلاثين ليرة سورية : ست ليرات ذهبية فرنسية ، نصف مرتب الجندي الفارس المتطوع بالقطعات الخاصة ، ولكن هذا كان شيئاً مرموقاً في بلاد دمرتها الثورة واعادتها إلى نقطة الصفر . فكل مورد مالي دوري مضمون يعتبر أساساً لحياة عادية « مستورة » .

ويعتريني ميل شديد إلى الضحك حينما أتذكر أنني — وأنا على الحالة المادية المزرية التي ذكرت — كنت وأنا في بيروت ، قد أوهمت نفسي أنني قادر على أن أحب فتاة لبنانية عالية الثقافة ، ومن أسرة غنية ومتنفذة . وأن أخطب هذه الفتاة وأتزوجها ، ولكنني — لحسن الحظ — لم أنفرد برأيي ، بل لجأت — كالعادة — إلى استشارة أستاذي فؤاد افرام البستاني ، وحين فاتحته بالأمر ، في استحياء وتردد ، لم ألحظ عليه أي هزء أو

استغراب ، لا ، بل تحدث إلي من موقع المسؤولية ، ومن موقع الجد والاهتمام ، وكانت خلاصة رأيه : « ان الحلم والمطمح شيء ، والواقع شيء آخر فهذه الفتاة قد تعرفها أنت ، ولكنها لا تعرفك ، وأنت تعرفها من بعيد . تعرفها لأنك رأيتها في ناد أو اجتماع ، ولكنك لا تعرف شيئاً عن أهلها ومستواها المالي وطريقة حياتها . . أنت تجد فيها كل ما تتوق إليه ، ولكن هي ، لن تجد فيك إلا الشخص المثقف الواعد بالتفوق وقد لا يكون هذا ما تريده هي ، قد تكون تحلم بشخص ذي مركز اجتماعي ومالي حاضر ومضمون ، فلماذا تخدع نفسك ؟ . ثم من قال لك أنك سترضى عن كل صفاتها ومزاياها ، لو عرفتها في عمق ؟ ابنة بلدك ، يا سعيد ، تعرف عنها كل شيء انها كالماء في كأس بلور شفافة ، تراها من كل النواحي : تعرف من تخالط تعرف ماذا تصنع ، قد تعرف ماذا تحب أن تأكل أو تلبس ، أما الغريبة فهي كالماء في الابريق تعرف أنه ماء فقط ، فاسمع مني ، وانس هذا الموضوع ، وما زال لديك متسع لتبحث وتجد . .

قبلت بالرأي مقتنعاً راضياً : ولكني شعرت بجرح في الأعماق ، ظل أثره يذكر بوجوده زمناً طويلاً . .

التقيت الأستاذ جاد الله عز الدين ورويت له ما قالت لي الآنسة جوليان ، فراح يستعرض المعلمات بالسويداء : هذه متزوجة ، هذه مخطوبة ، هذه ستخطب قريباً ، قلت له : انني مع ذلك ، أرغب في زيارة احداهن ، مجرد زيارة لأهلها فهل هنالك مانع ؟

فأجاب : لا مانع أبداً . . مجرد زيارة من شاب متعلم لأسرة لديها ابنة متعلمة ، مجتمعنا الجبلي يقر ذلك ويسيغه .

وقمنا بالزيارة واستقبلنا والد الفتاة وأخوها وكانت هي معهما في المضافة ، وتحدثنا بأشياء تتناول واقع المدارس في الجبل ومستقبلها وواقع الثقافة إجمالاً ومستقبلها ، كانت المضافة عالية مشرفة على السهل الممتد من غربي السويداء إلى ما وراء السهل الحوراني ، أفق واسع لا يقل مداه عن مائة كيلو متر

عندما غادرنا البيت لاحظ رفيقي أنني قد خرجت بانطباع جيد وأنني متأثر فقال لي :

ــ مالي أراك متأثراً بعض الشيء ، ألم أقل لك سلفاً أن الفتاة على وشك أن تخطب ؟ »

ــ لست متأثراً ، وأنا طبيعي جداً . . قلتها وأنا غير مقتنع بما أقول ــ ولكني كابرت معتمداً على قوة إرادتي ، وغادرت السويداء إلى عرمان حيث كان علي أن أقوم ببعض الأعمال بانتظار افتتاح المدارس ، وطبيعي أنني لم أتقدم لامتحانات السنة الأولى في معهد الحقوق لأنني لم أتمكن من مراجعة دروسي ، وبعد قطاف العنب ، و « سطاحة» قسم منه زبيباً وعصر القسم الآخر دبساً ، رحت أسأل عن تعييني .

وعندما صدر قرار تعييني فوجئت بأنه كان يعين لي مكان العمل مدرسة في ذيبين ، لقد ذهبت الوعود أدراج الرياح ، ومن هنا ظهر ان ــ الأستاذ وديع تلحوق لم يكن يملك الكثير من السلطة ــ وأن المستشار الاداري الفرنسي هو الذي كان يدير المدارس فعلاً .

في ذيبين ، فلتكن في ذيبين ، أليست من أهم قرى الجبل ، طالما حدثني والدي عنها وعن أمنيته في أن ينتقل من عرمان اليها في عملية مبادلة بالأراضي عرضت عليه مرة ، وفي ذيبين آل قرقوط وهم أخوال

أبي . أنها أقصى قرية إلى الجنوب الغربي من الجبل ، حدودها الجنوبية تلاصق حدود شرقي الأردن . المسيرة طويلة طويلة ، فلتبدأ من ذيبين اذن . .

كانت المدارس تفتح في أول تشرين الأول ، وفي أواخر أيلول كنت أركب فرساً وأتوجه إلى ذيبين حاملاً بعض الأمتعة ونزلت ضيفاً على الشيخ سعيد قرقوط ، واخوته وهم أولاد الشهيد حامد قرقوط الذي قتل في معركة أبو زريق ، وذلك ريثما أستأجر غرفة أقيم فيها — وكان بين أخوة الشيخ سعيد ، الشيخ أبو علي محسن ، الشاب المثقف ، الأديب الشاعر مع محافظته على زي رجال الدين ، ولم يطل بي الأمر حتى وجدت الغرفة المطلوبة غرفة علوية منفردة على السطوح تخص السيد سلمان حسن ، قريبة من المدرسة ، يتجه بابها إلى الشرق ، رتبت أموري فيها كما تيسر ، فهي سنة دراسية وتمضي .

وفي أول تشرين الأول افتتحنا المدرسة وكنت قد تعرفت إلى معاوني وهو السيد أحمد حسن ، وأعجبني نشاطه وسلوكه ، وبدأنا نستقبل التلاميذ ذكوراً وإناثاً ، لأنه لا يعقل ان نبقي البنات بلا علم وهنّ راغبات فيه ، لمجرد أن الدولة لم تحدث مدرسة للاناث في القرية — فليكن التعليم الابتدائي مختلطاً ، فمجتمعنا الجبلي ليس مجتمع الحريم ، بل مجتمع منفتح ترافق المرأة فيه الرجل في كل الميادين ، من الحقل حتى المعركة ، ولتكن المدرسة ميداناً من هذه الميادين ، وحين أحصيت عدد التلاميذ والتلميذات عند اكتمال الحضور الى المدرسة ، وجدت أن العدد يقارب المائة والخمسين (١٤٥ بالضبط على ما أذكر) . ثلثه من البنات تقريباً وكان هذا العدد موزعاً على خمسة صفوف ابتدائية ، من

الأول المبتدىء ، إلى الصف الخامس . صف الشهادة الابتدائية ، وكان هذا الأخير مؤلفاً من أربعة تلاميذ – على ما أذكر – وهم فهد أبو حمدان ، ونسيب رحروح ، وعطا الله البطرس ، وفؤاد أبو جمرة ، وقد نجحوا جميعاً بالشهادة الابتدائية تلك السنة وانني استغرب اليوم كيف كنا ندرس كل تلك الصفوف ونحن اثنان . وكيف كنت أشرف على تعليم الجميع وامتحاناتهم الفصلية ونظافتهم . وأعالج مشاكل بعضهم النفسية والعائلية ، وبالاتصال المباشر مع الآباء والأمهات : وكيف يضيق المعلمون اليوم بصف واحد ، ولكن لا وجه للاستغراب لأننا ما كنا نعرف شيئاً اسمه الراحة أو العمل الاضافي أو الاهتمام بعمل جانبي ، وقد وجدنا التلاميذ مؤسسين تأسيساً ضعيفاً ، فأعدنا تأسيس أكثرهم من جديد واحتجنا إلى مزيد من الوقت ، ففتتحنا المدرسة ليلاً ، على ضوء المصابيح القوية (اللوكس) وكانت الدراسة الليلية فكرة ناجحة جعلت النجاح في مدرستنا كاملاً ، مائة في المائة .

وقد راجعتني أمهات كثيرات مبديات خشيتهن من خروج أبنائهن ليلاً . فأقنعتهن بأن هذا الصبي هو رجل المستقبل واذا لم نعوده ، منذ الآن تحدي الخوف والعقبات فلن يكون له شأن في المستقبل وقد تعهدنا لبعض الأمهات – وكانت كل منهن وحيدة الابن – أن نعيد اليهن أولادهن إلى البيت مصحوباً بعدد من رفاقه ، وحين أستعرض اليوم المراكز المرموقة التي وصل إليها أكثر تلاميذنا تلك السنة ، والمركز الاجتماعي الذي احتلته السيدات الفضليات اللواتي كن تلميذات تلك السنة . أدرك بعد ما يستطيع معلم المدرسة الابتدائية أى يحققه في بناء المجتمع . .

ومن الشخصيات التي لا تنسى : الشخصيات التي عرفتها في ذيبين

: البطل أسد قرقوط ، الذي أمتعني بأحاديث طويلة عن معارك الثورة ، وحمد قرقوط ، واسماعيل عبد السلام (معلم) والشيخ قاسم رعد) معلم ثم موظف (وهو صهر الاستاذ اسماعيل (زوج أخته) ، ومحمد السغبيني وولده يوسف (والد الأستاذ صالح الذي كان تلميذاً صغيراً) وأبو حسيب بلوط وولده حسيب ، وسالم الحناوي وعدداً كبيراً من أفراد آل الحناوي ، وآل حاطوم وآل أبو حمدان وآل غبرة ، وآل عقيل ، وآل حسن ، (بخاصة شاب لبناني منهم اسمه فرحان كان يعمل حلاقاً وكان يحب العلم وأحاديث العلم ، ويطرب للشعر ولقصص العرب وتاريخهم وكنت ألبي دعوة من يدعوني منهم ، فصرت موضع ثقتهم جميعاً ، يستشيرونني في كل شؤونهم ، وكان علي أن أبتعد عن الحزبية القروية ، فكان معروفاً أن هنالك حزبين أو أكثر في القرية (أحزاب مكونة على أساس عائلي ، عشائري محض) ، فلا أدع مجالاً لأن يعتبرني آل الحناوي منتمياً إلى أخوال أبي (آل قرقوط) مثلاً حتى أنني لبيت دعوة شيخ البلدة فارس الأطرش ، فقد دعاني لتناول الغذاء في بيته دعوة خاصة ، وكان له أولاد ولأولاده أولاد ، فأشعرته أن الجميع موضوع الرعاية بلا تفريق ولا تمييز ، وقد أعجبت باهتمامه بأولاده وأحفاده ومحبته لهم ، وبذل الغالي والرخيص من أجل تنشئتهم تنشئة صالحة ، وبسبب وجودي في ذيبين كونت علاقات صداقة متينه مع أهل القرى المجاورة (حوط ـ الغارية ، بكة) وقد طلب إلى شاب من حوط هو السيد عمار العبد الله أن أقبله طالباً غير رسمي ، وقد تجاوز صف الشهادة الابتدائية ، أي أن أقبله كنوع من صف عال خاص ، فقبلته وكان لدي أخي منصور ، فصارا رفيقين يدرسان معاً ، وأساعدهما وأشرح لهما الدروس ، وأصلح لهما الوظائف ، وفي كل تصرفاتي هذه

لم أحسب حساباً لمفتش . ولا لنظام ، ولا لمراقبة ، فقد كنت مواطناً قبل كل شيء ، وعلي أن أعمل كمواطن بريد أن يؤدي واجبه نحو جزء صغير من وطنه . .

كنت أهتم اهتماماً شديداً بالالعاب والتمارين الرياضية ، وكانت الساحة الواسعة أمام المدرسة تساعدني على ذلك ، فكنت أرفض أن أرى ولداً جامداً خلال الفرصة ، كان يجب أن يكون نصف ساعة حافلاً بالحركة والنشاط ، كنت أريد أن أرى حبات العرق تزين هذه الوجوه الصبيحة ، تلمع مثل هذه العيون الجميلة القوية معاً ، وإلى جانب الحركات الرياضية العادية المعروفة ، أدخلت لعبة جماعية مخططة ، هي لعبة المعركة . وقد اقتبستها من المدرسة الداخلية ، أيام وجودي فيها ، كنا نخطط جبهتي قتال متقابلتين تفصل بينهما أنهر وعقبات (جبال (أودية) وتصل بينهما جسور ومعابر محدودة العدد . ضيقة . فكان التلاميذ المتقابلون يحملون التروس وقد استصنعناها من الصفيح . ويحملون عدداً معيناً من الطابات المصنوعة من الخرق ، فيتبادلون الرشق بالطابات وكان على من يصاب أن يخرج من المعركة . وهذه ناحية تعلم الصدق والأمانة والرجولة ؛ وكان على كل فريق أن يقضي على أكبر عدد من أفراد الفريق المقابل ويتمكن من اجتياز الجسور والمعابر ويحتل مواقع الفريق المقابل ، احتلالاً مشروعاً ، بلا غش ولا كذب ، وكان الاهلون يتجمعون حوالي ساحة المدرسة ويشاهدون في إعجاب وتقدير ، لعبة الحرب هذه التي تذكرهم بمعاركهم السابقة ، وانتشرت أخبار لعبتنا في طول البلاد وعرضها . .

وفي أحد الأيام فيما كنا في ذروة معركتنا . كنا نشترك في اللعبة دائماً ، المعاون وأنا — والحماسة بالغة الأوج . هذا يصاب على رغم ترسه

فيتنحى ، وهذا يحاول أن يستولي على الجسر أو المعبر تمهيداً للاستيلاء على مواقع الفريق الآخر ، كان يمر على الطريق المارة أمام ساحة المدرسة سرية من الخيالة المتطوعة وعلى رأسها ضابط فرنسي ، أوقف الضابط فرسانه وأداروا وجوههم نحو ساحة المدرسة يتابعون المعركة ، ونحن لاهون بلعبتنا منهمكون في تصفية قواعد الفريق المقابل غير شاعرين بوجودهم ، وحين انتهت اللعبة بانتهاء الفرصة ، رأينا الضابط وجنوده ، فطلب الضابط إلى أحد التلاميذ أن يستدعيني لمقابلته ، فاقتربت منه وسلمت عليه ، ودار بيننا الحوار القصير التالي :

— ما اسم لعبتكم هذه ؟

— إنها لعبة الحرب ، كما ترى ، فهي تعلم التلاميذ على الصدق ، والأمانة ، والدقة ، والتغلب على العقبات في سبيل بلوغ الهدف .

— هذا حسن ، وأين تعلمت هذه اللعبة ؟

— كنا نلعبها في المدرسة الداخلية حيث أنهيت دراستي الثانوية ، أعني اليسوعية في بيروت .

— حسن جداً .

قال هذا ولوى عنان جواده وأمر جنوده بمتابعة المسير ، وهو في طليعتهم باتجاه الشرق : من المؤكد أنه لم ينم ليلته تلك قبل أن يرسل تقريراً إلى رؤسائه يعلمهم فيه بالخطر الذي يشكله (طالب اليسوعية) على وجودهم .

الفصل الحادي والعشرون

تحديد المواقف والتخطيط للمستقبل

المدرسة انطلقت في نظام وانتظام وقد دبت فيها الحياة منذ أيامها الأولى والتلاميذ فجرت فيهم الطاقات الكامنة وحدد لهم الهدف وعينت لهم الوسيلة فانطلقوا كالسهام لا يلوون على شيء ، وأنا أشعر بأنني ما زلت قادراً على أعمال أخرى غير اعمال المدرسة ومراجعة مواد الحقوق ، وتصحيح وظائف التلاميذ فلأفكر في المستقبل : لن أكون معلماً وحسب ، فأنا — كما قلت — مواطن أولاً وأخيراً . مواطن درس نيابة عن أهل بلده جميعهم ، وليس من العدل ولا من المعقول أن يذهب هذا بلا فائدة ، وصارت الأفكار تختمر في عقلي الباطن ، أفكار حبيسة يجب التعبير عنها وتحقيقها .

وفي منتصف ليل ٢٥ / ١٩٣٧/١١ ، أفقت من نومي على بقايا حلم رأيتني فيه أتبادل حواراً شعرياً مع « الصوت » فرفعت ضوء القنديل ، وتناولت ورقة وقلماً ورحت أسجل القصيدة وأنا في فراشي اجتناباً للبرد ، ووضعت عنوانها « أنا والصوت » وعندما فرغت من تسجيلها خلال أقل من ساعة ذيلتها بالتاريخ والساعة ، وكانت أول وثيقة لتحديد موقفي من قضايا مختلفة :

وقد نشرت القصيدة في مجموعة (غزة ، هانوي ، تشرين) عام ١٩٧٨ مطبوعات دار الثقافة بدمشق .

وفي هذه القصيدة تظهر الصفات البارزة لتفكيري وشعوري ، فرح وأمل ، قوة وتصميم ، ايمان بقدرة الكلمة ، تمرد وتسامح ، تضحية حتى النهاية ، واقعية تحاول التحسين والتغيير انطلاقاً من الواقع ، من على الأرض ، لا من فوق الشعب ، ولا من خارج صفوفه ، موجز خاطف لما سيكون عليه سلوكي مدى العمر ، في جميع المراحل والظروف.

وما جاء شهر آذار ١٩٣٨ حتى كنت قد أطلعت على مشاكل التربية في المحافظة وهي على عتبة عهدها الاستقلالي الجديد ، فكتبت مقالة نشرت في المكشوف في ثلاث حلقات (الأعداد ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ تاريخ ١٤ و ٢١ و ٢٨ آذار ١٩٣٨) تحدثت فيها عن الواقع المرير للتعليم ومستوى المعلمين والمعلمات وكون هذا المستوى دون المستوى المطلوب لانشاء جيل جديد مسؤول عن ادارة شؤون بلاده ، وأثرت في القسم الثالث من المقالة مشكلة خطيرة سياسية أكثر منها تربوية ، أو هي سياسية — اجتماعية بعبارة أصح ، بحثت فيها قضية المساواة بين التلاميذ ، من حسن الحظ أنني وجدت بين أوراقي هذا القسم الثالث المنشور في الصفحة ٦ من العدد ١٤١ من المكشوف تاريخ ٢٨ آذار ١٩٣٨ وأناأنقله بالحرف الواحد لأنه يشتمل على أهم المبادىء التي تتكون منها عقيدتي السياسية — الاجتماعية والتي كانت ، آنذاك ، سابقة لأوانها ، على أن أورد في الهامش أهم مقاطع الحلقتين الأولى والثانية اذا ما أتيح لي أن أعود إلى مجموعات المكشوف في إحدى المكاتب : « لعل الغريب اذا سمعنا نتكلم عن المساواة بين التلاميذ يستغرب الأمر ويقول .

— « أمعقول أن يكون في الدنيا مدارس حكومية وعلى الطراز الحديث لا يتساوى تلاميذها في الحقوق والواجبات ؟

ولكن المطلع على أحوالنا الداخلية اطلاع الخبير يعلم أن هذه المساواة مفقودة في بعض مدارسنا وأهمها ، وان وجدت هذه المساواة بين التلاميذ ، وهم على مقاعد الدرس ، فلا توجد بينهم وهم يتبارون للدخول في إحدى المدارس الكبرى مجاناً — كما يحدث كل سنة — أو يستعدون لاجتياز فحوص رسمية كفحوص الشهادة الابتدائية مثلاً .

قيل لي في مطلع هذا العام المدرسي أن الحكومة تمنح أبناء الجبل الحاصلين على الشهادة الابتدائية — كذا وكذا من الكراسي المجانية الليلية أو النهارية في مدرسة التجهيز ، فقلنا حبذا العمل المفيد .

وقيل لي أن اختيار هؤلاء التلاميذ سيكون عن طريق الامتحان حيث ينجح ذوو الاهلية دون سواهم فقلنا حبذا الخبر . . وأجري الفحص فعلاً وأعلنت أسماء المختارين للمدرسة قبل أن تعلم نتائج الفحص فهالنا الأمر ، فنظرنا إلى أصحاب الحظ الفائزين فاذا بينهم من لم يشترك في الامتحان مطلقاً ، واذا بينهم من لا شهادة ابتدائية معه ، وكانت الشهادة الشرط الأساسي في القبول أو الرفض — كما أسلفنا — واذا زمرة لا يستهان بها من عائلة واحدة أو بيت وأحد تدخل المدرسة بسهولة .

فقلنا : أين الوعود ؟ وأين الاعلانات الرسمية ؟ والقول « بأن الأهلية سوف تحل محل المحسوبية ؟ » بل أية محسوبية وجدت في العالم أكثر من هذه المحسوبية ؟ ولا أستطيع وصف الأثر السيء الذي تركه هذا العمل في نفوس التلاميذ ، كانوا يجتهدون طمعاً بالنجاح في المستقبل ودخول المدرسة كما دخل رفاقهم — وكما كان منتظراً أن يدخلوا —

والتلاميذ كلهم فقراء لا أمل لهم بدخول المدرسة إلا عن طريق الحكومة ، فلما أعلنت النتيجة التي ذكرنا ضعف أمل التلاميذ بالنجاح وأخذوا يعرضون عن دروسهم ويبحثون عن واسطة أو « وسيط » يوصلهم إلى حيث لا يوصلهم الاجتهاد ، ثم أخذوا يتباغضون في المدرسة ، وبدأت الحزبية السياسية تتسرب إلى صفوف التلاميذ الصغار والسياسة تفسد كل شيء . فصار موقف المعلمين حرجاً وهم يحاولون أن يجيبوا تلاميذهم أجوبة تعيد اليهم آمالهم الضائعة وتبرر موقف ولاة الأمر في نظرهم ، والمسألة صعبة جداً .

« قال لي أحد تلاميذي يوماً — وقد شعرت أنه لم يعد مجتهداً كما كان في أول السنة — : « أنا ، يا معلمي ، أستعد لنيل الشهادة الابتدائية السنة ، وما هي منفعة الشهادة الابتدائية ؟ منفعتها الوحيدة إنها تخولني حق الاشتراك في امتحانات رسمية قد تكون نتيجتهاdخولي مجاناً في مدرسة عالية واتمام دروسي فيها أما الآن وقد علمت أن الامتحانات ليست إلا محض صورية فلم يبق لي من أمل في النجاح أو رغبة في العلم ، لأنني أصبحت مؤمناً أنني سوف أقف عند هذا الحد من المعرفة ، مع أن فيَّ ظمأ شديداً إلى الاستزادة منها بقدر الامكان . أمن العدل ، يا معلمي ، أن يدخل فلان وفلان المدرسة وهم أميون ، ويبقى فلان خارجهاوهو أرقى منهم جميعاً ؟ أو من العدل أيضاً أن يدخل فلان المدرسة وهو كثير الغنى يمكنه أن يتم دروسه على حسابه الخاص ويبقى فلان خارجها وهو لا يملك قوت يومه ؟ » .

« هذه أمثلة من السؤالات التي تُلقي علي كل يوم وأنا أجيب عليها إجابة تخلص لا اقناع مشيراً التلاميذ بعهد أجمل ، وبأن الاهلية سوف

تحل محل المحسوبية حتماً بعد هذه السنة ، ولا أدري حتى الآن أقنع تلاميذي أم لم يقنعوا . .

التلميذ اذا لم يكن واثقاً من أنه يساوي رفاقه في نظر المعلم والمدير والوزير ، لا يمكنه أن يحب المدرسة أو يؤمن بوجود العدل في الحياة. هو يقول في نفسه : « الأغراض المادية والأحزاب السياسية أو التقاليد الاجتماعية تجعل بيني وبين رفاقي فرقاً خارج المدرسة ، ثم نترك هذا الخارج ونأتي طالبين العلم طمعاً بأن يصلح العلم والعقل ما أفسدته السياسة والنظم الاجتماعية والمنافع الشخصية ، فنكون كمن هرب من استبداد تعضده القوة ، إلى استبداد يعضده القانون ».

« فاذا كنا نقطع أمل التلاميذ بالمساواة المنشودة وهم بعد في هذه السن وفي مسائل تتعلق بالعلم أي بالشيء المشهور بأنه أبعد ما يكون عن التناحر النفعي ، والتفاوت الوراثي الممقوت فماذا نرجو لمستقبل هؤلاء التلاميذ سوف يخدمون بلادهم باخلاص ويقدمون بسهولة على التضحية في سبيلها ؟

« راع يرعى الخراف في البرية ، يجد عرقا من العشب الندي فيعطيه احد الخراف ثم يجلس ليأكل فيأخذ لقمة ويطعمها الخروف نفسه ، ثم يجد سنبلة خضراء فيقطفها ويضعها في حلق الخروف المحظوظ ويعود المساء الى خيمته ، فتقوم أمه العجوز لتسقي خرافه وتقدم لها الاناء فلا تسمح لو احد منها ان يشرب قبل الخروف السيد ؛ لم يأت آخر السنة حتى تآمرت الخراف فيما بينها فأغرقت الخروف في النهر بينما تقدمها ليشرب حسب عادته » .

اذا عجزت المدارس عن محو التفاوت القائم بين الطبقات الاجتماعية ،

ومزج التلاميذ ، رفيعهم بوضيعهم وغنيهم بفقيرهم ، وتكون جيل من الناس يشعرون شعورا واحدا ، ويتألمون ألماً واحدا ، ويحمل كل منهم حصة من التبعة العامة تعادل حصة كل من رفاقه ، فأي شيء اذن يقدر على هذا ؟ المدرسة تفلح حيث يفشل غيرها ، فاذا فشلت المدرسة فأي شيء يفلح ؟

« كفانا ما لقينا من صنوف المضحكات في ماضينا القريب والبعيد ، وآن لنا ان نصل الى زمان تتحقق فيه بعض أمانينا . . نريد ان نشجع العلم في بلادنا وننشر المعارف في مجتمعنا ثم نسلط معول التهديم على بناء لم نتم تأسيسه بعد ؟

اذا هزأنا بالامور هزات الامور بنا ، واذا كان هجومنا على ادوائنا المزمنة هجوما هينا كان لهذه الادواء رد فعل يودي بحياتنا ويمحقنا محقا .

يجب ان نوجه جهودنا في التعليم الى محو كل أثر لعدم المساواة او العصبية الاسرية والحزبية ، وتشجيع العصامية الحق بين التلاميذ حتى يتكلوا على نفوسهم في تحصيل المجد والرفعة لا على ما أتاهم من أهلهم .

وعندي ان كل معلم يغيب من أمامه هذا الهدف ، وينسى او يتناسى هذا الواجب هو مجرم ضد المجتمع ، ويحق للمجتمع أن يقتص لنفسه منه .

هذه هي حاجاتنا في التربية وسنعود الى معالجة سواها من آن الى آن ، والله الموفق الى ما فيه خير الجميع

حين صدرت الحلقة الاولى من المقال حدثت هزة صاعقة في الاوساط الفرنسية وبين المعلمين والمعلمات ، وتجمع المعلمون والمعلمات في السويداء في تظاهرة سارت حتى مكتب المستشار الاداري الفرنسي : السيد برونو بوصفه مديرا للمعارف ، وقدموا احتجاجهم على المعلم الثائر على عقلية القطيع وطالبوا بتسريحه وطرده من الجبل ، ووعدهم المستشار خيرا .

ورفضت السير في هذه التظاهرة معلمة واحدة ، كانت لديها الجرأة الادبية الكافية لتقول : « أنا من رأي الكاتب وقد عبر عن فكرنا جميعا ، لأنه أشجع منا يجب ان نشكره ولانطالب بمعاقبته ؟ » هذه المعلمة كانت الفتاة التي ستصبح يوما زوجتي .

وكان لي صديق اسمه فارس الحلبي يريد السفر الى السويداء ، وسألني هل اوصيه بشيء ، فأوصيته بأن يمر ببيت المعلمة اياها — وكان صديقا لأهلها وينزل ضيفا عليهم عند ذهابه الى السويداء ويحمل الي آخر الاخبار العامة والخاصة ، وحين عاد من رحلته اخبرني بما سمع وناولني رسالة قال انها من اخي المعلمة ، وقرأت الرسالة فاذا هي ثناء على المقال وارتقاب لبقية الحلقات ، وان رهانا حصل بين شقيقته وسائر المعلمين والمعلمات مجتمعين : فهم قالوا ان لن يجرؤ على متابعة النشر بعد ان حرضوا السلطات عليه ، وهي قالت انه لن يتراجع ولو كان خائفا لما نشر أساسا ، وعلمت ان الرسالة مملاة على الاخ من قبل الاخت احتيالا على التقاليد الاجتماعية التي تستنكر ان تكتب فتاة الى شاب — ذلك ان الافكار افكارها ورواية ما حدث في اوساط المعلمين امور تعرفها هي ولا علاقة لاخيها بها .

بعدما انتهيت من قراءة الرسالة تنفست الصعداء لأنني عرفت أنها ستربح الرهان ، فالحلقتان التاليتان من المقال كانتا في بيروت والعدد الثاني كان في الطريق والثالث سيتبعه ، ثم أعجبني هذا الادراك لمرامي المقال وهذه الثقة بشخص يكاد يكون مجهولاً من قبلها ، وهذه الشجاعة من موظفة تنفرد في موقف ضد إجماع الآخرين ولا يهمها أن تكون وحدها عندما تكون على حق . وكان علي أن أكمل ما انطبع في ذهني بمعلومات اضافية آخذها من الرسول .

فسألته :

— « هل ابنة صديقك مخطوبة لأحد ، حسب علمك ؟

— « كلا ، وكل ما قيل عن خطبتها غير صحيح .

— « هل تعتقد أن أهلها يزوجونها حسب ارادتهم أم حسب رغبتها؟

— « إنها وحيدتهم ، وغالية عليهم ، فلا يعقل أن يخالفوا لها رغبة ، وإذا كنت قد فهمت عليك فتقدم ولا تخف ، لأنني شعرت هناك بأنك لست بعيداً عن تفكيرهم . » الذي يعرف طريقة تفكيرنا ووزننا الكلام في الجبل ، يدرك فوراً لماذا اعتبرت هذا القول مشجعاً كبيراً لي ، وحافزاً على الأمل الواثق الذي نسميه الايمان بالوصول إلى هدف معين .

خلال تلك الفترة تلقيت زيارتين احداهما من مدير ناحية القرية التي تتبعها ذيبين والثانية من صاحب مكتبة المعارف في السويداء.

مدير ناحية القرية آنذاك كان الشاعر الشعبي المعروف سليمان عبدي وكان معروفاً بفلسفة ابيقورية وبشعر متعدد الاتجاهات ولكنه اكتسب شهرته من الاتجاه الغرامي الصريح في هذا الشعر . وقد دار بيني وبينه

حوار طويل نفذت من خلاله إلى طريقة تفكيره ، ورأية في الحياة وأطلعته بالمقابل على آرائي الخاصة لمخالفة لآرائه على طول الخط.

أما صاحب مكتبة المعارف السيد هاني أبو صالح فقد كان مخلصاً وامتدت صداقتنا زمناً طويلاً . فهذا الرجل متدفق وطنية واخلاصاً آمن بالعلم من دون أن تتاح له الفرصة ليتعلم بانتظام فاستعاض عن الدراسة بالمطالعة الواسعة المتنوعة واقتنى مكتبة خاصة عامرة ، ولشدة ايمانه بمستقبل العلم والتعليم كان أول من افتتح مكتبة لبيع الكتب والأدوات القرطاسية المختلفة إلى جانب الكتب العلمية والأدبية المتنوعة ، وكان صديقاً لكل متعلم وللمعلمين بخاصة ، كان يؤازر الجميع ، ويمدهم بالمعونة عند اللزوم ، يقترضون منه إلى جانب شرائهم كل لوازمهم من مكتبته ويكلفونه شراء ما ليس عنده ، ومنه أيضاً سمعت ثناء طيباً على المعلمة ، فتراءى لي أنني لو كنت في السويداء قريباً من الاخبار ، قريباً من الصحف والصحفيين ، قريباً من المكاتب . قريباً من القلة المثقفة من الشبان ، لكان مركزي مختلفاً ، وكانت امكانات العمل أكثر وأشمل.

ويأتيك بالأخبار من لم تزود . . . فبينما أنا غارق في تفكيري ، وتخطيط مشاريعي للمستقبل ، أرسل المستشار برونو يستدعيني لمقابلته ، فسافرت إلى السويداء ، وحين دخلت عليه وجدته أمام مكتبه أسمر متجهماً ، تكاد أعصابه تمزق جلده وتخرج منه ، وعلى الطريقة الفرنسية قال لي كل ما كان يريده مني ولم يسمح بمناقشة — وخلاصة ما قاله لي : « إنك ترعجنا ، إنك تتجاوز حدود وظيفتك ، حتى أننا فكرنا في احداث مدرسة زراعية في (كوم الحصى) خارج المدن والقرى وتعيينك مديراً لها لتريحنا وطنيتك ونشاطك بما يفيد ، ولكن المشروع يتطلب بعض

الوقت . وبذلك قررت أن أنقلك إلى السويداء ، لا من أجل فائدتك ، بل لأضعك تحت الرقابة المباشرة من قبل رجال الشرطة والأمن . . عد إلى مدرستك ، إنه سنتك هناك واعتبر نفسك منقولاً منذ الآن ».

مسكين برونو ، إنه لا يعلم أية خدمة أسداها إلي ، اعتقد أنه كان يعاقبني ، في حين كان يقدم لي طريق المستقبل مفتوحة سهلة ، ويأخذ بيدي لولوجها قوياً قادراً على الرغم من امكاناتي المادية المعدومة تقريباً . وعلاقاتي الاجتماعية المحدودة ، انا ابن الفلاح الفروي المواجه لمجتمع عشائري اقطاعي التفكير ، طبقي التركيب . لا مكان فيه للفرد المسلّح بالعلم والعقيدة والاخلاق وحدها ، بل لا وزن للفرد إلا اذا كانت له عائلة كبيرة العدد ، وكان له من الأرض ما يجعله في صف الملاكين دون غيرهم . فالناس أما ملاكون واما فلتيه (بلا ملك) والفلتيه اما مرابعون شركاء للملاك بربع المحصول (وإما ممارسون لأعمال أخرى ذات علاقة بالزرعة — مقابل أجر مقطوع يحدد بالنقود أو بالعينات ، أو ذات علاقة بتجارة صغيرة أو بأي نشاط طفيلي يؤمن للفرد الحد الأدنى من متطلبات الحياة ، وينغرس داخل هذا المجتمع تاجر أو أكثر في كل قرية من أهلها أو من خارجها ، يؤمن لنفسه ارتباطاً ما بعدد من عائلاتها ، ويمتص ثروات القرية كلها ، ويخضع أهلها لنفوذه لأن الجميع يصبحون مدينين له ، بشكل من الأشكال ، ويستوفي ديونه ويمتلك الأراضي ويتوسع ، فاذا هو اقطاعي جديد ، أصله رأسمالي صغير وتطلعاته بورجوازية وصولية . إحدى يديه بأيدي أهل القرية لتأمين الاستمرار لأعماله . واليد الأخرى بيد السلطة أياً كانت — ليضمن الأمن لنفسه ولأمواله .

وأنا معلم مبتدىء ، حددت انتمائي وطنياً إلى الشباب الوطني من

غير ارتباط حزبي ، وحددت انتمائي قومياً إلى عصبة العمل القومي المؤمنة بالوحدة العربية هدفاً ، والنضال لتحرير الأقطار العربية من الاحتلال الاجنبي سبيلاً ، مع نظريات اجتماعية متقدمة بالنسبة إلى تلك الأيام كمحاربة العصبيات المختلفة : الاسرية ، والقبلية والاقليمية ، والشعوبية ، والدينية ، والطائفية ، والطبقية . محاربة الاقطاع والزعامة الفردية « حركة بعث وتحرير وانشاء ، مع الاعتماد على التنظيم الشعبي الشامل والتركيز على الشباب بالدرجةالأولى» (١)

حال انتهاء السنة الدراسية استأجرت غرفة في السويداء — الحارة الغربية — في دار تخص أقارب المعلمة ، وقريباً جداً من منزل أهلها ، وصرت أراجع دروسي استعداداً لامتحانات الحقوق وفي الوقت ذاته تعرفت إلى السويداء بصورة أفضل فوطدت الصلات بالصحفيين (الأستاذ نجيب حرب وأخيه نعمان ، وخليل نصر) وزدت من صلاتي بصاحب مكتبة المعارف السيد هاني أبو صالح . وطورنا نوعيات الكتب التي كان يبيعها للمطالعة . فأطلعته على خاطرات جمال الدين الأفغاني وديوان ولي الدين يكن ، وشعر أبي القاسم الشابي ، وعدد آخر من الكتب الهادفة التي كان الجبل خلواً منها ، فصار يستوردها وتنفق في سرعة قياسية لتطلع الجيل الجديد إلى المعرفة وإلى الثقافة الوطنية والقومية والاجتماعية (وجدت بين أوراقي المدون فيها بعض الوقائع عام ١٩٣٨ — ١٩٣٩ عبارة « استعادة كتابي المهاتما غاندي والاشتراكية العلمية من عند نعمان حرب (ومن الطبيعي أن نغلب الاتجاه الوطني — القومي على أي اتجاه آخر تلك الأيام ، باعتبار تحرير البلاد من الأجنبي هو الهدف الأول .

وما ان استتب بي المقام في السويداء حتى أرسلت قصيدتين إلى جريدة الاستقلال العربي في دمشق – لصاحبها الأستاذ توفيق جانا ورئيس تحريرها الأستاذ فؤاد الشايب ، عن طريق مراسلها الأستاذ نعمان حرب ، ونشرت القصيدتان ضمن اطار مع ابراز البيت الرئيسي في كل منهما ، كانت أولى القصيدتين بعنوان : ما شبابي والثانية بعنوان نشيد السنابل وقد نشرت القصيدتان في مجموعة (غزة ، هانوي تشرين) أيضاً.

وحين نشرت القصيدتان صارتا على كل لسان ، وصارت الأولى منهما « ما شبابي » نشيداً حقيقياً لا يجهله أحد من المتعلمين وبخاصة تلاميذ المدارس ، واقضت القصيدتان مضاجع الفرنسيين فازداد تهديدهم ، وازددت عناداً .

كانت الوطنية حتى ذلك التاريخ وطنية مناسبات : يبرز شخص فيخطب في اجتماع ، أو يقوم بنشر دعاوة ، ثم يسكت زمناً طويلاً أو يسكت نهائياً – ولم يكن الفرنسيون يأبهون لمثل هذه الظاهرة بل لم يكونوا ييأسون من شراء وطنيي المناسبات وهم بارعون في ابتكار وسائل للشراء لا يدركها البسطاء من الناس ، وكان فلان يكتفي بأن يشتهر بأنه خطيب بليغ جريء ، ولا يتورع أن يلتقي ليلاً زعيماً خطب ضده نهاراً ، أو يلتقي في اجتماع خاص سلطة أجنبية هاجمها في اجتماع عام .

مقابل ذلك ، كان علي أن أبعد الوطنية عن حب الظهور ، أن اوجد الصوفية الوطنية ، وأن أوجد حلقات سرية أطلق عليها أسماء أكبر من حجمها ، لكي أخيف الفرنسيين أكثر فأكثر ، وبدأت بتكوين حلقتين متداخلتين : أولاهما رابطة الجبل الأدبية ، ٢٢ ، وكنت الوحيد المعروف من أعضائها ، فأنشر في المكشوف مقالات باسمي مع عبارة (من رابطة

الجبل الأدبية) والثانية : العصبة المتمردة » وهذه شكلت من ثلاثة أعضاء ، هم : الاستاذان جاد الله عز الدين ، وذوقان قرقوط ، وأنا واتخذ كل من الثلاثة اسماً رمزياً (حركياً حسب تعبير هذه الايام) فالاستاذجاد الله اسمه : (انت)والاستاذ ذوقان اسمه(أنا) ،و(أنا) اسمي (هو) والذي يراجع اعدادالمكشوف سيجدأكثرالمقالات بتوقيع (هو) .

حاشية رقم (١)

قبول التحدي المعلن من المستشار برونو فجر فيّ كوامن من الشعر تعبيراً عن غليان داخلي مكبوح مؤقتاً ، وحدد كل مستقبلي النضالي ضد الاحتلال :

كانت أولا قصيدة « بينك الله . . »

حـــاولــي ، يـا خطـوب أن تهـدمينـي
بينـك الـلـه يـا خطـوب ، وبينـي

فــرحـي ، قــوتـي ، أمـانـي ، سـور
شـامـخ فـي عتـوّه ، يحمـيـنـي

خــاب ظـن الـزمـان ، ان ظـن أنـي
ظـلـمـه عـن مقـاصـدي يثنينـي

ثــورتي لا تنـام للفشـل الآثــم
لـن يسمـع الأنـام أنـيـنـي

كيـف أخشـاك . ياخطـوب وعنـدي
لليـالـي اللقـا أشـد يمـين

ولســود الأيـام ، عنـدي شـبـاب
سـاطـع نـوره كنـور اليقـين

وفي دفتر صغير كنت أدون فيه بعض الملاحظات المتعلقة بما أريد أن أدرسه لتلاميذي. وما علي أن أحققه وجدت هذه الأبيات تحت تاريخ (١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨)

أبدأ يروعك الأسى وتظل تبسم للوجود

تصميك أشواك الحياة وأنت تهتف للورود

ملء الدنى شبح الفناء وأنت تؤمن بالخلود

فلقد كانت للأخين الأستاذ جاد الله وذوقان مشاغلهما اذ كانا طالبين بالثانوي فكان على أن أسد الفراغ قوياً بهما قوياً بالاسم الرمزي الذي يحمله كل منا .

مما خطبت ، وفعلت ، ونشرت ، صرت معروفاً لدى الوطنيين من أبناء الشعب بصفات محددة تجعلهم يعتمدون علي في الأمور ذات الشأن ، كما صرت معروفاً لدى الخصوم من الفرنسيين وأنصارهم بالصفات ذاتها التي تجعلهم يخشونني ويشددون علي الرقابة ، وتصادف خلال ذلك الصيف ١٩٣٨ أن زار الموسيقار المطرب الكبير الأستاذ فريد الأطرش — السويداء — مسقط رأسه — فأقام له الوطنيون حفلة في الحديقة المجاورة لدار الحكومة . وكما حدث لي يوم مثلت الرواية في عرمان عام ١٩٣٥ حين دعوت المستشار ضماناً لاقامة الحفلة ، كذلك دعا المشرفون على الحفل حاكم الجبل الكولونيل بوفييه لحضوره . والا لما كان قد سمح به ، وقد كلفت ان أعد كلمة المحتفلين منذ النهار فأعددتها مكتوبة خلافاً لعادتي وضمنتهاأفكاراً جديدة آنذاك تتعلق بدور الفنان في خدمة القضية العربية —

وقد قوطعت الخطبة بالتصفيق الحاد أكثر من مرة ، وما ان انتهيت

من القائها حتى طلب الأستاذ فريد عوده وأنشد مقطوعة مطلعها على ما أذكر (غالي الوطن جد عليا أفديه بروحي وعينيا) . وبلغت الحماسة الأوج وارتفعت الهتافات بالشعارات الوطنية والقومية وكلت الأكف لكثرة التصفيق ، وكانت سعادتي أكبر من أن توصف .

ولكن شخصاً كان تعيساً بقدر ما كنت سعيداً ، كان مستاء بقدر ما كان الجميع فرحين . هذا الشخص كان الكولونيل بوفييه المعروف بصلفه العسكري وهو من المدرسة الفرنسية الاستعمارية القديمة . لم يكن يظن أن هذا الجبل الذي داسته جحافل الهمجية الاستعمارية عام ١٩٢٦ـ ١٩٢٧ سوف تقوم له قائمة ويقال فيه مثل هذا القول . وتنشد فيه مثل هذه الأناشيد هنا عام ١٩٣٨ ، تحت أنفه هو وبحضوره وكأنه غير موجود ، وكأن رحيل دولته أصبح أمراً مفروغاً منه .

إلى جانب معالجة قضية التعليم والقضايا الوطنية والقومية الأخرى ، نشرت مقالاً بالمكشوف صيف ١٩٣٨ عنوانه « جبل الدروز بين القانون المدني والعادات المحلية » عالجت فيه موضوع الثأر وما يدل عليه من روح بدائية قبلية وما يرتكب باسمه من جرائم وما يسببه من مظالم ومآس وخراب ، ووضعت العلاج وهو الاحتكام إلى القانون باعتبار أن وجود الدولة هو مظهر عصري يجب أن يلغي شريعة الغاب والاحتكام إلى القوة الفردية أو العشائرية .

الذي دعاني إلى معالجة هذا الموضوع هو أنني بدأت أدرس الأسس التي يرتكز عليها الاقطاع في وجوده واستمراره فرأيت أن كل ما في مجتمعنا من عادات وتقاليد أساسها على الأعم الأغلب : دعم الاقطاع والزعامة الوراثية وأضعاف السلطة الشرعية القائمة ـ على افتراض أن

هذه السلطة تمثل القانون والنظام ، وتضمن للافراد حقوقهم وحريتهم في أداء واجباتهم المختلفة وممارسة حقوقهم المتنوعة : فلو اقتصرت قضايا القتل مثلاً على القاتل والمقتول وحدهما ، فلوحق القاتل وعوقب واقتص منه بالتعويض على ورثة القتيل . لسارت الأمور طبيعية بلا تعقيدات ، ولا مضاعفات ولا مشاكل ولكن للقاتل عائلة متحالفة مع عائلات ، وللقتيل أيضاً . كل هذه العائلات تتعادى : كل ذوي القاتل حتى سابع جد يجب أن يجلوا عن القريةوحتى عن المنطقة : كلهم مطالبون بالثأر كل واحد منهم يمكن أن يقتل في أية لحظة ، والذين يطالبون بالثأر همجميع العائلات المتحالفة مع عائلة القتيل والفريقان يلجؤون إلى الزعامة القائمة النافذة لتحل لهم المشكلة ، وهذه الزعامة تتدخل وتساوم ، وتتاجر ، وتؤجل وتجمع الناس بحجة تبادل الآراء ، وهذا كله يتطلب ضيافات ، وهدر وقت وجهد ومال ، وثرثرة وتفاصُح ، وأمور مقرفة ما انزل الله بها من سلطان ، ولا من انسان ، ويحصل الاتفاق ، وتعقد الرأية ويبدأ عقدها الزعيم ، وينهي عقدها الزعيم ، كضامن لعدم النكول ، والناس مشدوهون ، تدور أمامهم هذه الشعبذات السحرية التوتمية ، وهم يمتدحون الزعيم ويعتبرون كل ما يجري أمامهم شيئاً عظيماً خارقاً للعادة ، لولا عظمة الزعيم لما أمكن اتمامه .

والمآتم على طريقة اقامتها في الجبل ، منظمة من الأساس لخدمة الزعامة فالموت أمر عادي يحدث في كل قرية أكثر من مرة في السنة ، وهذا يعني اجتماعاً مضموناً كل مرة ، يصطف خلاله أهل الميت ومن لف لفهم ويدعون (أهل الحربية) ويأتي المعزون عائلة ، عائلة ، وعلى

رأس كل عائلة كبيرها أو زعيمها ، ويبدأ أخذ الخاطر ، كل كلمة يقولها المعزون بصوت جهوري ، يجيب عليها أهل الحريبة بصوت جهوري ، صيغة الكلمة معروفة وصيغة الجواب معروفة ، وهكذا يتكرر عشرات المرات ، ومئات المرات ، وللزعيم في هذا الحفل مكانه المرموق ، وله كلمته الأولى – وعند انتهاء الصلاة على الجنازة ، والدفن ، يصطف الجميع على شكل دائرة ويبدأ الزعيم أخذ الخاطر من جديد ويتبعه الباقون ، ثم يتفرق الجميع مجموعات ، مجموعات ، مع ضيوفهم ، من خارج القرية لتناول الطعام من الولائم التي يكون أهالي القرية قد أعدوها في بيوتهم (١) وفي يوم الذكرى الاسبوعية تتجدد الحفلة ذاتها ويتسع نطاقها لأن قرى بعيدة تكون قد تبلغت النعي وجاءت لتقوم بالواجب رجالاً ونساءً وأطفالاً كما سبق أن وصفت وأسوأ ما في الأمر أن جثة الميت تسجى في ساحة ، أو في قاعة واسعة وتتحلق النساء حولها ، ويندبن ندباً منظوماً والأعين تحدق في الميت والنسوة من أسرته حواليه باكيات بأصوات عالية ، نائحات نادبات أيضاً ، ولعل هذه العادات متوارثة من الجاهلية ، وقد عادت إلى الظهور بعد ما ضعفت ضوابط الاسلام البعيدة عن كل هذا (٢)

والضيافة ، دليل الكرم في الأصل ولكنها عندما تتجاوز حد المعقول تخرج عن كونها ظاهرة اجتماعية مقبولة في مجتمع متحضر ، في عصر البداوة نفهم أن المسافرين يضطرون إلى المبيت لبعد المسافات ، وضرورات الاتصال والاتجار ، وأداء الأعمال المتنوعة ، فمن الطبيعي أن يكون هناك مكان لمبيتهم واطعامهم ، وكانت الضيافة هي الوسيلة الوحيدة لذلك ، ومن هو ضيف اليوم قد يكون مضيفاً غداً ، والعكس صحيح – وفي

الأرياف كان لها هذا المعنى وهذه الوظيفة الاجتماعية . في الأصل، أما في الفترة التي أتحدث عنها الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن، فقد باتت مظهراً من مظاهر التباهي ، والتفاخر ووسيلة لمساعدة العاطلين عن العمل على قضاء أوقاتهم ، وتعطيل غيرهم عن العمل ، لا نفقة ولا صعوبة ، فالضيف أياً كان ، لا يسأل عن قصده ولا يناقش في مبررات رحيله واقامته ، فهذا كله عيب ، لو تعرض اه المضيف للاكت سيرته الألسن ولطخت سمعته الشائعات . مثل ذلك المسكين المجهول أبو حسين العفير الذي وصف الشاعر الجبلي كلابه بالبخل فضلاً عنه :

أبخــل مــن كــلاب أبو حسين العفير
يطـردون الضيف لـو خــبزه معــــاه

ومن يدري ، لعل أبو حسين العفير هذا رجل منصرف إلى عمله، لا يحب ان يعطل أعماله من أجل استقبال العاطلين عن العمل ، ولا يحب أن يسخر زوجته وأولاده لخدمة الافاقين المتنقلين من قرية إلى قرية . طلباً للضيافة كهدف ، من دون أن تكون لهم بالمضيفين أية علاقة مبررين ذلك برابطة عائلية نسيها التاريخ ، أو بحلف عشائري أقيم من أجل العدوان أو الابتزاز ، أو بمشروع لاحياء رابطة جديدة بين العائلات المختلفة .

والفرنسيون يشجعون هذه الظاهرة لأنها تطيل أمد استعمارهم ، ما دام أهل البلاد سيظلون بعيدين عن فترة الوعي واليقظة والنهضة فالثورة . ما دام الشعب لاهياً عن حقوقه المغتصبة بتوافه وأوهام ، دفنها الفرنسيون في بلادهم منذ قرون ويشجعونها في بلاد سواهم للافادةمن آثارها التخلفية .

كانت هذه الأمور تشغل تفكيري وأخطط في ذهني لمحاربتها والقضاء عليها سواء في مجال عملي الوظيفي ، أو في مجال حياتي الاجتماعية ولنعد إلى عملي الجديد في السويداء :

بدأ العام الدراسي ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ ، وفي السويداء مدرسة ابتدائية كبرى يبلغ تعداد تلاميذها حوالي خمسمائة . ومقرها مقابل دار الحكومة ، أي مكان مديرية التربية الآن ، وكانت مديرية التربية آنذاك تحتل قسماً من الطابق الأول في دار الحكومة ، وكانت هناك مدارس ابتدائية أخرى للبنين أو البنات موزعة في أماكن مختلفة من المدينة ، إلى جانب المدرسة الاكمالية الوحيدة الواقعة في الطابق الأول من البناء المسقوف بالقرميد ، المجاور لدار الحكومة ، والذي كان الطابق الأرضي منه مقراً لقيادة الدرك ، ثم أخذته تلك القيادة كله بعد ذلك بسنوات عديدة وتعبير المدرسة الاكمالية ترجمة للفظة الفرنسية COMPLE MENTAERE وهي المدرسة الاعدادية (حسب التعابير المتبعة في دمشق والمعممة في سورية بعد الجلاء ، وكان اسمها أيضاً الشهادة الاكمالية أو التكميلية ترجمة للتعبير الفرنسي أيضاً .

حين بدأت السنة الدراسية أسندوا إلي تدريس مادة اللغة العربية للصف الخامس ــ صف الشهادة الابتدائية في المدرسة الابتدائية ، مع تدريس كامل المواد للصف الأول الاعدادي باللغتين العربية والفرنسية ، ثم ما لبثوا أن حصروا عملي في المدرسة الاكمالية (الاعدادية) حيث أسندوا إلي مادة التاريخ والجغرافية للصفين الثاني والثالث ، أي صف الشهادة الاعدادية ، والصف الذي قبله بالإضافه إلى المواد الكاملة للصف الأول ، كما تقدم .

كانت ادارة المدرسة الاكمالية مزدوجة : وطنية وفرنسية : كان المدير الوطني هو مفتش المعارف الأستاذ عبد الغني الباجقني ، هذا العربي الليبي الاصل ، الذي كنت وما زلت أكن له مزيد التقدير والاحترام، لدفاعه العنيد عن حقوق بلاده ، وأمته في كل مناسبة وكل موضوع ، والمدير الفرنسي كان مفتش المعارف الفرنسي الأستاذ تركان ، وكنت قد عرفته في بيروت حيث كات يدرس بالثانوية اليسوعية ويدرس الحقوق في آن واحد ، وكان من الاساتذة البارزين أستاذ اللغة العربية المرحوم بولس هاشم ، الغزي الأصل

منذ بداية تدريسي في السويداء كنت مشكلة أكثر مني معلماً ،فأنا كاتب له آراؤه ، والناس يتحدثون عنه : الفرنسيون يشكون مني ، ويشكونني إلى أساتذتي القدماء ، فأتلقى رسالة من أستاذ الفلسفة يقول لي فيها : « لا تضع صداقات مفيدة لبلادك » وأجيبه بأنني لا أجد لدى هؤلاء الأصدقاء المزعومين إلا كل ما يناقض ما قرأته عن الثورة الفرنسية، وما اطلعت عليه من أدب فرنسي وفكر فرنسي ، انهم هنا لحماية الاقطاعيين وسحق عامة الشعب ، وليسوا هنا لتحقيق أهداف نبيلة.

والزعماء الوراثيون يحاربونني بالدس والخداع ، ويتهمونني بالخروج عن التقاليد ، وبالكفر ، أو المروق ، ويخافون قلمي خوفاً شديداً ، وكل مثقف أو متطلع إلى الثقافة فهو صديقي يؤيدني ويحبني والمعلمون يحاربونني ويخافونني في آن واحد ، بعضهم يخشى أن أحتل مكانه ،وبعضهم يخاف أن أكون سبباً في كشف جهله ، أما التلاميذ فهم أنصاري المخلصون المستعدون لكل تضحية من أجلي وكانت أعمارهم متقدمة لعدم انتظام العلم والتدرج تلك الايام — فبعض التلاميذ كان يقاربني سناً .

وكلمة على المفتشين : كان الاستاذ تروكار — المفتش الفرنسي والمدير الفعلي للمدرسة يعتقد أني إلى جانبه بسبب من المعرفة السابقة ، وكنت أحترم علمه وأعماله معاملة رسمية كاملة .

أمّا الأستاذ الباجقني فسرعان ما توطدت بيني وبينه صداقة عميقة قائمة على المبادىء والأهداف الوطنية : كنا نجتمع في مسكنه ونتناول كأساً من الشاي ، الأخضر الذي يعده بنفسه ونضع خطوط العمل — وكان الناس يحبونه لأنه كان يخاطبهم خطاب مجاهد لقوم مجاهدين ، وباعتبار انه كان منشغلاً بشؤون التفتيش فقد عينني نائباً عنه في ادارة المدرسة الاكمالية (الاعدادية) فصرت —من الناحية العملية — مديراً لتلك المدرسة باسم الناظر العام .

وقد دارت مباحثات ن أجل تقدير مستقبل لك المدرسة .

الفصل الثاني والعشرون

بناء جيل التحرير والحياة الخاصة

كانت المدرسة منشأة على أساس النظام الفرنسي الذي يعتبر المرحلة الاعدادية ثلاث سنوات ، وبعد عودة الجبل محافظة سورية واشتراك المفتش الوطني في إدارة التعليم وفي إدارة المدرسة المتوسطة ، كان لابد من البدء بتطبيق المنهاج السوري الذي على أساسه كانت المرحلة الاعدادية آنذاك أربع سنوات : السادس والسابع والثامن والتاسع ، كان في المدرسة ثلاثة صفوف بالسنة الاعدادية ، الأولى تسير على المنهاج السوري في الدروس كلها ، ولكن ما هي الحال بالنسبة إلى الصفين المتقدمين الثاني والثالث ؟ إذا طبق المنهاج السوري تطبيقاً كاملاً فسيحرم الصف الثالث من الحصول على الشهادة الاعدادية الفرنسية . تلك السنة وسننتظر سنة أخرى ليتقدم لفحص الاعدادية السورية وسيترتب عليه تغيير منهاجه وكتبه تغييراً كاملاً . والصف الثاني سينتظر سنتين بدلاً من سنة واحدة ، وسيكون عليه ، هو الآخر ، أن يغير منهاجه وكتبه ، نحن اذن أمام مرحلة انتقالية يجب أن نضع لها برنامجاً خاصاً آخذين بعين الاعتبار مصلحة الوطن ومصلحة المواطنين معاً . وتقرر أن تبدأ المباحثات بين المفتشين لوضع البرنامج — الاتفاق وتوقيعه . وفوجئت بالأستاذ الباجقني

يكلفني القيام بالمباحثات بالوكاله عنه — وتناقشت طويلاً مع الأستاذ تروكاز وتوصلنا إلى برنامج هذه خلاصته على ما أذكر :

١ — ستعرب المدرسة تعريباً كاملاً خلال سنتين .

٢ — يتقدم طلاب الصف الثالث لفحص الشهادة الاعدادية الفرنسية هذا العام الدراسي ٣٨—٣٩ حفاظاً على حقهم المكتسب وقد بلغوا من العمر عتياً ، كما يتقدم طلاب الصف الثاني لامتحانات الاعدادية الفرنسية آخر العام الدراسي القادم ٣٩ — ٤٠ ، ويكونون آخر من يتقدم لنيل تلك الشهادة . ٣ — عام ١٩٤٠ — ١٩٤١ لن يتقدم أي صف في هذه المدرسة للشهادة الاعدادية ، لأن الصف الأول الاعدادي يكون قد صار صفاً ثالثاً وسينتظر للعام الدراسي ١٩٤١ — ١٩٤٢ ليحصل على الاعدادية ، السورية ، ولكن التعريب يكون قد انتهى منذ نهاية العام الدراسي ١٩٣٩— ١٩٤٠

٤ — بانتظار ذلك ولتحقيق الارتباط بين صفوف المدرسة المختلطة منذ الآن يقوم أستاذ من أبناء الجبل بتدريس مواد التاريخ والجغرافية واللغة العربية للصفوف الثلاثة ، إلى جانب تدريسه جميع المواد للصف الأول وفق المنهاج السوري .

ما زلت أذكر حين عدت بوثيقة الاتفاق ، كيف استقبلني الأستاذ الباجقني بابتسامته المقتصدة المعبرة ، وقبضة يده القوية المشجعة ، وصوته الفرح المتهدج وهو يقول :

— « لقد كنت واثقاً من ذلك ، فلقد رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب

وأخذتني هزة اعتزاز ، بهذا التشبيه ، اعتزاز متواضع للفرق

الشاسع بين هذا الاتفاق على انتزاع مدرسةمن الفرنسيين وذلك الاتفاق الذي أنهى احتلال الروم لفلسطين ، ولكنني أدركت المدى البعيد الذي كانت رؤية الأستاذ الباجقني تنفذ إليه عبر ذلك الاتفاق ، فلقد كنا أمام نواة تجهيزية ستنقل هذه المحافظة من عهد إلى عهد ، وهذه القبضة من الطلاب الذين سيكون منهم الأستاذ والضابط وحتى الوزير ، سيكون لهم شأن في الحياة وأي شأن . .

وبدأت التدريس : كنت أضع الأسس للصف الأول بحيث يكون اتجاهه قومياً عربياً واضحاً من خلال الدروس وشرحها ، من خلال انتقاء قطع معينة للاملاء ، من خلال التعليق على أحداث التاريخ الماضية والأحداث الوطنية الجارية ، وشجعت المجلين في الانشاء العربي فعملت على نشر كتاباتهم في مجلة « المدرسة » البيروتية وكان هذا حافزاً لهم على الابداع ولم نصل إلى نهاية السنة المدرسية حتى دخل عدد من تلاميذي السجن بتهمة التآمر على فرنسة ، ولا أقول ان ذلك كان بتأثيري وحده ، بل أقول أنه كان نتيجة لوعيهم لقضايا أمتهم ووطنهم واستعدادهم للنضال والمجابهة والتضحية ، أما بالنسبة إلى الصف الثالث والصف الثاني فقد وجدت بالممارسة أن دروس التاريخ والجغرافية لديهما مشوهة ، والمعلومات التي يلتزنانها غير صحيحة ، وموجهة توجيهاً سيئاً لصالح الاستعمار ، وصالح التجزئة الوطنية والقومية — وجدت أمامي كتاباً للجغرافية تأليف جاك اده ، باللغة الفرنسية يأخذ واقعة الانفصال بين سورية ولبنان على أنها سرمدية وأن الانفصال كان دائماً هكذا ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن أدع هذا يمر — فلا بد من وضع أمال جديدة واهمال الكتاب اهمالاً كلياً .

ولكن ذلك يتطلب مني وقتاً لا أجده في ساعات التدريس المليئة تماماً – لا بد اذن من اعطاء دروس في أوقات أخرى – وبعد أعمال الفكر وجدتها : كان النظام المطبق حتى ذاك التاريخ يقضي باعتبار . الاسبوع خمسة أيام فقط ، وتعطل المدارس يومي الجمعة والأحد . وأنا سأكتفي بعطلة الجمعة وألقي دروس التاريخ والجغرافية يوم الأحد– في المدرسة حين يكون الطقس بارداً أو ماطراً ؛ وفي الفضاء الرحب حين يكون صاحياً دافئاً ، وبدأت أملي دروسي ابتداء من سورية الواحدةالتي هي جزء من الوطن العربي الواحد ، ومن عملية التجزئة التي حدثت بفعل الاستعمار وبخيانة الحلفاء لفيصل إلى آخر الأحداث التي نعرف.

ومضينا شوطاً بعيداً والطلاب متعطشون إلى المزيد من هذه المعلومات ، وأنا لفرط سعادتي ، لا أشعر بتعب أو ملل ، فأنا جندي متطوع أكثر مني معلماً محترفاً ، وفي ذات يوم من عام ١٩٣٩ فوجئت بورود قرار من الكولونيل بوفييه الحاكمالفرنسي يلغي دروس يوم الأحدالتي يلقيها الأستاذ . . على طلاب المدرسة الاكمالية ، لقد بلغتهم تفاصيل دروسنا عن طريق أحد طلابنا فألغوها ، ولكنني لم أتراجع بل أخذت أكثف الدروس ذاتها وأتابع القاءها ضمن أوقات الدروس العادية .

وإلى جانب التدريس كنت أتابع النشر في المكشوف وفي الصحف الدمشقية كما بينت سابقاً . .

وفي النصف الأول من عام ١٩٣٩ حدث أمر جلل على مسرح الحياة الوطنية فلقد جاء المفوض السامي السيد غبريبل بيو ليقوم بزيارة المحافظات المختلفة بحجة استطلاع الرأي العام الشعبي لاثبات أن الناس لا يريدون الاستقلال وأنهم يفضلون البقاء تحت الانتداب الفرنسي – ونشطت الدعاوة الفرنسية بهذا الاتجاه ، وكانت دعاوة محمومة في الجبل لأن

الفرنسيون يعتبرونه ورقتهم الرابحة : فهم اذا اطمأنوا إلى استسلامه لارادتهم وبقائه في صفهم ، أو تحييده ، على الأقل في مواجهتهم الشاملة مع الشعب في سورية ، فانهم يكونون مطمئنين إلى نجاحهم وفشل الحركة الوطنية كلها . فبالجبل ينتصرون وبالجبل يفشلون — ولهذا بدأ الفرنسيون في الجبل وزبانيتهم يرصون الصفوف ويعدون السلاح ، ويهيئون الاعلام الفرنسية لتحملها جماهير الانصار — انصار الاستعمار — يوم استقبال بيو وبالمقابل نشط الوطنيون وأعدوا السلاح وأعدوا الاعلام السورية بالآلاف ليظهروا للعالم أن الشعب في واد وزعماءه وسائر العملاء من المنتفعين بالاحتلال الاجنبي في واد آخر . ووضعت المدارس في حالة تأهب ،. فالفرنسيون هم الآمرون الناهون بالنسبة اليها ، وهي ستكون في الاستقبال أساتيذ وتلاميذ وفكرنا في أن نفعل شيئاً في أن نحدث حدثاً ، ومن جملة الوسائل التي فكرنا فيها رفع اعلام سوداء بوجه المفوض الزائر ، أو ان يهتف التلاميذ بعبارة (تحيي سورية) باللغة الفرنسية حين يمر موكبه أمامهم .

ولكن سرعان ما كشف أمرنا — فقد كنا ما نزال على قسط كبير من السذاجة ،لا نأخذ الحيطة الكافية حينما نضع خططنا : كنا نحسب جميع التلاميذ مخلصين للقضية الوطنية ، ونهمل ناحية الانتماء الطبقي أو العائلي ، وأول دلائل اكتشاف الخطة جاءت بشكل أمر صادر عن الحاكم مباشرة بتنحيتي عن المشاركة في الاستقبال وترك تلاميذي برعاية زملائي المعلمين الآخرين ، وابعادي عن المدرسة كلها .

كنت أعرف إلى أين اتجه ، فذهبت رأساً إلى حي المشرف ، حيث كان الوطنيون المسلحون قد أقاموا المتاريس ونصبوا الرشاشات الثقيلة

واستعدوا بكل أنواع الأسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية ـ وكنا من سطوح المشرف المرتفعة نشهد أمامنا وعلى امتداد المسافة من مدخل السويداء الشمالي الغربي إلى الميدان الكبير عشرات الآلاف من الاعلام السورية ترفرف فوق بحر متلاطم الأمواج من الوطنيين المناضلين .

لقد وجد المفوض السامي الفرنسي صعوبة كبرى في شق الطريق أمام سيارته وموكبه وعلى الرغم من الحراسة المسلحة المواكبة له ، قام بعض الشبان المتحمسين باقتحام سيارته ولوحوا أمامه بالمسدسات والاعلام السورية صارخين « لتحي سورية (VIVE LASYRIE) باللغتين العربية والفرنسية وكان ظاهراً للعيان أن الوطنيين هم الأكثرية الساحقة وأن أنصار فرنسة محصورون في طبقة معينة ، وعائلات معلومة ، وحين وصل إلى منزل الحاكم الفرنسي المسمى (المقر) كان متعباً متجهم الوجه ، على الرغم من استئناسه ـ ويا للأسف ـ باستقبال شخصيات كبيرة كان همها الأوحد أن تطلب اليه ـ في استجداء ـ المحافظة على حقوق الأسرة وزار بيو قضاء صلخد فشهد فية تجمعاً وطنياً أكبر من تجمع السويداء ، وكانت الاعلام السورية تسد عليه الافق كيفما اتجه ، ولكنه مع ذلك كان قد وضع خطة ، أو وضعت له خطه جاء لينفذها لا أكثر ولا أقل : فسوف يعلن وقف العمل بمعاهدة عام ١٩٣٦ والعودة بالجبل إلى وضعه السابق شبه المنفصل عن سورية .

وهنا لا بد لي من وقفة خاصة التفت فيها إلى حياتي الشخصية لقد كنت أقيم في غرفة مع اخويّ نجيب وصالح اللذين كانا في الصف الاكمالي (الاعدادي (الأول وكانت والدتي وأخواي منصور ويوسف وأختي الصغيرة (روز) في بيتنا في عرمان

وكانت قريبة من بيت السيد فارس شتي والد المعلمة الآنسة مهاني التي تحدثت عنها دون أن أسميها . وكنت قد اتفقت مع الآنسة ووالدها على اعطائها دروساً خاصة متنوعة باللغتين العربية والفرنسية ؛ وقد قصدت أن تكون هذه الدروس من باب الثقافة العامة الشاملة المكثفة لكي تحصل خلال أقصر مدة على أكبر قسط من المعلومات دون التقيد ببرنامج شهادة معينة — وكان أهلها قد يسروا لنا الاتفاق مع امرأة تعد لنا طعامنا وتغسل لنا ثيابنا وتنظف لنا غرفتنا الواسعة — وكنا نحضر مؤونتنا من القرية ونكتفي بالأطعمة التي تعودناها في القرية دون أية زيادة ولما انقضت عدة أشهر من عام ١٩٣٩ وبعد زيارة بيو بدأنا نشم رائحة حرب مقبلة في أوربة ، واذا بدأت فستكون عالمية ، ونحن نعرف ما تجره الحرب العالمية من كوارث وغلاء ، لذلك قررت أن أعلن رغبتي في خطبة الفتاة التي أصبحت بحكم تلميذتي مع أنها زميلتي بوصفها معلمة ، وكان يقال ان والدها صعب المراس فيما يختص بابنته ، فهي وحيدة وهي غالية عليه ولكني صممت ان أفاتحه بنفسي غير آبه لما سمعته — وحين خاطبته فوجئت بأنني أمام شخص ذكي مخلص لابنته حريص على مستقبلها ، فقد قال رأساً أنه كان يبحث عن شخص يعجبه من الناحية الأخلاقية قبل كل شيء وأنه بعدما عرفني مدة طويلة أصبح مقتنعاً بأنني أنا هذا الشخص المبحوث عنه ، ولذلك فقد وافق على طلبي طالباً لنا السعادة . وقد غمرتني سعادة لا توصف ، وبدأت أفكر في تدبير المهر الذي كان لابد منه . لأن المجتمع كان لا يغتفر لرجل يزوج ابنته بلا مهر (فيد) مثل هذه الخطيئة التي ينزلونها منزلة العار . وقد أفدت من صداقاتي أيام الدراسة فاقترضت مبلغاً من المال ، بالاتفاق مع خطيبتي العتيدة — نسدده بعد الزواج من مرتبينا ،

وكنت قد دعوت والدتي إلى السويداء لمشاهدة الخطيبة قبل كتب الكتاب ـ فأعجبتها ودعت لنا بالبركة ، وساعدتنا والدتي بما تستطيع وعقدنا العقد.

وكنت أحس بالحرب مقبلة فاستعجلت الأمور ونزلنا إلى دمشق فابتعنا لوازم بسيطة لبيت نظيف متواضع واستأجرنا بيتاً في حي آخر . وفي دمشق سمح لنا عمي بالتجول معاً ودخول المطعم والسينما وحدنا وكنا في عملنا هذا ، نفتتح الطريق أمام الجيل الجديد إلى أحداث التغيير المطلوب في العادات والتقاليد القديمة المتزمتة ، وكنا أول خطيبين من الجبل يتصرفان على هذا النحو قبل منتصف هذا القرن . وفي العاشر من تموز ١٩٣٩ تم زواجنا في عرمان ، وكان هذا الزواج ، مرحلة حاسمة في حياتي النضالية في السويداء ، فأنا لم أعد وحدي ولم أعد بلا جذور في مدينة تتعصب ضد الغرباء عنها وحصلت على استقراري المنزلي اللازم في مثل مجتمعنا الذي لا تروج فيه بضاعة المناضلين المتشردين المتحللين من الحياة العائلية .

وقد أثبت بمناسبة زواجي ، كما أثبت بمناسبة وفاة والدي أنني أعيش أفكاري ، فحين وصلت العروس استقبلتها ومنعت الغناء والرقص وساعة تناول الطعام الغداء تغديت معها ، أمام دهشة الجميع وذهولهم. ان العادات لا تسمح بهذا : فالمفروض أن العروسين لم يتقابلا ولن يتقابلا إلا ساعة (الدخلة)ولكني قلت للحاضرين رجالاً ونساء : إنني لا أحب النفاق ، فقد عرفت عروسي مدة طويلة ، وعلمتها وأكلت وإياها معاً في بيت أهلها فلا أحب أن أتظاهر بعكس ذلك هنا فسكت الجميع ، وتأكد لي أن قوة الارادة ، والتمسك بالرأي الذي يعتقده الانسان محقاً ، قوة كاسحة لا تقاوم ، وبعد قضاء حوالي اسبوع في القرية عدنا إلى بيتنا الجديد في السويداء بانتظار السنة الدراسية الجديدة ، وكانت زوجتي

مصممة على أن أتابع دراسة الحقوق أكثر مني ، فقد تذمرت إحدى المرات من الظروف القاسية التي نعانيها والتي لا يمكن معها التفرغ للدراسة فرفضت هي هذا المنطق وقالت : لا أحب هذا التبرير فظروفنا لا نقهرها إلا بسلاح واحد هو إنهاء دراستك ، ولا حجة لك : فحين تكون منصرفاً إلى درسك لن أدع أحداً يزعجك وسأقول لهم أنك لست هنا .

وبالفعل حدث ذلك وتحملنا بعض الانتقادات فالمجتمع الجبلي حينذاك مجتمع عشائري لا يرحم ، ولا يقنع بمنطق الدراسة والانقطاع إلى عمل واجب ، فهو يريد أن يدخل البيوت كل ساعة ، ولا يسمح بأن يقال له : هذه ساعة دروس أو ساعة نوم ، أو ساعة راحة ، يأتيك الزائر ظهراً كما يأتيك عند منتصف الليل ، أو بعيد شروق الشمس ، ولا يحق لك أن تتذمر ، فأنت ملك الناس ولست ملك نفسك ، وليس وقتك ملكك بل ملكهم هم ، وهذا ما يفسر لنا قلة عدد الذين استطاعوا أن ينصرفوا إلى الكتابة والتأليف في الجبل بالنسبة إلى عدد المتعلمين والمتخرجين بالجامعات ، باستثناء الذين قدر لهم أن يهجروا الجبل ويعيشوا خارجه ، وكنت أحياناً ألجأ إلى غرفة الصديق السيد هاني أبو صالح فيعد لي ركوة من القهوة ، ويذهب إلى عمله في مكتبة المعارف فأدرس ساعات في منتهى الهدوء ، تاركاً زوجتي ومعها المرأة العجوز التي كانت تقوم على خدمتنا وهي لبنانية ، كانت قد ربت زوجتي ، وانتقلت معنا من دار عمي ، وظلت لدينا حتى غادرنا السويداء وتوفيت في غيابنا ، رحمها الله .

الفصل الثالث والعشرون

الحرب العالمية الثانية والحقوق والأولاد

أعلنت الحرب العالمية الثانية ذلك الصيف ، وأصبحت الصبغة العسكرية هي السائدة في الحياة اليومية فالجيش الفرنسي تتزايد أعداده وتتنوع فرقه ، وفرنسة عادت إلى مسايرة الوطنيين واعطاء الحكومة الوطنية مقداراً أكبر من حرية التصرف ظاهراً ، والوطنيون اعتقدوا أن مصير بلادهم متوقف على نهاية هذه الحرب فان انتصر المحور فهذه وعود المحور المتدفقة من اذاعاته الموجهة إلى العرب ، وهذا صوت يونس البحري وهو يصرخ (حي العرب) في مطلع كل اذاعة ، وان انتصر الحلفاء فهذه وعودهم بلسان كاترو — وان عادوا إلى المراوغة عدنا إلى النضال وهم سيكونون أضعف على كل حال .

أما أنا فقد اعتبرت الحرب العالمية نوعاً من الفرصة — الهدنة لأنهي دراستي وأضع خططي للمستقبل ، سأكتب للشرق العسكري التي بدأ الأستاذ الشيخ فؤاد حبيش يصدرها مقالات عن عاداتنا الحربية وقصة قصيرة من قصص البادية . وحين كنت أتلقى حوالة بعشر ليرات سورية عن كل مقالة كنت أعتبرني أسعد خلق الله ، فهذه أول مرة أشعر بأن النتاج الفكري له قيمة مالية وان الانسان يمكنه أن يعيش بقلمه لو وضعت الأمور في نصابها الصحيح .

غير أن الفرنسيين – على ما يظهر – كانوا يحسبون لي حساباً آخر – فكأنني من ضمن استعداداتهم الحربية ، وذلك أنني فوجئت أواخر عام ١٩٣٩ بصدور قرار يقضي بنقلي من مديرية المعارف إلى مديرية العدلية كاتباً مترجماً لدى محكمتي البداية والاستئناف اللتين كان يرأس كلاً منهما رئيس فرنسي ومعه قاضيان من أبناء البلاد .

كان النقل تعسفياً لامبرر له إلا الرغبة في إبعادي عن المدارس والطلاب ، ولكني لم أتذمر ، فقد كنت أعرف طريقي ولن يبدل النقل شيئاً من تصميمي على متابعة السير في هذه الطريق (١) . وما دام الأمر الذي لا مرد له قد نفذ ، فلنحاول الافادة من ايجابياته بدلاً من اضاعة الوقت في التذمر من سلبياته ففي جو المحاكم والمحاكمات سأكون في جو الدراسة الحقوقية وفهم النظريات وهي تطبق على الواقع ، وهذا كسب لا يعادله كسب ، لو كنت تخليت عن رسالة التدريس مفضلاً مصلحتي الشخصية لكان في المسألة ما فيها ، أما وقد حصل كل شيء بارادة قاهرة فلا مجال للوم أو الحسرة .

كنا نعيش منذ عام ١٩٣٩ في حالة نكسة انفصالية ، ولا بد لي هنا من ايراد واقعة تتعلق بهذا الموضوع فقد كانت في الغرفة التي عينت لعملي في المحكمة صورة لرئيس الجمهورية المستقيل منذ عام ١٩٣٩ ، بسبب نكول فرنسة عن المعاهدة ، السيد هاشم الأتاسي ، صورة بقيت معلقة لعدم وجود شخص من بلادنا يقبل بازالتها – لعدم ايماننا بالكيان الانفصالي المفروض علينا واعتبارنا السلطة الشرعية هي التي يقيمها الشعب وحده ، وفي أحد الأيام فوجئنا بزيارة المحافظ الممتاز (الامير) حسن

الأطرش وهو الذي حل محل رئيس الجمهورية بالنسبة إلى المحافظة ، وبات يملك حق اصدار العفو ، واصدار قرارات لها قوة القانون — وحينما دخل إلى غرفتي وتفحصها خاطبني وهو ينظر إلى صورة الرئيس الأتاسي ، بقوله (باللغة الفصحى)

— « هذا هنا

فأجبته :

— نعم فهو ما يزال في نظري رئيساً للجمهورية :

وخرج المحافظ ولم يقل شيئاً آخر ، ولم يتخذ أي اجراء ، وبقيت الصورة مكانها . ولا أريد أن أذكر كل الحوادث اليومية فهي عادية جداً ، غير أني أفدت كثيراً من عملي بالمحكمة ، فقد صرت ملماً بجميع الاجراءات (أصول المحاكمة) وبالقوانين المدنية والجزائية وكيفية تطبيقها وتفسيرها — وهذا أفادني في دراسة الحقوق فصرت أتقدم للامتحانات السنوية كل عام .

على الصعيد العائلي : ولد ابني البكر في ١٨ أيار ١٩٤٠ وأسميته عدنان ، وعام ١٩٤١ كانت حركة الفرنسيين الاحرار بقيادة الجنرال ديغول قد أصبحت ذات قوة فاتفق ديغول مع الانكليز على احتلال سورية ولبنان واخراج قوات حكومة فيشي منها .

كان هناك ، إلى جانب العنف الفرنسي ، الدهاء الانكليزي ، ومن عادة الانكليز أن يحاولوا الفتح بالمال قبل السلاح ، فأقاموا لهم معسكراً في الفدين في الأردن وهي قريبة من حدود الجبل ، وراحوا يجذبون الناس ويطوعونهم جنوداً في القطعات الزاحفة أو يعطونهم المال ويعيدونهم إلى الجبل دعاة لهم أو — على الأقل — مواطنين مسالمين قانعين بأن لا فرق

بين فرنسيي فيشي وفرنسيي ديغول ، ما دام الاحتلال مفروضاً على البلاد بالقوة ، وكان (بوفييه) قائد فرنسي فيشي في السويداء يزمجر ويتخذ الاحتياطات للمقاومة ، ورأينا الخنادق تحفر حوالي السويداء والاستحكامات تقام ، وحركة تطويع الجنود من أبناء البلاد قائمة على قدم وساق ، ولعبت المرحومة أسمهان – أملي الأطرش – دوراً بارزاً بهذا الخصوص ، حين حملت الأموال إلى البارزين من أفراد الأسرة بحكم زواجها السابق من الأمير حسن وبدأت المناوشات على الحدود ، واحتل الانكليز مدينة بصرى الواقعة على حدود الجبل وأقاموا فيها مركزاً للتطويع وللدفع من أجل تحييد سكان الجبل في الصدام المقبل بين الزاحفين والمحتلين .

ورأيت بنفسي كيف يتهالك الناس على قبض المال الاجنبي ، بحجة ان هذا المال سيصرف في جميع الاحوال ، ولماذا لا نستفيد منه ؟ وبقيت صامداً مع بضعة أصدقاء كانوا يلتزمون برأيي ، ويفضلون نظرياتي الوطنية القومية ، التي تأنف أن يصبح العربي عميلاً ، وان العمالة ليست لها ، درجات ، بل هي أما تكون أو لا تكون . وقد استشارني كثيرون وأنقذتهم برأيي من السقوط وظلوا يذكرون لي هذا الفضل طوال حياتهم : بينما كثيرون ممن أصبح لهم شأن في مجالات الحياة المختلفة وردوا الحوض الملوث ونهلوا ولكن مجتمعنا الضعيف الذاكرة ، الواسع الضمير ، تناساهم ولم يحاسب أحداً منهم ، كما لم يحاسب أي مواطن على مواقف أشد هولا ، وعلى خيانات أفظع من هذه ، وظلوا يعيشون بيننا في وقاحة لا توصف ، ومجتمعنا العربي الذي لم يقم بواجبه في هذا المضمار ، وما يماثله في الوطن العربي كله دفع ضريبة تقصيره

مرات ومرنت ، ليس يوم الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦١ يوم جريمة الانفصال ، أقلها شأناً أو آخرها رتبة وزماناً . :

ودارت رحى معركة الاحتلال الجديد يخوضها جنود انكليز وفرنسيون ديغوليون ومتطوعة عرب ، واستراليون ، وهنود ، وأفارقة من جهة وجنود فرنسيون فيشيون ومتطوعون عرب ومشارقة ومغاربة وأفارقة وآسيويون من جهة أخرى ، وتعرضت السويداء لعدة غارات جوية ضربت خلالها المواقع العسكرية وبعض المرافق المدنية وكنا مرة نخرج من الدائرة ساعة الغارة فلاحظت أن بعض الموظفين يفقدون رشدهم فيتوجهون إلى الداخل ويصطدمون بالجدران بدلاً من التوجه إلى الخارج واحتفظ بهدوئي وأضحك مما أرى .واقتضت الأحوال المتفاقمة أن أنقل زوجتي وطفلنا إلى بيتنا في عرمان — وهناك شهدنا معركة بين مدفعية قلعة صلخد وإحدى المفارز المتطوعة مع الانكليز ، وكانت قنابل مدفع الميدان البعيد المدى تئز مارة فوقنا وتنفجر في مواقع الخيالة الذين تبعثروا شرقي بلدتنا ، وعدت إلى عملي وحدي ، وبقيت حتى انتهت المعركة بفوز الديغوليين ، ولكن بدا لي أن الحرب كانت تمثيلية أكثر منها حقيقية — فلقد بقي الكثيرون من الضباط الفيشيين بعد احتلال الديغوليين ونقلوا ولاءهم من بيتان إلى ديغول ، وأعلن كاترو زعيم الديغوليين في سورية ولبنان استقلال سورية وزار ديغول البلاد ، ورأيناه لأول مرة حينما زار السويداء وكنا معجبين به وبشجاعته وصموده ايما اعجاب .

وباعلان الاستقلال وتشكيل حكومة جديدة عاد الجبل محافظة ذات استقلال مالي واداري . وعين واحد من أبناء الجبل وزيراً للدفاع ،

وظل وزيراً حتى توفي ونقل جثمانه من دمشق إلى السويداء وبعد وفاته حل أحد أقاربه محله وزيراً للدفاع أيضاً . فأدركنا ، من تسلسل الحوادث ، ان الموافقة على التحاق المحافظة بالعاصمة ، حتى مع الاحتفاظ بالاستقلال الاداري المالي ، كان التحاقاً مشروطاً ، حدد الزعماء مع الفرنسيين شروطه لصالح الزعماء ، وضد الصالح الوطني العام ، كما سيظهر في المستقبل القريب .

كان علي أن أفيد من فترة الهدوء النسبي ، فترة المهادنه ، وانصرف إلى اتمام دراستي فنجحت في السنة الثانية ، وبقيت أمامي سنة واحدة — وفي العام الدراسي ١٩٤١ — ١٩٤٢ قمت بجهد أخير جبار ، فالى جانب دراستي الحقوقية أعددت رسالة للحصول على شهادة خاصة في تاريخ الأدب العربي من معهد الآداب الشرقية في بيروت ، وكان موعد تقديم الامتحان والرسالة خلال شهر أيار ، وكنت الأول بين الطلاب الستة عشر الذين تخرجوا ذلك العام ، وكان موضوع الامتحان (من هو الأديب) وكانت رسالتي مظاهر الأدب في جبل الدروز ، ونجحت في امتحانات الحقوق في موعدها وحملت بعض المواد الشفهية إلى الدورة الثانية في تشرين وحصلت على الاجازة في الحقوق في تشرين الثاني ١٩٤٢

عدت إلى السويداء شخصاً آخر : لم أعد مضطراً إلى البقاء موظفاً ، لقد أمسكت مفتاح السجن بيدي وسألج باب العمل الحر من بابه الواسع — ولم أمكث موظفاً غير شهرين حتى نهاية عام ١٩٤٢ . وحين تقدمت بطلب الاستقالة طلب إلي المحافظ أن أبقى موظفاً على أن أعين قاضياً ، فشكرت له ذلك ، واعتذرت عن عدم امكان القبول ، لأنني صممت على الاشتغال بالمحاماة ، ولأنني لا أريد أن أعين قاضياً حين أرى منصب

القضاء وقفاً على الوجهاء شبه الاميين — وقد أدرك ما في هذا التلميح من غمز ، ولكنه تجاهل ذلك ، وقبل الاستقالة داعياً لي بالتوفيق .

وحين تركت العمل الوظيفي (١) كتبت قصيدة « إلى الحرية » التي نشرت في جريدة الجبل التي أصدرها الاستاذ نجيب حرب ، وقد نشرت في مجموعة غزة — هانوي تشرين التي ذكرتها سابقاً .

(١) صدر قرار الاستقالة في ١٩٤٣/١/٤ وكان الانفكاك صباح ١٩٤٣/١/٥

الفصل الرابع والعشرون

محاماة ـ صحافة ـ وسياسة

أما صدور جريدة الجبل فقد كان أعجوبة بالقياس إلى ما كانت عليه الأحوال العامة من الفقر المادي والتخلف الفكري . ولكن الأستاذ نجيب حرب (الذي توفي رحمه الله ، قبل ظهر ٣٠ حزيران من العام ١٩٧٤ قبل أن أصل إلى هذه النقطة) قد صنع هذه الاعجوبة وكان الوحيد الذي استطاع ذلك في مثل ظروف الجبل تلك الأيام . : وحين أحضرت المطبعة وأعلن عن صدور الجريدة انقسم الناس إلى فئات كما هي حالهم أمام كل جديد :

ـ فئة جاهلة حاسدة تخاف كل مظهر من مظاهر الحضارة ، وتخشى أن يتبدل سلم القيم ، فيحل العلم والثقافة والأدب والعصامية محل الميراث والملكية الزراعية والزعامة العظامية . .

وفئة من شأنها أن تحارب كل جديد وتحاول احباطه وافشاله ، وتظل هكذا حتى يقوم على رجليه ، وعند ذلك ينسون موقفهم السلبي السابق ، ويصفقون للناجح ، وكأنهم كانوا معه منذ البداية ، أو كأن لهم يداً في نجاحه . .

وفئة تقف إلى جانب الجديد متضامنه معه في النجاح أو الفشل ، تضع جهودها في خدمته ، وتوظف له ما تستطيع من أنواع المؤازرة المختلفة ، هذه تتحمل مسؤوليتها وتحاول أن تترجم تفكيرها ومبادئها إلى وقائع وأفعال .

وفئة كانت تساوم : تلوح بالمقاومة وتطلب أن يكون لها محل مرموق على صفحات الجريدة — تكتب في الجريدة اذا أعطيت مكان الصدارة ، ولا تكتب اذا عوملت معاملة اعتيادية .

ودار نقاش بيني وبين بعض الأصدقاء حول هذا الموضوع ، فأعلنت للجميع أنني سأتعاون مع الجريدة إلى أبعد حدود التعاون ، وأسبابي هي التالية :

١ — إنها أول نشرة دورية تصدر في هذه المحافظة وتنقل المقالة والخبر إلى جميع قراه المعزولة عن العالم المحرومة من أبسط وسائل العمران كالكهرباء والراديو والهاتف وسواها . . وهي كذلك ستكون وسيلة لنشر الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي اجمالاً — وعلينا أن نشجعها ونطورها :

٢ — ان صاحبها كان يراسل الصحف الوطنية بدمشق قبل أن يحصل على امتياز اصدارها — فهو اذن ذو تجربة في التعامل مع الجهات الوطنية ولا يعقل أن يتخلى عن خطه الوطني مهما يكن من أمر .

٣ — ان استعداده لنشر مقالات للشبان الوطنيين المعروفين بعدائهم للاستعمار ومحاربتهم للاحتلال يكفينا

٤ — انني لا يمكن أن أترك هذه الفرصة النادرة تفلت مني لاعتبارات نظرية مجردة فلقد أحدثت أثراً كبيراً بما نشرته في المكشوف والصحف

الدمشقية وهي لا توزع في الجبل إلاّ عشرات الأعداد فكيف سيكون الأمر ، بجريدة توزع مئات الأعداد وتدخل إلى أكثر البيوت في قرى الجبل قاطبة ؟

كان قراري بالتعاون مع الجريدة موضع انتقاد عدد غير قليل من الشبان ، ولكنهم ما ان بدؤوا يقرؤون مقالاتي الهادفة حتى تلاشت انتقاداتهم وأدركوا أنني كنت على حق ، وانضموا إلى الصف المتعاون مع الجريدة وأصبحوا من المتحمسين لها ، المدافعين عن وجودها بكل ما يملكون من قوة .

وصدر العدد الأول من الجريدة وعلى صفحته السادسة مقال لي على عمود واحد عنوانه « اسطورة الجبل » يحمل شبه نبوءة بما ستكون عليه حال الجبل ، وقد تحقق كل ما قلته خلال ٣٢ سنة مرت على نشره تنبأت بمستقبل للجبل لامع في عالم الثقافة والعلم والتقدم الحضاري الشامل ، وأنه سيضطلع بدور ريادي حينما تتحول مزايا القوة والشجاعة والاقدام التي يتحلى بها أبناؤه من مضمار الصراع الجسدي إلى مجال النضال الفكري ، وهذا الموضوع ركزت عليه كثيراً في مناسبات مختلفة سيرد ذكر بعضها في ثنايا هذا الكتاب .

وبعد استقالتي من الوظيفة ضاعفت من نشاطي ومؤازرتي للجريدة ، فتعددت مقالاتي المتنوعة المواضيع واختصصت بزاوية عنوانها « حديث المجالس والمضافات » بتوقيع « جهينة » وكانت هذه الزاوية تتضمن نقدات لاذعة وتوجيهات بارعة ، وكانت موضع اهتمام القراء ، وموضع اهتمام الفرنسيين حتى ان استخباراتهم كانت تترجمها وحفظها في ملفاتها السياسية (كما ثبت لنا عندما استولينا على تلك الملفات في ٢٩

أيار ١٩٤٥ كما سيرد في وقته) عن طريق ما صرت انشره في الجبل [illegible] في المكشوف تعرفت إلى صديق عزيز من العراق هو الأستاذ صبيح أنور الغافقي وقد باداني بالكتابة منوهاً بأنه عرفني من خلال كتاباتي ، واستمرت المراسلة بيننا حتى تاريخ كتابة هذه السطور (١٩٧٤) ولن تنقطع ولأنه كان يعمل في جريدة (الزمان) العراقية فقد نشرت مقالات قومية متعددة كان يعطيها الصدارة في تلك الجريدة وكان لتشجيعه إياي ، وتسهيله سبل النشر لمقالاتي فضل كبير لم أنسه له ولن أنساه ، وسوف يتبدل عمله من جريدة إلى جريدة حتى يصدر جريدة « الحارس » الخاصة به ، وانتقل معه بمقالاتي أو قصائدي رفيقاً وفياً لرفيق اريحي مخلص ظلت معرفتي به من خلال المراسلة حتى سعدت برؤيته أول مرة عام ١٩٦٢ في دمشق ، ومرة ثانية في لبنان صيف ١٩٧٤ هذا .

أما استقالتي والعمل في المحاماة فقد ذكرت ظروف الاستقالة وكيفية حصولها ، وفاتني أن أذكر أنني عندما أعلنت نتائج التخرج في الحقوق عام ١٩٤٢ وأخذ للمتخرجين الرسم الجماعي التقليدي ، ذهبت لزيارة السيد « مانيان » في القصر العدلي ببيروت) وكان قد انقطع عن الذهاب إلى السويداء لالغاء المحاكم التي يرأسها فرنسيون بعد انضمام الجبل إلى الوحدة السورية .

وبدأ يرأس المحاكم قضاة سوريون وقبل تخرجي كان رئيس محكمة الاستئناف التي أقوم بكتابة ضبطها القاضي الكبير الأستاذ محمد آقبيق وكان يشجعني كثيراً — ذهبت اذن لزيارة السيد مانيان ، وأخبرته بنجاحي وشكرت له تشجيعه إياي وثقته في يوم كان رئيسي . فهنأني النجاح وقال أنه يتوقع لي مستقبلاً لامعاً ، وقال بالحرف الواحد : « إنني

أعرف امكاناتك وهي كثيرة تضمن لك النجاح ، وان كانت لي من نصيحة فهي أن تكتسب ثقة موكليك ، في بطء وعن جدارة على ألا تفقد تفقد ثقتهم أبداً فيما بعد ، ولم أنس نصيحته هذه طوال عمري

الاستقالة كانت جرأة ومغامرة فلم يكن في السويداء أي محام أستاذ لأتدرب في مكتبه حسب قانون المحاماة ومدة التدرب سنتان : فالمحامون في السويداء كانوا من غير خريجي الحقوق ، كان اسمهم « المأذونين بالمرافعة » أو « المدافعين » وكان هناك أحد الأساتذة في دمشق — ولم أكن بحاجة إلى تدرب من الناحية العملية بسبب اشتغالي في المحاكم ثلاث سنوات كاملة (١٩٤٠—١٩٤٢) إلا أن قانون المحاماة صريح : فلا بد من مرحلة التدرب وكنت طموحاً : فذهبت إلى دمشق لاجراء معاملة القيد بالنقابة ودفع الرسوم وما إلى ذلك ، واستكمالا لهذه المعاملة كان لابد من وثيقة صادرة عن محام استاذ يقبلني للتدرب في مكتبه ويأخذني على مسؤوليته » .

فقصدت مكتب الاستاذين بهجة الشهابي (الامير بهجة) ومحمد الجيرودي وعرضت الموضوع على الأمير بهجة على أساس أنني لن أثقل عليه بشيء ، فعملي سيكون أمام محاكم السويداء وتدربي في مكتبه سيكون نظرياً بحتاً . فرحب بذلك أول الأمر ، ولكنه طرح علي سؤالاً غريباً هو : كيف علاقتك بالأمير حسن الأطرش ؟ ، فقلت له على الفور : « ليس لهذا الأمر علاقة بعمل المحاماة ، ومع ذلك فليس هناك أية علاقة سيئة ، على ما أعلم — بيني وبين الامير حسن » -- فقال « امهلني بالجواب حتى صباح الغد » وعلمت أنه سيرفض -- لأن الأمير حسن كان قد أصبح وزيراً للدفاع بعد وفاة عبد الغفار الأطرش منذ

شهر نيسان ١٩٤٢ م في وزارة حسني البرازي ثم في وزارة جميل الألشي المشكلة في ٨ كانون الثاني ١٩٤٣ ، أي منذ أيام فقط . واستنتجت أن طبقة الامراء أياً كان منشأ اماراتهم تتضامن حتى لو كان أحد أفرادها متخرجاً في الحقوق ومحامياً لامعاً ، وعلى الرغم من ذلك كله فلم أقطع الأمل : وعدت صباح اليوم التالي لآخذ الجواب ـ فكان الجواب عدم القبول

اذن لم تكن الاستشارة (أو الاستخارة (لصالحي : فكان الرفض.

وكان هذا الرفض دافعاً جديداً قوياً يشدد عزيمتي النضالية ، ويشحنني بطاقة جديدة في معركتي مع الاقطاعيين جميعاً .

واتخذت قراري ، بعد استشارة من كنت أثق فيهم من القضاة مثل الأستاذ محمد آقبيق رئيس الاستئناف بأن أراجع الأستاذ محمد وحيد الدين الحكيم . ومالقيته لدى الاستاذ الحكيم من ترحيب وتشجيع وبشاشة أنساني جفاء الآخرين وعنجهيتهم

المهم أنني انطلقت في الحياة قوة جديدة لا يقيد تحركاتها أي اعتبار خارج عن أوامر الضمير والواجب واتخذت لنفسي مكتباً مؤلفاً من غرفة واحدة مقابل دار الحكومة ، والغرفة معدة في الاصل لتكون دكاناً ، وهذه كانت حال كل المكاتب في السويداء ولم يكن من حقي ان أضع لافتة باسمي لأنه كان مفروضاً من الناحية القانونية ، انني اعمل في مكتب الاستاذ وحيد الدين الحكيم في دمشق ، ولكن كان مكاني معروفاً ولم يكن هنالك من حاجة إلى لافتة تدل عليه ، وبدأت أعالج مشاكل الناس . .

ولكنني كنت مقتنعاً بأن أية معالجة فردية لا تصلح أوضاع المنطقة

وأن الاصلاح يجب أن يكون شاملاً ، و ان يتناول بالتغيير كل الأوضاع بالتغيير كل الأوضاع السابقة ، وتصادف أن مباشرتي العمل الحر عام ١٩٤٣ جاءت في وقتها المناسب تماماً ، فوفاة رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني ، أججت من جديد نار الحركة الوطنية التي بدأت تتحرك بقوة في عهد حكومة الالشي وشعر الشعب ان هذا العام هو بداية النضال الحاسم من أجل التحرر والاستقلال الناجز ، وتشكلت حكومة كمقدمة لاجراء انتخابات نيابية عامة . فكان لابد من تنظيم صفوف الشعب في المحافظة ، قدر المستطاع ، ليثبت وجوده في الانتخابات ، فاذا نجح في ارسال ممثلين عنه إلى المجلس كان خيراً ، وإلا فسيكون قد انطلق في طريق حركة شعبية وطنية تسعى إلى تغيير الأوضاع ، واستطاعت هذه الحفنة من الشبان المناضلين أن تبلور بضعة مبادىء رئيسية وتجمع حولها الجماهير الشعبية الواسعة ، كان الاجتماع الكبير الأول في صلخد حيث وضعت النقاط الرئيسية التي أقرت بعد مدة قصيرة في اجتماع شامل عقد في السويداء ، وكانت ولادة « هيئة الشعب الوطنية» التي ستظل في الساحة حتى تقلب الأوضاع رأساً على عقب .

كان ملخص المبادىء التي وضعت بعد دراسة عميقة بعيدة النظر والتي كتبتها بخط يدي في اجتماع صلخد هو التالي :

١ ــ ان الاستقلال الاداري ــ المالي الذي فرضته فرنسة على الجبل واعتبرته (امتيازاً) ليس في الحقيقة سوى الاسم المبتكر للانفصال الجديد ، وقد وضع لمصلحة حكم الزعماء المحتمي بحكم الفرنسيين الممثلين بالمستشار الاداري ، في مركز المحافظة ورئيس الاستخباوات فيها وضباط الاستخبارات في الأقضية (المناطق) وعلى رأس الجميع

ممثل فرنسة في الجبل ــ الحاكم الفعلي ــ المرتبط بالمفوضية العليا في بيروت ، ولذلك يجب أن يكون إلغاء الاستقلال الاداري المالي هو الهدف الأول للحركة الشعبية الوطنية ، وبالغائه تتحقق الوحدة السورية فعلاً ، لا صورة فقط .

٢ ــ إن إلغاء الاستقلال الاداري ــ المالي يجب أن يلازمه مطلب جوهري آخر هو إلغاء جميع القوانين والانظمة التي كانت محافظة الجبل تحكم بموجبها تطبق الانظمة والقوانين السورية بلا استثناء .

٣ ــ ويجب أن يلازم المطلبين الاولين مطلب ثالث يكملهما وهو بالحقيقة نتيجة حتمية لهما ، وهذا المطلب هو تطهير الجهاز الاداري من الموظفين المرتبطين بفرنسة ، واخضاع الموظفين للقانون المطبق في دمشق وبخاصة من حيث شروط التعيين والترفيع ، والنقل والتقاعد وجميع الحقوق والواجبات بحيث ينتهي عهد تعيين الاميين والزلم والاتباع ، الذي كان يوصل من لا يحسن حتى القراءاة والكتابة إلى منصب القضاء أو إلى مديرية التربية والتعليم ، ومديرية المال ، ومديريات الأقضية (قائمقامين) والنواحي وقيادات الدرك والجيش وسواها (كل ذلك باسم العشائرية والمحافظة على العادات والتقاليد .

٤ ــ سيكون من النتائج الحتمية للمطالب الثلاثة الأولى ازالة مظاهر الاقطاع العائلي القديم المتمثلة بحق ايواء المجرمين وحمايتهم ، وحق حمل السلاح واستخدامه ضد الآخرين ، وحق احتكار قروض المصرف الزراعي والمصارف الأخرى دون وفاء وحق التهرب من دفع الضرائب ، ومن دخول السجون مهما يقترفوا من جرائم ، واحتكار المنح الدراسية في الجامعات ، والثانويات الخ . .

ولكثرة ما تلقيت من أسئلة من الجيل الجديد الذي ولد في الاربعينات أو الخمسينات حول الحركة الشعبية في الجبل ، ولكثرة ما اختلق خصومها الاقطاعيون من أكاذيب حولها ، أرى من واجبي أن أنشر هنا منهاجاً ، بشكل بيان صدر عام ١٩٤٤ ، يتضمن كل المعلومات اللازمة عن تكوين هيئة الشعب الوطنية وأهدافها القريبة والبعيدة وعقيدتها وأخلاقياتها وثوريتها ، وقد وجدته لحسن الحظ بين أوراقي وأنشره هنا كما هو ليرى الجيل الذي جاء بعدنا اننا لم نغفل عن شيء من مبادىء وطنية وقومية واجتماعية تقدمية ، فليقرؤوا وليحكموا وليلقموا المتخرصين كل ما في الجبل من حجارة البازلت .

منهاج بشكل بيان :

عندما يقطع المسافرون مسافة من الطريق يقفون ويتساءلون عن المكان الذي وصلوا إليه وعن المسافة التي لا تزال تفصلهم عن الهدف ، وهيئة الشعب الوطنية يجدر بها اليوم أن تبحث على رؤوس الاشهاد مسألة تكوينها والغاية التي تسعى اليها والأعمال التي قامت بها حتى الآن وما بقي عليها أن تعمل حتى تبلغ الغاية التي وجدت من أجلها .

تكوين هيئة الشعب الوطنية :

أما من حيث التكوين فهيئة الشعب الوطنية مجموعة من العاملين في الحقل الوطني في هذه المحافظة ، وأبوابها مفتوحة لكل شخص يريد أن ينضم اليها ويعمل للمصلحة العامة تحت لوائها ، فهي كما يدل اسمها مرآة لهذا الشعب الذي جاهد وضحى وتألم في سبيل التحرير من الاستعمار . وتحقيق وحدة الوطن السوري الشاملة كمقدمة للاتحاد العربي المنتظر . وهي ليست حزباً مغلقاً لأنها إنما تشتغل لكل الشعب ،

والذي يشتغل للكل لايرضى بالبعض. وهي تفتخر بكل أسرة أو شخص أو هيئة سياسية تنضم إليها ولا تحسب أن الذين هم خارجها يعملون ضدها . بل هي ، بالعكس ، تعتقد أن المستقبل سوف يقود جميع من في هذا الجبل للعمل معها ، لأنها إنما تعمل للحق ، والحق أولى أن يتبع أن لم يكن اليوم فغداً ، والمسألة مسألة وقت لا أكثر ولا أقل . ومزية الشمول هذه هي التي جعلت جميع الفئات العاملة من المجاهدين القدماء إلى الشباب القومي العربي ، وإلى زعماء الأسر ، ووجوه المدن والقرى وكرام التجار والفلاحين حتى طلاب المدارس الثانوية والعالية يعملون معها يداً واحدة لما فيه خير هذا الجزء من الوطن السوري العزيز ، هي حزب ائتلافي اذن يضم جميع الهيئات الوطنية أياً كان تكوينها وأهميتها.

غاية هيئة الشعب الوطنية :

أما وقد تكونت هيئة الشعب الوطنية على النحو الذي ذكرنا فما هي الاهداف التي تسعى إلى بلوغها ؟

والمطاليب التي ترمي إلى تحقيقها ؟ لقد ظهر كل هذا في البيانات المتعدد التي أذيعت على الجمهور منذ ما يقرب من السنة ، فهيئة الشعب الوطنية تريد أن يصبح الجبل محافظة سورية تطبق فيها الأنظمة والقوانين السورية ، وتنشأ فيها جميع المنشآت التي تنشأ في محافظات دمشق وحلب وحمص وحماه وحوران ودير الزور وسواها .

تريد أن يطبق الدستور السوري في هذه المحافظة فينعم الجميع بحريات العهد الوطني : الحريات الدستورية المعروفة – حرية القول وحرية الفكر وحرية العمل ، وحرية الاجتماع ، وتأليف الجمعيات الخيرية والسياسية والثقافية ، حتى يساهم الشعب بمجموعه ، في حركة البعث

والتحرر ، والانشاء التي يقوم فيها الشعب السوري وسائر شعوب الأمة العربية . وتريد أن يتقيد الموظفون في المحافظة بالأنظمة والقوانين السورية ، فيصبحوا خاضعين للعزل والنقل والترفيع كما يخضع الموظفون السوريون ، وفق ما تقتضيه مصلحة الوطن العامة ، لا مصالح الموظفين الفردية ، وتريد أن يتساوى الجميع أمام القانون ، وأن يقدر فضل كل انسان وفقاً لما يؤديه للوطن من خدمات وتريد أن تعم النعمة جميع أبناء هذه المحافظة على السواء ، فيتلقى سالجميع العلم ، دون أن يكون فقر البعض حائلاً دون أخذ قسطه من المعارف ، والتي لا يكون بغيرها مواطناً صالحاً ولا انساناً نافعاً ، وتوفر للجميع أسباب العيش الأولية فتمون قراهم بالماء الضروري لحياتهم . بقسم من هذا الماء الذي يتفجر في بيوت كثيرة تعيش في أنانية فاضحة ، وتريد أن يصبح السفر وحركة النقليات شيئاً ميسوراً باصلاح الطرق وتوسيع شبكتها حتى تعم كافة أنحاء المحافظة ، وتريد أن ينال الجميع حقهم في محاكم عادلة ، قضاتها معروفون بالعلم . والنزاهة ، وعدم التحيز . حتى تصبح للقانون هيبته وحتى يقضى على الاجرام والوساطات وحتى يأمن الناس على دمائهم وأموالهم وينصرفوا لأعمالهم اليومية دون تخوف . وتريد بكلمة مختصرة أن تعيش هذه المحافظة وبدوائرها الرسمية وشعبها ، وزراعتها ، وصناعتها ، وتجارتها ، كما تعيش دمشق نفسها ، في صلب الحركة العالمية ، في صلب حياة القرن العشرين لا في حياة القرون الوسطى كما هي الحال .

ومن أجل كل هذا طالبت هيئة الشعب الوطنية بالغاء الاستقلال الاداري المالي حتى يتسنى للحكومة المركزية أن تمد يد الاصلاح والمراقبة

إلى هذه المحافظة ، فتملأ ها علماً وثروة وعدلاً وعمراناً وحتى لا يكون هذا الاستقلال حجة يتذرع بها موظفو المحافظة لمخالفة الانظمة والقوانين السورية ، والسكوت أمام الفقر والجهل والظمأ والتسلح بضيق الميزانية لتبرير عدم القيام بأي مشروع نافع في أية ناحية من نواحي الحياة ،وحتى لا يكون هذا الاستقلال سوراً منيعاً يحتمي به جيش المرتزقة العاجزين الذين لا يؤمنون بالعهد الوطني ولا يخلصون سواء في الحقل الرسمي أو في الحقل الشعبي ، وحتى لايكون هذا الاستقلال من قبيل استقلال الناطور بالكرم يعبث بثمره ويبعثره على هواه دون أن يطالبه أحد بحساب أو يناله أحد بعقاب ، وتحية لفكرة عزيزة على كل وطني مخلص هي فكرة الوحدة الشاملة التي استشهد من أجلها خمسة آلاف من شبان بني معروف الابطال مندفعين بايمان وطني لا يعرف حداً ولا يكترث لعقبة . وازالة لكل اثر من آثار الانفصال التي تذكرنا بالانتداب وأساليبه البغيضة الرامية أبداً إلى التفريق والتهديم . خصوصاً وان هذا الاستقلال الموهوم الذي يجمله البعض فيجعلونه امتيازاً ومكافأة للجبل على تضحياته إنما هو عقبة في طريق تقدم الجبل ، وأمل للاجنبي باستعادة مكانته في البلاد المقطعة الأوصال ، ووصمة عار في جبين الوحدة السورية التي لا يمكن أن نرضى عنها بديلاً . ولكي لا يتحمل الفلاح الجبلي أية زيادة في الضرائب أبدت هيئة الشعب الوطنية طلبها إلغاء الاستقلال المالي الاداري بابقاء الضريبة الزراعية على حالها وهذا هو الامتياز الحقيقي الذي تشمل منفعته جميع سكان الجبل الفقراء ، لا ذلك الاستقلال الذي تقتصر منفعته على فريق من الاستغلاليين الذين يخدمون الاستعمار من حيث يعلمون أو لا يعلمون . ومن حيث لا يعرف الاستعمار ولا تمكنه الظروف العالمية من أن يعرف ويوافق . وليس كثيراً على الحكومة

المركزية أن تمنح الجبل هذا الامتياز الموقت غسلا لربع قرن من الانفصال يخشى أن يكون قد بقي أثره في نفوس الكثيرين ، واعلاناً لأن تحقيق الوحدة الوطنية يستحق أن يضحي في سبيله ببعض المال يعفى منه هؤلاء الفلاحون الذين كانوا دائماً وأبداً جنود الوطن وحماة الاستقلال .

والذين عاشوا من أجل ذلك ، ربع قرن ، من الفقر والشقاء والحرمان .

هذه هي الأهداف التي تعمل لها هيئة الشعب الوطنية ، والتي تفاخر بها وتدرسها علناً على ضوء الشمس ، وعلى مسمع ومرأى من العالم العربي كله . لأن هذه الأهداف تتآلف وأهداف كل قطر عربي يريد أن يسير في موكب الأقطار العربية كلها نحو الوحدة والاستقلال والسيادة ، ونحن نتحدى كل من كانت فكرته مضادة لفكرة هذه الهيئة ان يعلنها في الناس ، وأن يدافع عنها أمام العالم العربي . ونحن مقتنعون سلفاً بأنه لا يستطيع ذلك لأنه مقتنع في قرارة نفسه بأنه على باطل .

ما فعلته هيئة الشعب الوطنية حتى الآن :

أما الأعمال التي قامت بها هيئة الشعب الوطنية فكلكم يعرفها . لقد أيقظت النفوس ، وأفهمت الشعب حقيقة حاله ، وأبلغت المراجع المختصة مطالبها في بيانات متسلسلة وأوجدت في البلاد نهضة ويقظة لا تزال تتسع يوماً بعد يوم ، وقد شملت الأكثرية الساحقة من أبناء هذا الجبل وضمت خيرة زعمائه المخلصين ورجاله المفكرين ، وشبابه العاملين ، وهي سوف لا ينقضي زمن قصير حتى تشمل الشعب كله ، لأن الشعب سيتوصل أخيراً إلى التمييز بين الحق والباطل ومعرفة ما هو صالح وما هو غير صالح . وقد عقدت من أجل هذا اجتماعات كثيرة —

ازدادت فيها الفكرة الوطنية جلاء ووضوحاً والعقيدة القومية عمقاً ومتانة ، والأماني الشعبية تأصلاً وسمواً ، وهي تفخر أمام جميع الناس بأنها لم تتنازل ، وهي تفخر أمام جميع الناس بأنها لم تتنازل يوماً إلى أية نفعية أو أنانية أو انتهازية كانت . ماذا على هيئة الشعب الوطنية أن تفعل بعد :

ولكن المهم ما يزال أمامنا ، المهم الآن بعد أن تكامل جمعنا وتراص بنياننا واتحدت صفوفنا ، أن ننقل قضيتنا من الحقل الجبلي المحلي إلى الحقل المركزي . يجب أن نؤلف وفداً كبيراً يرفع إلى حكومتنا الوطنية وإلى فخامة الزعيم الرئيس السيد شكري القوتلي هذه الاماني المحقة العادلة وأن نقول لاخواننا في دمشق ، نحن نريد ألا يفصل بيننا وبينكم فاصل ، ونحن نريد أن تضعوا مصلحة الوطن العليا فوق كل مصلحة . وأن تضربوا بالاعتبارات المادية والشخصية عرض الحائط ، وأن تكونوا عرباً تفتحون لطالبي ودكم صدوركم ، وتنقذونا من الحالة الشاذة التي أصبحنا فيها ، وتجعلونا نشعر بلذة اللقاء بعد طويل الفراق ، وبنعمة الحرية بعد مرير الاستعباد ، وبراحة النفس بعد مستمر الجهاد ، نريد أن نشارككم سراءكم وضراءكم ، وأن ننهض بمسؤوليات الاستقلال والسيادة وإياكم ، وأن نزيل كل حاجز خلفه الانتداب بيننا وبينكم فاستجيبوا اذن لمطالب هذه النخبة من بقايا السيف لأن هذه المطالب انما تتحقق بتحقيقها أماني الجبل العادلة — ووحدة سورية الشاملة ، والدستور السوري لا ينص على امتيازات ادارية ، مالية تشجع روح الانفصالية والاقليمية في الوطن الواحد ، والحكم اليوم للدستور السوري وحده . لا لما وضع ثم الغي من معاهدات وملحقات واتفاقيات كانت تبنى على

أسس الانتداب وتعترف به وتخدم أغراضه ومآربه فسوريا اليوم جمهورية موحدة مستقلة يجب أن يزال كل فارق بين أحد أجزائها والجزء الآخر. والشعب السوري شعب واحد لا طائفية ولا عنصرية ، وإنما هو ينتمي تاريخياً وفكرياً وأصلاً إلى الأمة العربية الخالدة ، وينتمي جغرافياً إلى هذا الجزء من الهلال الخصيب الذي يكون جزءاً مباركاً من الوطن العربي الأكبر ، وينتمي قومياً إلى العروبة الموحدة الساعية إلى تحقيق ذاتها لتحقيق وحدة أقطارها من جميع الوجوه ، والدستور السوري والقانون السوري والشرع الاسلامي العربي الذي هو أصل لهذا القانون لا تعترف بأية قاعدة للحكم إلا القاعدة الديمقراطية الجمهورية . التي يتساوى فيها الأفراد بحقوقهم وواجباتهم ويمتاز بعضهم على بعض بما يؤدونه لوطنهم وأمتهم من الخدمات والاعمال ، لا بأي اعتبار آخر . فنحن كسوريين وكعرب يجب أن نحارب كل مظهر من مظاهر الاستبداد في أي حقل من حقول الحياة — لأن الأمم المتحدة كلها تحارب الاستبداد والقوة في الحقلين الدولي والقومي ، ونحن من هذه الامم نحارب كل ما يتنافى مع حرية الشعوب وحرية الافراد . ونحن — بهذه الصفةنفسها— نحارب الجشع ونذود عن أموال الشعب ، وحقوق الشعب ، وحريات الشعب ، وحياة الشعب ، فلا نسمح بأن يتعدى عليها أحد البته ،بهذه الأفكار المعقولة المنطقية وبهذه المطالب المحقة العادلة نذهب لمقابلة اركان الحكومة الوطنية الدستورية ونقول لها هذا ما نريد منك تحقيقه لمصلحتك ومصلحتنا ومصلحة الوطن العليا . ونحن لا نقبل لك عذراً لأن الأمر بيدك تستطيعين حله بسهولة إذا استعملت السلطة التي منحك إياها الدستور ومنحتك إياها ثقة الأمة الجماعية الممثلة ببرلمانها .

لا نقبل لك عذراً لأنك أيتها الحكومة الكريمة تساعدين هذه المحافظة

على ما في تكوينها من العيوب بما تقدمينه لها من المساعدات كرواتب الدرك الذين لا يخدمون المصلحة العليا بل يخدمون مآرب رؤسائهم . ولا يأتون عملاً واحداً فيه شجاعة ونزاهة وإلا لكانوا قضوا على المحرمات التي تصنع وتهرب وتباع تحت أبصارهم ، وكغير ذلك من المساعدات التي لولاها لما استطاعت المحافظة أن تعيش يوماً واحداً بمواردها الخاصة ، لانقبل لك عذراً لأن كل هذا يعني أنك تحاربين أنصار الفكرة الوطنية والوحدة الشاملة فاذا كنت تريدين مناصرتنا فعلى الأقل لا تحاربينا وتناصري خصومك وخصومنا . فاذا أجابت الحكومة المطالب كان بها . وإلا فلا بد أنها تعد باجابتها بعد حين ، وعند ذلك نعود لا لننام بل لنبقى على موقفنا الحازم هذا الذي نقفه من السلطات المحلية : لأننا لا نجد طعماً للنوم والراحة ما دام في البلاد كلها رجل واحد أمي وعائلة واحدة جائعة وقرية واحدة ظمأى ، وانسان واحد يشقى ، وامرأة واحدة تتعذب في حر الهاجرة وقر الليالي لتمون أولادها وتكسوهم وتطعمهم وتجلب لهم الماء من الينانيع البعيدة أميالاً وأميالاً ، حياة الشعب قبل حياة الافراد — وراحة الشعب قبل راحة الافراد وسعادة الشعب ونعيمه قبل سعادة الافراد ونعيمهم ، ومصلحة الوطن فوق كل مصلحة — والأمة العربية لن تتأخر عن اعطائنا الحق اليوم أو غداً .

عاش الشعب ، وعاش الوطن . وعاشت الأمة العربية .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

رحيل الوالدة في خضم الأحداث المصيرية

انطلقت الحركة الشعبية في خضم بحر هائج من المصالح المتصارعة ، ففرنسة حريصة على موقع قدمها في الجبل وهي تعتبره ورقتها الرابحة في معركتها من أجل البقاء في سورية كلها كما تقدم والزعامة التي تورطت عام ١٩٣٦ فأبرقت مع أنصارها تطلب بقاء فرنسة حامية للجبل ، والتي استرضيت بهذا النظام (المتصل — المنفصل) حسب تعبيرهم ، تلك الايام ، وبمنصب وزاوي شبه وراثي ، لم تكن لترضى عن الوضع القائم بديلاً ، ولكيلا نترك الشعبيين من الجيل القديم وحدهم في مواجهة هذه القوى قررنا ان نخوض المعركة الانتخابية إلى جانبهم على أن نعلمهم فقط كيف يبقون وحده متماسكة ضد مرشحي الزعامة ، وكان مطلوباً مني ان أصحح تاريخ ولادتي لأن عمر المرشح آنذاك كان يجب ألا يقل عن ثلاثين سنة ، وأنا مسجل من مواليد ١٩١٩ والحقيقة اني مولود عام ١٩١٢ كما تقدم في موضعه . وصححت قيد نفوسي فأصبحت من مواليد ١٩١١ كما هو قيد نفوسي الحالي .

وفيما نحن مهتمون بتنظيم أنفسنا والاعداد لمواجهة كل احتمالات المستقبل ، قامت فرنسة من جهتها بتحرك مضاد : ففي أوائل أيار حدد موعد لزيارة أحد كبار معاوني الجنرال كاترو السيد هلو الذي

سيصبح مفوضاً سامياً بعد شهر من ذلك التاريخ من كبار موظفي المندوبية في دمشق مدنيين وعسكريين . وكان علينا أن نعمل بأقصى سرعة : فالزيارة كانت من أجل جس النبض . من أجل الحصول على تأييدات مشبوهة لفرنسة لأن رائحة نهاية الحرب صارت تشم منذ الآن ، فحرصنا على تنظيم الوفود على أساس الاقضية ، ونجحنا في ان نحصر حق التكلم عن كل وفد بأحد الشبان المثقفين حتى لا يكون الكلام مجرد مجاملة عشائرية — وهكذا تقرر أن يتحدث باسم وفد السويداء الاستاذ حسين عبد الدين أو الاستاذ جميل أبو عسلي ، أو كلاهما ، لم أعد أذكر وليس أمامي جريدة الجبل لأرجع إليها — وباسم وفد شهبة السيد طرودي عامر أو محمد عز الدين أو كلاهما ، وباسم وفد صلخد سعيد أبو الحسن على أن يؤيد ما يقوله عدد من رجال الوفد ، واتفق على نقاط محددة : الاستقلال التام في اطار الوحدة السورية والجلاء الكامل بلا قيد أو شرط. وعدم التدخل في شؤون البلاد الداخلية .

وبدأ استقبال الوفود : السويداء — ثم شهبة ، ثم صلخد ، وحين دخلنا كان هناك هلو وترجمان المفوضية السيد فؤاد رزق ، وأوليفاروجيه ممثل المفوض في السويداء ، والجنرال كوليه المشهور ، بغطرسته وعدائه للحركة الوطنية وعدد من الموظفين المدنيين والعسكريين ، وحين تقدمت للكلام قلت بعربية فصحى لا تقبل التأويل ما خلاصته : « ان هذا الوفد قادم من أقصى الحدود الجنوبية للدولة السورية ، فمطالبة ومشاعره يجب أن تعتبر حدا أدنى لمطالب البلاد كلها ومشاعرها ، إننا نطالب بتحرير بلادنا واستقلالها ووحدتها ، وجلاء الجيوش الاجنبية عنها وعدم التدخل منذ الآن بشؤونها الداخلية ، وأرجو أن يكون مفهوماً أن نتيجة

الحرب الدائرة الآن لا تهمنا إلا بمقدار ما سيكون لها من تأثير في تحقيق حريتنا ووحدتنا وسيادتنا . . »

وانتبهت إلى الترجمة فنقل المترجم قولي هذا حرفياً ، ولكنني لاحظت أن هذه الجملة الأخيرة نزلت على قلوب الفرنسيين نزول الصاعقة ولاسيما أن عدداً من رجال الوفد تقدم فأيد هذا القول ، وكان الفرنسيون يعتقدون بعض هؤلاء من انصارهم .

اذكر أن ذلك كان في الخامس من أيار ١٩٤٣ وقد نجح التنظيم والمقابلة نجاحاً باهراً ، أما بالنسبة إلي فقد كانت تنتظرني مفاجآت :

١ — قرأت أخبار الاستقبالات في جريدة الجبل صباح ٦ أيار فاذا اسمي محذوف من بين أسماء المتكلمين — وأكثر من ذلك كنت قد كتبت مقالاً بعنوان « جبل الشهداء » لمناسبة عيد الشهداء (٦ أيار) فاذا المقال محذوف من ثلاثة أرباع اعداد الجريدة والربع الباقي كان قسم من المقال منشوراً على الصفحة الأولى ومذيلاً بعبارة (البقية على الصفحة الثالثة) إلا أن الصفحة الثالثة كانت خالية من تتمة المقال ، فاستغربت ذلك ، وسألت الاستاذ نجيب حرب فقال : « لقد صدرت أوامر الجنرال كوليه ، بحذف اسمك من عداد أسماء المتكلمين باسم الوفود وبحذفه من الجريدة على الاطلاق — ولكن الاعداد التي طبعت صفحتاها الأولى والرابعة قبل وصول الأوامر ، لم يكن من الجائز اتلافها بسبب غلاء الورق وتكاليف الاعادة ، فصدر المقال مبتوراً في قسم من الأعداد وحذف كله من الأعداد الأخرى ، وحرصت الجريدة على توزيع الأعداد ذات المقال المبتور داخل المحافظة وأرسلت الباقي إلى مشتركيها وقرائها في الخارج .

هذا التدبير الصادر عن استعماري طاغية يشرفني ، لأنه يدل على أنني مخيف بالنسبة اليه وأن رأيي له وزنه ، وفي ٧ أيار ١٩٤٣ كتبت الأبيات التالية تحت عنوان « إلى قلمي . . » مع هذه المقدمة القصيرة » منعت الجرائد من نشر أي مقال باسمي ومن نشر اسمي لأية مناسبة فقلت مخاطباً قلمي :

طويتك في نقمة الثائر
ومثل احتضار الهوى العاثر

وكنت الوفي وكنت الصبو
ر وتعزية الخاطر الحائر

فجاروا علي وجرت عليك
ولست وحقك بالجائر

ونحن على موعد شائق
نعود ونوقع بالغادر

فلست لأنساك يا صاحبي
وأنت المجسم في خاطري

وأنت الحبيب وأنت الرجاء
وأنت السلاح لذا الثائر

وأنت الغناء لقلبي الطروب
وأنت الجناح لذا الطائر

وأنت الربيع بقحط الحياة
وأنت الجمال لذا الناظر

لنـا عـودة والفضـاء فسـيح
يـرحـب بالشـاعـر النـاثـر

وكـل الأنـام لـنـا مسـعـف
فـلا تكـترث للـهـوا العـابـر

وقبل ذلك وفي ٢١ نيسان كان قد صدر لي مقال بعنوان «النائب» الذي نريده ، ـــ أردت أن أبلور أفكاراً رئيسية (مفاتيح) أجمع حولها الأفكار والأشخاص لخوض معركة على أساسها وتلقيت بالنهار ذاته زيارة السادة : شفيق القاضي وحسين مرشد ، وحسين عبد الدين ، جاؤوا يهنئوني بالمقال ويبحثون معي شؤون الانتخابات .

ولا بد لي هنا من وقفة مع الهموم الخاصة ، فقد كان ما يزال علينا ضرائب نؤديها للمجتمع المريض المتخلف الذي ورثناه ، فلم يكن يكفي أن يموت والدي وقد قصمت ظهره المصائب المتلاحقة لم يكن يكفي ذلك ، بل كان دور والدتي قد جاء : كانت أمي من هذا النوع الرقيق المتدفق عاطفة وطيبة ، جارت عليها الحياة بعد أن أغدقت عليها النعم بحبوحة ، وأولاد ، وزوج موفق ناجح ، له مكانة مرموقة في المجتمع ، مشهور بالأخلاق العالية ـــ فكان من الصعب أن تصمد طويلاً لاختلال التوازن الفادح بين ما كانت عليه ، وما صارت إليه ـــ فقدت زوجها وهو في عنفوان الشباب ، وعرفت معنى الحاجة التي تدفع أولادها إلى البحث عن عمل خارج البلدة وهي كانت تحلم بأن تظل العائلة كلها في البيت ، كما كانت قبل الثورة ، ولكن ما كانت تطمع فيه كان مستحيلاً ـــ فالموارد التي كانت تكفي الأولاد صغاراً ، لم تعد تكفيهم كباراً ، وقد صار لبعضهم عائلة أخرى ، ورأت حواليها من الحوادث مالا يطاق :

فاذا هي تصاب بالشلل(الفالج) وأتلقى هاتفاً من صلخد بعد ظهر ١٧ نيسان ١٩٤٣ م فأسرع وزوجتي وطفلينا إلى عرمان ، كان ابني الثاني قد ولد صبيحة ٥ نيسان ١٩٤٢ وأسميناه « معن » وكانت والدتي قد رأته عندنا في السويداء وعندها في عرمان ، وحين دخلنا على والدتي وهي عاجزة عن الكلام والحركة شق علينا الأمر ، ولم ندر ماذا نصنع ، وكان الأخ الدكتور حسين أبو الحسن ، يعمل في صلخد فحضر وعاينها ، وأسعفها وأفهمني انها اذا لم تعد إلى حالتها الطبيعية خلال ٤٨ ــ ساعة فان عودتها ستكون شبه مستحيلة ، وما علينا إلا الاعتناء بها ومواجهة الأمر الواقع بالشجاعة والرضا والتسليم ، وفي ٢٣ أيار ١٩٤٣ توفيت أمي ، رحمها الله ، وأقمنا لها مأتماً ذلك اليوم ، ودفناها إلى جانب المرحوم والدي ، وأقمنا لها مأتماً اسبوعياً يوم الجمعة ٢٨ أيار ، وبعد الاسبوع عدنا إلى السويداء ويلاحظ هنا أنني جعلت الاسبوع يوم الجمعة وقبل مضي سبعة أيام على الوفاة لكي يصادف يوم عطلة تسهيلاً على الأصدقاء القادمين للتعزية من موظفين ومحامين وعمال وتجار ، وفي هذا تجديد بين في تلك الأيام .

وقد لقيت من المؤاساة ، مالم يخطر لي ببال ، وكانت والدتي كما أسلفت تحبني على نحو نادر ، وأحبت زوجتي وولدي على هذا النحو أيضاً ، فالى ذكراها العطرة أوجه الآن بعد أكثر من ٣١ عاماً على وفاتها ، أزكى التحيات وأصدق الوفاء وأعمق آيات العرفان والمحبة البنوية اللامتناهية :

هذه السنة كانت حافلة بحوادث ونشاطات مختلفة ، فعلى الصعيد السياسي الوطني كانت سنة انتخابات نيابية وانتخاب رئيس جمهورية وصراع سياسي ، محلي ــ وعلى الصعيد القومي حدثت معركة استقلال

لبنان بين الحكومة الوطنية والسلطة الفرنسية وكان لهذه المعركة انعكاس على السياسة السورية .

بالنسبة إلى الانتخابات كان يهمني أن نواجهها — نحن الشعبيين — بمرشح واحد ، وهذا من شأنه أن يوحد القوى ، ويعطي المرشح فرصاً أكثر للنجاح ، فبدلاً من تبديد الأصوات بين مرشحين يزعمون أنهم ينتمون إلى صف شعبي واحد ، يقابله صف الزعامة الموحد بطبيعة تكوينه ، يصبح لنا مرشح واحد ولهم مرشح واحد — وبما أننا أكثرية فستكون الغلبة لنا ، ولكن هنالك نقطة ضعف شكلية حاسمة لم نختبر مدى خطورتها إلا بعد التجربة : هذه النقطة هي الانتخابات غير المباشرة ، على درجتين ، كان الناخبون من الذكور البالغين السن القانونية يختارون ممثلين عنهم يدعون ناخبين ثانويين بمعدل ناخب ثانوي واحد لكل مائة ناخب أولي — والناخبون الثانويون هم الذين كانوا ينتخبون النواب — وبما أنه كان يشترط في الناخب الثانوي أن يكون ممن يدفعون ضريبة عقارية محددة — لها حد أدنى — فذلك يعني أن جميع الناخبين الثانويين ، كانوا من الملاكين المتوسطين والكبار وأنهم ، والحالة هذه ، أقرب إلى المحافظين منهم إلى التقدميين ، وبما أن الارتباطات العائلية والتجمعات القروية كانت تلعب دورها في اختيار الناخبين الثانويين فهذا يعني أن الزعيم المتمول كان في مقدوره أن يلعب ويتلاعب ويطبق ويشتري ، ومع ذلك كان توحيد المرشح الشعبي ومن ورائه الصف الشعبي ، خطوة ضرورية بانتظار الفرصة المؤاتية لتعديل قانون الانتخاب عبر حركة تقوم بها الفئات التقدمية على مستوى الدولة كلها .

وقد توصلنا في قضاء صلخد إلى توحيد المرشح ، وذلك بأن تقدمت

بطلب سحب ترشيحي لأكون قدوة للمرشحين الآخرين ، واتفقنا على أن يكون المرشح الشعبي الوحيد هو السيد حسن الشومري ، وقد استاء الشباب ، وبخاصة الطلاب ، من هذا التصرف وأبلغوني أنهم كانوا يفضلون بقائي ، ولو لم أنل أي صوت ، لأن القضية قضية مبدأ ، ولا يجوز أن نقبل بحلول وسط ، فأقنعتهم بأن المرحلة التي يتحدثون عنها لم تأت بعد ، وأننا مازلنا في مرحلة الكفاح ضد الاستعمار ، الذي يقتضينا المحافظة على أكبر قسط من الوحدة الوطنية . داخل الصف الشعبي —ولو أخذنا برأي الشباب لكان يجب أن نبدأ عملية فرز مبكرة لن تبقى حوالينا إلا عدداً قليلاً جداً ، وهذا ما كان الفرنسيون — يسعون إليه — المهم — مع الأسف — ان تدابيرنا فشلت اذ جرت تسويات لم ندرك أسرارها وفحواها أدت إلى تنازل مرشحنا الوحيد لصالح السيد علي مصطفى الأطرش ، مرشح الاطارشة ، المحسوب على الوطنيين في مرحلة ماضية والأرجح أن ذلك تم بمسعى من سلطان الذي توسط لدى حسن الشومري وأقنعه بالانسحاب بلغة الوساطة العشائرية التي تبدأ بكلمات ومجاملات وتنتهي بتنازلات بلا حساب ولا مسؤولية .

وكانت تجربة ابتلعناها وسنفيد منها في المستقبل ، المهم أن نواب الاطارشة نجحوا جميعاً ومعهم نائب من آل عامر ، ونائب عن المسيحيين هو السيد عقلة القطامي ، أبو موسى .

هناك حادثة لابد من ايرادها جرت في مرحلة الترشيح ، سرت شائعة تقول ان الفرنسيين سيتدخلون تدخلاً مسلحاً اذا لزم الأمر لصالح الاطارشة ، وان على المرشحين الشعبيين أن يعدوا للعشرة قبل أن يقدموا على مغامرة الترشيح . وأردنا أن نجس نبض الفرنسيين — فطلبنا مقابلة

أوليغا روجيه ممثل المندوب السامي في الجبل (والذي سيصبح مندوباً في دمشق وسفاحاً لدمشق عام ١٩٤٥) : وذهبنا حسين عبد الدين وأنا في الموعد إلى داره فاستقبلنا في بشاشة ظاهرة ولكنه حدثنا في صراحة وحسم بالغين : وقد دار بيننا وبينه الحوار التالي على وجه التقريب (باللغة الفرنسية) :

— لقد عزمنا على ترشيح أنفسنا للانتخابات وجئنا نسأل عن موقفكم من هذه الانتخابات بين التدخل والحياد ، وبخاصة التدخل المسلح كما بلغنا :

— أرى أنكم مستعجلون أكثر مما يجب ، فما يزال الوقت مبكراً جداً بالنسبة اليكم — نحن لن نتدخل — ولكننا في الوقت نفسه لا نسمح لأمثالكم بالوصول إلى المجلس النيابي في هذه الفترة .

خاطبتموني بصراحة وأنا أريد أن أكون معكم في منتهى الصراحة ، نحن لا يوافقنا أن يذهب إلى البرلمان غير الزعماء ، في هذه المرحلة التي ستتبلور فيها الأوضاع في سورية ، الزعماء لن يكونوا آلة طيعة في أيدي (السوريين) فبين الفريقين مصالح متناقضة وتزاحم على نفوذ ومناصب ، أما أنتم فلن تكونوا إلا في صف (الوطنيين السوريين) لأنكم مثلهم هواة وحدة ، واستقلال ، ومصالحكم متفقة مع مصالحهم ، لهذا أنصح لكم بالعدول عن فكرة ترشيح أنفسكم لأنكم لن تنجحوا :

— لا يهمنا أن ننجح أو لا ننجح — ما يهمنا هو أن تدور المعركة الانتخابية في جو من الهدوء والحياد اوأن تضمن الحرية للناخبين .

— اطمئنوا إلى ذلك ، في حدود الاطار الذي وصفته لكم .

وودعناه ، وخرجنا وقد فهمنا خلال هذه المقابلة القصيرة عن

ارتباط مصالح الاقطاع والاستعمار أكثر مما فهمناه خلال الدراسات الماضية كلها .

كانت أعمالي في المحاماة تسير سيراً جيداً ، وقدتركزت في مكتبي دعاوي المظلومين من كل الفئات ، وعلى الخصوص الدعاوي المتكونه بين أفراد من الشعب والزعماء :

لم يمض سوى بضعة أشهر على بدايةممارستي المحاماة حتى صرت معروفاً بأنني المحامي « الشعبي » المختص بلون معين من القضايا : القضايا ذات اللون السياسي ، أنا فيها وكيل الطرف الشعبي ضد الطرف الزعامي أو الاقطاعي ، أو الرأسمالي ، القضايا التي فيها امرأة فأنا فيها وكيل المرأة ضد الرجل ، وهذا في مجتمع بدائي عشائري (مجتمع الرجال) له مغزى كبير وتأثير بالغ ، الدعاوي التي فيها قرصنة أو قطع طريق أو اعتداء على الحياة من أجل المال ، كنت فيها وكبل المعتدى عليهم — ولم أكن أسأل عن الاتعاب ، حينما تكون القضية ذات تأثير معنوي كبير ، فالتطوع لدي هو القاعدة ، في مثل هذه الظروف ، فأنا محامي مبادىء لا محامي فلوس ، وحين تعرض قضية يكون فيها المعتدي أو المعتدون من الجبل والمعتدى عليه أو عليهم من خارج الجبل فلم أكن أتردد لحظة واحدة في التطوع للدفاع عن الغريب المعتدى عليه حتى أزيل من أذهان الناس أياً كانوا ، أن أهل الجبل يتضامنون ، حتى في الشر والباطل ، وهذا ما حدث حين تطوعت في قضية أهل « منين » القريبة من دمشق ، يوم أقدم بعض المجرمين من إحدى قرى الجبل على نتلهم وسلبهم ، ما معهم من بضاعة — لقد طالبت برؤوس القتلة ، وأعدموا فعلاً ، وقد شده الناس في دمشق ، وخارجها ، أن يمضي محام متطوع في هذه القضية حتى النهاية ، وأن يقف مع أهل المغدورين حتى

يشنق المعتدون وهم من أبناء منطقته وترتاح قلوب ورثة المقتولين وهم من خارج منطقته ، ولا يعرفهم ولا يعرفونه ولم يتقاض منهم أية أتعاب لكن الرأي العام في الجبل كان كله إلى جانبي في هذه القضية ، لأنني كنت خبيراً بأعماق النفوس في مجتمع بني معروف : فهم ضد الظلم والاعتداء أياً كان مصدرهما ، ولا ينصرون أخاهم ، الظالم إلا ليردوه عن ظلمه ، تماماً كما ورد في الحديث النبوي .

ولكني لم أكن متعصباً تعصباً أعمى فاذا كانت هناك قضية بين فريقين من الزعماء أحدهما محق وضعيف ، فكنت أقف إلى جانب هذا الأخير ، وأشعر أنني منسجم مع نفسي ومواقفي المبدئية .

وقفت مع شعبيين مسيحيين ضد متنفذين منهم ، ومع فلاحين من أية طائفة ضد زعماء محليين ، وما كان يفوتني من مال كنت أربح مقابله على الصعيد المعنوي ، مالا يقاس بأموال الدنيا ، الثقةوالتقدير والمحبة الخالصة.

وحين نجح النواب وكلهم منالزعماء ، كان ذلك يعني أن حملي صار ثقيلاً جداً ، فلقد كانوا يضعون ثقلهم السياسي والاجتماعي والمالي ضدي ولكني كنت ازداد إيماناً بالحق وتصميماً على متابعة الكفاح في سبيله — وكانالقضاة القادمون من دمشق أو الذيندخلواالقضاء من العاملين في الجبل عام ١٩٤٢ موضع كل ثقة واعتزاز — كنت واثقاً أنهم لن يرضخوا لتهديد ولا لاغراء ولا لنفوذ ، وهذا ما جرى فعلاً فيما يلي من السنين حين حكم لموكلي صالح عزيز ضد خصومه الاطارشة ، وكذلك حين حكم لموكلي من آل البشارة ضد خصمهم عقله القطامي الذي كان وكيله الأستاذ سعيد الغزي وهو أحد أكبر محامي دمشق ، وأحد أشهر رجالاتها السياسيين .

بدهي أنني لا أكتب تاريخاً للوقائع فقد تجيء الحوادث التي أذكرها هنا حسب تسلسلها الزمني ، وقد تجيء حسب ترتيبها الذهني ، أو حسب تداعيها الذهني على الأصح — فاذا تضاربت تاريخاً مع الاخبار المنشورة عنها في صحف تلك الايام فلا يستغربن القارىء ذلك لأنني أعني بذكريات شخصية ، تدور حول علاقتي بالحدث الذي شهدته ، والذي كان لي فيه كلمة أقولها أو دور أقوم به .

حينما بدأت عملي محامياً ، كان علي — ما دمت عازماً على العمل السياسي وخوض المعارك الانتخابية على نحو جديد ، أن أزيل من الاذهان ما كان عالقاً بها من سوء الظن بالمحامي بصورة عامة ، كان المحامي في المجتمع القديم ، هو ذلك الرجل الذي رأسماله الكلام ، وبالكلام يزيف كل شيء ، يجعل من الباطل حقاً ومن الحق باطلاً ، كما يبرز الكذب حقيقة ، والحقيقة كذباً ، وأنه من أجل مصلحته يضحي جميع الناس ، وقد انتشرت في المجتمع الجبلي اسطورة تقول : ان بدوياً كان في المحكمة بصدد قضية وكان خصمه قد وكل محامياً ، وحين أخذ المحامي يترافع ويطيل الكلام ويفند دعوى خصمه صرخ البدوي مخاطباً رئيس المحكمة :

« اقهر (تريث) ياسيدي الرئيس ، حتى أذهب إلى السوق وأحضر لي كذوباً مثل هذا الكذوب » .

لم أكن مستعداً لأن أبدأ حياتي الجديدة ، وحكم الجمهور علي هو حكم هذا البدوي على محامي خصمه — ولذلك رتبت أموري ودعوت إلى محاضرة ألقيتها بعنوان « المحامي » وعرفت فيها المستمعين إلى المحامي الحقيقي من هو ، ما هي درجته العلمية ، وما هو عمله ، ما هي

رسالته لأنه صاحب رسالة لا مهنة ، وما هو دوره في علاقته مع الافراد ومع المجتمع ، ثم ما هو دوره السياسي في النضال ضد الاستعمار ومن أجل الاستقلال والسيادة ، وسردت أسماء محامين بارزين عرب وأجانب ، مشيراً إلى أفراح المحامي وآلامه لمشاركته الناس في أفراحهم وتأثره بآلامهم ، وأنه شخص ممتاز ، رقيق ، يستحق محبتهم ، واحترامهم ، ويستحق شكرهم حتى ليثقل على نفسه نكران الجميل . وجحود الفضل والمعروف ، ولقد كان لهذه المحاضرة التي استمع اليها المحافظ والقضاة وكبار الموظفين ونخبة من رجالات المجتمع أثر طيب وحاسم ، بحيث انقلب الرأي العام تماماً (أتيح لي نشر المحاضرة في مجلة الخابور ستة ١٩٥٥ — ولا أذكر هل نشرت في جريدة الجبل أم لم تنشر) ، وكنت قد ألقيت أكثر من محاضرة في مواضيع مختلفة : الشعر الشعبي في الجبل — دراسة الأرض الاميرية وتاريخها من الشيوع إلى الاختصاص ، وقد ألقيت هذه المحاضرة الأخيرة حينما قرر أهالي مدينة السويداء اقتسام أراضي ضهر الجبل لغرسها كروماً وبساتين : فقد انقسم الرأي العام بين أخذ المواطن — كفرد — أساساً للاستحقاق ، أو أخذ المواطن — كمالك سابق لحصة معينة ، من الأرض ، والفرق شاسع بين الرأيين— فحسب الرأي الأول ينال كل مواطن سهماً من الأرض ، الشائعة التي ستقسم بعد تحديد المساحة وقسمتها على عدد المواطنين . أما حسب الرأي الثاني فتقسم الأرض ذاتها على المالكين القدامى بنسبة أملاكهم : أي ثلاثة أسهم لمن يملك ثلاثة فدادين من الأرض القديمة ، وعشرة لمن يملك عشرة وواحد لمن يملك واحداً ، ونصف سهم لمن يملك نصف فدان ، ولا شيء لمن لا يملك شيئاً ، وباعتبار ان الزعماء القدامى (الاطارشة) يملكون ثمن أراضي السويداء القديمة (١/٨) فمن حقهم أن يملكوا ١/٨

من الأراضي الجديدة ، هم وحدهم على قلة عددهم ، ويملك ال٨/٧ بقيةالملاكين ، ويحرم من الملك العدد الأكبر من المواطنين الذين لم يكن لهم ملك سابق ، لأنهم هاجروا إلى السويداء بعد الحركة (الثورة (العامية التي أدت إلى تمليك الأرض للفلاحين الموجودين آنذاك مع إبقاء حصة الاطارشة تقدر بثمن الأرض باعتبار أنهم كانوا يملكون كل الأرض قبل الثورة العامية ١٨٨٧ — ١٨٨٨ — وقد أبقت الثورة العامية ربع : الأرض — بصورة استثنائية لشيخ عرى وحده مقابل ما زعمه ، في ازدواجية نموذجية ، من مناصرة الثائرين (وشعر شبلي الاطرش يثبت العكس) ، ومقابل ما يتحمله بيته من نفقات تفترضها صلاته بالدولة والعشائر المجاورة (ضرائب غير مرتقبة ضيافات ، نفقات حرب الخ(وفي محاضرتي دافعت عن حق جميع المواطنين في تملك الأرض الجديدة، على أساس المساواة بين الجميع ، وأن يشترك في ذلك الرجال والنساء ، ومن جملة الأسس التي رأيتهامبررة لهذا الرأي اشتراك الجميع في الدفاع عن الأرض ، ولولا هذا الدفاع الشعبي العام لما بقيت الأرض المملوكة قديماً ، ولا الأرض الشائعة التي ستقتسم الآن — وما دامت الثورة العامة قد أخذت بهذا المبدأ حين قامت فلا بد من النسج على منوالها مع استبعاد الامتياز التصالحي الذي تركته العامية للمالكين القدامى ، لأن هذا الامتياز لم يبق له من مبرر بعد انتشار مبادىء العدالة والمساواة ، وتقديس المواطن كفرد ، لا كسليل عائلة أو كوريث ، ألقاب أو حقوق مزعومة ، وألقيت نظرة على المستقبل حيث سنرى الفلاح يقيم بيته فوق أرضه (مزرعة ويعيش متمتعاً بشيء من الراحة والاستقرار بعد القرون الطويلة من الكفاح والكدح والشقاء والجوع والظمأ والحرمان .

يوم ألقيت هذه المحاضرة كان توفيق الأطرش مديراً للمعارف

والداخلية في المحافظة الممتازة ، وكان الأمير حسن محافظاً ممتازاً ، وقد ألقيتها بالعربية والفرنسية لرغبة الفرنسيين في الاستماع إليها — وكنت قد أخذت موافقة مدير التربية والداخلية على النص عملاً بأنظمة الطوارىء التي كانت سائدة أيام الحرب . وقوبلت المحاضرة بالتصفيق الحاد والتأييد لما ورد فيها ولكن . .

ولكن المحافظ ثار واستشاط غضباً وأرسل رئيس ديوانه الأستاذ خليل خضر يطلب مني نص المحاضرة المخطوط ، فأعطيته إياه ، وبعد يومين إعاده إلي (مقطعاً بالمقص) وأقسم لي يومها —رحمه الله — ان حسن استعمل المقص هو بذاته لاقتطاع الفقرات التي آلمته ، أي كل الفقرات المؤيدة للشعب وأرسل يقول لي . « هل تعتقد أنني سأسمح بقيام نظام مزارعك هذه ، حتى إذا احتجت إلى استنفار الناس اضطررت إلى الطواف على المزارع مزرعة مزرعة ؟ »

فأرسلت إليه الجواب الشفهي التالي « ان الفلاحين لهم دور آخر في الحياة ، فهم لم يخلقوا لأجل أن تستنفرهم متى شئت ، وتفك استنفارهم متى شئت . ومن يعش ير . وأضفت : إذا كنت تعتقد أن مقصك سيقضي على تفكيري فأنت واهم — ولو أنك تقرأ لكنت عرفت هذا من قراءة ، بيتين مشهورين لابن حزم الاندلسي . . وكنت أقصد البيتين التاليين لابن حزم :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل ان انزل ويدفن في قبري

المهم أن المبدأ الشعبي انتصر وقسمت الأراضي بين الجميع مقتصراً على الذكور فقط ، وغضب الاطارشة فلم يستعملوا نصيبهم من الأرض ، وتحول ضهر الجبل إلى كروم وبساتين فيها ألذ الاعناب والفواكه . وأجملها ، وعاد بعض الاطارشة) بعد الستينات) يشتري أرضاً لينشيء فيها مزارع وبساتين لعله يلحق بركب الفلاحين . .

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٣ غدرت السلطات الفرنسية في لبنان بالحكومة الوطنية هناك وأسرت رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبعض الوزراء في قلعة راشيا ، وانتفض الشعب في لبنان فحمل السلاح وبدأ يقاتل الفرنسيين ، عند ذاك هبت سورية كلها تندد بالعمل الغادر ونزل الشعب إلى الشوارع يتظاهر ويعلن تأييده لأشقائه اللبنانيين — وكان من الطبيعي أن يحدث في محافظة الجبل ما يحدث في سائر المحافظات السورية . ولكن الوقائع أثبتت أن الحاكمين في الجبل لا يريدون هذه المشاركة لا بل يخافونها ويحاربونها . ولم نكن نتصور أن العمالة تصل إلى هذا الحد : فحين نزلت فئات الشعب إلى الشارع وأكثرها من المعلمين والطلاب وسائر المثقفين والشباب ، من الذي تصدى لقمع التظاهرة؟ قائد درك المحافظة ابن العائلة المتزعمة فيه هو الذي تنطع لعملية القمع ، وحدث اشتباك بين المتظاهرين والدرك نتج عنه جرح عدد من رجال الدرك وأصيب القائد بشجة في رأسه . فطار صوابه وعاد إلى مكتبه والدم يغطي وجهه — وهناك حدث المشهد التالي ، كما وصفه دركي كان يعمل في المكتب :

القائد يأخذ سماعة الهاتف ويطلب المحافظ ، ثم يبدأ الحوار التالي :

— القائد : ولك يا فلان ، هذي نتيجة حكمك الرخو . أنا فلان بن فلان أضرب وأجرح وأهان في عهدك . ؟

المحافظ : . . . .

القائد : — (ينسى نفسه فيضع السماعة إلى جانب الجهاز ويستمر في الحديث وهو يذرع الغرفة غاضباً متوتر الأعصاب) : هذي آخرتها معكم مكنتم كلاب الزمان من التطاول علينا ؟ سأخربها فوق رؤوسكم ..

كانت التظاهرة وجرح قائد الدرك بمثابة الكاشف الذي يبين حقيقة المعدن بلا تزييف ولا تمويه : كان موقف السلطات الحاكمة في المحافظة وبخاصة قوات الأمن فضيحة مخجلة ، إذ جعلت هؤلاء الناس يظهرون على حقيقتهم ، وحدهم وقفوا إلى جانب السلطات الفرنسية المعتدية على الحكومة الوطنية الشرعية ، لقد جردوا من ثيابهم تماماً لاسيما أن قائد المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين في لبنان (بشامون) كان الأمير مجيد ارسلان — فلم يكن للزعامة الجبلية حتى العذر المستمد أحياناً من ادعاء تنسيق موقفها مع الزعامة الطائفية في لبنان : هذا الموقف المخزي جعلهم يبحثون عن منفذ ينفثون به سمهم ويظهرون من خلاله بمظهر السلطة التي لها قوام : وكانوا بذلك كمن غرق في حمأة كلما أراد أن ينتشل نفسه شبراً غرق عدة أشبار : بحثوا عن ضحايا فلم يجدوا أفضل من الفتك بشباب العروبة الذي ارتفع صوته منذ شهر أيلول ١٩٤٣ ولذلك قصة :

كنا منذ شهر أيلول اتفقنا على وضع برنامج اصلاحي طويل الأمد حددنا فيه مطالب الشعب في المحافظة (لمناسبة عودتها محافظة من المحافظات السورية — وان تكن ذات استقلال (اداري — مالي) ، وقد دفعنا إلى ذلك ما لاحظناه من هشاشة الجهاز الاداري والقضائي في المحافظة أمام الأحداث الخطيرة التي بدأت تطل برأسها — فحين كانت

المشاورات في العاصمة دائرة لتشكيل حكومة جديدة بعد الانتخابات ، فوجئنا بنواب الجبل وهم من ذكرنا ، يغادرون المجلس النيابي ويحضرون إلى السويداء غاضبين حاقدين بقصد تهييج الرأي العام والتلويح بعودة الجبل إلى حالة الانفصال القديمة بحجة أن الحكومة المركزية تهضم حقوق الجبل بعدم اسنادها منصب وزير الدفاع باستمرار إلى أحد أبنائه – وزارة شبه وراثية ارادوها – وقميص عثمان أرادوها لتعميق التناقضات بين دمشق والجبل . وفي الاجتماع الشعبي الحاشد الذي دعوا إليه أمام مضافتهم في السويداء ، سمع الناس كلاماً جاهلياً وخطباً عكاظية ، أسهم فيها الجميع ابتداء من (السيف أصدق أنباء من الكتب) إلى (لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم) إلى ضرورة الحفاظ على (الكرامة) إلى . . إلى . .

في تلك الساعة السوداء ، بل تلك الردة الهوجاء، وقف أربعة شبان موقفاً آخر : لقد توجه هؤلاء الأربعة وهم : جدعان أبو عسلي وحسين عبد الدين وهاني أبو صالح وسعيد أبو الحسن ، إلى مديرية البريد والبرق والهاتف وطلبوا إلى مدير البريد أن يرسل باسمهم برقية إلى رئاسة الجمهورية ورئاسةمجلس الوزراء ورئاسة مجلس النواب وعدد من الصحف الوطنية تحمل استنكاراً الموقعين الذين يمثلون قطاعاً شعبياً واسعاً لهذا الموقف الانفصالي ، وهذا الخلاف المفتعل مبينين غايته وأبعاده ، وتردد مدير البريد أول الأمر، إلا أن موقفنا الحازم المصمم ومنطقنا الوطني أقنعاه بالتنفيذ (أفهمناه أنه موظف مركزي وأن صلته بدمشق هي الصلة الأساسية وأن مستقبله مرتهن بموقفه من السلطة المركزية ، لا بموقفه من السلطة المحلية وفي الوقت نفسه اتصلنا من عنده هاتفياً بمدينة صلخد وأطلعنا القادة الشعبيين فيها على حقيقة الموقف ، قبل أن تصل الانباء

مشوهة ، وطلبنا إليهم أن يرسلوا أكبر عدد من البرقيات الجماعية المماثلة لبرقيتنا وأن يحرصوا على أخذ تواقيع المبرقين فرداً فرداً ، وأن يؤكدوا في هذه البرقيات— كما فعلنا نحن — ان المنشقين لا يمثلون غير أنفسهم ، وأن الشعب كله مع الحكومة المركزية ومع تمتين الخط الوحدوي وترسيخ الكيان الوطني ضد كل ردة رجعية انفصالية.

حين دخلنا مديرية البريد لم نكن نستبعد أن نقتل فيه — فالموجة الطاغية كانت قد استقطبت — لبضع ساعات على الأقل — جميع الناس، ولكننا ونحن في هذا الملجأ الذي حولناه إلى مركز لقيادة المقاومة ، في تلك الساعات العصيبة بدأنا نطمئن إلى انتصار القضية الوطنية حين بدأت تردنا أنباء البرقيات التي أخذت تنهمر عبر الاسلاك من صلخد إلى دمشق ، ستون برقية جماعية طيرت قبل أن نغادر مركز البريد — والذي يعرف صلخد وقضاء صلخد يدرك أن حركة النواب قد باءت بالفشل منذ أن أعلن الشعب في صلخد موقفه ضدها ، خرجنا من مركز البريد في أول ساعات الليل ونحن مطمئنون إلى أن القضية بخير ، وفي اليوم الثاني — وكالعادة — بدأ المغرور بهم ينفصلون عن الحركة المريبة ويستدركون أنفسهم ويغيرون موقفهم — لقد كنا الصخرة التي تكسرت عليها الموجة العاتية والتي أقيم عليها رأس جسر الخلاص . وعاد مثيرو الردة المفتعلة إلى دمشق بخفي حنين ، ولم يعودوا إلى مثل تلك المحاولة لتحقيق مصالح خاصة بالضغط والابتزاز .

ولكن هذا الموقف جعلنا مطلوبين بلغة الأفلام الأمركية ، ولم نكتف بالمقاومة السلبية بل انتقلنا إلى الهجوم ، أردنا أن نبرهن على أن الشعب يؤمن بالارتباط بالحكم المركزي ويؤمن بأن طريق الاصلاح هو

طريق دمشق لا طريق (المضافة إياها) فوجهنا مذكرة إلى كل من: رئيس الجمهورية – رئيس مجلس الوزراء – الوزراء مؤرخة في ١٤ أيلول ١٩٤٣ لمحنا فيها إلى الحركات الخاصة بقولنا : » . . لذلك رأينا أن نرفع هذه المذكرة إلى المراجع المسؤولة لتستعين بمعلومات فئة من الشباب نذرت نفسها منذ عهد بعيد للعمل الوطني بلا تردد ولا طلب منفعة ذاتية – فئة تعرف أن الاتجاه الأساسي العام في الجبل ليس الحياة الخاصة المنفصلة بل الحياة المرتبطة بحياة المركز أشد الارتباط على الرغم مما يظهره بعض الناس من حياة الارتداد ، السطحية التي لا تنبع من حقيقة الذات وعميق الوجدان ، فالجبل يريد أن يتلقى جميع التيارات المركزية ويتأثر بها حتى لا يبقى أي فارق بينه وبين المركز يؤثر في كيان الدولة القومي . . . »

وبعد المقدمة لخصنا المطالب الاصلاحية مبوبة مفصلة ، موجزة، تحت عناوين : في المعارف ، في العدلية ، في الزراعة – في الصحة ،في الأشغال العامة ، في العمران . .

ورفعنا مذكرة مماثلة إلى المحافظ في ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٣ فصلنا فيها الاصلاحات المطلوبة في كل مجال وأضفنا إلى ذلك طلب إعادة انتخاب مجلس جديد للمحافظة (مجلس الادارة (على أساس ارتباط الأعضاء وإيمانهم بالوحدة والحكومة المركزية . .

وفي ١ تشرين الثاني ١٩٤٣ نشرنا هاتين المذكرتين مع مقدمة موجهة من شباب العروبة في الجبل ، إلى الشعب الكريم في كراس ، يحمل على صفحة الغلاف الأول : « شباب العروبة (الزاوية العليا اليمنى) في الجبل وسط الصفحة يتكلم : (الزاوية السفلى اليسرى) وفي آخر الصفحة

إلى أقصى اليسار : المطبعة الهاشمية بدمشق ، وإما صفحة الغلاف الأخيرة فتحمل في الوسط جملة : ان روح البطولة بالجبل (سطر أول) تتأجج أبداً في سبيل العروبة الخالدة (سطر ثان) ، ووزعنا الكراس على نطاق واسع ، فأضمروها لنا . . وحين وقعت أحداث لبنان وحدثت تظاهرة السويداء التي سلف ذكرها ، لم يتردد المسؤولون في المحافظة في توجيه (الاتهام) إلينا ، إنه اتهام مشرف حقاً — فأقاموا علينا دعوى جزائية بجرم الاخلال بالأمن والسكينة وأبلغنا قاضي التحقيق مذكرة الدعوة للمثول أمامه .

تدارسنا الموقف واتخذنا قراراً خلاصته :

١ — عدم المثول أمام قاضي التحقيق لعدم إيماننا باستقلال القضاء في مثل هذه الظروف الاستثنائية الضاغطة .

٢ — إن السلطات التي تسمح لنفسها بملاحقة مواطنين ذنبهم الخطير (هو الوطنية) إنما هي سلطات مشبوهة ومحاربتها واجب وطني :

٣ — الابراق إلى وزارة العدل وطلب مفتش عدلي يعيد النيابة العامة في السويداء ، إلى صوابها لتعرف كيف تفرق بين من يستحق الملاحقة والعقوبة ومن يستحق التشجيع والتكريم . .

وأبرقنا إلى دمشق فعلاً — وأرسلت وزارة العدل المفتش القاضي الأستاذ محمد علي الطيبي الذي هاله ما رأى وسمع فكانت نتيجة التفتيش سحب الدعوى واتخاذ اجراءات مناسبة بحق النيابة العامة وجهازها ، ولفت نظر القضاة إلى أنهم قضاة الدولة السورية لا قضاة قائد الدرك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس والعشرون

وأزلان التجزئة

كان لأحداث ١٩٤٣ هذه أثرها الكبير في تساوع الأحداث فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، أن الاستقلال الاداري والمالي سيظل الذريعة الجاهزة للمنتفعين بالتجزئة ليثيروا الشعب ضد الحكم المركزي وليحولوا دون أية خطوة وحدوية حقيقية سيكون من شأنها انهاء عهدهم ، وبقدر ما كنا نتحرك لأنهاء الوضع ، كانخصومنا يتحركون للابقاء عليه.

أواخر ١٩٤٣ أقام أحد الشبان من آل الأطرش مأدبة غداء — عشاء— موعدها حوالي غروب الشمس — وكان يتخذ نهجاً وسطاً فدعا إلى المأدبة أشخاصاً ينتمون إلى الفئات المختلفة — وكان أفراد شباب العروبة من المدعوين ، ولعلهم قصدوا بالدعوة أكثر من سواهم . . وحين اكتمل عدد المدعوين واقترب موعد تناول الطعام وقف قائد الدرك ، بطل الردة التشرينية ، وقال ما معناه : اننا نسمع — نغمة جديدة في بلدنا : نسمع اسم « شباب » وغير ذلك — اننا لا نقبل بأن يرتفع اسم « شباب » أبداً في هذا البلد — إننا الخ . . لم يكن من الممكن السكوت على هذا الهجوم المفاجيء واستغلال الدعوة لهذه المآرب الدنيئة . ولذلك رددنا على

الهجوم في منتهى العنف وقلنا : إذا كنتم قد أقمتم مأدبة ودعوتم الناس لتتحدوهم وتحاولوا المس بكرامتهم ، فأنتم مخطئون ، ان الشباب حين يثبت وجوده في قضايا وطنه لا يحتاج إلى اذن من أحد ولا يقبل وصاية أحد ولا يسمح لأحد بأن يوجه إليه أي تهديد صريح أو مبطن — والاصبع التي تمتد إلى الشباب باتهام ما احرى بها أن ترتد إلى رأس صاحبها وصدره ، أما الشباب ففوق متناول المغرضين وتطاول المتطاولين وإذا كنتم لا ترجعون عن غيكم فسننسحب من مأدبتكم وسنلتقي في مجالات أخرى: وكما هي العادة قام بعض أفراد العائلة ومنهم صاحب الدعوة ، فاحتجوا على قائد الدرك وأظهروا أنهم لا يقبلون بأن تستغل مأدبتهم لأي غرض سيء ، ووجهوا إلى الشباب اعتذاراً لبقاً .

بالنسبة إلي ، كانت جماعة شباب العروبة التي تكونت في قلب المعركة آخر مظهر مموه تمر به حركتي القومية العربية التي كنت، أنوي اعلانها صريحة واضحة « حركة عصبة العمل القومي » لقد أشرت إلى بعض المظاهر المموهة الأخرى السابقة (جمعية العمل : العصبة المتمردة ، رابطة الجبل الادبية) . اما شباب العروبة فكانت مقدمة للحركة الشعبية العامة التي ستتولاها هيئة الشعب الوطنية من أجل تنفيذ برنامجها الموضوع عام ١٩٤٣ ، والتركيز على البند الأول من هذا البرنامج وهو الغاء الاستقلال الاداري المالي . الذي دلت كل التجارب على أنه سبب كل علة ونقطة الضعف في كل حركة . وكانت نقطة البداية — الشرارة — في مرحلة العمل الجديدة بيان وجهناه « إلى الشعب الجبلي الكريم — من ، « جماعة العروبة » ، وأورد هنا بعض الفقرات من هذا البيان الذي يعتبر بمثابة خطة عمل : « لذلك أصبح من واجب جميع المشتغلين بالقضية الوطنية أن يتنادوا وينظموا صفوفهم ليتمكنوا من خدمة وطنهم بأكثر

ما يكون من القوة والنظام والاستمرار — وهذه « جماعة العروبة » تفتح باب التنظيم على مصراعيه وترحب بكل مخلص يغار على المصلحة العامة ويتفانى في سبيلها ، وميدان العمل الوطني واسع يقتضي تعاون الجميع وتساندهم . وأول ما يجب أن نعمل له في السياسة الوطنية في الجبل هو إلغاء الاستقلال الاداري المالي الذي يقف حائلاً بيننا وبين كل اصلاح وتقدم ، حتى صارت جميع المحافظات السورية . بفضل الوحدة المركزية في حال أحسن من حالنا رقياً وثروة وعمراناً فيجب أن نعمل لتحسين حالة الجبل الثقافية والزراعية والصناعية وللمحافظة على حقوق الفلاح وتقدمه .

« أما في السياسة الوطنية السورية والقومية العربية العامة فسنساهم مساهمة فعالة في خدمة القضية العربية التي يجب أن تستقر في نفوسنا وأفهامنا كقضية قومية رئيسية علينا أن نغذيها بالأفكار والأعمال والأموال والنفوس . . وهذا يقتضي مكافحتنا لكل حزبية ضيقة تخالف المصلحة العامة ولكل نزعة انفصالية ولكل استثمار أو استغلال أو استبداد أو استئثار أو نفعية أو انتهازية أو تواطؤ مع الاجنبي ضد مصلحة البلاد . ولتكن أمنيتنا جميعاً أن تتسلم حكومتنا الجيش وتنظمه وتقويه بقيادة رئيس جمهوريتنا المحبوب بحيث يصبح موضع فخرنا وحامي استقلالنا وأمجادنا ، وبحيث تصبح لنا كلمة فعالة نقولها مع البلاد العربية المتضامنة في كل قضية ، تهم هذه البلاد اجمالاً وتفصيلاً . : وينتهي البيان بكلمة تحيى العروبة » وهي تحية العصبة .

والبيان مؤرخ في ٢١ ربيع الأول — ١٣٦٣ — و ١٩٤٤/٣/١٥ م
معركة عام ١٩٤٤ كانت بحق معركة إلغاء الاستقلال الاداري المالي

بالجهود المبذولة ليل نهار منذ تكوين هيئة الشعب الوطنية على أساس مبادىء واضحة عام ١٩٤٣ ، واكتساب هذه الهيئة الصلابة اللازمة خلال معركة الانتخابات ثم خلال الردة الانفصالية التي وصفتها سابقاً (والتي هزت مواقع الشعبيين في السويداء لفترة قصيرة لولا صمود أفرادها أصبح الرأي العام فيها مهيأ لخوض معركة حاسمة من أجل إلغاء الاستقلال المالي — الاداري وجعل الجبل محافظة مندمجة كسائر المحافظات ، فما يقوم به الانفصاليون في الجبل كان مخططاً له من قبل وكيل المندوب الفرنسي ومستشاريه الاداريين في السويداء وصلخد وشهبة ، ولا ينقذنا منهم غير إلغاء هذا الوضع الذي أوجدوه لصالحهم .

وهنا لا بد من كلمة عن موقف الحكومة المركزية من الموضوع : في تلك الاثناء كان سعد الله الجابري الذي شكل الحكومة بعد الانتخابات يدلي بتصريحات يستشم منها أنه غير مهتم بمصير محافظة الجبل — وكان الأستاذ محمد التابعي الذي زار سورية قد نشر حديثاً مطولاً عن هذا الموضوع لخص فيه رأي الحكومة المركزية بكلمات قاتمة متشائمة تدل على أن تلك الحكومة لا تدرك معنى الوطن والوحدة والمصير ولا تحسب حساباً لرأي الشعب : قال التابعي ما مؤداه : ان الحكومة لا يهمها مصير هذه الصخور السوداء القاحلة ، فلتذهب إلى الأردن أو لتبق مع دمشق ، أو لتبق مستقلة ، لا مع دمشق ولا الأردن ، ان هذا هو شأنها : والمهم ألا تثير المتاعب . وحين أطلعت على المقال صعقت أمام هذه السطحية، وهذه اللا مسؤولية في معالجة قضايا وطنية مصيرية كهذه وكتبت جواباً موجهاً إلى الأستاذ التابعي (ومن وراءه) نشر في جريدة الأحرار (أو (صوت الأحرار) التي كانت تصدر في دمشق آنذاك . قلت فيه أن الحكومات لا يمكن أن تكون هي التي تقرر مصير أرض الوطن المصونة

بالدستور الذي يضعه الشعب وبالثورات وبالدماء وبالتاريخ . وقلت ان هذه الصخور السوداء هي التي كانت بثورتها العظيمة سبباً لاستقلال البلاد ولوصول الوزراء إلى مناصبهم وهي متمسكة بوحدتها شاءت الحكومة أم لم تشأ . :

وقد تأكدنا من أن هذا الذي نشره التابعي هو رأي الحكومة حينما ذهبنا ، نحن (شباب العروبة) مع عدد من الرفاق لمقابلة السيد سعد الله الجابري ، فلقد قال لنا بالحرف الواحد تقريباً : « أنا لست مهتماً بوحدتكم مع دمشق أو بقائكم مستقلين مالياً – ادارياً – ما يهمني هو الهدوء عندكم – فأنتم تزعجونني بخلافاتكم – وأفضل سورية هادئة من دون الجبل ، على سورية مضطربة مع الجبل » وأجبناه الجواب الذي يستحق.. وخرجنا مغضبين . .

حين خرجنا من المقابلة واجتمعنا بالفندق ، استعرضنا هذا الكلام فوجدناه خطيراً جداً ، وخطراً كل الخطر : أهذا موقف رئيس وزارة وطني ؟ وخلصنا إلى النتيجة المنطقية التالية : إن إلغاء الاستقلال الاداري–المالي قضيتنا نحن ، لا قضية الحكومة المركزية ولا غيرها – واذا كان الحكام الوطنيون يستبعدونها لأن ليس من ورائها فائدة مالية ترجى (للخزينة المركزية) فان الشعب في المنطقة وفي بقية أنحاء الجمهورية يرى أن المعركة المقبلة حتماً مع فرنسة تتطلب اجتثاث جذور مخابراتها وعملائها من المحافظتين المستقلتين مالياً وادارياً ، السويداء واللاذقية – وإذا نجحت حركتنا في السويداء فاللاذقية ستقوم بالعمل ذاته (وقد اثبتت التجربة صحة هذا التوقع) ولذلك نرى أن المقابلة الهادئة لن تؤدي إلى نتيجة – وأنه لابد من معركة حقيقية نخوضها في الجبل من أجل بلوغ الهدف الوطني الوحدوي – لابد من العنف .

وفور عودتنا إلى السويداء عملنا إلى عقد اجتماع شعبي عام عرضنا عليه نتائج مقابلتنا لرئيس الوزارة وتمخض الاجتماع عن قرار خطير هو مقاطعة أجهزة الحكم الانفصالي القائم والامتناع عن دفع الضرائب للحكومة المحلية حتى يلغى الاستقلال الاداري المالي — وبدأ الغليان بعد انفضاض الاجتماع وتصاعدت المقاومة السلبية (العصيان المدني) في سرعة مذهلة .

ولم يأت شهر نيسان ١٩٤٤ حتى بلغ التصاعد الذروة ، وبعد ظهر ٣ نيسان ١٩٤٤ خرجت تظاهرة مسلحة من السويداء باتجاه سراي الحكومة وهاجمت السراي وحطمت الابواب والنوافذ وبعثرت الاوراق والسجلات وشملت مقاطعة الحكومة والامتناع عن دفع الضرائب جميع القرى — وتلقت هيئة الشعب الوطنية تأييداً منقطع النظير .

كان حسن الاطرش قد عاد محافظاً بعد أن افلتت الوزارة من يده على الرغم من المناورة — الردة : وبعد تفاقم الوضع السياسي داخل الجبل وعزلة الحكومة المحلية ما عدا المحاكم ، رد المحافظ على الاجتماعات الشعبية باجتماع عقده في « عرى » ضم أفراد العائلة وأنصار الوضع القائم ، ولكن تبين أن الاجتماع هزيل بالنسبة إلى أحد الاجتماعات الشعبية الذي عقد في المزرعة وضم بين ١٥ و ٢٠ ألف رجل . واقتنع المحافظ الممتاز وجماعته اقتناعاً ضمنياً بأن معركتهم خاسرة ، ولكنهم أعلنوا مقررات اجتماعهم بالمحافظة على الوضع القائم لأنه أكثر فائدة للجبل وأكثر محافظة على الكيان والكرامة والعادات والتقاليد وسائر هذه المعزوفة التي يرددها الانفصاليون في كل زمان ومكان .

خلال ذلك كان لي نشاطي الخاص — ضمن الخط العام — كنت

أؤسس فرع العصبة في الجبل : بدأت عام ١٩٤٢ بأفراد قلائل ، ثم توسعت قليلاً عام ١٩٤٣ ، وأخذت أتوسع أكثر عام ١٩٤٤ ، أردت أن يكون لنا تنظيم صلب داخل هيئة الشعب الوطنيةتحسباً للطوارىء ومن أجل التمكن من التوجيه ونشر الافكار التقدمية والمبادىء الوطنية السليمة بين سكان القرى وبخاصة خلال الاجتماعات العامة . وكان الوضع في شهبة بوجه خاص يشجع على التنظيم – فقد كانت فيها مجموعة من الشبان الواعين المتكتلين (معلمين ، تجاراً ، فلاحين ، موظفين) والقائمقام الشاب طرودي عامر ، رفيق أيام الدراسة يضفي عليهم حماية تساعدهم على العمل ، ويتعاون معهـــم سراً ، وفي ٢٨ نيسان ١٩٤٤ . مثل الشباب رواية تمثيلية استخدم فيها الملعب الروماني – لأول مرة بعد انقضاء عهد الرومان – واستخدمت طريقة التنوير ذاتها التي ابتكرناها حين اتخذنا من المدارس مسرحاً ، واستخدمت الكواليس للدخول والخروج والتلقين – أما المشاهدون فكانوا جميعاً على مدرجات الملعب وهي تتسع لحوالي ألف مشاهد وكانت مشغولة كلها – وألقيت خطاباً خلال الرواية عن أهداف الشباب .

كان مستشار القضاء الفرنسي يتجاوز حدوده كثيراً – وقرر الشباب أن يبدؤوا عملية ازعاج (اقلاق راحة) ضد المستشار الفرنسي ليحملوه على الرحيل ، وبدأت عملية يسمونها عندنا في الجبل (مداورة)وهذه العملية كانت تستعمل من قبل طالبي الثأر ضد الواترين أو المطلوبين بالثأر : وهي تتم بوسائل متنوعة أهمها اطلاق العيارات النارية باتجاه منزل المطلوبين أو طرق أبوابهم وتهديدهم بالكلام أو وضع فشكة برصاصتها تحت وسادة المطلوب ، أو في مهباج قهوته ، أو في أحد أباريق القهوة ، أو في أي مكان آخر داخل المنزل : وهذا يعني : لو

أردنا قتلك لفعلنا ، فاتعظ واسع إلى حل القضية » — وربما اشتقت لفظ
المداورة (من الحوم حول الدار) أو من القيام بذلك دورياً في مواعيد
معينة ، أو قيام كل شخص أو كل مجموعة في إحدى الليالي ، وغيره أو
غيرهم في ليلة أخرى ، وفي اللغة ، المداورة هي المعالجة وربما قصد بها
هذا المعنى ، وما اتبع مع مستشار القضاء كان الاسلوب الأول وهو اطلاق
النار ليلاً — في ساعة متأخرة من الليل — باتجاه منزله ، واقلاق راحته ،
على الرغم من وجود الحرس السيار الخاص به ، المهم أن ما صار يجري
في شهبة أقض مضاجع الفرنسيين وفتح عيون أبناء الشعب على ما يمكن
عمله في المستقبل القريب . . .

هذه السنة في ٦ أيار احتفلنا بذكرى الشهداء وألقيت خطب وطنية
وقصائد من جملتها قصيدة الأستاذ سلامة عبيد ، وقصيدتي — ولم نعد
نغفل مناسبة وطنية أو قومية دون أن نفيد منها لتوعية وزيادة وحدة الجبهة
المناضلة وتمتينها إلا أنه لابد من التنويه بحادثة سيكون لها أكبر الأثر في
تطور الأحداث وفي حسم الموقف مع الفرنسيين حين تدق الساعة :
في الاسبوع الأول من حزيران ١٩٤٤ كنت في منزلي حين قدم لزيارتي
ضابط شاب برتبة ملازم أول ، وسيم ربعة مفتول العضلات ، يشع
الذكاء من عينيه وتتفجر الحيوية من كيانه كله . وحين استقبلته على
الباب أدى التحية العسكرية — فدهشت ، فقال « هانيء» فأجبته « هانيء»
وكان اسم « هانيء » ابن مسعود الشيباني » هو كلمة السر والتعارف
بين العصبيين ، وكان الزائر هو فضل الله أبو منصور ، وكان يحمل إلي
رسالة تعريف فهمت منها أن الضابط انتسب إلى العصبة في لبنان أيام كان
قائداً لسرية حرس المفوض السامي المؤلفة من الفرسان الجبليين ، وأشرقت
في ذهني فجأة صوره لمخطط كنت غافلاً عنه حتى ذلك التاريخ وهو

جعل التنظيم مشتركاً بين المدنيين والعسكريين . – واعتماد الطريقة السرية ، بالنسبة إلى العسكريين ، لأنهم كانوا تابعين اقيادات فرنسية ، ولأن الفائدة الكاملة إنما ترجى من بقاء انتمائهم سرياً – ووجدت أن العصبة في بيروت قد ابتكرت اسماً حركياً للعسكريين فأطاقت على الضابط فضل الله أبو منصور اسم « ابن الجبل » .

وبحثت مع الزائر كل المستقبل الذي نريده ، واستعرضنا أسماء الشبان من العسكريين ضباطاً وضباط صف وجنوداً ، وركزنا على العناصر المثقفة قدر الامكان ، شرط أن تكون موثوقاً بها ، ولم أخف عليه أنني كنت قبل تلك الساعة شديد الحذر من الذين تطوعوا في الجيش بقيادة الفرنسيين ، فأقنعني بعكس ذلك وافت نظري إلى أن هذا التطوع كان لأنهم لم يجدوا جيشاً وطنياً ينتمون إليه ، وهم فقراء ولا عمل لهم ، إلا أنهم لمخلصون لوطنهم وأمتهم ، والأيام ستثبت ذلك ، واتفقنا على أن يكون هو رئيس القسم العسكري من التنظيم وأن يكون مسؤولاً أمامي مباشرة .

واتفقنا على تعميم الاسم الحركي للعسكريين فيكون الاسم (ابن الجبل رقم كذا) وكان فضل الله (ابن الجبل رقم ١) والاتصال بيننا يتم مباشرة وشفهياً مبالغة منا في حفظ السرية التامة – واتفقنا على أن يكون في كل سرية مسؤول مرتبط به مباشرة والأعضاء يجهلون بعضهم البعض الآخر .

والمسؤول وحده يعرفهم ، ويجبي منهم الرسوم الشهرية ، وانتشر التنظيم العسكري إلى جانب التنظيم المدني ، وأصبحنا قوة المستقبل التي يحسب لها حساب ، كل ذلك ولم نتخل عن دورنا في هيئة الشعب الوطنية لتنفيذ منهاجها المرحلي

وكنا نحاول – قدر المستطاع – أن نطعم مبادىء الهيئة العامة ببعض

مبادىء العصبة الخاصة فنستعمل في البيانات بعض التعابير الحديثة التي هي فوق مستوى التفكير العادي ونحاول أن نشد باتجاه احلال علاقات اجتماعية جديدة قائمة على أساس التقويم الشخصي (أخلاق ، مبادىء، أهداف ، ثقافة ، نشاط ، زمالة عمل ونضال) محل العلاقات القديمة القائمة على أساس الوراثة والاعتبارات العائلية والقروية والاقليميةالتي تأخذ الانسان على علاته شرط أن يكون ابن العائلة أو القرية أو المنطقة ويغتفر له كل أخطائه على هذا الاساس ، كما « أخذنا نقلل من الاهتمام بالمجد الشخصي ونقيس الشخص بمقياس دوره في المجتمع كدور الحجر الواحد في البناء ، لا هو كل شيء ، ولا هو لا شيء ، بل هو ضروري وله كامل أهميته ، ولكنه يجب ألا يعتقد أن الدنيا بدونه خواء ، وان البناء من دونه خراب .

وكذلك ننشر الوعي التاريخي القومي ، والجغرافي العالمي : فنحد من تعصب الفرد لبلده وطائفته ، وحصر العصبية بالوطن كله ، والأمه كلها ، مع عدم الاقلال من قيمة الأوطان الأخرى والأمم الأخرى ، فان يعتقد الانسان الأمي أنه لولا قريتهأو اقليمهلخرب العالم ، ولولا عائلته وأهل بلده لَعَقُمت الدنيا ، شيء ضد طبيعة الأمور ، وضد العقل ، وضد العلم وسعة المعرفة ، وكنا نطبق ما نعتقد على سلوكنا الشخصي : فلا وجاهة ولا تزاحم على الدخول أو احتلال المقاعد ، أو الحصول على المنافع والمكاسب . ولا حديث إلا اذا كان هنالك من راغب آخر في الحديث ، ولا ادعاء بالعلم الكامل ، والصواب الدائم ، والمقدرة على اجتراح العجائب ، وتحقيق المعجزات ، بل تواضع ، وعمل صامت، مع رفض الهوان . والاهانة . والاعتداء ، وعلى الأخص إذا صدرت عن أفراد أو جماعات ذات مزاعم وراثية أو زعامية . .

كانت مقاطعة الحكومة المحلية (العصيان المدني) تعمل عملها المتصاعد كأنها اللولب الذي يزيد نفاذه عمقاً لدى كل حركة ، وحين فشل اجتماع عرى الهزيل ووجد حكام الجبل أنفسهم معزولين تماماً، دعوا مجلس الادارة للاجتماع ، وكان أفضل اجتماع لهذا المجلس في حياته ، فقد قرر المجلس – وقد قدم أعضاؤه من مختلف المناطق وهم مطلعون على قوة الحركة الشعبية وعموميتها – قرر الاستجابه إلى مطلب الجماهير بالغاءالاستقلال الاداري–المالي وتحقيق الوحدةالسوريةالشاملة.

صدر القرار في أيلول (على ما أذكر) ورفع إلى الحكومة المركزية لتصدر قانوناً بالموافقة عليه – وحضرت جلسة المجلس النيابي يوم ١٩٤٤/١٢/٣١ التي خصصت لدراسة الموضوع ، وخطب رئيس الوزراء الاستاذ فارس الخوري خطاباًقومياً شاملاً استعرض فيه تاريخ الجبل وفضله في مراحل النضال التحرري في العهدين العثماني والفرنسي ، وقال ان الجبل دفع ضريبة الدم عن الوطن كله فليس كثيراً أن تمده الدولة بما يحتاج إليه من مال في سبيل العمران ونشر العلم ، واعتبر عودة الجبل إلى الوحدة حدثاً تاريخياً بارزاً ، وكان التصفيق حاداً طويلاً ، وأقر مشروع القانون بالاجماع وتظاهر نواب الجبل بأنهم في طليعة المطالبين باقرار القانون ، وقبلنا في قرارة أنفسنا بهذا التظاهر لأن الوطنية الصحيحة لا ترضى بتأييد الحقد مع ما يتطلبه العقل من تحفظ وانتباه بالنسبة إلى تصرفهم في المستقبل وأطل عام ١٩٤٥ على الجبل وهو محافظة عادية من المحافظات السورية لها ما لها وعليها ما عليها : لا مستشار اداري، ولا مستشارو أقضية من الفرنسيين بعد الآن ، ولا مجلس ادارة ، ولا محافظ ممتاز ،

المراكز التي بقيت للفرنسيين قيادة القطعات الخاصة المعروفة بالمجتمع الدرزي ، ومجموعها حوالي ألف ومائة خيال كلهم من أبناء الجبل بطوائفه المختلفة ، بينهم نحو خمسة وعشرين ضابطاً فرنسياً أكبرهم برتبة مقدم وعدد كبير من الضباط وضباط الصف المحليين ، ولهم مخابراتهم الخاصة — وكأن يرأس هؤلاء الضباط المقدم(قومندان) سارزان ممثل مندوب المفوض السامي مركزه دمشق ، وهو مرتبط مباشرة بالمندوب السامي أو ممثل فرنسة في بيروت لدى دولتي سورية ولبنان المستقلتين من الناحية القانونية المحتلين من الناحية الواقعية) .

* * *

الفصل السابع والعشرون

وحررنا الجبل

مثلما كان عام ١٩٤٤ عام التوحيد (الغاء الاستقلال الاداري المالي سيكون عام ١٩٤٥ عام التحرير ، عام إنهاء الاحتلال الأجنبي لمحافظتنا..

كان علي أن أظهر تنظيم العصبة وأنهي المرحلة السرية ، ولكن وجود فرع واحد في محافظة سورية واحدة ، من دون وجود تنظيم مركزي ، لم يكن له معنى ولا فائدة ، وقد سبق أن قلنا أن العصبة ضربت وشتت قادتها واستتر أعضاؤها ، فكيف السبيل إلى إعادة الحياة إليها ؟ نحن من الوجهة القومية لم يكن لدينا أي فرق بين ارتباطنا بالعصبة في لبنان وارتباطنا بالعصبة في دمشق أو في أي قطر عربي آخر ، ذلك لأننا وحدويون تساوت في نظرنا وأعماقنا جميع أجزاء وطننا الواحد فذرة الرمل في حضرموت ، والحجر الكلسي على شواطىء المتوسط ، والشاطىء المقابل لأوربة على المحيط الأطلسي ، كلها في عقيدتنا متساوية وتستحق أن نناضل من أجل تحريرها وأن نموت من أجل وحدتها وسيادتها.

وكتبت إلى بعض العصبيين في دمشق أحثهم على إعادة الحياة إلى العصبة ، وكانت الظروف تستدعي ذلك ، وفي ٥ كانون الأول ١٩٤٤

أعلن الأستاذ فهمي المحائري الأمين العام للعصبة عودة العصبة إلى العمل، حينذاك اتخذنا قراراً بالبدء بالتسجيل العلني والارتباط بالمركز بدمشق اعتباراً من أول شهر كانون الثاني ١٩٤٥ ، وذهبنا إلى دمشق وقمنا بما يلزم من اتصالات ومباحثات ، ولكني شعرت من خلال أحاديثنا أننا كفروع ، أقوى منهم ، كمركز ، ولكن لا بأس فسوف نستمد من وجودهم الشرعية ، بينما يستمدون من وجودنا القوة والفعالية ، وصرنا نزودهم بلوائح تتضمن أسماء الأعضاء المنتسبين ، وأول لائحه أرسلت إليهم كانت في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٥ .

بهذا الارتباط حلت بالنسبة إلي مشكلة « الانتماء » التي تترجم عملياً بالجواب المطلوب يومياً عن سؤال الأعضاء« بمن نحن مرتبطون في المركز ؟ » والحق معهم لأن حزباً وحدوياً قومياً لابد أن يعرف أصوله وفروعه ، ولكني – مع ذلك – كنت أشعر في أعماق أعماقي أنني في سباق مع الزمن : فالحلفاء بعد انتصارهم في افريقية ونزول جيوشهم إلى البر الأوروبي صاروا في طريقهم إلى إنهاء الحرب واذا ما انتهت الحرب فسيفرغون لنا – وإذا تفرغوا لنا ونحن على غير استعداد فسوف يتنكرون للوعود ونعود إلى نقطة البداية من النضال .

وكانت الاستجابة رائعة ، من حيث النوع قبل الكم ، فلم يأت آخر عام ١٩٤٤ حتى كان قد انتسب إلى العصبة النخبة الطبيعية من المعلمين والطلاب والموظفين وصغار الملاكين وهم أبناء وأحفاد فلاحي الثورة العامة الذين استولوا على أراضي الاقطاع وتقاسموها والتجار والضباط وضباط الصف والجنود من الجيش والدرك ، وكانت تنحصر في هؤلاء تقريباً فئات المتعلمين ، ثم بدأنا نضم الواعين من الفلاحين

والعمال والحرفيين وبعد أول عام ١٩٤٥ بدأت القاعدة تتسع لتشمل جميع القرى وتتغلغل في صفوف الفلاحين والعمال ، بالاضافة إلى المزيد من التوسع في الصفوف الطبيعية التي ذكرتها ، وكان جميع هؤلاء في سن الشباب بين ١٦ و ٣٥ سنةومن النادرجداً أن تجد عضواً تجاوز هذه السن إلى الحد الأقصى وهو ٤٠ عاماً ، ويمكن القول أنه لم يبرز شخص من محافظة جبل العرب من الأربعينات إلى الستينات إلا كانت له صلة قديمة بالعصبة ، أو تخلق بأخلاقها وترعرع في جوها .

لم نتخذ من قوتنا سبباً للاستعلاء على الآخرين أو الابتعاد عنهم ، بل فعلنا العكس إذ احتفظنا بأمتن الصلات بجميع عناصر هيئة الشعب الوطنية وبجميع الأوساط الشعبية — وحاولنا دائماً أن نزيل الخلاف المزمن بين أقوى قوتين عائليتين في السويداء ، آل أبو عسلي ، وهم القوة الضاربة الرئيسية في هيئة الشعب الوطنية ، وآل جربوع وهم القوة الضاربة الرئيسية في حزب الاطارشة ، ولا بد هنا من شهادة نؤديها وقد غاب منذ زمان زعيما الأسرتين آنذاك ، محمد أبو عسلي ، وحمود جربوع .

ثلاثة كانوا يحملون فكرة التوفيق بينهما وهم : الأستاذ حسين عبد الدين وجدعان أبو عسلي وأنا — وما أكثر الخلوات الليلية التي قضيناها نقرب وجهات النظر ونبين أن الخلافات سطحية ويسهل تجاوزها .

من الثلاثة ، كنت وحدي من العصبة ولم أشعر رفيقي في المسعى أنني مستقل عنهما في أي تصرف ولكن بعض الأقوال والتجاوزات من الآخرين دعتني إلى اصدار الايضاح التالي :

إيضاح :

لما كانت عقيدة الانسان الوطنية يجب أن تسيطر على جميع أعماله

وأقواله وتصرفاته ، ولما كان على كل إنسان أن يتحمل تبعة أعماله وأقواله وتصرفاته التي قام بها بحريته واختياره . وكان من غير المعقول أن يتحمل أحد تبعة أقوال وأعمال وتصرفات لم تصدر عنه ولا عن شخص أو أشخاص يحق لهم أن يقولوا ويعملوا ويتصرفوا بالنيابة عنه .

لذلك :

ولما كانت هيئة الشعب الوطنية تحتوي على كثير من الأشخاص الذين لم يتفهموا حقيقة مبادئها وغابت عنهم أهدافها فصاروا يتفوهون بأقوال من شأنها ، أن تسيء إلى المبادىء الأولى للهيئة ويأتون أعمالاً ينسبها الغير إلى الهيئة لمجرد انتساب الفاعلين اليها ويتصرفون تصرف من يمثل الهيئة دون أن يخولهم أحد حق هذا التمثيل .

ولما كانت بعض هذه الأقوال والأفعال والتصرفات مما يسيء إلى كل مبدأ وطني وكل رجل مخلص لأمته .

فانني بصفتي رئيساً لفرع من حزب قومي عربي يحرص على مبادئه وسمعته وسمعة المنتمين إليه أشد الحرص :

أطلب أن يعقد اجتماع يحضره ممثلون عن فروع هيئة الشعب الوطنية في الجبل وتكون الغاية منه انتخاب هيئة مسؤولة لها وحدها حق التصريح والعمل والتصرف باسم هيئة الشعب الوطنية بحيث يعتبر كل قول أو عمل أو تصرف صادر عن أي شخص كان خارج الهيئة المنتخبة تصريحاً فضولياً لا يتقيد به أحد ولا يتحمل تبعته أحد لأن مصدره لا يمثل إلا نفسه . وبانتظار انتخاب هذه الهيئة المسؤولة التي تمثل جميع الهيئات المتحدة تحت اسم هيئة الشعب الوطنية بالجبل اعتبر نفسي مع جميع رفاقي

غير مسؤولين عن أي قول أو عمل أو تصرف يصدر عن أية شخصية كانت أو مجموعة من الأشخاص لا تملك حق تمثيل أحد تمثيلاً صحيحاً.

سعيد أبو الحسن

وقد أردت أن أثبت أن اختلاف التنظيمات داخل الجبهة ممكن وليس عقبة في الطريق إلى تحقيق هدف بعيد رئيسي واحد ، ولا يؤثر في ذلك وعرضنا على بعضهم أن يكونوا أمناء هذا التنظيم مسبقاً ليطمئنوا إلى أننا لا نسعى إلى تحقيق مكاسب فردية ، ولكنهم كانوا ينفرون من التنظيم لأنه يضع قواعد للحياة ومقاييس للاعمال والأخلاق لم يكونوا . مستعدين للتقيد بها ، وقد كان يدفعنا إلى ذلك ما كان يحدث ، من التصرفات والتجاوزات ، والتصريحات التي أشرت إليها في الايضاح المذكور .

المهم أنني شعرت هذا العام ، عام ١٩٤٥ بأنني مسؤول عن المستقبل كله : كنت كأنني مستنفر ، فلا هدوء ولا استرخاء ولا تلهي بالهوامش والفرعيات ، وكان جميع الرفاق على هذه الدرجه من اليقظة والتأهب وكلهم يعيش قضية وطنه وأمته ويواجه التحدي بتحد أكبر . صار كل واحد كأنه المعدن المصهور لا تشوبه شائبة ، أو القذيفة المنطلقة لا يقف في طريقها شيء .

وبدأت الاحتكاكات التي يمكن تسميتها ارهاصات بالمعركة المقبلة.

ألقى منتش المعارف الفرنسي وكان صديقي من عهد الدراسة في بيروت محاضرة موضوعها هل على فرنسة أن تتخلى عن سورية ؟ واختتم المحاضرة بالعبارة الفرنسية المشهورة : أنا فيها اذن يجب أن أبقى فيها.

وقد لقيته ذات يوم في الطريق يرتدي لباس ضابط في المخابرات، وهو في الحياة العادية راهب « يسوعي » فقال لي :

ـ أراك تتجنبني ، فهل أخيفك ؟

فأجبته :

ـ لقد تعودت أن أراك في ثوب الكاهن ولم أتعود أن أراك في ثوب ضابط مخابرات فرنسي .

فقال : اسمع يا صديقي ، ليس مسيحياً من ليس فرنسياً

فقلت : شكراً لهذا الدرس .

وكان بالفعل درساً لا ينسى في أولوية المسألة القومية وكل قيمة تأتي بعدها في المرتبة ، ونحن نكون مخدوعين حين نعتقد أن الكاهن الفرنسي يمكن أن ينسى أنه فرنسي قبل أن يكون مسيحياً وكاهناً.

مرة أخرى ، كان يسألني عن أسباب احدى التظاهرات ، فاذا هو يفاجئني بقوله .

ـ أعتقد أن الأوامر صدرت بذلك عن أركان حرب أبو الحسن.

فنظرت إليه مستغرباً ، ولم أعلق على قوله ، فلقد تصورت أن كل أسرارنا مكشوفة ، وكل تنظيمنا معروف ، وإلا فما معنى هذا الكلام المبطن ؟ وبدأنا نزيد من احتياطاتنا وتكتمنا.

ومرة ثالثة دعاني إلى حفلة صغيرة أقامها لطلاب الجامعة اليسوعية من أبناء الجبل قبل عودتهم إلى بيروت وأصر على دعوتي مع قدماء المتخرجين ، وحين اتصل بي هاتفياً ليذكر بالموعد ارتبت في الأمر فسألته :

— وعدتك وسأجيء ، لكن هل هناك أحد غير ؟ الطلاب
أجاب : كلا .

وفي الوقت المحدد كنا في منزله حوالي عشرة شبان ثلاثة متخرجين وسبعة طلاب . وفوجئنا بدخول المقدم سارازان ، المسؤول الفرنسي الأول في المحافظة ، فامتعضت وقلت في نفسي : « لقد عملها المفتش المحترم » ولكنني قررت أن أرد له المقلب قبل انفضاض الاجتماع .

تحدث بعض الطلاب : كلمات مجاملة غير ملتزمة وغير مخيفة. وطلبت الكلام فقلت :

— إننا بعد ترك المدرسةوالكلية والمعهد قد ننسى أسماء الأساتذة وأسماء الكتب وعناوين الدروس ولكننا نخرج بخلاصه لا يمكن أن تفارقنا طوال عمرنا : وهي أن للعمل قيمة ذاتية خالدة ، وأن الوقت محسوب علينا فيجب ألا نضيع منه دقيقة واحدة ، وأننا مواطنون لا قيمة لنا إلا إذا خدمنا وطننا وأمتنا بما اكتسبناه من علم ومعرفة وإلا كانت دراستنا خسارة مطلقة . .

عندها ، قام سارازان ، وألقى كلمة قال فيها : « إنني أتوجه إلى الطلاب دون المتخرجين ، وأطلب إليهم أن يتجهوا في دراستهم العلياإلى الطب والهندسة فالبلاد لا ترجو شيئاً من دراسة الحقوق » .

فوقفت منتفضاً وقلت : « إنني أعتبر هذا الكلام موجهاً إلي ، بوصفي حقوقياً ، وكنت سأنضم إلى رأي المقدم سارازان لو كانت بلادنا قد حصلت على حقها في الاستقلال والسيادة ، أما وهي ما زالت محتلة فانها بحاجة إلى المزيد من الحقوقيين والسياسيين ، ولاسيما أن الحقوقيين في

المحافظة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . والبلاد بحاجة إلى جميع الاختصاصات .

وانفض الحفل في جو متجهم وكأن انفجاراً حدث ففرق المجتمعين.

كان واضحاً أن التوتر بالغ أشده وأن شيئاً ما بدأ يرتسم في الأفق كلما اقتربت الحرب العالمية الدائرة من نهايتها ، كان واضحاً أن الفرنسيين ينوون التراجع والنكول بتعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم باحترام استقلال البلاد وبالجلاء عنها ، وكان علينا أن نعمل ليل نهار .

كنا قد نشرنا الوعي في جميع أنحاء المحافظة ، وجعلنا الكتاب الرفيق الضروري لكل شاب مناضل ، وأوجدنا مكتبةصغيرة ، لكن منتقاة ، في كل نقطة ارتكاز للعصبة ، وفكر رفاقنا في صلخد في تمثيل رواية صلاح الدين الأيوبي — فأيدنا الفكرة واتفقنا معهم على إبراز هذا الحدث اعلامياً ، وتوسيع الدعوة لحضور الرواية بحيث نحقق بالفعل نواة جبهة وطنية عريضة متماسكة ، ورحت أنشر في جريدة الجبل اعلاناً مقتضباً متدرجاً ، يبدأ غامضاً ثم يتوضح ، مثلاً في أحد الاعداد اكتفيت بنشر هذا الاعلان « ماذا في صلخد ؟ » ، وفي عدد آخر : « صلاح الدين الأيوبي تحت أسوار قلعة صلخد » .

وبدأت المخابرات الفرنسية تنشط لمعرفة ما الذي سيجري في صلخد

وتدرجنا حتى أعلنا أن رواية صلاح الدين الايوبي ستمثل في صلخد مساء الجمعة ١١ أيار ١٩٤٥ .

وللأقدار — أحياناً — تصرفات مساعدة نقف أمامها حائرين ، ونسميها تارة « العناية الالهية » وطوراً « المصادفةوأحياناً أخرى نفسرها علمياً بأنها مزيج من حسن التدبير وتطابق التقدير . أي حسن استغلال

العقل للمعطيات الطبيعية . ففي اليوم الثاني من أيار ١٩٤٥ توفي في المشقوق القريبة من صلخد أحد رفاقنا المرحوم سليم الحجلة . فنعته العصبة بالاشتراك مع أسرته وقررنا أن نقيم له حفل اسبوع حاشد . يوم الجمعة ١١ أيار ١٩٤٥ — وكانت حفلة منظمة ، لأول مرة . على طراز غير عشائري ، كان رفاق الفقيد العصبيون هم الذين يستقبلون الوفود ويتقبلون التعزية ، إلى جانب ذويه ويضعون البرنامج للكلمات التأبينية والاتجاه العام لمضمونها ، من دون أن يتجاوزوا على حقوق أسرة الفقيد بل كل شيء كان يتم بالتفاهم ، لأن شقيق الفقيد الأكبر السيد سالم الحجلة كان عصبياً بارزاً فضلاً عن عدد كبير من شباب العائلة المدنيين والعسكريين.

وكان يحضر الحفل قائد سرية من أبناء الجبل المتمسكين بالقديم ، الموالين لفرنسة ، فساءه ما رأى وما سمع فأعلن عدم رضاه وغادر القرية مع جنوده قبل تناول طعام الغداء وهذا يعتبر في عرف الجبليين القدامى عداء ما بعده عداء .

أما نحن فأفدنا من الحفل لنختار من نشاء من المواطنين لحضور الحفل التمثيلي في صلخد . وبعد الغداء انتقلنا إلى صلخد حيث أتممنا ترتيبات التمثيل كما وصفتها سابقاً ، كان عدد المشاهدين الجالسين والواقفين حوالي ألف مشاهد من أصحاب الكلمة النافذة في مجال العمل الوطني الشعبي . وتوليت تقديم الرواية بكلمة تناولت فيها سيرة صلاح الدين الموجزة ، واستخلصت أننا ما نزال بحاجة إلى صلاح الدين ونضالية صلاح الدين في كل مرحلة من مراحل حياتنا الوطنية والقومية . وأصغى هذا الجمهور الذي لم يسبق له أن شهد روايات تمثيلية ، أصغى بكل جوارحه إلى كل كلمة وكل حركة ، في صمت كامل وانتباه عميق ، وكان يستقبل ظهور صلاح الدين بالتصفيق الحاد ، ويقارن في ذهنه

بينه وبين قادة الصليبيين ثم بين أيامه وأيامنا . . وأذكر أن سحابة عابرة أمطرت رذاذاً ربيعياً ، فخاطبت الحضور وطلبت اليهم أن يتحملوا ذلك مذكراً إياهم بما تحمله الروس وهم يحاربون أعداءهم والثلوج تغطي كل شيء تحتهم وحواليهم ، وتحمل المشاهدون وصبروا حتى انتهاء الرواية وصفقوا طويلاً طويلاً ، كما لم يسبق لهم أن فعلوا من قبل . . وشعرت أنني ، لو أصدرت لهم ساعتها أمراً بامتشاق السلاح والزحف ، لما تأخروا .

كان أهم ما خرجنا به من نتائج ، من هذه الحفلة ومن الاجتماعات الأخرى التي عقدناها قبلها وبعدها ، توحد صفوف الشباب والشعب كله بعامة ، لأن حركة إلغاء الاستقلال الاداري المالي وتحقيق الوحدة السورية كانت قد قسمت الشعب في الجبل إلى القسمين التقليديين الحركة الشعبية أو هيئة الشعب الوطنية من جهة ، والحركة المحافظة المتمسكة بالانفصال ، المنتفعة به وبالاحتلال ، من جهة أخرى ، فتوصلنا إلى نتائج طيبة وأحللنا فكرة : « التحرر من الاجنبي أولاً » محل أية فكرة أخرى .

ودرسنا الوضع العام دراسة موضوعية ، علمية ، بالأرقام ، والامكانات لا بالعواطف وحدها — فتبين لنا أن العدو يعتمد على قوى ثلاث :

١ — المخابرات وما تملكه من وسائل الدعاية والنشر والاغراءات.

٢ — الانصار وهم الذين تعاونوا مع الاستعمار في مناسبات شتى فصار مصيرهم مرتبطاً بمصيره .

٣ — القوات الخاصة المؤلفة من متطوعين من أبناء البلاد والبالغ

عددهم في الجبل نحواً من ألف ومائة فارس يقودهم ضباط فرنسيون ، قيادة فعليه ، و يقودهم ضباط مواطنون من الجبل القديم الأمي الرجعي ، قيادة اسمية ، وهم مسيطرون على القلاع والثكنات ، وفي متناول أيديهم كميات وافرة من الأسلحة والذخائر . وكان يطلق على مجموعتهم خطأً ــ اسم « المجتمع الدرزي » والأصح أن يقال المجموعة الدرزية ترجمة لكلمة: RASSEMBLE MENTDRUZE

وما عدا الضباط الكبار ، كان الضباط وضباط الصف والجنود ينقسمون إلى قسمين قسم مثقف واع يدرك ماله وما عليه ويعتبر نفسه جندياً . عربياً وينتظر ساعة التحرر بفارغ الصبر ، وقسم آخر لا يفقه من أمور الدنيا سوى أنه جندي محترف يخدم من يدفع له .

ولمواجهة هذه القوى وضعنا في خططنا القوى التالية : القوى

آ ــ لتضليل المخابرات ومقاومتها في آن واحد اعتمدنا خطة الكتمان الشديد فلا يرى أحدنا مع ضابط من التنظيم العسكري إلا في مناسبة عامة يختلط فيها الجميع أو في غرفة خاصة تحت جنح الظلام ، وكنا نكتب في الصحف ونذيع البيانات ونقيم الحفلات التمثيلية واجتماعات التوعية والتعبئة النفسية ، بحيث لا تسري للمخابرات الفرنسية دعاية حتى تتلاشى وتحل محلها دعاية وطنية قومية .

ب ــ في صفوف الشعب قسمنا الانصار إلى فريقين ، مثلما قسم الجنود : الفريق الواعي الممكن التفاهم معه وقد انضم إلى صفوفنا والقسم الميؤوس منه الذي أضفناه إلى مجموعة الضباط القدماء .

ج ــ في الجيش وصفنا كيف نما التنظيم وقوي . بحيث لم يأت شهر

أيار ١٩٤٥ حتى كان لنا في الجيش أكثر مما للفرنسيين ، ولم يبق لهؤلاء إلا الفريق الذي لا خير فيه ولا يرجى نفعه ، ولم يبق علينا بعد حوادث عيد النصر التي سيرد ذكرها إلا أن نحدد ساعة الصفر .

حتى أن إحدى السرايا كانت منذ شهر نيسان ١٩٤٥ قد تمردت على أوامر القادة الفرنسيين وهي في طريقها إلى محافظة اللاذقية لضرب الوطنيين هناك ، فرفضت أن تنفذ ما أمرت به ، وأعلنت العصيان فجردت من سلاحها وتقرر ضمهاإلى قوات الدرك (لعدم وجود نواة للجيش الوطني بعد) (وجرى تسليمها ملابس رجال الدرك وسلاحهم في حفل شعبي أقيم في شهبة لهذا الغرض) قائد السرية وأكثرية منتسبيها كانوا من منطقة شهبة (وبعد تسلم الجيش عادت إليه واعتبرت السرية الأولى في الجيش السوري وليس هناك مجد يساوي هذا المجد المستحق .

حوادث عيد النصر : التمهيد للمعركة الفاصلة :

استسلمت ألمانية في السابع من أيار ١٩٤٥ فاعتبر اليوم التالي — الثامن من أيار عيداً للنصر ، وما كادت فرنسة تتحرر من الاحتلال الألماني حتى عادت لها غطرستها السابقة ، وحمقها التقليدي ، فنسيت ما عانته من ذل الهزيمة ومآسي الاحتلال الاجنبي ، ونسيت ما كانت قد قطعته من وعود ، وأبرزت إلى حيز الوجود خطة لئيمة غادرة كانت تبيتها ابان الحرب ، بدأتها بتوزيع كميات هائلة من الذخيرة على أنصارها المسلحين من قبلها وأوعزت اليهم أن يستهلكوا هذه الذخيرة كلها بحجة الابتهاج بعيد النصر ، ومرت بنا أربع وعشرون ساعة مريرة ، . . ثقيلة . . بطيئة . . وقحة ، لم يهدأ فيها اطلاق النار في الهواء ، من كل مكان لحظة واحدة ، لا في الليل ولا في النهار . .

وتحول الاحتفال بالنصر إلى حفلة للتحدي واستعراض العضلات، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، وقد أدى هذا التحدي — بين شعب أشهر ما اشتهر به أنه يقبل التحدي ويراهن على النتيجة — إلى نتائج معاكسة تماماً للنتائج التي كان يتوخاها المستعمرون ، فلقد استعاد الشعب كامل يقظته وحذره ، استعاد أهبته ، وذكريات ثأره التي كان قد تناساها طوال سنوات الحرب ، على حد قول الشاعر الأستاذ : سلامة عبيد. بعد حوادث أيار :

عـدت منهوكـاً فآوينـاك مـن حـر وقـر

وتناسينـا نـداء الثـأر والأيـام تغـري

وواكب هذه الأعمال الاستفزازية نشاط المخابرات الفرنسية، نشاط بدأت آثاره في المقالات التوجيهية التي أخذت تنشرها بعض الصحف بتواقيع فريق من المأجورين يدعون فيها إلى تسوية الوضع على أساس من معاهدة ترتبط فيهاسورية بالعديد من الالتزامات نحو فرنسة التزامات ثقافية واقتصادية وعسكرية ، فتبقى لفرنسة امتيازات كثيرة في التعليم وفي اصدار العملة ، وادارة المصارف ، وتحتفظ ببعض المراكز الستراتيجية ، ويقوم أحد ضباط المخابرات كما ذكرت سابقاً فيلقي محاضرة في نادي الضباط بالسويداء ، يجعل موضوعها : هل يجب على فرنسة ، أن تتخلى عن سورية أم هل يجب عليها أن تبقى فيها .

وكان احتفال المستعمرين بعيد النصر ، على هذا الشكل من التحدي والاستفزاز ، حافزاً للشعب العربي في سورية على الارتفاع إلى مستوى المعركة ، فبدأت الصحافة الوطنية تعبيء الشعور العام ، وتنبه المواطنين إلى خطورة الوضع ، وكما بدأ الفرنسيون باتخاذ الترتيبات العسكرية

لخنق كل محاولة يقوم بها الشعب ، بدأ الشعب من جهته باتخاذ الترتيبات للتخلص نهائياً من الاحتلال الفرنسي ، كان الجيل الواعي يدرك أن هذه الفرصة هي فرصته الوحيدة فان هو تركها تفلت من يده ، فلن تعود تؤاتيه مرة أخرى ، وبدأ الغليان في كل مكان ، وبدأت المظاهرات في المدن الرئيسية ، وأخذ الطلاب في دمشق يقبلون على مكاتب التطوع ويرتدون اللباس العسكري ، صار الجو جو معركة . فلم يبق هناك أي شك في أن هذه المعركة الفاصلة واقعة بين ليلة وضحاها ، فلقد شبع الشعب من وعود المستعمرين الكاذبة — ولن يحول بينه وبين تحرره حائل بعد اليوم .

هكذا كان الوضع بصورة عامة . فكيف كان الوضع في الجبل بصورة خاصة ؟

كان قد انقضى بعض عام على خروج الشعب عندنا ظافراً من معركة إلغاء الاستقلال الاداري — المالي — وتم بذلك تحقيق خطوة توحيدية قضت على الوضع الانفصالي الذي جهدت فرنسة ربع قرن لاقامته والمحافظة عليه . ولكن تلك المعركة ، كما أظهرت قوة الشعب في تصميمه واندفاعه نحو التحرر والوحدة أظهرت بالوقت ذاته أن هناك فئات كانت تنتفع بالانفصال ، وان هذه الفئات كانت مستعدة للدفاع عن الأوضاع القائمة في قوة وضراوة ، وكان المقدم سارازان المسؤول الفرنسي في هذه المحافظة والقائد الفعلي للجيش فيها ، مطمئناً كل الاطمئنان إلى الوضع في الجبل ، حتى أنه رفع تقريراً قبيل المعركة بأيام قليلة قال فيه أن الجبل كله بيده كخاتمه يحركه كيفما يشاء .

وفي الواقع ان اطمئنانه هذا كان يطمئنا إلى أنه كان يجهل كل

شيء عن حقيقة الوضع — وبصورة خاصة أنه كان يجهل كل شيء عن حقيقة حركتنا في الجيش .

وقد التقينا في حفل الاستقبال الذي اقامه المحافظ للضباط الانكليز والفرنسيين ، وضباط الارتباط الامريكي ، رداً للحفلات التي دعي اليها من قبلهم ، التقينا في حوار « ملغوم » كانت خلاصته كما يلي :

كنا أربعة أو خمسة من الأصحاب نتحدث وقوفاً بالقرب من أحد الأعمدة ، وإذا بسارازار يتقدم من حلقتنا ويحيينا ، ثم يوجه إلي فجأة ، ومن دون مقدمات السؤال التالي :

— ما رأيك في كيفية إنهاء الوضع في البلاد بمعاهدة أو بلا معاهدة؟

فأجبته جواباً حاسماً مقتضباً :

— بلا معاهدة .

— ولماذا ؟

— لأن عهدنا بنكولكم ليس بعيداً فأنتم تعلمون أن معاهدة عام ١٩٣٦ تمت لمصلحة فرنسة ، وكان القسم الأكبر من الشعب غير راض عنها ، وحتى انصارها من دعاة مبدأ « خذ وطالب » ، كانوا يعتبرونها خطوة مرحلية في سبيل الاستقلال ، ومع هذا فقد نكلتم بالمعاهدة ، وألغيتم تواقيعكم ، فكيف يكون الأمر او كانت المعاهدة بكليتها لمصلحتنا؟ ان قبولنا بالمعاهدة بعد التجربة الأولى يعني أننا أغبياء لا أكثر ولا أقل ، وإننا لا نفيد من التجارب ، وأنت تعرف ولاشك ما نعنيه بقولنا : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

— ولكن الكثيرين من شعبكم يقولون غير ما تقول ، يقولون بضرورة عقد معاهدة مع فرنسة ، وضرورة الابقاء على نوع من الوجود الفرنسي في بلادكم لمصلحة هذه البلاد بالذات .

— من هم هؤلاء الكثيرون من شعبنا ؟

— كثيرون كتبوا بهذا الموضوع ، ألم تقرأ مقال فلان ؟ وذكر لي اسم الكاتب . هنا ، لم أتمالك نفسي من اطلاق ضحكة ساخرة ، فقال سارازان :

— ما الذي يضحكك ؟ ألا يعجبك الاسم ؟

قلت :

— الاسم يعجبني جداً ، ويعجبني أكثر أن يكون هو الذي اخترته شاهداً ودليلاً على وقوف أكثرية الشعب إلى جانبكم — فأنت تدري أنه من عملاء مخابراتكم ، ومن العملاء المكشوفين الذين لا ينخدع بهم الشعب ، وأزيدك علماً بأن الرأي العام رأى في هذا المقال قطعة أعدتها المخابرات ونشرتها صحيفة فرنسية أكثر من الفرنسيين ، وذيلت ، بتوقيع عميل ، قال : في مرارة :

— يظهر أن المقالات التي لا تكون بتوقيع « أبو الحسن » لا تثير اهتمامك ، ولا تكون لها قيمة .

قلت :

— نعم ، ولا . نعم لأن المقالات التي أكتبها أو يكتبها سواي ممن هم من الصف الوطني المناضل الصامد أياً كانوا هي وحدها التي تعبر عن حقيقة تفكير الشعب ورغباته وأهدافه ، ولأنكم تعلمون بالتجربة ، ان هذه المقالات تصدر عن تفكير أصحابها المستقل ، بلا توجيه ولا رغبة ولا رهبة . ولا ، لأننا لا نؤمن بالأشخاص ، ولا نعتقد أن الوطنية وقف على أناس دون آخرين ، وإلا لكانت تزول بزوال

القائلين بها — الوطنية ليست احتكاراً لأحد أو لفئة ، إنما هي ملك شعب بكامله ، صف تتلوه صفوف ، وجيل تعقبه أجيال » .

عندما وصلت إلى هذه النقطة ، يظهر أن النقاش كان قد بدا عنيفاً وأن صوتينا ارتفعا حتى لفتا انتباه الآخرين فانضم إلى الحلقة عدد من الضباط ، وغيرهم من المدعوين ، وكان المحافظ ، صاحب الدعوة قد انضم إلينا وسمع آخر ما قلناه .

فوجه سارازان الحديث إلى المحافظ وسأله :

ما رأي سيادتكم في الموضوع ؟

فأجابه المحافظ بلا تردد :

— أنا من رأي فلان — أي من رأيي — فيجب أن ينتهي الوضع ، حسب وعودكم قبل عيد النصر ، من دون معاهدة ، ولا امتيازات ؟ فامتعض المسؤول الفرنسي الأول في الجبل ، وبلعها ، وغير موضوع الحديث .

وكان موقف المحافظ مفاجأة سارة لي وضعتها في كفة التعاون الممكن معه في مقبلات الأيام .

كانت حفلة استقبال المحافظ — على ما تخللها من أحاديث هادئة حيناً ، صاخبة حيناً آخر ، وعلى ما دار فيها من نكات لاذعة ضاحكة — كانت نوعاً من جس النبض ، أو استعراض القوى المتقابلة قبل بدء القتال ، واعتباراً من صباح اليوم التالي أخذ شريط الحوادث يكر في سرعة كبيرة ، لا تدع مجالاً للتفكير أو الاختيار .

كان علينا أن نتحرك . كان علينا أن نعبيء الشعب كل الشعب ،

مثلما كانت صفوفنا المنظمة معبأة ، لقد كنا نعرف أن السبب الرئيسي في فشل ثوراتنا السابقة هو التجزئة ، فقد كانت تقوم الثورة في إحدى المدن ، أو المحافظات ، وتحتدم المعارك ، دون أن تهتم المدن أو المحافظات الأخرى ، حتى ان بعض المحافظات كانت تقدم لجيش المستعمرين الزاحف على المحافظة المجاورة الثائرة كل التسهيلات الممكنة ، كوسائط النقل والمؤن وسواها ، ولم تفكر مدينة أو محافظة في تجربة المقاطعة أو المقاومة السلبية مؤازرة منها للمدينة أو المحافظة الأخرى — وان حدث شيء من هذا القبيل فانما كان يحدث دونما دراسة ، أو توقيت أو تخطيط ، بحيث كان يضيع سدى .

ومن هنا درسنا فكرة توحيد المعركة هذه المرة ، لكيلا يقال انالبلاد منقسمة على نفسها من جهة ، ولتجميد كل قوة للعدو في مكانها ، من جهة أخرى . فهو هكذا لا يستطيع أن ينقل قواته من مدينة إلى أخرى ، أو من محافظة إلى أخرى ، في حرية ، مادام الوضع في جميع المدن والمحافظات متشابهاً .

كانت سلسلة اجتماعاتنا التوحيدية متتابعة ، وفي أحد هذه . الاجتماعات ، درس اقتراح بالقيام بزحف مسلح إلى دمشق ، حيث كانت الأزمة في أوج احتدامها، مبررين هذا الزحف بكونه ضروره قومية ملحة للرد على زعم الفرنسيين بأن الجبل بيدهم كالخاتم ، وزعمهم الآخر ، الذي طالما تسلحوا به ، وهو أن الوضع الانفصالي ، الذي أقاموه سابقاً في الجبل يمثل اختلافاً حقيقياً في السكان والتفكير والأهداف ، وأن الجبل لن يثور لثورة دمشق ، ودمشق لن تثور لثورة حلب . والجزيرة لن تثور لثورة اللاذقية ، ولاقى الاقتراح استحساناً لدى الجميع فأقر .

وعينا صباح اليوم الثاني والعشرين من أيار ١٩٤٥ موعداً لتنفيذ القرار . وفي الموعد المقرر كان عدد من الباصات ينطلق من قلب السويداء ، حاملاً مجموعة مغامرة من الشباب المسلح بما تيسر من الأسلحة الخفيفة ، متجهاً إلى دمشق وكلها ايمان بأن هذه الانطلاقة المتواضعة ستكون بمثابة الشعلة التي ستحيل أرض وطننا ناراً تحت أقدام المستعمرين .

كل العائلات والاتجاهات كانت ممثلة : كلهم انصهروا في بوتقة الفكرة القومية السامية : الكفاح من أجل تحرير الوطن ، وساعة انطلاقتنا من السويداء لم يتأخر رسل التهدئة ووساطة الخير من عملاء الاجنبي ، عن قصداً أو عن غير قصد ، عن نية سيئة مصممة على خدمة الاجنبي حتى النهاية ، أو عن نية طيبة جاهلة لا تعرف لماذا تتحرك ولخدمة من تتحرك ، المهم لديها المحافظة على الوضع كما هو ، ليس في الامكان أبدع مما كان ، ولا تريد التغيير خوفاً من أن يجيء هذا التغيير بأشياء جديدة مجهولة ليست في مصلحتها — جاء رسل التهدئة ووساطة الخير هؤلاء ليثنونا عن عزمنا بالرجاء ثم بالزجر والتقريع — ثم بالتهديد والوعيد .

ولكننا كنا نصدر عن تخطيط وتصميم وكنا قد درسنا جميع الاحتمالات وانطلقنا غير مكترثين للعنات والدعوات الشريرة التي ودعنا بها .

ولدى وصولنا إلى ازرع ، وهي أول موقع عسكري فرنسي في طريقنا إلى دمشق وجدنا حاميتها مستنفرة ، وبلباس الميدان ، واعترضنا قائد الحامية وهو برتبة نقيب ، وأخطرنا بأن نعود ، وألا فانه سيعيدنا بقوة السلاح ، وجاء يخاطبنا بواسطة ترجمان ، فأفهمناه أننا لسنا بحاجة إلى مترجم ، ولا يعتقدون أننا حفنة من الاميين ، بل تحت ثيابنا الوطنية حملة شهادات جامعية وثانوية ودور معلمين — اننا مجموعة من الشباب

المثقف المناضل الذي يعرف ما له وما عليه ، قلنا له تقريباً بالحرف الواحد ما يلي : « إننا ما خرجنا من السويداء للتنزه ، وما خرجنا ولنا أمل في أن نعود أحياء ، ونحن انما خرجنا ووجهتنا دمشق — ولكننا لن نكون مستائين اذا ما حدث لنا حادث في ازرع ، وإننا كنا نتوقع مثل هذا الحادث ، ان لم يكن في ازرع ، ففي سواها ، على أننا صرنا نفضل أن تبدأ معركتنا في ازرع ، الواقعة عند سفح الجبل تماماً ، لأن مثل هذه الحماقة ترتكبونها ستكون أقرب الطرق إلى زج الجبل كله في المعركة ، ولا نعتقد أنكم تجهلون أن الجبل سيبلغه الخبر في دقائق معدودات ، وأنه لن يترك دماء أبنائه تذهب هدراً على مقربة منه ، وإذا كنتم واثقين من قوتكم فاتركونا نمر بسلام ولن تعدموا وسيلة لوقف تقدمنا في غير هذا المكان ، قبل دمشق أو في دمشق ذاتها ، فالخيار لكم) . .

وعندما رأى قائد الحامية تصميمنا ورأى أن الأغلبية الساحقة من الشباب المثقف الواعي الذي يعرف ما يريد وإلى أين يسير ، ورآنانخاطبه بلسانه خطاب المؤمن بحق أمته في حياة العزة والكرامة أمر جنوده بفتح الطريق أمام السيارات فتابعنا السير واجتزنا كل محافظة حوران (درعا) تقريباً حتى بلغنا نقطة تقع بين الصنمين وغباغب : وهناك التقينا عدداً من السيارات الحكومية أشار لنا من فيها بالوقوف فوقفنا وترجلوا ، فترجلنا ، وإذا نحن أمام وفد قادم خصيصاً لملاقاتنا مؤلف من مدير الداخلية العام ، وقائد الدرك العام ، ومحافظ الجبل ، وقائد درك المحافظة ونوابها ، وطلب الوفد إلينا باسم رئيس الجمهورية أن نعود : « لأن المصلحة الوطنية تقضي بذلك ، ولأنه أي رئيس الجمهورية يقدر الظروف وهو في قلب دمشق — العاصمة — أكثر مما نقدرها نحن ، وان الجيش الفرنسي حشد

عدداً من قواته في الكسوة لمنعنا من دخول دمشق ، ولأن الحكومة لا تريد أن تقع المعركة مصادفة ، بل تريد أن تختار هي ساعة المعركة .

ولأن أنباء هذا الزحف قد وصلت إلى دمشق وطيرتها وكالات الانباء الى مختلف انحاء العالم ، وذكرت هذه الانباء ان عددكم يقدر بالالاف ، وبات الفرنسيون في قلق زائد ، واحدثت هذه الانباء اثراً بعيداً في جميع الاوساط السياسية والعسكرية ، فاذا تابعتم سيركم وانتم قلة فسيزول هذا الاثر وتأتي النتيجة عكس ما يتوخى الجميع .

فمانعنا واظهرنا تصميمنا على الوصول إلى دمشق ، لأن الرجوع الى السويداء سيكون له اثر سيء ايضاً — ونحن يهمنا الموقف في السويداء كثيراً لأن الفرنسيين يعتبرون الجبل بيدهم ورقة رئيسية رابحة .

وبعد أخذ ورد اقترحنا على الوفد حلاً وسطاً وهو أن نعود ، ولكن ليس وحدنا ، بل يرافقنا الوفد إلى السويداء وهناك يرى الناس أننا إنما عدنا تنفيذاً لرغبة رئيس الجمهورية ، وبالتالي تلبية لنداء المصلحة الوطنية العليا ، ويرى الناس أن الحكومة مهتمة بالوضع في جميع المحافظات ، ما دامت ترسل مثل هذا الوفد ، في مثل هذه الظروف ، إلى السويداء ويرى الناس أن هؤلاء الشبان الذين خرجوا من السويداء صباح هذا اليوم لم يكونوا على ضلال ، ولم يكونوا كما مهملاً ، ما دامت الحكومة قد اهتمت بأمرهم مثل هذا الاهتمام ، ونحن بأمس الحاجة إلى التفاف المزيد من الجماهير حول حركتنا .

وعدنا ، تتقدمنا سيارات الوفد الحكومي ، وما بلغنا مداخل السويداء حتى كانت تغلي كالبركان — لقد خرجت المدينة على بكرة أبيها للقائنا ، واشتركت الآلاف في اجتماع شعبي سادته روح من الحماسة الفناها في

المناسبات القومية الخطيرة ، وتبودلت الخطب بين الوفد والاهلين ، وأطلقت شعارات التحرر والوحدة والجلاء ، ملء الفضاء ، وبتنا ليلتنا تلك مطمئنين إلى الغد كل الاطمئنان .

وجاءت الصحف السورية واللبنانية في اليوم التالي تحمل النبأ في صفحاتها الأولى ، وجعلت منه عناوينها الرئيسية ، فازداد الشعب حماسة على حماسة وأصبح الموقف في منتهى القوة والتماسك .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

الخطة والمعركة

او الانقلاب والتحرر

منذ تلك الساعة أصبح الجو مشحوناً قابلاً للانفجار في أية لحظة ، وفي اليوم التالي تم تدارس الموقف مع المسؤولين عن الحركة من الضباط وتم الاتفاق على ما يلي :

١ ـ لابد من التعاون مع المحافظ السيد حسن الأطرش ، بوصفه ممثلاً لرئيس الجمهورية .

٢ ـ لا يجوز أن يطلع المحافظ على اسم أحد أركان الحركة العسكريين قبل تحديد ساعة الصفر ، احتياطاً للاحتمالات ولأسوأ الاحتمالات.

٣ ـ وعلى هذا الأساس ، يكلف المحافظ سراً أن يذهب إلى دمشق ، ويأخذ موافقة رئيس الجمهورية على أن يأخذ الضباط والجنود برتبهم ورواتبهم في الجيش الوطني العتيد ، حالما يحررون المنطقة من الفرنسيين- وتترك لهم حرية التصرف واتباع الوسائل التي يرونها مؤدية إلى هذا الغرض ، وعلى المحافظ أن يبلغ رئيس الجمهورية أن هذا القرار لا يجوز الرجوع عنه من حيث الجوهر لأن وضع الضباط وسائر العسكريين المتفقين على الحركة ، سيكون في منتهى الخطورة ، إذا لم يوافق عليه ، وإذا توصل الفرنسيون إلى اكتشاف الخطة »

٤ – يقوم أمين سر فرع العصبة بابلاغ المحافظ هذا القرار ويتلقى جوابه بعد رجوعه .

وفي صباح ٢٧ أيار ١٩٤٥ طلبتُ مقابلة المحافظ في منزله على انفراد فتمت المقابلة ودار الحديث على النحو التالي تقريباً : قلت للمحافظ :

– « أنت تعلم أن شعبنا يخوض معركة مصيرية ، وأن جميع المحافظات تتسابق في سبيل أداء الواجب ، وأنت تعلم أن الفرنسيين يحسبون الجبل في جيبهم – وقد أدخلت دعايتهم في أذهان الكثيرين هذا الادعاء كمسلمة رياضية لاتقبل النقاش ، فلكي نمحو هذه الفكرة الراسخة في الأذهان ، ولكي نعيد إلى هذه الأذهان سمعة الجبل المعطرة التي طبقت الآفاق أيام ثورتنا الرائعة ، ثورة ١٩٢٥ – ١٩٢٧ ، يجب أن نضرب ضربة مذهلة اليوم ، ونحن قادرون على ذلك ، فاذا وافقتني على الفكرة ، تابعنا الحديث في التفاصيل » . .

– « أنا معك ، وقد لاحظت موقفي تلك الليلة في النقاش بينك وبين سارازان – ولكني عاتب عليكم ، عاتب عليكم لعدم اشراكي في تفكيركم وخططكم وأنتم تعلمون كم أنا مشوق إلى توجيه هذه الصفعة إلى الفرنسيين »

– « لا مجال للعتاب الآن ، فكل نقاش والعدو يملأ الديار مضيعة للوقت ، لك علينا مأخذ ولنا عليك مآخذ عديدة ، وأنا الآن أخاطبك بصفتك الرسمية ، لا الشخصية والعائلية ، أخاطبك بوصفك ممثلاً لرئيس الجمهورية .

– « قل ما تريد وسأثبت لكم أنني على مستوى أي عمل وطني وقومي وأنني مستعد لتضحية وظيفتي وحياتي وأولادي في سبيل هذا الوطن »

– « نحن نريد منك أن تنزل الآن إلى دمشق وتقابل رئيس الجمهورية وتأخذ موافقته المبدئية على قيام حركة عسكريةترمي إلى قلب الوضع في الجبل وتحريره نهائياً من الفرنسيين . والموافقة بالتالي ، على اعتبار القطعات التي ستقوم بالحركة قطعات في الجيش الوطني . بحيث يحتفظ كل ضابط أو جندي برتبته وراتبه ، وتفهم رئيس الجمهورية أن الحركة ستقوم في جميع الأحوال ، فمن الأفضل أن تكون بعلم الحكومة وتوجيهها ، حتى لا نسبب للحكومة تعقيدات ونوقعها في متناقضات هي في غنى عنها ، فاذا لم نسبق الفرنسيين بالضرب سينتهزون الفرصة لتوجيه ضربتهم إلى جميع العناصر الموثوق بها في القطعات ، والقضاء عليها » .

– «وهل لي أن أعرف تفاصيل أوفى عن هذه العناصر » .

– « بعد رجوعك بالموافقة ستطلع على كل شيء ، ما دامت الحركة ستوضع تحت قيادتك ، ولكن الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أؤكده لك هو أن هذه الأجهزة تسيطر على أكثرية الجيش وأن النجاح مضمون مائة في المائة » .

وفي الجلسة ذاتها . استدعى المحافظ سائق سيارته ، وخرج باتجاه دمشق ، ورجعت إلى منزلي بانتظار عودته وجوابه وكانت تلك اللحظة من أسعد لحظات حياتي وأخطرها في آن واحد .

بعد ظهر اليوم التالي ، ٢٨ أيار ١٩٤٥ جاءني الشرطي المرافق للمحافظ ، وأبلغني أنه ينتظرني في منزله – فذهبت لمقابلته – وهناك أبلغني أن رئيس الجمهورية وافق على طلب الضباط ، فقلت :

– هذا عظيم جداً ، فمتى تريد أن تقوم بالتنفيذ ؟

قال :

ـ الليلة .

قلت :

ـ وأين تريد أن يكون الاجتماع ومتى

ـ في بيت الضابط الطبيب توفيق عز الدين الساعة كذا .

ـ اعتباراً من هذه الدقيقة أنت القائد وأنت مسؤول عن كل شيء ـ لن يظهر في الاجتماع أحد من المدنيين ولن يعلم أحد بشيء ـ فأي خطأ مهما يكن بسيطاً يؤدي إلى كارثة ـ سأرسل إليك ضباطنا بالطريقة التي أعرفها ويعرفونها وأنا مسؤول عن كل فرد منهم . أما الضباط الذين لك بهم صلة خاصة وتريد اشراكهم في الحركة فمسؤوليتهم تقع عليك ـ مسؤولية القائد (قلت ذلك لأن الضابط الذي اختير بيته مكاناً للاجتماع لم يكن من تنظيمنا ولكنه كان موضع ثقة ولا يشك في إخلاصه لأنه مناضل قديم ، وابن أحد قادة الثورة ، واستدللت من هذا على أن المحافظ كان له صلة ببعض الضباط من خارج تنظيمنا) .

طلبنا من الله التوفيق ، وودعت المحافظ عائداً إلى منزلي ، وكأن شيئاً لم يكن ـ وبعد الغروب ذهبت للقاء الضابط المسؤول عن التنظيم العسكري وأبلغته النتيجة واتفقنا أن يتم الاتصال بكل ضابط وصف ضابط اتصالاً شخصياً ، وان يعين لكل واحد الطريق الذي يجب أن يسلكه إلى مكان الاجتماع . بحيث لا يذهب اثنان في آن واحد ولا في طريق واحدة .

واتفقنا على أن استنفر عدداً من قادة التنظيم المدني ، ليكونوا على

أهبة الاستعداد ، وجمعت عدداً منهم في بيتي المجاور لمكان الاجتماع العسكري ، الخطير ، وعينا أماكن التجمع للآخرين .

وبقينا ساهرين طوال الليل بلباسنا الكامل وبعضنا بسلاحه وحوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، جاءني أحد ضباط الصف وطلب إلي تهيئة عدد من الاعلام السورية ، لأن العدد الجاهز منها لا يكفي ، فهيأنا ما طلب واتخذت مع رفاقي المدنيين الترتيبات التالية :

١ ــ بما ان العسكريين سينشغلون في المنطقة العسكرية المؤلفة من عدة قلاع وثكنات ، ومن نادي الضباط وبيوت الضباط ، وكلها تقع في المنطقة الشرقية المرتفعة من المدينة ، فعلى المسلحين من المدنيين أن يقوموا بحماية المؤخرة وذلك بأن يرابطوا في مداخل الشوارع ، والطرقات ، عند الخط الفاصل بين المدينة والمنطقة العسكرية ، أي قرب دار الحكومة والساحات القريبة منها والجسور المحيطة بها . وذلك لأنه من المحتمل أن يبادر انصار الفرنسيين الذين سكروا بخمرة النصر يوم ٨ أيار ، إلى محاولة نجدة الضباط الفرنسيين وأحداث فوضى ومعركة جانبية تؤدي إلى فشل الحركة . ولم يعد سراً ان كل عضو منظم في العصبة كان يعتبر حارساً للعروبة أي أن تنظيم العصبة المدني كان شبه عسكري ، وهذا ما ستبرز مزاياه في هذه المناسبة وفي مناسبات وطنية وقومية أخرى .

٢ ــ بما أنه من المحتمل أن تحصل مقاومة وأن تأتي قوات من ازرع أو من سواها لنجدة الفرنسيين فان عدداً من المسلحين رابط عند مدخل المدينة من ناحية الغرب (طريق دمشق) .

٣ ــ في حال نجاح الحركة سيتم التنسيق بين القطاعين العسكري والمدني حسب تعليمات القيادة الوطنية .

كانت دوريات الفرنسيين الآلية ناشطة طوال الليل ، ولكن السرية التامة التي أحيط بها كل شيء ، لم تمكنهم من معرفة ما كان يعده الشعب المؤمن المناضل ، لانهاء احتلال مر عليه خمسة وعشرون عاماً ، وكان لنا بين هذه الدوريات من يعمل لنا بحكم انتمائه إلى التنظيم العسكري .

وهكذا كانت المفاجأة تامة : وقاد المحافظ الحركة ببسالة نادرة وهو بلباس الميدان ومسدسه الرشاش بيده ، أسر سارازان بعد ممانعة ومحاولة استغاثة فحمله أحد الرقباء تحت ابطه وألقاه في السيارة ، وكذلك أسر جميع الضباط الفرنسيين — وتم الاستيلاء على القلعة والثكنات الأخرى بلا مقاومة تذكر — أحد الضباط القدامى — مع أنه كان من الثائرين البارزين عام ١٩٢٥ — ١٩٢٧ — حاول أن يقاوم مطلقاً عبارات «الوفاء، والاخلاص ، والرجولة » فأفهمه الضباط الثائرون أن الأمر لا يحتمل أي جــدل أو تردد ، فإمــّا الاستســلام وامــا الموت ، فاستســلم وكانت القطعة المكلفة رفع العلم ، شروق كل يوم ، في طريقها إلى الساحة الواقعة قرب مقر المندوب الفرنسي لترفع العلم على أنغام السلام الوطني الفرنسي ، عندما اعترض الثائرون طريقها وأجبروها على أداء التحية للعلم الجديد الذي رفع ساعة الشروق تماماً لكن على أنغام « حماة الديار » . رفع علم البلاد صبيحة اليوم التاسع والعشرين من أيار ١٩٤٥ تحرير جبل العرب ، نهائياً في ذلك اليوم الرائع المجيد .

واستيقظت المدينة فاذا الاعلام الوطنية ترفرف شامخة مزهوة في تظاهرة عفوية ، انتهت أمام دار الحكومة حيث كان المحافظ قد عاد مع أركان قيادة الحركة لتحية الجماهير ولمتابعة العمل وكانت الجماهير تنتظر كلمة من المحافظ ولكنه كان عاجزاً عن الكلام لانفعاله الشديد ، ولأن صوته كان قد بح فكلفني أن ألقي كلمة باسمه — ففعلت .

نتائج الانقلاب وحماية الوضع الجديد :

من الضروري ، لكي نعرف مدى خطورة الوضع الناتج عن الانقلاب ، . . ان نتصور هذه المحافظة الصغيرة وقد تحررت تماماً، وأن ديغول قد أعلن من راديو برازافيل أن الجيش الفرنسي مسيطر على كل مكان في سورية ، إلا في محافظة « جبل الدروز » حيث خرجت السيطرة من يده بالكلية ، من الضروري أن نتصور وضعنا عشيةيوم ٢٩ أيار ١٩٤٥ ، وقد وردت أخبار قصف دمشق بالقنابل ، ومجزرة البرلمان، وتشتت قوات الدرك والمتطوعين ويوم ٣٠ أيار عندما مر بالسويداء بعض القادمين من دمشق في طريق هروبهم إلى الأردن ، وعندما تمكنت فلول من الجنود من مغادرة السويداء هاربة في سيارة أو سيارتين من نوع نصف الشاحنة بيك آب . ملتحقة بالفرق التي ما زالت تحت القيادة الفرنسية ، لعدم إيمانها بالنصر النهائي ، شأن المتفهين المترددين في كل مكان وزمان ، ويوم بدأت جماعةالأنصار الذين صعقتهم المفاجأة تستعيد وعيها شيئاً فشيئاً . وتدرس امكانية الدخول في معركة مسلحة من أجل فك الأسرى والقيام بانقلاب معاكس ، ويوم بدأت وفود القرى تؤم السويداء للمشاركة في أفراح التحرر من جهة ، وللمشاركة في الاستيلاء على الاسلاب ، من جهة أخرى ، ويوم بدأ بعض الأشخاص ينهبون ما تصل إليه أيديهم من سلاح أو ذخيرة، أو متاع مفيدين من انهماك الجيش بأعماله العسكرية ، من الضروري دراسة الوضع الجديد في إطاره الحقيقي هذا لندرك مدى أهميةالتدابير التي اتخذت لحمايته:

من البديهي أن ارتباطاً وثيقاً قام بين قوات الجيش والشعب منذ ما قبيل الانقلاب ، ودام حتى استقر الوضع نهائياً أي عندما أقر مبدأ

تسليم الجيش إلى سورية والجلاء التام عنها . وكان ذلك الارتباط ضروري لمواجهة كل احتمال يأتي من الخارج أو من الداخل . فقد شكلت في الجيش فرقة من الفدائيين ، وشكلت من رجال الجيش ورجال الشعب فصيلة سميت « فصيلة الموت » . وبدأ مكتبا الفرقتين يستقبلان الزوار من المؤيدين ، ويستقبلان المتطوعين بينما كانت تقوم دوريات مسلحة بالطواف في أرجاء المدينة وجميع الأماكن العامة من جسور ، ودور حكومية ، وبيوت بها أجانب ، ومدارس . . وشددت المراقبة على المشبوهين ، ومنع التجول ليلاً في الأماكن المحيطة بالمراكز العسكرية وموضع أسر الضباط الفرنسيين (في دار المحافظ) وقسمت المدينة إلى مناطق اختص العسكريون بحراسة بعضها واختص المدنيون المسلحون بحراسة البعض الآخر ، واشتركت الدوريات من الفريقين بكلمة سر واحدة ، ونظمت دوريات تفتيشية مشتركة للطواف ليلاً على مراكز الحراسة — وكان كل واحد منا يعرف نوبته ، ويذهب لأداء واجبه في الوقت المحدد له ، كما لو كان قد قضى حياته في الجيش ، إنها المزايا القومية الكامنة تستفيق في النفس كلما وجدت الأمة نفسها أمام خطر يهدد كيانها وَوَعَتْ حقيقة وجودها .

وأعيد تنظيم القوات المسلحة من هيئة أركان الحرب حتى المفارز وصدر قرار عن المحافظ بوصفة قائداً أعلى لقوات المحافظة يقضي بطرد كل جندي انفصل عن قوات الجبل والتحق بالقوات الفرنسية ، وكل جندي لا يلتحق بفرقته ، خلال ٤٨ ساعة من صدور القرار ، وكان قد صدر في دمشق قانون حماية الاستقلال تمهيداً لتسليم الجيش عنوة إذا لم يتم تسليمه رضاء (صدر القانون في ١٩٤٥/٥/٢٦) .

وبسبب من الاستيلاء على أوراق دائرة المخابرات الفرنسية صار من السهل معرفة المتعاملين معها ومراقبتهم ولكن التجربة أثبتت أن هذا الصنف من الناس هو أول من يتخلى عن سيده ويتنكر له عشرين مرة (قبل صياح الديك) .

وان كنت آسف لشيء فلأن مزية التسامح في الأمور الخاصة ، عندنا نحن العرب ، وهي فضيلة ، قد تحولت إلى تسامح في الأمور الوطنية والقومية ، وهي نقيصة ، لقد وضعت ملفات المخابرات الفرنسية في بيت المحافظ وأجاز لي الاطلاع عليها متى شئت ، وقد رأيت فيها ما يثير الاشمئزاز والقرف : رأيت كيف كان العملاء يخدمون الاجنبي أكثر من بعض الاجانب أنفسهم ، رأيت كيف كان بعض السياسيين الكبار الكبار يوصفون في برقيات فرنسية سرية للغاية بأنهم أخلص ما يكونون لفرنسة ، ومحونا الماضي — وقلنا أن التحرر ، يجبّ ما قبله ، وكانت هذه أكبر خطيئة ارتكبت بحق هذا الوطن وهذه الأمة ، لأنها ساوت بين الاخلاص والخيانة ، بين النزاهة والارتكاب ، بين النضال والانتهازية ، بين الثائر المستشهد والعميل الغادر ، ولكننا فعلنا ذلك تفادياً لحرب أهلية عشائرية لم يحن وقتها بعد .

بعد حوالي ثمانية أيام قدمت فرقة من الجيش الانكليزي فتسلمت الأسرى الفرنسيين وخرجت بهم إلى غير رجعة — وكان ذلك آخر عهد أرض الجبل العربي بجندي أجنبي ، عام كامل تقريباً قبل الجلاء التام عن سورية (١٧ نيسان ١٩٤٦)

أما النتائج التي ترتبت على هذا الحدث العظيم ، فهي خطيرة حقاً ، لقد كان الفرنسيون يتوهمون ويوهمون العالم أن هذا الجبل إحدى قلاعهم الحصينة ، في الشرق ، فاذا هو يثبت للفرنسيين وللعالم أنه من

أمنع قلاع العروبة في دنيا العرب – وأنه صخرة عاتية تحطمت عليها رؤوس المستعمرين ، وأن أرضه الطيبة التي تحولت إلى مقبرة للفرنسيين عام ١٩٢٥ – ١٩٢٧ كانت أول أرض طهرت نفسها من دنس الاحتلال عام ١٩٤٥ . وكانت الضربة الموفقة في السويداء يوم ٢٩ أيار ١٩٤٥ من أشد الحوافز لبقية المحافظات لتكيل ضرباتها المتتالية للغاصبين .

وقد درست في دمشق فكرة نقل مقر رئاسة الجمهورية ومركز الحكومة إلى السويداء ومتابعة القتال حتى النصر الأخير ، وكان هذا التهديد من أنجع الأسلحة التي أجبرت فرنسة على التقهقر والتسليم بحق سورية في التحرر والسيادة بلا قيد أو شرط .

وكان حدث الجبل أول درس يسطر في ان ارادة الشعوب لا تغلب ، وان جمع القوى : الشعب والجيش في عمل واحد ومن أجل هدف واحد يؤدي إلى خلق قوة لا تقهر .

تجاهل المؤرخين :

من المؤسف أن هذا الحدث العظيم لم يحظ باهتمام مؤرخي الحركة التحررية في بلادنا . إنهم لم يدركوا أبعاده ، لم يحاولوا أن يدرسوه لم يحاولوا ان يمنحوه أكثر من بضعة أسطر مهملة ، بل أكثر من ذلك : لقد اطلعت على كتاب مدرسي يصف باسهاب كل الحوادث التي وقعت في كل محافظة سورية عام ١٩٤٥ . وبعد أن ينتهي يقول في منتهى الجهل أو التجاهل .

« أما في جبل العرب فقد خرج الفرنسيون بدون قتال ، » حتى ليفهم القارىء أن جميع المحافظات قاتلت وتحررت ، ولما تحررت ترك الفرنسيون الجبل من تلقاء أنفسهم . لعدم جدوى بقائهم في محافظة

منعزلة ، أما مؤرخو جيل ما بعد الجلاء وكتابه فيحز في نفسي أن أقول أن عمر العالم لديهم لا يتجاوز ربع قرن وان وطنهم جاءهم هكذا بالإرث حراً سهل القياد . . لم يسجل مؤرخونا أن ما تم في الجبل كان أول تغيير للوضع تم نتيجة لحركة شعبية مدنية عسكرية منظمة هادفة قام بها صغار الضباط وضباط الصف والجنود بدور رئيسي في خدمة القضية القومية ، ولكن السياسيين اقتبسوا الاسلوب ليقوموا بانقلابات لتبديل حكم بحكم أو حاكم ، حسب المطامح والمصالح والأهواء ، أو حسب رغبة السادة من الأجانب الأقوياء . . الأغنياء .. من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦١ .

الانتفـاع بالانقـلاب :

كل حركة تقوم ، يصنعها أناس ، وينتفع بها آخرون ، لقد كان الهدف الذي حققه المناضلون من المدنيين والعسكريين في غنى عن كل مكافأة فهل أثمن من الحرية وأنبل من الاستقلال وأسمى من العزة القومية ؟ وقد برهن القائمون بالحركة على نكران للذات وصوفية وطنية قومية مدهشة . فلا تبجح ولا تعال ولا زهو انما اعتبروا الحدث مرحلة في طريق الكفاح الطويلة ، فتابعوا مسيرتهم عبر جميع النكسات ، و نقائص الحكم والحاكمين في سبيل وحدة عربية تحيل الدويلات العربية كلها دولة واحدة لها كلمتها في مصير العالم ، ولها دورها في مستقبل الدنيا . وأين من هذه المطالب القومية الخالدة ، الامجاد الشخصية والمصالح الخاصة الزائلة ، التي تتلون بألف لون وتتسمى بألف اسم ؟..

وكن الذين استثمروا الانقلاب كانوا من غير القائمين به — على الأعم الاغلب ، وقد توصلوا — مع الأسف — إلى حمل بعض الصحف

على نشر وقائع غير صحيحة ، لكي تنشر رسومهم وأسماؤهم ولكي تكون ، لهم مراكزهم المرموقةفي العهد الوطني . الذي لم يؤمنوا به ولم يعملوا له إلا بعد ما يئسوا من بقاء فرنسه ، وبعدما نصحت لهم فرنسة ذاتها ان « يدبروا حالهم » في نطاق الأوضاع الجديدة ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . . ولن أقول شيئاً عن تصرفات بعض كبار المشتركين في الحركةفي أعقاب الانقلاب أو في السنين التالية فليس الأمر جديداً مادام عنترة نفسه قد قسم القائمين بالمعارك إلى الفئات التالية في بيته المشهور :

لنا النفوس ، وللطير اللحوم ، وللوحش العظام ، وللخيانة السلب.

وليس عسيراً على من يطالع أخبار الانقلابات التي حدثت في سورية ، ابتداء من انقلاب حسني الزعيم عام ١٩٤٩ ، أن يجد في هذه الانقلابات أثراً من الذين قاموا بانقلاب السويداء الوطني عام ١٩٤٥ بعضهم غير لونه ودوره عدةمرات من أجل غايات لا يدرك أبعادها— أكثر الأحيان مكتفياً بما يحصل عليه من شهرة شخصية ومن ثروة ، ولا أريد أن أفصل أكثر من ذلك ، بامكان من يريد المزيد من هذه التفاصيل أن يجدها في صحف تلك الأيام . وفي ملفات تلك الحركات في محفوظات الجهات المختصة في الدولة . .

كنا قبل التاسع والعشرين من أيار قد نظمنا أعمال مراقبة المشبوهين ، (أعمال الرصد حسب التعبير الحديث) ، فكانت تردنا معلومات عن تحركهم ، وأين يقضون سهراتهم ، وبمن يتصلون ، حتى تكونت لدينا استنتاجات صحيحة بالغة الفائدة ، وصرنا نعرف أنصار الفرنسيين واحداً واحداً ، وكانت اكتشافاتنا في بعض الأحيان مذهلة ، لأنها لم تكن أبداً

متوقعة — وكنا قد وضعنا نصب أعيننا احتمال الفشل ، فرتبنا خطة للجوء الى البلدان العربية المجاورة ، ولكننا كنا أكثر ثقة بالنجاح ولهذا فكرنا في أن نقنع المسؤولين في دمشق بنقل مقر الحكومة إلى السويداء وتحرير القطر كله انطلاقاً من هناك ، وهذه الفكرة سبق أن تبناها الثائرون القدامى في احدى مراحل الثورة المسلحة .

وبعد نجاح العملية وسحب الفرنسيين نهائياً من المحافظة ، أقمنا باسم العصبة حفل تكريم للضباط وصف الضباط الذين قاموا بالعمل ، دعونا اليها المحافظ ، وسلطان قائد الثورة المسلحة ، ونخبة من جميع العائلات لتمتين الوحدة الوطنية ، ونجح الحفل بما ساده من تنظيم وما برهن عليه الشباب من مزايا الانضباط والحزم وحسن التصرف .

وقد شعر كل من حضر الحفل بأن كل واحد من هؤلاء الشبان جندي من جنود العروبة فعلاً ، وأنه سيكون لهم في المستقبل شأن أي شأن.

ولا بد لي ، هنا ، قبل أن انتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل الكفاح ، من تسجيل ذكرى عطرة ممزوجة ، بكل عواطف الأخوة والفداء ، إلى جميع الرفاق الذين هم القوة المفكرة والضاربة كانوا هم مصدر التوجيه والتنفيذ ، فأنا ما كنت قوياً إلا بهم ، وما كنت قادراً إلا من خلالهم ، وما كنت شيئاً لولاهم ، لولا تطوعهم وتفانيهم وثقتهم الغالية التي كنت أقابلها بالحب والايثار والاحترام ، حتى لم أدع واحداً منهم يشعر مرة واحدة أن العلاقة بيننا علاقة هرمية ، بل كانت دائماً علاقة أفقية ، ولكن متينة ، علاقة المتساوين في كل شيء ، الواثقين بأن ما من أحد بينهم يستعلي أو يستغل بل أصبح التقدم يعني الاقدام على الخطر قبل الآخرين والمزايدة تعني المزيد من التفاني والتضحية في كل المجالات .

ولا أنسى كذلك أن أنوه بالدور المشرف الذي قام به من كان منهم خارج المحافظة آنذاك . فأبلى البلاء الحسن في معارك المحافظات الأخرى .

كما لا أنسى الاخوان الذين كانوا وان لم ينتظموا في صفوف العصبة — مؤازرين مندفعين كثيراً ما تقدمونا وتجاوزونا في الاستبسال والتضحية ولا أنسى عائلات برمتها من عائلات السويداء وسائر القرى كانت تضع جميع امكاناتها البشرية والمادية ، تحت تصرف الحركة الوطنية الصاعدة ، وكم حز في نفسي ما عرفته من أسرار الفقر والحاجة البالغة حد الجوع ، لدى عائلات مستورة ، كانت تشد الأحزمة وتخرس صوت الحاجة وتسير غير لاوية على شيء .

وتجدر الملاحظة هنا أنه لولا الجو الوطني العام الذي أوجدته هيئة الشعب الوطنية لما كان ممكناً أن يحدث ما حدث ، فالشعب كله شارك في تسهيل العملية والفضل يعود إلى الشعب لا إلى فرد واحد ، أو مجموعة واحدة ، فانضف هذه الصفحة المجيدة إلى تاريخه النضالي المجيد وحسب الواحد منا أن يشعر بأنه يشكل نقطة مجهولة من نقاط هذه الصفحة.

ولئن كانت أسماء المنفذين الفعليين محفوظة في سجل خاص يرجع إليه للرد على الادعياء . فان ذلك لا يجيز لنا أن ننسى دور الشعب المناضل كله فهو مصدر الالهام ومصدر القوة وهو صاحب الفضل أولاً وأخيراً . .

الفصل التاسع والعشرون

مقدمات المعركة الاجتماعية

عندما نقيس الأمور بمقاييسها الصحيحة نجد أن شعبنا مدين لهؤلاء الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم وقرروا تحرير محافظتهم صباح ٢٩ أيار ١٩٤٥ ، والذين لولاهم لتغيرسير الأمور ، ولكنا ــ ربما ــ بقينا نعاني من الاحتلال ردحاً آخر من الدهر ، حتى يقوم فريق آخر من شعبنا المناضل . الذي لا يمكن أن ينام طويلاً على ضيم ، باتمام واجب التحرير . . وأكرر ان الكثيرين من الانصار والأصدقاء كانوا في فعاليتهم مثل أحسن المنظمين وأحياناً أفضل من أحسنهم ــ ولكي أزيد القارىء علماً بما تم داخل فرع العصبة من أيار ١٩٤٥ حتى أيار ١٩٤٦ ، أقول ان عدد المنتسبين إلى الفرع بلغ ٢٥٨٢ عضواً منهم ٥٦٩ من العسكريين وقوات مسلحة ، والباقون من المدنيين ، وهناك عدد لا يستهان به ــ لا يقل عن خمسماثة عضو ــ من الذين حالت ظروف عملي في النصف الثاني من ١٩٤٦ ، وفي عام ١٩٤٧ دون تسجيلهم ، بحيث يكون عدد العصبيين في فرع الجبل قد بلغ ثلاثة آلاف عضو على وجه التقريب .

نحن لم نحب أن نتاجر بعمل قمنا به على اعتبار أنه واجب مقدس . ولم نكشف أسماء عناصرنا العسكرية اطلاقاً ، احتياطا للتغيرات الممكنة ، وحرصاً على أمنهم وسلامتهم في عملهم الوظيفي داخل جيش وطني فتي لا يجوز أن يكون فيه أي ولاء لغير الأمة والوطن من خلال انضباطه وطاعته لقادته النظاميين ، أي أننا لم نقبل لأنفسنا التدخل بشؤون الجيش بعد صيرورته جيشاً وطنياً صرفاً ، وبعد جلاء الجيش الفرنسي المحتل.

إلا أن تيارات جديدة بدأت تظهر وتفرض نفسها — وكان لا بد أن يكون لنا موقف محدد منها :

كان بعض الطلاب الجبليين يتلقون العلم في ثانويات دمشق أو دار المعلمين أو بعض كليات الجامعة — وانضم بعضهم إلى حركة البعث العربي الذي كان قيد التأسيس ، ولدى أوّل احتكاك بالطلاب البعثيين تبين لنا أنهم حلفاء طبيعيون ليس بيننا وبينهم من خلاف من حيث الأهداف القومية البعيدة المدى (الستراتيجية بتعبير اليوم) على الرغم من بعض الاختلافات المرحلية (التكتيكية بتعبير اليوم أيضاً) ، وبعضهم كانوا قد مروا بالعصبة قبل انتمائهم إلى البعث (الذي كان ما يزال حركة فكرية وليس حزباً) ، وقد تعاونا في مجالات نضالية مختلفة ، وكنا نسير في التظاهرات معاً ، لمناسبة ذكرى وعد بلفور مثلاً ، أو احتجاجاً على أسر الحكومة الوطنية في لبنان ، فهم لا يعرفون أن لفظة (بعث) واردة في ميثاق العصبة بالذات — ولكنهم كانوا يحصرون نشاطهم بين صفوف المثقفين عامة والطلاب منهم خاصة — بينما كانت العصبة أوسع قاعدة وأعضاؤها أكثر تنوعاً ، هذا في العاصمة ، إلا أننا نحن في الجبل ،

لم نتوسع إلا داخل صفوف الشباب وكنا مضطرين إلى إكثار عدد المنتسبين لمقاومة التيارات المضادة : المستعمر وحلفائه ؛ ثم كثيرون استغلوا هذا الحدث القومي العظيم فراحوا ينشرون أسماءهم وصورهم في الصحف على أساس أنهم من عناصر التنظيم الذي قام بالعملية وبعضهم ألف الكتب ليعطي نفسه كل شيء ويحرم غيره من أي شيء ، وهنا أقف مع ضميري أمام التاريخ وأمام شعبنا لأقول : أن لا صحة لأي ادعاء خارج هذه الأسماء ، الواردة في السجل المحفوظ والمحفوظ منذ عام ١٩٤٥وكل ما كتب خلافاً لذلك فهو كاذب مختلق ولا سيما كتاب مذكرات ضابط عربي في الجيش الفرنسي للمرحوم أبو حسن الصباغ ، عن موضوع ٢٩ أيار بالذات وكتاب فؤاد يوسف الأطرش ، الدروز وما جاء فيه عن الحركة الشعبية ، وأنا آسف أن توجد أقلام يطيب لها الاختلاق والتزوير والتزييف في قضايا تاريخية يعالجونها كما يعالجون الحكايات والأساطير وأحلام اليقظة ، لقد آن للحقيقة أن تظهر بلا تزوير ولا تزييف ولا زيادة ولا نقصان ، وآن للحق أن يعاد إلى أصحابه الحقيقيين لا ادعيائه المزعومين ، فقد انتفع بالحدث من انتفع وتاجر به من تاجر وقد آن لنا أن نقول كما قال الشاعر :

« فياليت القتيل يعود يوماً ليعرف من بكى ممن تباكى . .

يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٤٥ الساعة الخامسة مساء ولد ابني الثالث « رافع » وهنا لابد من وقفة عائلية تلقي ضوءاً على مجرى الأحداث الخاصة

كانت المراسلات بيني وبين العم حسن رافع أبو الحسن المهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية مستمرة منذ أيام الدراسة . وكان يمدني ببعض المعونة المالية من وقت إلى آخر ، هدية رأس السنة ، مثلاً ، وكان شديد

الاعتزاز باسم « رافع » من ناحية تاريخية قومية — ومن ناحية انتساب فرعنا العائلي إليه . وعلى هذا فقد راح يراسل المرحوم الأستاذ مصطفى الرافعي ، وبعض آل الرافعي في طرابلس (لبنان) معتقداً أنه لابد أن تكون هنالك صلة قربى بين فرعنا العائلي هذا وآل الرافعي حيثما كانوا. وعرفت منه أن الأستاذ الرافعي وافقه في كثير من الآراء وأطلعه على معلومات تؤيد القربى على أساس أن آل الرافعي لهم علاقة انتماء إلى عائلتنا ، علاقة لم أعرف كيفيتها ولم أطلع على المراسلات الدائرة بين العم حسن وبينهم .

وكان العم حسن شديد الاهتمام بالأدب والأدباء وكثير المطالعة ، عنده مكتبة غنية تحتوي على كل الكتب التاريخيةوالأدبية المشهورة حتى الأربعينات ، وكان من المهاجرين الواعين قومياً الذين يتابعون الأحداث الوطنية ويسهمون في مد الثورات والحركات الوطنية بالمال والتأييـــدوقد زاد اهتمامه بي حينما صار يطالع مقالاتي في الصحف — فضلاً عن رسائلي المطولة إليه — وقد رغب إلي أن اسمي مولودي الجديد (رافع) احياءللذكرى الحبيبة إلى نفسه ، وقد لبيت رغبته ، في سعادة لا توصف ، وكان قد بحث االموضوع ذاته مع الأخ الدكتور حسين أبو الحسن) ابن أخيه) فسمى ابنه (رافع) أيضاً ، وهكذا أصبح لنا رافعانبدلاً من رافع واحد أطال الله عمرهما ، وقد حققا كل ما بنيناه عليهما من آمال فلقد كانا بعض الحلم الذي أغمض عليه العم حسن عينيه ، عندما غادر هذه الدنيا الفانية .

كنت أبحث مع العم حسن في رسائلناالمتبادلة ، موضوع انتقالي من الجبل ، موضوع الهجرة الداخلية ، إلى دمشق كتجربة . وإذا لم تنجح

التجربة ، فالى القامشلي مثلاً مبدأ الهجرة من حيث هو مبدأ كان متفقاً عليه لأسباب كثيرة ، ليس أقلها ضيق مجال العمل بالمحاماة ، . . الطموح إلى الخروج من منطقة ضيقة مقفلة مادياً ومعنوياً ، إلى العاصمة حيث توهمت أن مجال العمل أوسع ، وان التمركز سهل ؛ ومن أجل تنفيذ الفكرة كان لابد من مساعدة تمكنني من تحمل نفقات الانتقال ومن الانفاق بضعة أشهر قبل أن تصبح لي موارد في مقري الجديد .

وأرسل إلي العم حسن مبلغاً من المال فانتقلت إلى دمشق ورتبت أموري على النحو التالي : استأجرت جزءاً من منزل في حي الشيخ محيي الدين : واتفقت مع الأستاذ تاج الدين الجندي أحد المسؤولين في العصبة على أن أحتل غرفة في مكتبه الكائن في السنجقدار مواجه مدخل القلعة الحميدية في الطابق الثالث من دون أن يكون بيننا علاقة مشاركة ، كل يعمل لحسابه — وكان المرحوم الاستاذ فهمي المحائري قد حصل على امتياز لاصدار جريدة (الحضارة) اليومية ، وشعرت بأنه في ضائقة مالية فأسهمت معه بألف ليرة سورية فضعفت ميزانيتي لأن هذا المبلغ كان يساوي نصف ما أملك واحتفظت بعلاقتي بمحاكم السويداء لتصفيه الدعاوى القائمة وعدم التخلي عن الصلة بالأهلين وبالرفاق الشبان بخاصة ، وصرت أعمل صارعملي للجريدة يستغرق أكثر وقتي أحررها ، أصحح (بروفاتها) أبقى من الساعة السابعة صباحاً حتى الساعة الخامسة بعد الظهر حين تخرج الجريدة إلى الشارع ، فآخذ عددي وأعود إلى البيت لأستريح ، والذهاب والاياب كانا بالحافلة الكهربائية (الترامواي) وأذهب إلى السويداء يوماً أو يومين في الاسبوع فأصرف الدعاوى وأنهي المشاكل ، أما في دمشق فلم أوفق في عمل المحاماة : اذ تبين لي أن المحامي المستجد في المدن الكبرى يجب أن يكون له شريك أقدم منه ، وان يكون هو

متفرغاً لا تشغله جريدة ولا غير جريدة ، وأن يكون له أصدقاء ودعاة ، ولم أكن مستعداً لشيء من ذلك ، وحينما تعبنا من بعد المواصلات في الشيخ محيي الدين انتقلنا إلى الحبوبي المحاذي للشعلان حيث استأجرنا بيتاً مستقلاً لأننا أيضاً لم نشعر بالراحه والهدوء في منزل مشترك ، وصمدنا نحو سنة على هذه الحال ولكنا شعرنا بأننا فشلنا في التمركز في العاصمة ، فكان لابد من العودة إلى الجبل ولا سيما أن الانتخابات الجديدة بدأت تلوح في الأفق ، فعدنا وكان العود أحمد .

هذه اللمحة من الحياة العائلية لا تمثل سوى زاوية محدودة من نشاطي خلال هذه الفترة — والحقيقة ان من أراد أن يعرف ماذا كتبت وماذا حدث من شؤون سياسية عامه تلك السنة ١٩٤٦ يحتاج إلى مراجعة الصحف وقراءة مقالاتي فيها : باسمي الصريح ، أو بتوقيع « جهينة » ، تحت عنوان (الخبر اليقين) وهي الزاوية ذاتها التي كنت أحررها في الجبل تحت عنوان (المجالس والمضافات) بتوقيع « جهينة » أيضاً ، عليه أن يراجع أيضاً ما نشرته في جريدة الزمان العراقية وجريدة الاحرار الدمشقية وفي الصحف والمجلات الأخرى .

لقد أتيح لي تلك السنة ما لم يتح لي من قبل : ففيما عدا مقالاتي في المكشوف والبيانات والخطب السياسية لم يكن بعض ما أكتبه يصل إلى القراء كما هو : بل كان كثيراً ما يعدل أو يحرف وكان ذلك يحز في نفسي واصبر لعدم وجود بديل .

كنت عام ١٩٤٣ وضعت مسودة كتيب بعنوان (ما بعد الحرب) ضمنته أفكاري الاشتراكية ، وقلت ان حل جميع مشاكل العالم بعد الحرب سيكون بالنظام الاشتراكي ، وحددت موقفي من الاشتراكية

على أساس قومي ، بعيداً عن الاممية التي كانت الشيوعية متمسكة بها كثيراً في تلك الايام — وقد أرسلت مسودة الكتاب إلى الشيخ فؤاد حبيش لعله ينشره في منشورات « دار المكشوف » فأجابني بأن مثل هذه الافكار سابقة لأوانها ، والقراء لن يقبلوا عليه وربما سبب لي بعض الازعاجات— واعاده إلي. وفي كانون الثاني وشباط عام ١٩٤٦ ، وضعت بدمشق كتاب « أيها العربي » ضمنته كل تصوراتي للدولة العربية الواحدة وللمجتمع العربي التقدمي ، وأرسلته إلى بغداد ، إلى مجلة « عالم الغد » عن طريق الأخ الاستاذ صبيح الغافقي ، الذي كان له كل الفضل في نشر مقالاتي في صحف العراق ، منذ كان يحرر في جريدة الزمان ، وقد عزمت مجلة عالم الغد على نشر « أيها العربي » وأعلنت عن ذلك وسجلت تحت عنوان الكتاب — من منشورات عالم الغد رقم ٨ — ثم بعد فترة تراجعت الدار عن النشر وما عدت أذكر الأسباب ، وكنت قد نشرت في عالم الغد مقالة ذاع صيتها آنذاك بعنوان : « العرب بين شعوبية القرون الوسطى وأممية القرن العشرين » وقد لخص المرحوم الدكتور طه حسين هذا المقال في المجلة التي كان يصدرها آنذاك (عام ١٩٤٦ (وأذكر أن بعض المحامين العراقيين ذكروني بهذا المقال بعد ثلاث عشرة سنة ، خلال مؤتمر المحامين الذي عقد في بيروت عام ١٩٥٩ .

ساستعرض أهم الأحداث التي جرت عام ١٩٤٦ وكانت لي بها صلة . كانت الاحزاب المعارضة للكتلة قد شكلت تجمعاً باسم اتحاد الاحرار . وكان مؤلفاً من عصبة العمل القومي (فهمي المحائري) جماعة الاحرار (منير العجلاني) الدكتور سامي كبارة والدكتور صبري القباني ، وكان الدكتورسامي كبارة ذا قلم أمضى من السيف في جريدته (النضال) وعدد من كبار المستقلين أمثال الأستاذ سعيد حيدر) رئيس

مجلس الشورى سابقاً ورئيس حزب الاحرار والاستاذ نبيه الغزي المحامي الذي سيصبح قاضياً ثم رئيساً لمجلس الدولة فيما بعد (والأستاذ سعيد محاسن محام ووزير سابق والأستاذ نزهة المملوك والأمير جعفر الحسني الجزائري رئيس المجمع العامي العربي فيما بعد) . والأستاذ علي بوظو (من شباب حزب الشعب فيما بعد (والأستاذ زكي الخطيب — وزير العدل السابق — وكان يتعاون مع هذا التجمع حركة البعث الاشتراكي ، والحزب العربي الاشتراكي .

كان هذا التجمع قد اتخذ لنفسه مكتباً في شارع العابد ، وكانت أول مناسبةسياسية لظهوره هي ٨ آذار ١٩٤٦ ، ذكرى اعلان استقلال سورية ووحدتها (المؤتمر السوري) وألقى الأستاذ فهمي المحائري خطاباً عنيفاً هاجم فيه الحكم على كل مستوياته ، وألقيت خطب عديدة ، وقد كان لي دوري أيضاً فالقيت خطبة تتغلب فيها الخطوط الآنية المحلية — وقد سمعت بعض القوم يتهامسون (ترى هل سيخلقون لنا زعامات جديدة) ؟ . . اذن هكذا هذا كل ما يهم هؤلاء الناس : زعاماتهم وهذه الزعامات يجب أن تكون دمشقية معروفة وإلا فهي مرفوضة مبدئياً ، ويومها أدركت الأسرار كلها : أدركت لماذا يتحدث المؤرخون عن ميسلون ولا يتحدثون عن المزرعة ، أدركت لماذا يعتمون على معاركنا الرائعة خلال العهدين العثماني والفرنسي ، ويبرزون أقل تظاهرة تجري في دمشق ولو اشترك فيها عشرة من الصبية انها عصبية اقليمية ، عصبية عمياء مغرضة هي مرضنا ، نحن العرب ، وهي التي ستكون سبب كل هزائمنا الداخلية والخارجية .

وكانت المعارضة تشتد وتنسق أعمالها : فالانتخابات ستجري عام ١٩٤٧ ، ويجب أن يعدل قانون الانتخاب قبل ذلك ، وهذا موضوع

رئيسي : فبدلاً من انتخاب الوجهاء،سيكون الشعب هو الذي ينتخب كل مواطن عن نفسه ، مباشرة وبلا وسيط ، فمعركة الانتخابات على درجة واحدة معركة أساسية يجب أن تخاض . .

وكانت « الحضارة » والنضال » . رأس الحربة في هذه المعركة إلى جانب « البعث » وبيانات الاحزاب ، وحدث مرة أن أوقفت جريدة النضال للدكتور سامي كبارة . فحصل الدكتور صبري القباني على امتياز جريدة يومية هي (النصال) ، وراحت تصدر بدلاً من النضال فلم يكلف الأمر أكثر من ازالة نقطة من جميع كليشيهات النضال .

ولكن الحكومة من جهتها استشرت في القمع ، ففي يوم ٩ أيار ١٩٤٦ الساعة الحادية عشرة والنصف اعتقل الأستاذ فهمي المحائري بتهمة المساس بمقام رئيس الجمهورية والهجوم على الحكم . وأحيل إلى محكمة البداية الجزائية ليحاكم موقوفاً — وكان مبنى المحكمة — قبل بناء القصر العدلي — مجاوراً لساحة الشهداء من الشمال ، وكانت تظاهرة للمحامين ضد الحكم قل مثيلها— فقد تطوع للدفاع عن الاستاذ المحائري نحو خمسة وثمانين محاميا من ابرز المحامين في سورية ، آنذاك ، من بينهم على ما اذكر الاستاذ سعيد محاسن ، الاستاذ نبيه الغزي ، الاستاذ فيصل العظمه الاستاذ تاج الدين الجندي ، الاستاذ زكي الخطيب . وغيرهم ، وكانت الجلسة الأولى بتاريخ ١٥ أيار والثانية في ١٦ ايار — وقدم طلب لاخلاء سبيله بكفالة فلم يقبل الطلب — وهنا كان لابد من تحرك على مستوى آخر — وكان لابد من اكراه الحكومة — وهي الخصم الحقيقي — بطريقة الضغط الشعبي — فذهبت الى السويداء واعددت برقية شديدة اللهجة فيها دفاع عن حرية المواطنين مع عبارة (يجب

اخلاء سبيل فهمي المحائري) وحمل البرقية المرحوم جميل كوكاش الى سلطان الاطرش ، قائد الثورة السورية الكبرى ، فوقع البرقية وطيرت الى دمشق . وبعد ٢٤ ساعة من وصول البرقية الى رئيس الجمهورية اخلي سبيل الاستاذ المحائري وفي جلسة المرافعة تعاقب على منبر الفداع اثنا عشر محاميا كنت احدهم وقد اغتنموا الفرصة ليقولوا في الحكم والحاكمين مالم يقله مالك في الخمر — وما زلت اذكر كلمة اعجبتني للاستاذ فيصل العظمة حين قال ، ما معناه انه لا يستغرب ان يلاحق الحاكمين امثال الاستاذ فهمي المحائري ، فقد انتهى الجهاد بالنسبة اليهم ، ولم يعودوا يرون اي مبرر للنضال ، ماداموا قد وصلوا ولهذا يرون في نضال الاستاذ المحائري ورفاقه من اجل مستقبل افضل لكل الشعب شططا لا يجوز التساهل فيه ، وتهديدا لرؤيتهم الخاصة يهزها ويملؤهم قلقا على طمأنينتهم الخاصة .

وكان آخر جندي فرنسي قد جلا عن الأراضي السورية يوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ وأصبحت الحكومة مكشوفة ، وبمواجهة الشعب مباشرة ، (المخبا بان) كما يقولون — فلقد كانت الأخطاء والاساءات تنسب سابقاً إلى الاجنبي المحتل . أما الآن : فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ها أنتم تمسكون بأيديكم مقاليد الحكم ، فماذا أعددتم لصالح هذا الشعب؟.

بعدما أخلي سبيل الأستاذ المحائري وقضى فترة مرض في مستشفى السادات ، قامت مجموعة كبيرة من المعارضة بزيارة لسلطان في منزله في القرية ، وكنت قدأعددت الترتيبات اللازمة لهذه الزيارة ، وأعددت لهم وليمة غداء باسم « فرع العصبة» في الجبل ، وكانت الزيارة ناجحة والتفاهم تاماً على الخطوط العريضةلسياسة المرحلة — وقد خاطبت قائد

الثورة — بحضور الزائرين — قائلاً : لا نريدك أن تعتقد أننا نزجك في معركة سياسية لصالح حزب أو فئة — بل كل ما فعلنا أننا أتيناك برجال يعترفون لك بالجميل لأنك بقيت الشجاع الوحيد الذي يقول كلمة الرجال ليرد بها كيد أشباه الرجال ، فأنت وما تقرر ، وأنت ومسؤليتك وكنت أيضاً قدقمت بالتمهيد لزيارة أخرى عدد أفرادها محصور : ما زلت أذكر من بينهم الأستاذ سعيد حيدر ، لما تولى صبري العسلي وزارة الداخلية في وزارة سعد اللهالجابري وأصدر المرسوم التشريعي رقم ٥٠ الذي يصادر الحريات ويجعلمنوزير الداخلية نوعاً من ديكتاتور تمهيداً للسيطرة على معركة الانتخابات القادمة ، جاءني الأستاذ ، سعيد حيدر ومعه الأستاذ نزهة المملوك ، جاءاني في منزلي المتواضع في السويداء وبسطا إلي فكرتهما وخلاصتها : . . ان المرسوم ٥٠ بحاجة إلى وقفة من سلطان مشابهة لوقفته من قضية الأستاذ فهمي المحائري . وذهبنا إلى القرية وعقدنا اجتماعاً سرياً في غرفة سلطان الخاصة وشرحوا له الوضع وقالا له : اذا بقينا ساكتين وظلت الحكومة سادرة في غيها فسيأتي يوم نترحم فيه على زمن الانتداب ، والاحتلال ، واستجاب سلطان ووافق على أن يوقع بياناً ينشر في الصحف ويوزع على أوسع نطاق ، واتفقوا على أن نرسل إليه البيان في اليوم التالي لتوقيعه .

لقد كتبت في حياتي أشياء كثيرة ذات أهمية بالغة ، مقالات ، بيانات سياسية ، قصائد ، كل شيء ، إلا أنني لم أشعر بكامل المسؤولية النضالية كمواطن مثلما شعرت يوم انشأت بيان سلطان لتهديم المرسوم ٥٠ كان علي أن أتحدث بالدساتير والقوانين وحدود سلطة الحكومات وحقوق الشعوب ، وكان علي أن أهدد بلسان رجل يعرف الجميع أنه يقول ويفعل ، وحين أعددته ارسلته مع رفيقنا وأخينا السيد كرم الحناوي فعاد به موقعاً

من سلطان يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٤٦ ويوم ٧ تشرين الثاني أوصلته إلى دمشق فنشر ووزع على أوسع نطاق ، وأطاح البيان بالمرسوم ، وقال الأستاذ سعيد حيدر في جلسة خاصة لبعض اخوانه : إنه لم يقرأ على كثرة ما قرأ مثل هذا البيان الجامع بين الحقوق والسياسة والأدب جميعاً ، ولم أتوقف عند هذه المحطة الصغرى ، ولم أتبجح ولم أقل لأحد أنني كاتب البيان ، فأنا أناضل ضد الطغيان ، ولا يجوز للمناضل أن يرى شخصه في المعركة .

أوصلت البيان إلى دمشق في منتهى السرية وأنا مسافر إلى لبنان مع وفد من الجبل لحضور كتاب رفيقنا الأستاذ هلال رسلان على الآنسة سلوى شقيقة المربية الكبيرة والأديبة المعروفة الآنسة عفيفة صعب في عاليه ، قضينا تلك الليلة ٧–٨ تشرين الثاني في بيت آل صعب وفي ٨ تشرين الثاني نزلنا إلى بيروت حيث قمنا بزيارة الأمير شكيب ارسلان ، وكانت صحته معتلة بعض الشيء ، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها أمير البيان عن كثب ، إذ أنني حينما رأيته عام ١٩٣٧ يوم عاد من منفاه في سويسره ، رأيته من بعيد ، وأعجبني في الأمير شكيب ذاكرته القوية فقد سأل عن أشخاص يعرفهم من الجبل فرداً فرداً ، وسأل كل واحد منا عن عمله ودراسته وتطلعاته ، وكانت هيئته تحكي حكاية نضاله الطويلة الطويلة وهو يملأ المجلات مقالات سياسية ، ويصدر الكتب ويقوم بالرحلات ويتوسط بين الملوك العرب لحل خلافاتهم . . ويشمل نشاطه مشرق الوطن العربي ومغربه على السواء ، كما يشمل العالم الاسلامي في نظرة جامعة نادرة المثال ، وعدنا إلى عاليه فبتنا ليلتنا في منازل آل رضوان وهم أرومة آل أبو عسلي ، رضوان في السويداء ، وعدنا إلى دمشق يوم ٩ تشرين الثاني ، وكنت قد بدأت أشعر بتعب العينين ، فراجعت الدكتور جميل

كبارة في ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٦ وصف لي نظارة تسلمتها صباح ١٢ تشرين الثاني وكان أول عهدي بالنظارة التي لازمتني بعد هذا التاريخ طوال عمري ، وعدت إلى بيروت لعمل مستعجل ، ورجعت يوم ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٦ ، وكانت قد جرت مظاهرة طلابية يقودها شباب حزب البعث ضد الحكومة وممارساتها الدكتاتورية ، فأصيب في المظاهرة الطالب نسيب بن سليم خطار وأدخل المستشفى ، وتوفي شهيداً ، وكان مأتمه يوم ١٤ تشرين الثاني ، فألقيت خطاباً في المأتم حملت فيه على تصرفات الحكومة وتماديها في طغيانها .

كان هذا التحرك كله على مستوى السياسة الوطنية العامة ، فماذا فعلنا لصالح محافظتنا عام ١٩٤٦ م ؟

كنا قد أصبحنا قوة كبرى مسيطرة فاذا لم نجد ما يشغلنا فقد تؤدي كثرتنا إلى مخاطر . ولذلك كان علينا أن نوجد في هذا المجتمع الريفي شبه البدائي ما نهتم به ويملأ أوقاتنا . فشجعنا المطالعة وأوجدنامكتبات ، متواضعة في كل نقطة ارتكاز تقريباً ، وشجعنا المسرحيات (الروايات التمثيلية الهادفة ، وشجعنا استكمال الدراسة بالمراسلة ، أو الاعداد لبرامج الشهادات المختلفة عن طريق الدراسة الحرة ، فكم من واحد من العصبيين درس على نفسه جميع المراحل التالية للمرحلة الابتدائية : فحصل على المتوسطة ، ثم الثانوية ، ثم الجامعية ، لا يهمه كبر سنه ولا تقف في طريقه عقبة مادية أو غيرها ، وبعضهم بعد الثانوية التحق بالكلية العسكرية أو باحدى كليات الجامعة وتابع دراسة جادة ، وحين كنت . أبحث مع أحدهم كنت أقدم نفسي نموذجاً لهم : اذ كنت أول واحد من أبناء الجبل يدرس الحقوق وهو يعمل ، ثم أخذ شبان كل قرية يعتنون بنظافتها فيرفعون الحجارة من الأزقة ، ويشقون الطرق ويرصفونها داخل

القرية ، وعيون الجيل القديم ترقبهم ساخرة لبعض الوقت ، ثم معجبة مشجعة ثم متعاونة .

ولكي تعم روح العمل المنتج المجتمع بشقيه : الرجال والنساء ، أوجدنا حركة صنع سجاد شاملة ، وحياكة ألبسة صوفية متنوعة ، فقد نظمنا هذه السنة ١٩٤٦ مسابقتين احداهما لصناعة السجاد والثانية لحياكة الألبسة الصوفية ، وجعلنا الجائزة الأولى مائة ليرة لمن تصنع أكبر عدد من السجادات في عام واحد ، وخمسين ليرة لمن تحيك أكبر عدد من الألبسةالصوفية لعام واحد ، لقد قصدنا الكمية هذه السنة على أن تكون سنة ١٩٤٧ للنوعية ، ولكي نضمن عدم الغش اشترطنا مواصفات معينة أن يكون الصوف من الصوف الجبلي المغزول والمصبوغ محلياً ، لاعطاء هذه الثروة المهملة ما تستحقه من أهمية ، وأن ينسج في صلب السجادة أو قطعة اللباس الصوفية اماعبارة مسابقةعصبة العملالقومي لعام ٩٤٦ وإما شعار العصبة المكونة من حرفي (ع) كوفيتين متصالبتين يربطهما حرف (ق) كوفي أيضاً مع تاريخ ١٩٤٦ ، هذا ما اشترطناه كحد أدنى ، أما النتائج فكانت مدهشة وفاقت كل تصوراتنا ..

لقد شاهدنا أواخر السنة عند استعراض النتائج سجادة نسج فيها النشيد الوطني السوري (حماة الديار) بكامله وسجادة فيها خريطة الوطن العربي ، وسجادة فيها خريطة سورية مع النشيد الوطني وأبيات من الشعر العربي القومي ومن يبحث بين أوراقي لابد أن يعثر على رسوم فوتوغرافيه لبعض هذه السجادات ولكي نشرك نساء البيت جميعاً في العمل والاهتمام به ، تساهلنافقبلنا أن تحسب جميع السجادات المصنوعةوفق هذه الشروط في البيت الواحد ، على أنها عمل امرأة واحدة ، وكانت النتيجة انالتي

فازت بالجائزة الأولى للسجاد صنعت أربع سجادات في السنة ، والتي فازت بالجائزة الأولى للملبوسات الصوفية عملت أربع عشرة قطعة في السنة من أسعد أيام حياتي كانت تلك الأيام التي طفت فيها ورفاقي على البيوت لنستعرض هذه التحف الرائعة ، يكاد الانسان أن لا يصدق ما يرى بأم عينيه : أكل هذا تستطيع أن تصنعه بنات هذا الجبل المحروم ؟ لقد انتقمت الآن للمشهد الذي آلم روحي بعد الثورة ، مشهد البنات الراجعات من صلخد بعد قيامهن بأعمال الخدمة المنزلية لقاء قروش معدودات ، أو اللواتي رأيتهن في بيروت يقمن بالعمل ذاته ، اذا كنا نحن حفنة من الشبان الفقراء نستطيع أن نفعل هذا فكيف لو تبنت الحكومة هذه المشاريع وأسست لها المعامل وموّلتها ؟

* * *

الفصل الثلاثون

بعد الجلاء : البناء

بعد ١٧ نيسان ، يوم الجلاء التام عن أرض الوطن ، أصبح الجيش مؤسسة وطنية ، وأعطي الخيار للضباط اللبنانيين ليبقوا في سورية ، ضباطاً في الجيش السوري إذا شاؤوا ، وفي أحد الأيام سمعت بأن ضابطاً يدعى (العقيد زهران) قدم السويداء مفتشاً للقطعات العسكرية فيها . العقيد زهران ؟ إنه حتماً الملازم زهران الذي أخبرني عنه والدي يوم سيق أهل قريتنا بأعقاب البنادق من عرمان إلى صلخد — إنه هو . فهل أسكت ؟ لا . لا يجوز السكوت في مثل هذا الموقف ؟ وكتبت مقالاً بعنوان : قانون حماية الاستقلال أو الملازم زهران ١٩٢٦ ، العقيد زهران ١٩٤٦ ، رويت فيه عن الملازم زهران ما عرفته أيام إعادة احتلال الجبل وسألت هل يجوز أن يكون هذا أول وجه عسكري مسؤول يطل علينا بعد الجلاء؟ هل نطمئن إلى جيشنا الوطني الفتي إذا كان قادته من أمثال زهران ؟ ..

وما أن نشر المقال حتى حدثت ضجة في أوساط الجيش والحكم . وفي أحد الأيام التالية لنشر المقال زارني صف ضابط من تنظيمنا العسكري وقال لي أنه يحمل رسائل تهمني إلى بعض الزعماء : رسائل من العقيد

زهران يسألهم فيها ان يشهدوا شهادة لصالحه وأن يقولوا ان ما كتبه سعيد أبو الحسن فيه تحامل عليه ، وأنه ــ أي زهران ــ كان يعامل الثائرين الذين يستسلمون للقوات الفرنسية، المهاجمة معاملة حسنة ويساعدهم كثيراً ، بعد الاطلاع على الرسائل تركتها تذهب إلى أصحابها على أن أطلع على الأجوبة عند رجوع الرسول ؛ ورجع الرسول حاملاً رسالة من المرحوم حمزة درويش أحد قادة الثورة البارزين وكان معروفاً بتعاونه اللامحدود مع الفرنسيين بعد الثورة ، وانضم إلى الحركة الشعبية بعد الجلاء وقتل في صفوفها ــ غفر الله له .

وأعطاني الرسول الرسالة وحمل إلى زهران نسخة عنها ــ وتتضمن الرسالة بعض المجاملة لزهران ولكنها تتضمن بالوقت ذاته شهادة بكاتب المقال عن زهران خلاصتها أن فلاناً (أي أنا) معروف بأدبه وأخلاقه ولا يصدر عنه إلا القول المسؤول الخ . . هذا التصرف بالاطلاع على الرسائل وأخذ نسخ منها مخالف للآداب العامه حينما يكون الأمر معلقاً بالشؤون الاجتماعية العادية ، اما اذا كان الأمر يقع في إطار النضال ضد المستعمر وعملائه فمن حق المناضلين المقاومين أن يطلعوا على أسرار عدوهم بكل الوسائل ، ليعرفوا ماذا يبيت لهم ويطلعوا على خططه فيفسدوها ، المهم أن المقال أنهى زهران وقد دعاني عدد من الضباط الشبان إلى تناول طعام الغداء في نادي الضباط تكريماً من أجل ذللق المقال.

قبل نهاية عام ١٩٤٦ كان علي أن أقوم بمجهود إضافي ، أن أقوم بجولة في بعض قرى منطقة صلخد ، لمشاهدة نتائج مسابقة السجاد ، والتعرف إلى الرفاق الشبان في القرى ، وهم في ميدان عملهم وبين ذويهم ، وبدأت الجولة بصلخد يوم ١٩٤٦/١١/٢٩ حيث عقدنا اجتماعاً ليلياً

درسنا فيه مشاكل الساعة واستعرضنا الناحية الصحية وتصرفات الطبيب الوحيد في ما يسمونه (مستشفى صلخد) واطلعنا على التحف الرائعة من السجاد وما نقش فيه من اناشيد ومصورات جغرافية عربية مما تقدم ذكره ، وفي اليوم التالي انتقلت إلى المشقوق خيّالاً ، والطقس بارد وأنا أرتدي معطفي وطربوشي ، لم يكن ممكناً يومها الاستغناء عن لباس الرأس لأنّ هذا غير جدير بالرجال .

وقضينا المساء والليل في المشقوق ورأينا تحفاً من السجاد ، ونماذج من الشباب المفكر المتحمس ، وفي أول كانون الأول انتقلنا إلى «شنيرة» وفي الثاني منه إلى « عوس » وفي الثالث منه عدنا إلى صلخد وصباح الرابع من كانون الأول عدت إلى السويداء ، فقد كنت على موعد للسفر إلى خلخلة في أقصى الشمال يوم الخامس من كانون الأول وكنت بالوقت ذاته على موعد مع القدر .

كان رفاقنا في خلخلة الواقعة في منطقة اللواء قضاء شهبة ، قد أعدوا أنفسهم لتمثيل رواية « طارق بن زياد » وكان علي أن أحضر الحفل وأن أخطب فيه . وكانت السيارة الوحيدة التي تستطيع الوصول إلى خلخلة آنذاك هي سيارة الجيب ، وحين ركبت السيارة كان عدد من رفاقنا في السويداء قد احتلوا المقاعد المريحة في السيارة ، ونحن في الجبل معروفون بمغالاتنا بتطبيق مبادىء المساواة والديمقراطية — وتطبيقاً للحديث الشريف : « اقعدوا حيث ينتهي بكم المجلس » قعدت في المكان الخالي — ولكني كنت متعباً من سفرة عدة أيام على ظهر الحصان وأنا من الاساس ذو بنية متوسطة ليس فيّ من خشونة الجبال وقسوتها شيء سوى قوة الارادة ، والايمان ، ومتانة الخلق ، أما من النواحي الأخرى فأنا أقرب إلى صفات

أبناء المدن مني إلى صفات أبناء الريف . وسط المرح والاهازيج ، والنكتة المستملحة . وصلنا إلى خلخلة ونزلنا بيت الصديق المعروف صابر المغوش ، وفي أوائل الليل انتقلنا إلى ساحة المدرسة الرسمية لمشاهدة الرواية — كل القرية كانت هناك فضلاً عن الوافدين من السويداء وشهبة وسائر القرى . وكانت ليلة باردة لكن جميلة إلى أبعد حدود الجمال فالقمر يكاد يصبح بدراً والسماء صافية والمنطقة على حافة وادي اللواء بين صخور اللجاة والبادية تأخذ من كل مناخ قسماً ، وكان على المشاهدين أن يكونوا خارج المدرسة ، والتمثيل يجري في رواق المدرسة على الطريقة التي وصفتها سابقاً حين تحدثت عن تمثيل رواية « صلاح الدين » في صلخد ، وتتابعت مشاهد الرواية فصلاً فصلاً ، فاذا التاريخ العربي المجيد يبعث حياً أمامنا ، طارق بن زياد ، قواده ، جنوده ، باللباس العربي التاريخي ، زمان فتح الاندلس ، لقد تجاوز رفاقنا حدود التصور تشخيصاً وأداء : وألقيت الخطبة المقررة فربطت بين الماضي والحاضر ورسمت خطوط نضالنا المستمر وكيف يجب أن تتطور أهدافنا وأساليبنا في عهد ما بعد الجلاء :

وحين لفظت الكلمة الأخيرة من الخطاب وسط التصفيق والهتاف شعرت بأنني لفظت معها شيئاً من روحي : شعرت بوخزة حادة ، باردة في أحشائي . وعدنا إلى القرية حيث تناولنا العشاء فطلبت من الصديق صابر أن يوقد النار فأنا أشعر بالبرد فأشعل نار الحطب والشيح ، وشعرت بشيء من الراحة ، ونمنا ليلتنا تلك في خلخلة ، وفي صباح اليوم التالي عدنا إلى السويداء فتوقفنا قليلاً في شهبة للتحدث إلى رفاقنا هناك وتابعنا طريقنا ، ووصلت إلى البيت وأنا أشعر بالتعب الشديد . ولكني —

كالعادة ــ كابرت وقلت إنه مجرد تعب . في اليومين التاليين حضرت : جلساتي كالعادة ، وصرفت أعمالي ، وانتقلت إلى مكتب جديد تحت الفندق المقابل للسراي ، وأنا أشعر أنني مدعو لأمر ذي شأن وفي صباح ٩ كانون الأول ١٩٤٨ لم أستطع مغادرة الفراش . فقد كنت أعاني أشد حالات المرض .

لقد استدعي الصديق الدكتور ناظم النكدي مدير الصحة لمعاينتي مرة أولى ومرة ثانية ، وحين تبين أن المرض هو ذات الرئة ، كان لابد من معالجة سريعة بالبنسلين . وكان التداوي به قد شاع حديثاً ــ بعد الحرب ــ وكان البنسلين يحفظ داخل الثلج بالبراد ، ويجب أن تؤخذ الحقنة منه مرة كل ثلاث ساعات بشكل متواصل ، ليل نهار . وحين أرادوا تنفيذ ذلك وجدوا أن الممرض المسؤول عن الأدوية ، الصديق فواز كرباج ، مسافر إلى بيروت مع الوفد الذاهب للاشتراك في مأتم المغفور له الأمير شكيب ارسلان .

وكان لابد من انتظار عودته حوالي يومين ، وساعة عودته إلى منزله أخبرته السيدة زوجته فجاء مسرعاً ووجدني في حالة غياب عن الوجود لم أكن أعي شيئاً مما يدور حولي ، وباشر المعالجة وتولى ابن عمي جبر أخو زوجتي وهو ممرض أيضاً تولى السهر علي وإعطائي الحقن في مواعيدها ويظهر أني أشرفت على الموت وانتشر الخبر ، فصارت وفود الشباب تترى من جميع المناطق ، كانت تأتي بالسيارات الكبيرة ، باصات ، تعودني ، وكأنها تلقي علي النظرة الأخيرة ــ وأنا لا أعي شيئاً ــ ستة أيام بلياليها انقضت على هذا المنوال . عاد إلي وعيي بعدها ودخلت في طور الشفاء ثم النقاهة . وقد أصابني هزال شديد مما اقتضاني أكثر من شهر

لاستعادة صحتي كاملة ، وكانت تجربتي عنيفة عميقة جددتني ، حين كادت تقضي علي ، جربت نوعاً من البعث ، عودة الحياة بعد فقدانها ، ولا تسل ، قارئي العزيز ، عن الهذيان والعبارات الكبيرة التي تفوهت بها – كما رووا لي بعد صحوي ، مثل : « مسكين هذا الشعب ، ما زال يحتاج إلي » أو مثل « لا لا يجوز ان أترك رسالتي في منتصف الطريق » وغير ذلك من العبارات المماثلة . .

بانتقالي إلى السويداء لم أنقطع عن الاهتمام بالحضارة ، فلقد تابعت ارسال المقالات ، والأخبار ، وبسبب المرض الذي طال ، أخذت تردني رسائل من الجريدة معاتبة شاكية ، : « صدر العدد الممتاز ولبس لك فيه شيء » « توفي الأمير شكيب ولم تكتب عنه شيئاً » « وما يزال أمامنا متسع لمناسبة ذكرى الأربعين . . » الخ . لم يكونوا يعرفون في دمشق ، انني لم أكن في الدنيا كلها تقريباً ، . وان مناسبة مأتم أمير البيان كادت أن تكون سبباً لعدم شفائي ، ولم يكن لدينا هاتف للاتصال بالجميع واطلاعهم على ما يجري .

وكتاب آخر من الأستاذ فهمي يقول فيه ما معناه : علمنا أن فوزي القاوقجي موفد من الحكومة لاقناع سلطان بحضور الاحتفال بعيد الجلاء يوم ١٧ نيسان ١٩٤٧ ، بدمشق ، هذا أمر يقوي الحكومة ، فيجب السعي إلى افشال المهمة ، كانت تختمر في ذهني أفكار بعيدة عن الاهتمامات المباشرة لرجال المعارضة ، كان يجب أن نبدأ الثورة الاجتماعية في الجبل ، فما عاد يجوز ، بعد أن جلا المستعمر ، أن نرضى بالوضع العشائري العائلي الاقطاعي القائم .

كان الحكم اضحوكة ، مهزلة ، القانون لا يُطبّق على أحد من

الزعماء ، ويطبق على أبناء الشعب العاديين على بُعد خمسة عشر كيلو متراً من السويداء كان عدد من الجناة المحكومين بالأشغال الشاقة يعملون لدى أحد المتنفذين .ولا تستطيع قوة في العالم أن تدخلهم السجون لتنفيذ العقوبات المحكوم بها عليهم — والقنب الهندي — الحشيش — مزروع حتى أمام أبواب مخافر الدرك والرشوة متفشية ، وجداول العمال على الطرق وهمية ، أسماء بلا وجود ، واستعلاء وغطرسة ، واتصالات مشبوهة ، وتحركات مريبة . . أنا لا أقول أن الحال في سائر أجزاء الوطن السوري ، كانت أفضل منها في الجبل ، ولكن هناك كان القانون نافذاً على الجميع .

والقاضي السوري اشتهر في أكثر العهود بتقديسه القانون واحترامه العدالة ولاسيما بعد ما قام الأستاذ عارف النكدي بحركة اصلاحية جذرية في القضاء .

أما في الجبل ، فلم يكن غريباً أن نشاهد (وقد شاهدنا فعلاً)رجلاً يطلق النار بقصد القتل على رجل آخر خارج المدينة ويتركه يتخبط بدمه بين الموت والحياة ، ويدخل المدينة على ظهر فرسه ومسدسه ظاهر في حزامه ، ويمر أمام دار الحكومة وهو مطمئن إلى أن أحداً لا يجرؤ على التعرض له ، مجرد تعرض ، بله التحقيق معه أو توقيفه . .

كل شيء سيء كل شيء يحتاج إلى تغيير أو اصلاح ، هذه كانت قناعة الجميع ، ولكن من يبدأ ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ ومن أين ؟ . .

كل هذه العيون كانت تتطلع إلينا وتنتظر أن تستأنف هيئة الشعب الوطنية نشاطها وتبدأ معركتها : ولكن على أساس أن نكون نحن الطليعة ، ونحن العمود الفقري لها

الانتخابات مقبلة . في الصيف . والناس في شبه تربص وترقب ، مثل الماء الذي ينتظر أن يحركه أحد . وخططنا نحن لهذه البداية .

أصدرت بيانا ضمنته البرنامج العملي للعصبة لعام ١٩٤٧ وقلت في مطلعه . .

« وإن هذاالبرنامج يلخص بكلمة واحدة نعممها على جميع نواحي الحياة ، وهذه الكلمة هي : « نضال » ضمنته خطة العمل النضالية على الصعيد القومي والوطني والمحلي ، وحددت فيه المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها مجتمعنا وكيفية حلها وركزت على ضرورة تحلي المناضلين بأخلاقية متميزة ، صارمة وختمته بهذه الفقرة « أيها الاخوان : هذا هو برنامجكم فاحرصوا على تنفيذه ، وليعلم كل واحد منكم أنه مسؤول عن تنفيذ هذا البرنامج كله ، فاذا سكت أحدهم على ضيم وصبر على ظلم ورأى اعوجاجاً ولم يفضحه ، ورأى خيانة ولم يحاربها ورأى دسيسة تحاك ضد الأمة والوطن ولم يقاومها فليعلم أنه خان رسالته ومبادئهوواجبه القومي المقدس

فلنناضل مجموعة وأفراداً ، لنناضل في سبيل حياة عربية أفضل وأجمل ، لنناضل لأن لا شيء يبقى من الانسان سوى النضال .

هذا البيان طبعته بواسطة محرري جريدة الحضارة بدمشق ، أعني أن المسؤولين العصبيين في المركز عرفوا ما نتوي ان نفعله في الجبل ، عرفوا بالتفصيل الافكار التي ننطلق منها ، وان النضال يستهدف ، أول ما يستهدف ، العقلية العشائرية الرجعية في المحافظة .

ولمناسبة الذكرى الأولى للجلاء يوم ١٧ نيسان ١٩٤٧ دعوت لمؤتمر عام للعصبيين في الجبل يعقد في المزرعة موقع المعركة المجيدة المشهورة

كبرى معاركنا ضد الاستعمار . وألقيت خطاباً طويلاً يمكن تسميته (الخطاب — البرنامج حييت به قائد الثورة المبتعد عن المظاهر) . بينما يحتفل بالجلاء أناس كانوا ضد الجلاء وضد الثورة . ثم انتقلت إلى الحديث عن الواقع والمستقبل .

والخطاب أيضاً يجب أن ينشر كله هنا لكي تخرس الالسنة التي اتهمت وتتهم الحركة الشعبية التي برزت للوجود مرة ثانية ، عام ١٩٤٧ بأنها من خارج الجبل وبأنها حركة مشبوهة ، لقد وضعنا نحن العصبيين منهاج العمل لعام ١٩٤٧ قبل أن تبدأ الحركة الشعبية العامة بعدة أشهر ، وحين بدأت ، كنا نحن نواتها وطليعتها وملهديها وضامني عدم انحرافها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وهذا نص الخطاب — البرنامج :

أيها الاخوان :

لم يكن اجتماعنا في المزرعة مرتجلاً ولا صدفة من الصدف ، وإنما هو اجتماع رمزي عقدناه في هذا اليوم ، يوم الجلاء ، وفي هذا المكان مكان المعركة الكبرى في الثورة الكبرى التي ثارتها الأمة على العدو المحتل . لنستعيد ذكرى تلك الثورة المقدسة . ذكرى هذا الانتصار الرائع . انتصار المزرعة ، ذكرى أولئك الشباب الابطال آبائكم واخوانكم وأبناء عمومتكم ، ذكرى تلك الروح القومية المتأججة في الصدور يقتحمون بها الموت بثغور باسمة وقلوب مطمئنة . ذكرى الدماء الذكية المهراقة على مذبح الحرية والاستقلال

وشيء آخر أردناه من اجتماعنا اليوم في المزرعة هو إظهار الصلة القوية بين حركتنا الايجابية اليوم . وحركة اخواننا السلبية في الثورة المقدسة

إن حركتنا التقدمية هذه التي بدأت في ربوع هذا الجبل منذ عام ١٩٣٥ ونمت في ظل الاضطهاد وعلى الرغم من كل مقاومة وكل عقبة . هي التتمة الطبيعية للحركة التحررية التي قام بها أبناء هذا الجبل الأشم عام ١٩٢٥ بقيادة ابن الجبل البار ورمز ثورته وجبروته الخالد وتمرده على كل ظلم واستعباد عنيت قائد الثورة السورية العام سلطان باشا الأطرش ؛ الجاثم اليوم في عرينه وهو أكثر ما يكون رصانة ووقاراً وأبعد ما يكون نفوذاً وشهرة ، وأعمق ما يكون تأثيراً وتوجيهاً . بينما يحتفل بعيد الجلاء أناس نصفهم كان ضد الجلاء وضد الثورة وكثيرون منهم حملوا السلاح في صفوف الاجنبي ضد سلطان ورفاق سلطان في المزرعة واللجاه وراشيا واقليم البلان . فللقائد المبتعد عن المظاهر ، الأمين على رسالة الكفاح في حالتي السلب والايجاب ، أرسل تحية عربية خالصة مضمخة بعبير الدماء الطاهرة المنتشر في جو المزرعة يردد على مسمع الدهر أغنية انتصار الحق على الباطل وانتصار الحرية على الاستعباد والايمان القومي على الحديد والنار . .

لقد قلت ان بين حرككتم اليوم وحركة اخوانكم أبطال الثورة – أبطال المزرعة – صلات متينة ، فهم قد أبوا أن يناموا على الضيم وان يستسلموا للقوة . وأرادوا أن يتحرروا فثاروا وانتصروا ، وأقاموا الدليل على حيوية الأمة وبرهنوا على أن العرب لا يرضون عن الاستقلال بديلاً . وان لثورة الحسين وأبناء الحسين توابع من الثورات لابد ان تحصل وتتوالى حتى يتم للأمة العربية ما تريد من حياة الحرية والوحدة والمناعة والكرامة . وكذبوا ببطولتهم الخرافة التي كانت تسود الأذهان وتخامر النفوس قائلة ان الشعوب المنكوبةبالاستعمار والاحتلال لن تقوم

لها قائمة . وان الرجال العُزّل ، إلا من الايمان ، لا يمكن أن ينتصروا على المدافع والطائرات والدبابات ، وان المحاربين القليلي العدد لا يمكن أن يتغلبوا على الجيوش الجرارة المدججة بالسلاح وأكبر برهان عملي أقيم في العالم على كذب هذه الخرافة هو انتصار المزرعة فهنا استطاع بضع مئات من الرجال المؤمنين بحقهم في الحياة المتحدرين من أكرم العرب أصلاً وأنقاهم دماً ان يبيدوا جيشاً عرمرما من الفرنسيين ، وأنصار الفرنسيين ، مزوداً بأحدث أنواع الأسلحة ، مدعوماً بالطائرات الكبيرة. يقوده نخبة من أشهر الضباط وأمهرهم .

وأعادت معركة المزرعة ، وأعاد انتصار المزرعة الثقة إلى النفوس الضعيفة ، والايمان إلى القلوب المتشككة والقوة إلى العزائم الخائرة ،ومن نار المزرعة قبس اخواننا في سائر البلاد السورية همة ومضاء ، فأوقدوا النار في مناطقهم ، وحدثت المعارك في كل مكان وتكبد العدو المحتل خسائر فادحة بالرجال والعتاد والمال ، وخسارة لا تعوض بالمعنويات والنفوذ .

وعقبت الثورة عندنا في الجبل فترة سوداء قاتمة ملؤها الألم والشقاء، ملؤها الجوع والتشرد والذل والحرمان — وملؤها أيضا فساد الضمائر والتجسس والتزلف وبيع البلاد إلى المستعمر بأبخس الأثمان. كانت فترة مخزية كادت تلحق بنا ، بتاريخنا بمستقبلنا ، وصمة عار لا تزول إلى الأبد .

ولكن فريقاً مختاراً من الشباب ، فريقاً سعى إلى العلم رغم الجوع والألم ، رغم الفقر والشقاء ، رغم الاضطهاد والمقارمة ، فتزود منه بما يعينه على استئناف الثورة ، وخوض معارك جديدة بدأها الاجنبي ،

ألا وهي معارك السياسة والجدل والصحافة والتأليف والدعاية . وصمد الشباب في المعركة منذ عام ١٩٣٥ ، صمدوا وناضلوا ، مدافعين مرة مهاجمين أخرى ، متكتمين تارة مجاهرين أخرى ، منفردين أو مجتمعين ، بشكل جمعيات سرية بشكل رابطة أدبية ، بشكل فرقة تمثيلية ، بشكل حزب سياسي ، حتى استطاعوا أن يوجدوا في هذا الجبل حياة جديدة ومقاومة عنيدة ونهضة في جميع مناحي الحياة فريدة : م

وصممنا على العمل المنظم . بعد الاعمال القديمة غير المنظمة ،فبدأنا التنظيم سراً عام ١٩٤٢ ، وتكتلنا فئةقليلة ، تبث الدعوة إلى التحرر في كل مكان ، في الشارع ، في المدرسة ، في المضافة ، في صفوف الجيش ، وهو بقيادة ضباط أجانب ، ألقينا المحاضرات في كل مكان ، خطبنا في كل الاجتماعات ، جادلنا في كل المجالس ، حررنا المقالات في جميع الصحف ، والمجلات ، المتداولة بين أيدي الناس ، نظمنا القصائد الثائرة في كل مناسبة ، وكانت كل كلمة مما نقول أو نخطط مفعمة بايماننا القومي ، وتمسكنا الشديد بحقنا في حياة الحرية والكرامة :

وكان انقلاب الجبل الرائع في ٢٩ أيار ١٩٤٥ نتيجة مباشرة لعملنا المنظم ، وكان نجاحه وليد التفاهم المزمن والتحالف المتين والتضامن القومي الراسخ بيننا وبين الفئة المختارة من ضباط الجيش وأفراده : واذا طاب للناس أن ينكروا علينا هذه الحقيقة الواقعة ، إذا طاب للناس أن يتعاموا عن هذه الوقائع الملموسة ، فهذا لا ينفي وجودها وهذا لا يقلل من قيمتها ، وهذا لا يزيلها من أذهان الناس ، وان لم يعترفوا بها ، وان لدينا لوثائق خطيرة في هذا الباب سننشرها في الناس عندما تدعو الحاجة إلى ذلك ، وعندما نرى أن في نشرها فائدة وطنية عامة ،وهذه

الوثائق ستظهر للملأ صلتنا الوثقى بتحرير الشمال من وطأة مستشاريه وتحرير الجنوب من غطرسة أذناب الاستعمار فيه ، وتحرير الجبل كله من آخر أثر للاستعمار البغيض : وكان لتحرير الجبل أثر بعيد في تحرير سوريا ولبنان النهائي ، لأن تحرر الجبل جعل آمال فرنسا تنهار انهياراً كاملاً لا قيام لها بعده .

وكان شهر أيار ١٩٤٥ نهاية العهد السلبي لحركتنا القومية التقدمية التي أثبتنا خلالها أننا جديرون بماضينا ، جديرون بحمل رسالة اخواننا ابطال الثورة ، جديرون بتتمة ما بدأه سلطان واخوان سلطان منذ عشرين سنة خلت .

ولم نقف في هذه الحركة عند حدود السلبية بل كنا لا نترك فرصة تمر دون أن نبث في صفوف المجتمع روح العمل القومي الايجابي ، روح البناء المنظم الراسخ السريع الذي يجب أن يرافق كل نهضة قومية حقيقية دائمة وشاملة . ما كنا نفتأ نعلم شباب القرى حياة الانطلاق والنظافة والاهتمام بالعمران والأعمال المنتجة الحرة . نعلم الشباب حقوقه وواجباته ليتصلب في المطالبة بالأولى وليتفانى في القيام بالأخرى . عملنا على الاصلاح ما استطعنا إلى العمل سبيلا ، وطالبنا بالاصلاح ما استطعنا إلى المطالبة سبيلا . لقد ساهمنا في كل عمل صحفي أو تأليفي ينشر في الجبل أو يهتم بشؤون الجبل . وعندما ضاقت بنا الدنيا هنا ، عندما لم نجد متسعاً لأفكارنا الحرة المتمردة القوية في الجبل نفسه ، عملنا على فتح الحقل الواسع لها في جرائد العاصمة ، في جرائد دمشق — فاذا الجبل يتفتق عن حركة فكرية واسعة النطاق ، تدهش سائر المواطنين بقوتها ، وعمقها ، وجرأتها ، ورصانتها واتزانها وصدق لهجتها ، كأنها مقتطعة من صخور

الجبل القاسية ، مجاوة بفيض من نور شمسه الساطعة ، مضمخة بعبير من هوائه الناعم النقي ، وإذا حامل الشهادة الابتدائية عندنا — بفضل اجتهاده وطموحه ومثابرته على المطالعة — كاتب قدير وأديب مرموق.

ومنذ بدء حركتنا ونحن نشعر أن الأوضاع القائمة في بلادنا لا تخرج عن كونها أوضاعاً فيها كثير من العيوب ، أوضاعاً موروثة عن عهد الانتداب ، واذا هذه الآلة الضخمة لا تقدر على الحركة ، وإذا هذا الجهاز الحكومي لا ينتج ولا يبشر بالخير لا في الجبل ولا في خارج الجبل ، لا في العاصمة ولا في الملحقات ، لأنه جهاز ارتجالي ، مبني على أساس الاسترضاء والمحسوبية والاستنفاع . واذا هذه الآلة الضخمة لا تسير ، ولا تتحرك ، ولا تنتج ، ولا تؤدي الخدمة العامة المطلوبة منها ، لأن كل لولب منها مأخوذ من جهة ، ولأنه ليس فيها لولب واحد في مكانه الطبيعي المخلوق له ، ولأن فيها لوالب زائدة ولوالب نافرة وأجهزة مستعارة وعجلات غير متناسقة ولا متساوية ، وتحركات غير منسجمة ولا أمينة في حركتها ولا يؤمن شر خطرها دقيقة واحدة ، وقد بحثوا كثيراً ليجدوا الداء ويصفوا له الدواء — ولكنهم كانوا أبداً يلجؤون إلى الترقيع ، والترقيع أخطر ما يكون في المسائل القومية العامة التي تتطلب الجدة ، والمناعة ، والانسجام من جميع جهاتها .

ولم يبق مجال لمداراة أحد ، ولا لمجاملة أحد ، ولا للمراوغة ، فهذه أمور لا تجوز في القضايا الوطنية والقومية . لا تجوز لأن هذه القضايا تخص المجموع ولا تخص الافراد ولا يحق لأحد أن يتساهل فيها أو يتنازل عنها أو يتقاضى ثمن السكوت عنها في معزل عن المجموع .

نريد اليوم أن نعرف الوطنيين الحقيقيين من ادعياء الوطنية المتاجرين

بها لقد جلب لنا الاستقلال مسؤوليات متنوعة ينوء بحملها جبابرة الرجال . فكيف قابلنا هذه المسؤليات ؟ لقد كان مثلنا مثل رجل صاحب عربة تجرها جياد وكان يكلف بسوقها حوذياً من طراز قديم يحسن سياسة الجياد في طريق سهلة واضحة المعالم . وقد تحسنت ظروف صاحب العربة المادية ، وتبدلت وسائل النقل بتبديل العصر فاشترى طائرة ذات أربعة محركات ، وبدا له ، بسبب جهله — ان حوذيه القديم يستطيع أن يسوق هذه الطائرة ، كما كان يسوق عربة الجياد سواء بسواء . ولم يستطع عقله الضعيف أن يقبس الفرق الشاسع بين العربة والطائرات ، بين المميزات التي يجب أن تتوافر في الحوذي ، والمميزات التي يجب أن تتوافر في الطيار ، وهكذا سلم الحوذي قيادة الطائرة ، على غير استعداد، وبدون تبصر بالعواقب ، اما النتيجة فلم يدركها ولاشك — النتيجة ان الحوذي لم يكد يدير محرك الطائرة حتى تحطم وإياها ، في صدمة قاسية كانت لصاحب الطائرة درساً مفيداً ، ولكنه درس متأخر عن أوانه، فقد الطائرة والحوذي وفقد كل شيء . وهكذا كان عملنا نحن في مطلع هذا العهد الاستقلالي ، لقد أردنا من الحوذيين أن يكونوا طيارين ، بلا علم ، ولا استعداد ولا تمرين ، فكانت النتيجة أن نتنا نتخبط في أزمة سياسية اجتماعية لا أول لها ولا آخر .

نضع مصير هذا الوطن كله في أيدي فريق من العجزة ونطلب أن يسيروا به إلى الغاية المنشودة ، ونحن في القرن العشرين وفي مجموعة من الأمم الراقية التي لا تلحق عربتنا طائراتها ولا يجاري حوذينا المحترم طياريها البواسل وندعي مع ذلك أننا وطنيون واننا نعمل لمصلحة الأمة والوطن .

تمنح السلطة التشريعية لفريق من الاميين ، وننتظر منهم أن يضعوا لنا

قوانين ترفع مستوانا الثقافي وتيسر سبل العلم والعمل للاجيال الصاعدة ونحن إنما نطلب المستحيل — نطلب من الحوذي ، أن يحلق في أجواء الفضاء ، وهو لا يعرف من الدنيا إلا عنان حصانه وسوطه العتيق ، البالي ، نطلب من هؤلاء الذين يقوم نفوذهم على الجهل أن يحاربوا الجهل ، نطلب منهم ، وهم يستمدون وجاهتهم من التقاليد البالية ،ان يسنوا قوانين يحاربون بها هذه التقاليد ؟ ان هذا مستحيل ، ونحن مع ذلك ندعي اننا مخلصون لهذا الوطن يهمنا مصيره ويشغل بالنا مستقبله.

لا نريد أن تخدعنا الالاعيب وما عدنا نكترث للادعاآت الفارغة — لا نؤمن باخلاص من يريد أن يضع مصير الطائرة وركابها بيد الحوذي العتيق ، لا نؤمن بنزاهة من يرضى أن يكون مستقبل الامة الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بيد رجال أميين لا يدركون من هذه الأمور شيئاً ، لا نصدق ادعاء من يقول انه يعمل لخير الوطن عندما نراه يوافق على قتل هذا الوطن ، على تحطيم هذه الطائرة ،على قتل هذا الشعب ارضاء لهذا الحوذي القديم ، ارضاء لهذا الجاهل الذي يريد أن يقابل معدات القرن العشرين بالقوس والنشاب .

نحن نستغرب كيف تفتح لنا أبواب الموت على مصراعيها وتسد في وجوهنا أبواب الحياة الواسعة ، نستغرب كيف سمح لهؤلاء الشهداء الابرار الذين نقيم اليوم في جوار أجداثهم الطاهرة أن يقبلوا على الموت في الطليعة ، وثغورهم باسمة وقلوبهم جذلة مستبشرة ، ولم يزاحمهم على الموت أحد ، ولم يدع أحد بحق الموت دونهم أو عوضاً عنهم ، نستغرب كيف سمح لهم أن يتقدموا الصفوف ويتغلبوا على الاعداء ويموتوا بدون مزاحم ، ثم لا يسمح لابنائهم واخوانهم أن يتسابقوا في مضمار الخدمة الوطنيةلمصلحة الوطن والأمة ؟ ثم لا يسمح لهم أن يعيشوا

ساعة واحدة بدون مزاحمة ومزاحمة غير شريفة طبعاً ، ولا يسمح لهم أن يخدموا وطناً افتدوه بالمهج الخفاقة والدماء الذكية ؟ نستغرب كيف يطبق مبدأ المساواة والكفاءة في ساعات الخطر وعلى أبواب الموت ، ويحارب هذا المبدأ في ساعات الفرج ، على أبواب الحياة ، على أبواب المسؤوليات الجسام ؟ إن هذا التناقض وحده كاف لأن يدلنا على حقيقة محترفي السياسة ، يستغلون عواطف الناس واخلاصهم وغيرتهم ووطنيتهم الصادقة ، يستغلون دماءهم وارواحهم ويبذلونها ثمناً رخيصاً لمنافعهم الخاصة ، لنفوذهم الفارغ ، لتجاراتهم المشبوهة ، لرجعيتهم الممقوتة . . ؟

اسألوهم هل مات الشهداء لتعم البلاد فوضى في الاخلاق والاعمال؟ هل مات الشهيد ليبقى انصار الاجنبي معززين مكرمين اتقاء لشرهم واستجلاباً لمرضاتهم ومناصرتهم وليبقى المخلصون المناضلون مبعدين مضطهدين لأن اخلاصهم للقضية العامة ينفي وجود أي خطر على الوطن منهم ؟ هل مات الشهداء لتقوم فئة من الناس تسترضي كل خائن مارق حتى يخدمها وينفذ مآربها مثلما كان يخدم الاجنبي وينفذ مآربه ، هل مات الشهداء ليحرم أبناؤهم من المدارس الكافية والمعلمين الاكفياء ولتحرم قراهم من الماء الكافي وتحرم عائلاتهم من القوت الكافي ؟ هل مات الشهداء ليبقى وطنهم في مؤخرة الأوطان وأمتهم في مؤخرة الأمم ، لأن هناك فئة لا تريد أن تتحول العربة إلى طائرة فيعجزوا عن سوقها وامتلاك زمامها ؟ هل مات الشهداء لتبقى اقتصادياتنا بدائية ، وثقافتنا محدودة ، ووزننا السياسي العالمي خفيفاً لأن هناك فئة جاهلة لا يريد أن تتعقد الأمور وترتفع فوق مستوى تفكيرها المعدوم ؟ هل مات الشهداء ليبقى كل شيء كما كان وأسوأ مما كان ؟

يا لضياع الدماء والأرواح ان كان يسيطر في يوم عيد الجلاء رجال

كانوا مع الاجنبي قبل ميسلون وقبل المزرعة وقبل ٢٩ أيار ١٩٤٥ ، وفي ٢٩ أيار بالذات ، كانوا مع الاجنبي وأراقوا من دماء الشهداء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ثم شاعت سياسة الترضية ، سياسة الوصولية والمحافظة على الكراسي ، السياسة الرأسمالية الاستثمارية ، شاءت هذه السياسة أن يبقى هؤلاء في مراتبهم وأن تتسع صلاحياتهم وأن يتصرفوا في شؤون الوطن العامة ، ويسيطروا على مصالح الافراد والجماعات ويقولوا للمستغربين المشدوهين :

« هكذا يفعل الرجال، لهم في كل عرس قرص، وفي كل ميدان دور.

يا لضياع الدماء والأرواح ان كان محظوراً على هذا السوري العربي المستقل أن يتجول حراً طليقاً في بلاد اخوانه العرب ، بلا قيود ولا محاذير إلا ما كان من هذا القبيل لمصلحة قومية عامة أو لتدبير وطني ضروري. لقد شاء الاجانب أن يجزئوا الأرض والعالمين ، فجئنا نحن ومكنا التجزئة وأنزلناها في صكوك ومواثيق وأحطناها بسياج من الاتفاقات المضحكة، لا لشيء إلا لكون هذه التجزئة أبرزت في الوجود فئة متاجرة ما كانت لولاها في العير ، ولا في النفير ، لا لشيء إلا لأن هذا السلطان الزائف الذي نتج لبعض الوصوليين عن هذه التجزئة لا يبقى إلا اذا بقيت — ولذلك قرر الانفصاليون أن تبقى وجاؤوا يقنعون الناس بأنهم على حق وبأنهم مخلصون للقضية القومية العامة ، وبأن الاستقلالات المحلية خير حل للمشكلة العربية العامة ، ويح هؤلاء ، اما رأوا كيف أصرت ألمانيا على وحدتها وهي لا تفتأ تطالب بها ، رغم الاحتلال الاجنبي الرباعي ، ورغم رغبة المحتلين في تجزئتها ، واضعافها ، يمحو كل أثر لوحدتها الجغرافية والتاريخية الوطنية والقومية ؟

ويح هؤلاء ، ألا يعرفون أن أكبر قصاص يحلم المحتلون بامكان

انزاله بألمانيا هو تجزئتها ؟ وما داموا يعرفون هذا فلماذا يحاولون أن يبقى العرب مجزئين شعوباً وطوائف وبلاد العرب مقسمة إلى دويلات ومناطق ؟

ويقولون بعد هذا أنهم وطنيون مخلصون للقضية العربية العامة وأنه ليس في الامكان أحسن مما كان أيها الاخوان .

أيها الاخوان . .

نريد أن نبقى في بحثنا هذا ضمن حدود هذا الجبل ، هذا الوطن الأصغر الذي نريد أن نبدأ باصلاحه أولاً ، ثم ننتقل إلى اصلاح سواه إن شاء الله ، نريد أن نجعله حقلاً نموذجياً لتجارب الحركة القومية الاشتراكية التقدمية .

لقد علمتنا التجارب أنه يجب علينا أن نتدخل في كل شأن من شؤون الجبل ، لأن موقف الحياد من مشاكل الحياة يجعلنا على هامش الحياة ذاتها ، ولأن عدم الاهتمام بالأمور السياسية العامة جهل مطبق بأمور الحياة كلها . لأن السياسة هي التي تسيطر على كل شيء في هذا العصر. فلا علم ولا عمل ولا خبز ولا تقدم ولا صحة ولا نظام ولا أمن اذا لم تكن هناك سياسة صالحة موجهة . دلوني على عمل يمكن أن يقوم به الانسان بدون أن يصطدم بمشكلة سياسية . بمشكلة قانونية لها صلة متينة بالسياسة نفسها ؟

لقد تركنا المجال لغيرنا رغبة منا في عدم المزاحمة والتطفل ، وتطبيقاً لمبدئنا القائل انه يهمنا ، ان يحصل الحق ولا فرق عندنا ان يحصل على يدنا أو يد غيرنا ، فكانت النتيجة ان اصطدمنا بعقم في كل شيء : عقم في الكفاية ، عقم في التدبير ، عقم في الابتكار ، عقم في كل شيء ..

لقد تركنا لغيرنا أن يتولى أمر الاعانات المرسلة من اخواننا العرب المغتربين في ديار المهجر من أجل العلم وعمران المدارس ، فكانت النتيجة ان جاءت الاموال وما رأينا مدرسة تبنى ، ولا دار مطالعة تشاد ، ولا مكتبة عامة تؤسس ، مع شديد حاجتنا إلى ذلك ، مع اننا — يشهد الله — أوثق اتصالاً باخواننا المغتربين ، وأقدر على مراسلتهم أفراداً أو جماعات ، بالبريد الخاص أو على صفحات الجرائد ، ومن هذه التجربة استنتجنا ان وقوفنا على الحياد كان خطأ ، وأننا يجب أن نتصل باخواننا المغتربين ونطلعهم على اهمال رغبتهم الحارة ، وعلى بقاء اموالهم في عالم الغيب فكأنها لم ترسل ، وكأنها لم تخصص لمشروع ما ، وكأن المدارس لم يتبرع لها أحد ، وسنتصل باخواننا المهاجرين ونستقبل تبرعاتهم السخية ونبني بها المدارس ودور الكتب . ودور المحاضرات والنوادي — وعندما نقوم بهذه الاعمال ليقل لنا الناس أنهم لا يقبلونها لأنها جاءت عن طريقنا ، وبنيت بواسطتنا ليرفض المدلجون في الليل الحالك ان يستنيروا بنور نقدمه لهم — ولكننا لا نعدم فريقاً مختاراً يقبل النور ويمشي على هديه وهو يشكر للمجتهدين اجتهادهم وللمحسنين احسانهم .

شجعنا فكرة اقامة نصب لشهيدنا المجهول ، كتبنا عنها في الصحف تركنا المجال لغيرنا ليخرجوا الفكرة إلى حيز الوجود ، ولكن الفكرة ماتت في المهد . لأن الذين تركنا لهم الحرية للعمل وحدهم ، لا تؤهلهم استعداداتهم الخاصة لاتمام مثل هذه المشاريع القومية العامة ، ولذلك فسنتبنى هذه الفكرة نحن وسنقيم هنا بجانب المزرعة . على حافة الطريق العام ، فوق هذه الأرض المقدسة ، نصباً لشهيدنا المجهول ، ينحته فنان عربي مؤمن بعروبته .وسنستجدي لهذا المشروع أكف المقيمين من العرب والمغتربين وعندما يقام التمثال ويزاح عنه الستار برعاية قائد الثورة

العام ، عند ذاك ليتقدم من يريد إلى الناس ، وليقل أنه غير واض عن هذا العمل ، لأنه تم على يدنا لا على يده هو ، اننا بعد اليوم لن نكترث لما يقال ، ولن نهتم إلا بما يعمل ، فالقول هراء يذهب مع الريح والعمل وحده باق إلى الأبد .

نشعر كلنا بحاجة إلى قانون خاص بمعاقبة من يتعاطى الربى ، ويتقاضون الفوائد الفاحشة ، تحت ستار الدين العادي ، فيمتصون ثروة البلاد ويخنقون الفلاح المسكين دون أن ينالهم قصاص أو يردعهم رادع ، ولكن كيف السبيل إلى اقرار هذا القانون اذا لم يكن لنا في البرلمان نائب يؤمن بهذه الفكرة . . سنتقدم بعريضة إلى الحكومة وعريضة إلى مجلس النواب المقبل ، فلا بد أن يلقى طلبنا لديهما أذناً صاغية ، فينقذا هذا الوطن من داء يكاد يقضي عليه ، هو داء الرأسمالية المستثمرة في أفظع أشكال الاستثمار ، لا ، لن نقف على الحياد بعد اليوم ، فالحياة تنادينا لنخوض غمارها . والوطن ينادينا لننقذ سمعته ، ونصون كرامته ، ونحمي ذماره ، من أهله ، وممن يدعون الاخلاص له ، ويتظاهرون بالاستعداد للتفاني في خدمته .

سنحارب كل اعوجاج نراه ، وسنقاوم كل إجحاف نصادفه ، وسندافع عن كل حق هضيم وعن كل مشروع نافع .

في أطراف الجبل قرى ظمأى يكاد أهلها يموتون وحيواناتهم من قلة الماء ومن القرى ما هي داخلة في مشروع مياه عين بدر ، والتمديدات واصلة إليها — والماء لا يصل . لماذا ؟ لأن مجاري المياه مهملة ، ولأنها مفجرة في عدة أماكن على الطريق ، للتجارة ولايقاع الضرر ، ولأنها غير موزعة توزيعاً عادلاً ، بين القرى . ولأن الأهالي لا يكلفون أنفسهم

عناء المراجعة والمطالبة فنحن سنطالب بارواء هذه القرى وصيانة المياه على طول الطريق ، والعدل في توزيعها ، حتى على الرغم من أهل القرى الظمأى .

وعندما يرتوي هؤلاء الاهلون ، عندما يشعرون براحه الري ، هم وحيواناتهم ليقولوا لنا أنهم لا يريدون أن يشربوا بواسطتنا ، ليقولوا لنا أن الماء الذي يأتي عن طريق الشباب لا يرضيهم ولا يرويهم .

أيها الاخوان . .

لقد جربنا كل وسائل الاصلاح فلم نجد وسيلة أفضل من الاقدام على عمل ما نقتنع بفائدته ، بحزم وهمة ، مهما كانت النتائج . لقد شجعنا صناعة السجاد هذا العام فجعلنا الجائزة لمن تصنع أكبر كمية منه ضمن شروط تعرفونها ، وها ان النتائج ظهرت وقد ربحت الجائزة الأولى امرأة صنعت أربع سجادات في عام واحد ، ان السجادات الأربع تساوي على أدنى تقدير ، ألفاً وخمسماية ليرة سورية ، ان امرأة واحدة اضافت إلى ثروة بيتها هذا المبلغ لأمرأة جديرة بالاحترام والتقدير ، وهي ، فوق ذلك قد اضافت إلى بيتها الفن والجمال والرفاه وراحة الضمير ، واذا عرفنا أن مثل هذه المرأة لم تكن لتنتج شيئاً من قبل ، تأكد لنا النفع العظيم الذي ينجم عن مثل هذه الجوائز الموضوعة لتشجيع صناعاتنا الوطنية . واذا كانت امرأة واحدة قد صنعت اربع سجادات فقد صنعت كثيرات من النساء ثلاث سجادات كل واحدة ، وعدد أكبر منهن سجادتين كل واحدة ، وعدد أكبر وأكبر سجادة واحدة كل امرأة . وكل هذه السجادات تحمل شارة العصبة أو عبارة مسابقة العصبة لعام ١٩٤٦ ، وقد تبارت فتياتنا المعلمات في التفنن ، فنسجن النشيد الوطني على السجادة الواحدة — وكان كاملاً مقروءاً ، ونسجن العلم العربي

على أطراف السجاد ، وأبياتاً مختارة من الشعر العربي القوي بمدلوله العظيم بمعناه وتوجيهه .

وبالنظر إلى النجاح الباهر الذي لاقته فكرتنا فسوف نخصص جائزة هذا العام — عام ١٩٤٧ — للاتقان ، نريد أن ترتقي بهذه الصناعة ، فلا يكفي أن ننسج كثيراً ، بل يجب أن ننسج جيداً ، ولهذا فسوف تكون جائزة هذا العام لمن تصنع أحسن سجادة ضمن شروط المسابقة — أي أحسن سجادة موضوع عليها رمز العصبة أو عبارة مسابقة العصبة لعام ١٩٤٧ .

أما صناعة النسيج فقد فازت بالجائزة الاولى فتاة نسجت أربع عشرة قطعة مختلفة من الصوف الجبلي ، مع وضع علامة العصبة وفقاً لشروط المسابقة ، أربع عشرة قطعة من الصوف كتابه عن كسوة كاملة لعائلة كثيرة العدد. ان بها لثروة لا يشعر بها الحياديون ، تنتجها الفتاة فتقضي وقتها بما يفيد بدلا من ان تقضيه هارفة مثرثرة ، وجائزة النسيج ستكون هذا العام للاتقان ايضا — مثل جائزة السجاد سواء بسواء — وسنقيم معرضاً للنسيج ومعرضاً للسجاد في العام المقبل ، وسندعو لترويج سوق السجاد الجبلي والمنسوجات الجبلية في الخارج ، وكم يكون اخواننا المهاجرون مسرورين او اتيح لهم أن يفرشوا بيوتهم في المهجر من سجاد هذا الجبل الاشم .

أما فيما يتعلق بحركة التأليف والنشر ، فعلاوة على مقالات الجرائد والمجلات الكثيرة التي انتجها اخوانكم سنطالعكم عن قريب بمنشورات ذات قيمة كبرى ، فرجوا الخير وانتظروا وسيكون الجواب ما ترون لا ما سمعتم ان شاء الله .

ايها الاخوان . .

لقد اطلت عليكم ، وعذري عندكم اننا لم نجتمع بعد مرة واحدة في مكان اقدس من هذا المكان ، ولم ننهل الوحي مرة واحدة من جو أطهر من هذا الجو ، ولم نقف بعد مرة واحدة في ارض تمور بالحياة مثل هذه الارض المباركة ، ولم نجمع ادرنا مرة واحدة كما اجمعناه الآن ولم نستقبل الحياة العاملة المنتجة ، الحياة المبدعة المخصاب ، كما استقبلناها هذه المرة : فاذكروا هنا بين خفق الارواح العلوية ، وهمس النفوس الذكية ، اذكروا انكم تقطعون العهد للاجيال الصاعدة بان تعملوا وتعملوا وتعملوا ليرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ... ولتحي العروبة ..

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

حقوق الإنسان والمواطن

وركز الاخوة الذين تناوبوا على الخطابة نثراً أو شعراً على هذه المواضيع المستقبلية ، وكان للمؤتمر صداه البعيد ، حماسة واستعداداً لدى الجماهير التقدمية وخوفاً واحتياطاً لدى القوى الرجعية . ولم أقف عند هذا الحد بل وجهت في ٢٣ نيسان ١٩٤٧ رسالة مضمونة إلى القائد العام للثورة ضمنتهاتفكيري المتعلق بالمرحلة ، منطلقاً من نقاط هامة :

١ — ان تراثاً وطنياً نضالياً ضخماً للجبل كان للقائد الفضل الأول في تكوينه .

٢ — هذا التراث نادراً ما يشير إليه المؤرخون بل يطمسه الكثيرون منهم ، عامدين .

٣ — هذا التراث المجيد الذي كسبه لنا نضال السيف والشجاعة لا يحميه إلا جهاد القلم والفكر الصادر عن علم وجرأة ومعرفة بأصول القول والسياسة .

٤ — المنبر الطبيعي إلى جانب ما كتبناه ونكتبه في الصحف هو المجلس النيابي حيث توضع التشريعات التي تصون التراث وتلزم الحكومة بوضع مناهج تدريسية تحقق هذه الصيانه .

٥ ـ إن النيابة ليست زعامة ، بل خدمة ،

٦ ـ إن على الناس أن يدركوا أن قوة الجبل الفكرية لا تقل عن قوته الحربية وأن رأسماله العلمي لا يقل عن رأسماله الحربي وان ثروته برجال العلم الشجعان لاتقل عن ثروته الابطال السيف الأبطال .

٧ ـ ان القائد الذي وافق على خوض كل معركة كان يقدم عليها أبناء الجبل لا يمكن إلا أن يوافق على تشجيع روح النهضة الفكرية في الجبل ، وهذه النهضة تريد أن تمكن لكم ولثورتكم ولجيلكم ركائز راسخة في تاريخ العرب ومستقبل العرب .

وأعلنت رغبتي في أن أرشح نفسي للنيابة عن قضاء صلخد في الانتخابات المقبلة معتمداً على تأييد (عطوفته) الغالي وتأييد الجيل الجبلي الناهض » .

ورحت أنتظر الجواب .

حدث هناما لم يكن في الحسبان . كان أحد سائقي السيارات من أبناء الجبل قد دهس امرأتين من محافظة درعا ، وبعد الحادث بأيام كان يمر بقرية الشيخ مسكين باص ينقل ركاباً من السويداء إلى دمشق او العكس . فأوقف أهالي الشيخ مسكين الباص واعتدوا على الركاب بالشتم والضرب والاهانة وتصادف أن الشيخ أحمد الهجري الشيخ الديني الأول في الجبل كان في الباص ولحق به من الاهانه والضرب ما لحق بسواه . كان الاعتداء مستقبحاً موغلاً في الدناءة وحين ذاع النبأ في الجبل عم الهيجان جميع الأوساط .

واغتنم الفرصة الناقمون على الوحدة الذين لم يفقدوا الأمل بفسخها والرجوع إلى (الاستقلال بالقطيع) اغتنموا الفرصة فلمعت في ذهن

أحدهم فكرة جهنمية أن يستغلوا النقمة ويصعدوها ويهاجموا محافظة درعا المجاورة هجوماً عاماً بالسلاح فيحدث شرخ عميق واسع لن يكون في مقدور أحد ازالته ، ويعود أبناء الجبل إلى التقوقع عازفين نهائياً عن الوحدة التي صورها الناقمون على أنها السبب الحقيقي لما جرى : (لولاها لما كان ما كان) هكذا قالوا وركب أحدهم فرسه وسار في مقدمة البيارق الحربية باتجاه بصرى الحرير عن طريق السويداء وبدأت الحشود تصل حتى بلغ عدد البيارق التي أصبحت قريبة من حدود محافظة درعا خمسة وثلاثين بيرقاً تحتها مالا يقل عن خمسة آلاف أو ستة آلاف محارب .

ازاء هذا الخطر المدمر كان لابد من وقفة حاسمة وكانت وقفتنا للحفاظ على الوحدة والقضاء على الردة ، لا تقل في اثرها عن مواقفنا السابقة حتى موقفنا يوم ٢٩ أيار ١٩٤٥ ، فتنادينا إلى اجتماع عاجل واتصلنا بالمحافظ وقيادة الدرك وطلبنا القيام بعمل ما لوقف الاندفاعة الاجرامية . وتداولنا الرأي فحصلنا على قرار عاجل ، أهم نقاطه :

١ — وقف الهجوم موقتاً .

٢ — الدعوة إلى مؤتمر وطني خلال ٢٤ ساعة

٣ — القبول بما يقرره المؤتمر وفرضه على الجميع .

واقترحنا أن يكون الاجتماع في مدرج شهبة لاتساعه وتمتعه بمزية التنظيم ، حيث يجد الجميع مكاناً للجلوس مشرفاً على المنصة ولا يحجب كبير صغيرا حسب التعابير العشائرية .

وحشدنا ثلاثمائة من خيرة اخواننا الشبان ليحضروا المؤتمر ونحن نتمتع في شهبه ، بموقف متفوق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي الموعد المحدد ، ابتداء من الظهر ، حضر المدعوون : سلطان في الطليعة ، والمحافظ (الأمير حسن) وقائد الدرك ، زيد أخو سلطان ، وجميع الأشخاص المعروفين في المحافظة .

وحين بحثوا جدول الاعمال ، أي أسماء الخطباء ، طلبنا إليهم أن يحسبوا حساب الشباب بكلمة ، وان تكون هذه الكلمة آخر الكلمات. وبدأت الخطب العنتريــة : « لايسلم الشرف الرفيــع من الاذى ، والسيف أصدق أنباء من الكتب ، ومازلنا نحن كما كنا — الخ . .

وكنا قد احتللنا الصفوف المتوسطة من المدرج ، وكنا نراقب انعكاسات الكلمات على الوجوه ، فلاحظنا علامات السرور والغبطة على وجوه الناقمين على الوحده وعلامات الامتعاض على وجوه الآخرين ، وهم الاكثرية ، هم الشعب .

وأعلن عريف الحفلة : كلمة الشباب يلقيها فلا ن (أنا) فوقفت ، وبدأت خطابي وشمس العصر على رأسي تماماً ، وأنا لا أشعر بالشمس ولا بشيء غير الهدف الذي أردناه : افشال المؤامرة ، استعرضت مراحل نضال الجبل ، المرحلة العشائرية ضد البدو المغيرين العابثين ، ضد اللصوص ، وبين عائلة وعائلة ، المرحلة الاقليمية لدفع الاعتداءات الحاصلة من الجوار ، ثم مرحلة النضال ضد الدول المستعمرة ، ضد تركية ، ضد فرنسة ، واننا بعد هذه المرحلة وجلاء آخر جندي من جنود الاحتلال صرنا محافظة سورية تطبق فيها القوانين وأصبح للوطن جيشه الوطني الذي يتولى حمل السلاح ويدافع عن البلاد ، وهذا الجيش مؤلف من أبناء جميع المحافظات ، فهو يمثلها جميعاً ، بعد هذه المرحلة لم يعد من حقنا أن نحمل السلاح إلا ضد الاجنبي وبالتنسيق مع جيشنا ، أما الخلافات التي تقوم في الداخل فيجب أن تترك للقانون والنظام ، أما علاقاتنا بحوران السهل وسكانه فهي علاقات جوار واخوة وان

الرابطة القومية التي تربطنا باخواننا أقوى من أية رابطة عشائرية أو مذهبية ، نحن وهم عرب قبل كل شيء وفوق كل شيء ، والقول بأن العار لا يغسله إلا الدم ، قول حق يراد به باطل ، فأين العار الذي تتحدثون عنه ، ان الكرامة لا تصان إلا بالكرامة ، يجب أن يعتذر كرام الحوارنة عما فعله سفهاؤهم ، هذه وحدها هي الطريقة التي يقبلها العقل والمنطق ويقرها النظام ، وهذا العصر الذي نحن فيه يتطلب عقلية جديدة نبرهن بها على أننا متحضرون نعرف كيف نحافظ على استقلالنا الذي حصلنا عليه بدماء الشهداء الذكية وأرواحهم الغالية .

الصمت الذي ساد المؤتمر ، الاصغاء الاستحسان ، الذي بدا على الجميع ، التصفيق الطويل الذي قوبل به الخطاب الطويل ، الطويل ، عند انتهائه اقدر انه استمر أكثر من ساعتين حتى اسمر لوني تماماً من الشمس كل ذلك دل على أننا كسبنا الجولة .

وقف على الأثر توفيق الأطرش وقال « إننا نؤيد كل كلمة قالها الأستاذ . .» وتتابع المؤيدون واقترح تشكيل لجنة لوضع صيغة بيان يذاع فوراً لتعود الحشود إلى قراها . وتشكلت اللجنة على النحو التالي :

سلطان الأطرش — رئيس شرف .

الأمير حسن الأطرش — رئيساً .

يونس جربوع (قاض) ، جميل أبو عسلي (محام) عز الدين التنوخي (مدير تربية) نجيب حرب (صحفي) كرم الحناوي ، مدير داخلية (فرع العصبة — أعضاء . وطالب الجميع أن أكون أمين سر هذه اللجنة — وعدنا من (شهبة) إلى السويداء لاصدار البيان. ونزل سلطان في بيت المحافظ « المقر الرسمي المجاور لدار الحكومة». واستدعاني للاجتماع به ليلاً.

كنت أعتقد أن الاجتماع الثنائي سيخصص لوضع صيغة البيان . إلا أن قائد الثورة بدأ يحدثني عن رسالتي اليه ، ودار بينه وبيني الحوار التالي على وجه التقريب :

هو : لقد أخذت رسالتك وأحببت أن أجيبك شفهياً .

أنا : شكراً — ولعلك اقتنعت بوجهة نظري في موضوع الرسالة.

هو : كنت أريد أن أنفذ مقترحاتك ولكن الشعب يريد أمراً آخر. الشعب يطالب بترشيح أخي علي للنيابة عن قضاء صلخد . ..

أنا : من هو الشعب الذي تتحدث عنه يا باشا؟

هو : لقد وردتني رسائل من القرى الفلانية وسماها.

أنا : (مبتسماً) انني أستغرب ياباشا أن تعتبر هذه القرى ممثلة للشعب ، لترشيح من يمثله في المجلس النيابي ، ولكنك لم تعتبرها كذلك يوم أردت أن تعلن ثورتك ضد الاستعمار . لقد ذهبت يومها إلى عرمان ، وملح ، ومتان لأنك تعرف وزنها الشعبي .

هو : هذا صحيح ولدي أيضاً بعض الرسائل من هذه القرى . — مع ذلك سوف نعقد اجتماعاً عائلياً قبل مغادرتي السويداء ونتخذ قراراً نعلنه للجميع .

أنا : أنت وشأنك يا باشا ، إلا أنني طالما قلت لك . إنك شجاع ، وتحب الشجعان ، ، فأرجو أن تتقبل ملاحظاتي بهذه الروح ومن هذا المنطلق .

أولاً — نحن نستغرب أن تقول إنك ستعقد اجتماعاً عائلياً ، فأنت في نظرنا ، فوق العائلات والعائلية ، ومنطق الثورة هو غير منطق العائلية ، فعائلتك لم تكن كافية لتقاتل بها الاستعمار ، ولذلك لجأت للشعب ،

بل أكثر من ذلك ، الذين ناوؤوا الثورة وحاربوك كانوا من عائلتك. بينما الآلاف الذين قاتلوا وانتصروا واستشهدوا كانوا من الشعب الذي يطلب من يمثله ، يمثل تطلعاته .

ثانياً — إنني أقدر أخاك (علي) حق قدره ، أقدره محارباً شجاعاً ، خلوقاً ، ولكن ألا ترى معي أنهأبعد ما يكون عما يجب أن يكون عليه النائب ؟ حين تكون في سيارةوتتعطل هل تطلب فلاحاً ليصلحها أو تطلب خبيراً بالميكانيك والكهرباء ؟

ثالثاً — ألا ترى معي اننا على أبواب مرحلة جديدة تتطلب مؤهلات جديدة على مستواها . ؟

هو : سآخذ ملاحظاتك هذه بعين الاعتبار في الاجتماع وانا مضطر لعقده قريباً .

بعد هذا ، حضر أعضاء اللجنة الآخرون ووضعت صيغة للبيان الذي أنهى الفتنة وصان البلاد من حرب أهلية ما كان أحد يدرك أبعادها.

قبل أن يعقد الاجتماع العائلي المرتقب حدث احتكاك بيني وبين الأمير حسن مصادفة خارج السويداء : لقد كنا في مأتم اسبوعي في قرية (عتيل) وكانت العادة تقضي بتناول الطعام في منازل القرية ، وفي المضافة التي دعينا إليها كان عدد كبير من المدعويين البارزين منهم الأمير حسن وعدد من رجالات هيئة الشعب الوطنية . وبعد تناول الطعام قدم المضيف (المعزب) حبّه — كرميل — لأن الزمن لم يكن زمن فواكه ، إذ يقدم العنب والبطيخ ، عادة بعد الطعام . . وكانت حبة الكرميل تحتوي على ورقة صغيرة تحمل إحدى العبارات (حكمة — مثل —

شطر بيت شعر – الخ . .) وفيما أنا أقرأ العبارة التي وجدتها في جيبي خاطبني الأمير حسن قائلاً :

– ماذا في ورقتك ، يا أستاذ ؟

– من صبر . ظفر ، يا أمير .

وكانت هذه العبارة هي فعلاً ما قرأته على ورقتي .

– لكن ما رأيك لو طالع لك : « في التأني السلامة وفي العجلة الندامة»؟

– التأني في القرن العشرين ، يا أمير جبانة .

– اسمع يا أستاذ ، ان الشعب الذي تتحدث عنه وتكتب عنه ليس موجوداً إلا في مخيلتك ، إنه لن يوجد قبل عشرين سنة من الآن ..

– لقد ابتعدتم عن الشعب ، يا أمير حتى صرتم لا ترونه ، وأنا لا أستغرب ذلك ، إلا أنني مستعد ، إذا اقتضى الأمر ، أن أريك هذا الشعب في أقل من عشرين يوماً بدلاً من سنواتك العشرين.

كان الجميع ينصتون ويتابعون الحوار . وفي المضافة حوالي مئة شخص ، وكلهم كانوا قد شهدوا كيف بدأ الحوار بمبادرة مقصودة من الأمير وأنه قصدني بالذات لمعرفته التامة بما أمثل من قوى . ألم نقم معاً بعملية ٢٩ أيار ١٩٤٥ ؟

وعندما وصل الحوار إلى المساس بالشعب هب السيد يوسف العيسمي وهو من رجالات الثورة البارزين ومن أركان الهيئة الشعبية فقال :

– « لا يا أمير ، هذا كثير ، نحن لا نسمح بأن تتحدى الشعب على هذا النحو ، وسترى الشعب في أسرع من لمح البصر عندما تدعو الحاجة

وتدخل مواطنون كثيرون معلنين احتجاجهم ثم انصرف المدعوون وسط ضوضاء اختلط فيها الحابل بالنابل.

الفصل الثاني والثلاثون

العهد الجديد

وتسارعت الأحداث ، فالاجتماع العائلي) الذي حدثني عنه سلطان ما يزال قائماً وهو يطول ويطول والايام تمر وموعد الترشيخ للانتخابات يقترب . وكانت أخبار الاجتماع العائلي تتسرب إلى الأوساط الشعبية وبعضها كان يسرب عمداً ، إما لجس النبض أو لتثبيط العزائم — سمعنا— مثلا ولم — نصدق في بادىء الأمر — ان من جملة ، ما قيل في الاجتماع :

(هذه اول انتخابات تجري بعد الجلاء وأول انتخابات تجري من قبل الشعب مباشرة : لهذا كانت هذه الانتخابات ذات أهمية قصوى فعلينا ، نحن العائلة ، أن نثبت حقوقنا التاريخية المكتسبة في تمثيل الجبل خارج الجبل ؛ قديماً كانت الدول لا تعتمد سوانا لبحث شؤون الجبل ومستقبله . وحين كانت تتجاوزنا إلى الشعب كنا نحاربها بالشعب نفسه الذي قفزت من فوقنا لتتصل به . والآن علينا أن نحول هذه الانتخابات تقليداً تجبر الحكومات الوطنية على التقيد به ـ نحن النواب لا غيرنا . ولن نتساهل لأن الوزارات تشكل من النواب . ونحن لنا مقعد وزاري دائم . فلا بد أن نكون نواباً للحصول عليه . ولو صار غيرنا

نواباً ، لأمكن أن يصبحوا — بالتالي — وزراء . وهذا ما لا نقبل به أبداً) .

فيوم انفض الاجتماع ، وبعيد الغروب جاءني الصديق طرودي عامر) قائمقام شهبة آنذاك والرفيق كرم الحناوي وبعد الترحيب بهما قال طرودي :

— أخي سعيد ، أرجو ألا يسوءك ما جئنا نبلغك إياه . فأنت تعرف أنني أخوك وأنني أريد لك كل خير . وأقصى أماني أن أرى أمثالك يمثلون هذا الجبل في مجلس النواب . ولكن يظهر أن ذلك سابق لأوانه — والظروف المحلية لا تسمح بحدوثه ، لقد جئت والأخ أبو اسماعيل (كنية كرم الحناوي) لنبلغك بكل أسف أنك يجب أن تمتنع عن ترشيح نفسك للنيابة عن قضاء صلخد . فالمرشح سيكون علي شقيق سلطان ولن يسمح لأحد غيره بترشيح نفسه والذي كلفنا تبليغك هو سلطان باشا بالذات ناطقاً باسم العائلة كلها ، وسيبلغ الأستاذ جميل أبو عسلي ، ومحمد باشا عز الدين القرار ذاته . وأضاف كرم الحناوي ، بعض الأسباب التي أقنعوه بها مثل : تعرف أن أول مجلس بعد الجلاء سيكون فيه صدام بين مصالح المناطق المختلفة وان الباشا حريص على أن يكون ممثلو الجبل في هذا الصدام من نوعية خاصة ، زعماء يهددون بالقوة ، لا متعلمين يتسلحون بالفكر والمنطق والمبادىء العامة ، فهذد لم يحن دورها ولن تقنع أحداً ولن تنتزع حقاً من أحد والجماعة لن يتخلوا عن زعامتهم بالسهولة التي تتصور

كانت كل كلمة يقولها الرسولان الكريمان تنغرس في دمي وأعصابي وتنمت ثورة على الواقع الذي نعيشه وكان جوابي هو التالي :

« يؤسفني أن يختاركما الباشا أنتما بالذات لابلاغي هذه القرارات الخطيرة . يؤسفني يا أخي طرودي ، أن تقبل التكليف وأنت أعرف الناس بي وبمنطلقاتي .. وتطلعاتي : : ولأنك محسوب على جيلنا ، على الرغم من كونك من أسرة لها عنعناتها هي أيضاً . أما أنت ، يا أخي أبا اسماعيل فلاأجدمبرراً على الاطلاق لقبولك التكليف وأنت مدير داخلية فرع العصبة ، وأنت مشارك في كل عمل قمنا به حتى الآن ، وكل بيان أذيع باسمنا يتضمن أفكارنا وطموحاتنا ، وأني أستنتج من قبولك بأن تكون رسولاً من خصومنا إلينا أنك لم تعد متضامناً معنا . وان هذا سيؤدي لى انقسام العصبيين . ولكن . . إلى جانب أسفي فأنا أشكر لكما ما قمتما به . أما جوابي فهو ، إني كنت أفهم لو أنذرني الباشا بعدم النجاح في الانتخابات ، فهذا معقول ، ولم أقل أني أستطيع أن أفوز في المعركة ، والحكومة في الجبل كلها من العائلة . والعشائرية ما تزال صاحبة الكلمة

وانصرف الرسولان ومع ذلك ذهبت إلى صلخد — في اليوم التالي ، فقدمت طلب ترشيحي للقائمقام السيد صياح الأطرش ، فأخذ الطلب وقال لي : سنبلغك النتيجة بعد خمسة أيام ، فقلت له ان الايام الخمسة هي الحد الأقصى . فحبذا لو اختصرناها قليلاً ، فقال : أنا فاهم القانون هكذا ، سأبلغك بعد خمسة أيام أي يوم كذا ، فأطلعت الرفاق في صلخد على ما جرى وطلبت إليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد لكل طارىء. وذهبت إلى قريتي عرمان حيث اتصلت بخالي هزاع المتني وأخي منصور وسائر أهل القرية ، فقال لي خالي أنه سيرافقني إلى صلخد لمقابلة القائمقام وتسلم الجواب منه لعله يذكره برفقة السلاح أيام الثورة .

وفي اليوم المحدد ذهبت مع خالي إلى صلخد ودخلنا مكتب القائمقام ،

وبعد السلام بادرنا هو بالقول :ان طلبي الترشيح مرفوض لأنني أعمل محامياً في السويداء ، وبهذا لا أكون مقيماً في قضاء صلخد ، وبالتالي، لا يحق لي أن أرشح نفسي للنيابة عن هذا للقضاء ، فقلت له :

أريد أن أستشهد بحالات مماثلة لحالتي ، فأنتم الأطارشة تعرفون محامين مشهورين في دمشق ، أحدهما الأستاذ رزق الله انطاكي ، والثاني الأستاذ محمد الجيرودي فالأستاذ انطاكي ذو مكتب معروف في دمشق ، وهو وكيلكم في الكثير من قضاياكم. وهاهو ذا قد قبل مرشحاً عن حلب موطنه الأساسي : وهذا اسمه في الجريدة وكذلك محمد الجيرودي رشح نفسه عن جيرود موطنه الاصلي .وقد قبل ترشيحه ، وهذا هو اسمه في الجريدة. أيضاً . وموقفي أنا أقوى من موقف كليهما فأنا أمارس عملي اسبوعياً أمام محكمة صلح صلخد : وأمامنا هناك مقابل مكتبك هذا مكتب فرعي عليه لافته تحمل اسمي وتستطيع أن تقرأها من هنا ، فما قولك ؟ فأجاب :

لقد قلت كل ما علي أن أقوله فطلبك مرفوض وأمامك الاعتراض حسب القانون .

خرجت من عند القائمقام وسألت عن القاضي هل هو في المحكمة أو في الغرفة التي يسكنها حينما يكون في صلخد : والقاضي كان السيد فوزي الأطرش

كنت أعرف قبل أن أتوجه لزيارة القاضي – بعد أن عرفت أنه في غرفة سكنه – ان الوضع متأزم كثيراً في السويداء ؛ فاذا وجدوا لي في صلخد سبباً واهياً ليتذرعوا به لعدم قبول ترشيحي فما هو السبب الذي سيجدونه لرفض ترشيح جميل أبو عسلي ؟ فهو من السويداء ومقيم فيها ان يكن يذهب إلى شهبة حيث كان يعمل قاضياً ويعود بعد الدوام ليبيت في منزله في السويداء .

والوضع متأزم أيضاً في شهبة حيث تذرعوا لرفض ترشيح محمد عز الدين بالسبب ذاته وهو أنه مقيم في السويداء ولا يقبل ترشيحه عن قضاء شهبة موطنه الاصلي ، (آه لو قرؤوا ما كتبه القادة الفرنسيون عن الرعب الذي كان يخيم على جيوشهم الجرارة كل ليلة خوفاً من هجوم محمد عز الدين عليهم) .

حين دققت الباب على فوزي الأطرش كانت ترتسم على وجهي انفعالات تنبىء بشر مستطير . لهذا رأيته يحاول أن يهدىء من روعي ، وقال :

« تقدم باعتراضك وأرجو أن يلهمنا الله الصواب ، ولكني قلت له : اسمع ، يا سيدي القاضي ، أنا لم أجيء لأسألك العدالة والتقيد بالقانون . فأنت تعرف أن العدالة إلى جانبي والقانون كله معي . ولكني جئت أخبرك بحقيقة الوضع . وأن تغدو إلى المحكمة مبكراً وان يكون اعتراضي مقبولاً وترشيحي مقرراً بحكم منك غداً عند تمام الساعة التاسعة.

غادرت القاضي إلى حيث كان ينتظرني الرفاق ، وكانت المدينة كلها في غليان : الاجتماعات تعقد في جميع الأحياء والهمس يدور في كل مكان . بعضهم يترقب وصول الاخبار من السويداء ، وأكثرهم ينتظر أن تبدأ الحوادث هناك لقد علمتنا التجارب أن نهتم بالنواة ، بالطليعة ، نواة صلبة يتماسك حولها الشعب كله . طليعة قوية منظمة ملتزمة مصممة . حاسبة حساب أسوأ الاحتمالات . والجماهير تسير وراءها حتى الموت لم يعرف أكثرنا النوم تلك الليلة . لقد وضعنا مخططاً كاملاً لعملية الغد ، حددنا لكل مناضل مكانه ، وسمينا المسؤول عن كل جزء من العملية : هناك ثلاث دوائر يجب أن نسيطر عليها سيطرة كاملة :

قيادة فصيل الدرك . دائرة القائمقام . المحكمة . أما الجيش الذي كانت سرية منه في القلعة بقيادة الضابط ابراهيم الأطرش : فلم يكن من المحتمل تدخله لأنه يتلقى أوامره من القيادة العامة في دمشق .

منذ الساعة السادسة من صباح اليوم التالي كانت قيادة الفصيل مطوقة بالشبان المسلحين وكذلك المحكمة ودائرة القائمقام . حاول قائد فصيل الدرك أن يتمرد فأفهمناه بالتي هي أحسن أنه من الأفضل له أن يلزم الهدوء ولا يتحرك فنحن لا نريد منه وبفصيله أي سوء ، ليس هو : المقصود ولا رجاله . إنما نحن نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن حقنا في الحرية والمساواة وفي الحصول على العدالة المتحررة من كل تسلط . أو طغيان ، وعدناه بأننا لن نكون البادئين ولكن عليه أن يضبط رجاله فلا يكونوا هم البادئين أيضاً . وكان لنا بين رجال الدرك رفاق ملتزمون وأنصار معاونون :

وحين وصل القاضي إلى المحكمة في تمام الساعة الثامنة شاهد المسلحين يحيطون ببناء المحكمة ويسيطرون على محاور الطرق المؤدية إليها . وكانت المحكمة في الطابق الأول فوق الطابق الأرضي المنخفض قليلاً ، فصعد القاضي الدرجات القليلة الخارجية الصاعدة إلى المحكمة وصعدت وراءه ، وماكاد يجلس وكاتبه إلى جانبه حتى كنت أمامه وطلبت إليه فتح المحاكمة بدعوى الاعتراض على رفض الترشيح .

أتمنى أن يكون ملف تلك الدعوى محفوظاً بين محفوظات المحكمة ليعود إليه من يشاء ، فهو تحفة فريده من نوعها ، ما قلته وأصررت على تسجيله في ضبط المحاكمة ذلك اليوم أقرب إلى الخطبة السياسية والفلسفية الاجتماعية الثورية ، ومناقشة حقوق المواطن والجماعات منه

إلى المرافعة القضائية العادية ، لم يكن ممكناً ـ لو كانت الظروف طبيعية ولو كان القاضي حيادياً . ولو أزلنا الضغط العشائري ، لم يكن ممكناً لأحد أن يحكم ضدي لمجرد سماع تلك الحجج التي أدليت بها ، لأنني كنت أدافع عن وجود الشمس والشمس تملأ الوجود : كان الحكم مضموناً لمصلحتي بصورة طبيعية ، وبسبب عدم توافر الحياد لجأنا إلى هذه الاجراءات .

وأصدر القاضي حكمه بقبول ترشيحي للنيابة عن قضاء صلخد فرجوت منه أن يسلمني صورة مصدقة عن خلاصة الحكم قبل أن أغادر المحكمة ، أراد أن يعتذر بسبب مالديه من دعاوى أخرى وبأن هذا التصرف لم يكن تصرفاً معتاداً . فقلت له : إن الدعوى كلها غير عادية ، فانصاع وسلمني النسخة الممهورة بخاتم المحكمة وتوقيع القاضي الكريم ، فشكرت له شجاعته في إحقاق الحق وخرجت من المحكمة ونزلت الدرج مشيراً إلى الرفاق بأن كل شيء على ما يرام ، ورفعنا الحصار عن الدوائر الثلاث وذهبت فوراً إلى دائرة البريد فأبرقت إلى الصحف في دمشق والسويداء ، واتصلت هاتفياً بآل أبو عسلي في السويداء إذ كانوا يعقدون اجتماعاً شعبياً كبيراً يتداولون فيه الرأي في الطرق المسكن اتباعها بشأن ترشيح الأستاذ جميل أبو عسلي ، وبشرتهم بحصولي على الحكم .

الفصل الثالث والثلاثون

محاولات التسوية والإبعاد
أو الهجرة

لم يطق اخواننا الشعبيون في السويداء صبراً على التعسف فانطلقوا بالسلاح الكامل مهاجمين دار المحافظ في السويداء . وكانت معركة سقط فيها قتيل وعدة جرحى . وكان ذلك بداية العنف المسلح في الحركة الشعبية . وفي اجتماعين حاشدين عقدا في صلخد (٢٩ — حزيران ١٩٤٧ وفي المزرعة (٥ تموز) ، وضعت المبادىء التي تناضل الهيئة الشعبية من أجل تحقيقها على أساس أنها حركة تحرير وإنشاء واصلاح دائمة لا تنحصر في قضية الانتخابات وحدها ، بل تعالج جميع مشاكل الجبل باستمرار ، وتترفع عن الحزبيات القروية والعائلية والطائفية وتعتبر كل من عمل لصالح المجموع عضواً طبيعياً كاملاً في هذه الحركة التي تهتم بتشجيع الثقافة في الجبل ، وتهتم بحالة الفلاح وتعتبر الحكم القائم في الجبل مخالفاً للدستور والنظام والقانون ، وركزت المبادىء على كون الجبل إحدى المحافظات السورية ويجب أن تسري فيه القوانين والانظمة التي تسري في جميع المحافظات ، والا يكون للموظفين فيه أية سلطة أو صفة ؛ غير سلطة الوظيفة وصفة الوظيفة ، وان تحل مشكلة المشردين من أبناء

الجبل بتنفيذ المشاريع العمرانية المقررة تحت اشراف لجنة من الموثوق بهم . . الخ . . (١)

وفي ٣٠ حزيران ، ثاني يوم اجتماع صلخد عقد الاطارشة اجتماعاً حاشداً في عرى خطب فيه سلطان وغيره ، ونجم عن الاجتماع تصلب في الموقف المعادي للحركة الشعبية التقدمية وتمسك بحق الاطارشة وحدهم في النيابة عن الجبل ، حقاً موروثاً لا يجوز التساهل فيه . وسمع في خطاب قائد الثورة هجوم على الحكومة ودعوة إلى مقاطعة الانتخابات لقد خطب تحت تأثير المعارضة في دمشق التي كانت تريد أن تستعمل اسمه ونفوذه من اجل انهاء حكم الكتلة وشكري القوتلي ، ونسيت المعارضة أن المصلحة الطبقية أقوى من التكتيكات الحزبية . فحركة الزعامة في الجبل لا يهمها من يكون حاكماً في دمشق بقدر ما يهمها أن يكون هذا الحاكم متفقاً معها مؤمناً بقاءها محققاً مطالبها ، محافظاً على مصالحها ، فعلى أثر انتهاء اجتماع عرى جاءني ليلاً في عرمان الأستاذ نبيه الغزي وأحد رفاقنا البارزين وفهمت منهما أنهما قادمان من عرى حيث حضرا الاجتماع . وكان الأستاذ الغزي يحمل إلي كلمة خطية من الأستاذ فهمي المحائري الأمين العام لعصبة العمل القومي ، مؤرخة في ٢٠ – حزيران ١٩٤٧ يقول فيها : « تحية العروبة وبعد يحمل الأخ نبيه بك رسالة شفهية أرجو أن تأخذوها بعين الاعتبار ، تقدروا الموقف العام تقديراً يتجاوب والمصلحة الوطنية .

---

(١) لمعرفة كل هذه التفاصيل ، تراجع البيانات الصادرة عام ١٩٤٧ والموجز الوافي الذي أورده الاستاذ سعيد الصغير في كتابه (بنو معروف في التاريخ) ص ٢٠٠ – ٢٠٧

(٢) صدر فعلا قبل نشر هذا الفصل

(٣) منذ أيام وانا اكتب هذا الفصل في ٢٣ – ٢٤ اذار ١٩٧٥ انتقل الأستاذ النكدي إلى الرفيق الأعلى رحمه الله ، بقدر ما أدى إلى أمته من خدمة في جميع الحقول والحقب .

ولخص الأستاذ نبيه الغزي الرسالة الشفهية مضيفاً إلى بعض فقراتها ما ستنتجه من اجتماع عرى ، كما يلي :

١ — ان المعارضة تخوض المعركة الانتخابية ضد الكتلة الوطنية لانهاء حكمها في سورية . وبما ان الزعامة في الجبل قد اتخذت موقفاً معادياً للكتلة فان المعارضة تجد أمامها فرصة ذهبية ، وورقة رابحة لا يجوز أن تفرط فيها ، فهي ستستعين بقوة هذه الزعامة التي منها قائد الثورة لتتغلب على الحكم القائم في العاصمة .

٢ — إن نجاح المرشحين الشعبيين في الجبل — وأنت منهم — غير مضمون ، بل مشكوك فيه كثيراً . فلماذا تخوض معركة فاشلة بلا مبرر ؟ .

٣ — أنت من المعارضة بسبب من انتمائك إلى العصبة فكيف تفسر أن يكون موقفك مناقضاً لموقف المعارضة كلها ؟

٤ — اننا خائفون على حياتك ، فلقد سمعنا في اجتماع عرى تهديدات موجهة إليك شخصياً ، ومن رأى اجتماع عرى الحاشد لايشك في أن أكثرية أبناء الجبل كانت هنالك فما هي مصلحتك في هذا كله ؟

وكان ملخص جوابي للأستاذ الغزي كما يلي :

آ — ان تحليلكم للموقف يجافيه المنطق فأنتم ، المعارضة ، لا تقاومون الكتلة ، لأنها (الكتلة) بل لأنها تمثل عقلية طبقية معينة . هي اقطاع ورأسمال ، وبورجوازية كبيرة . والزعامة عندنا في الجبل تمثل العقلية الاقطاعية . فكيف توفقون بين مزاعمكم التقدمية — الاصلاحية — وقبولكم بالتعاون مع هذه العقلية ؟

إذا كنا لا نستطيع أن نحصل على أي حق من حقوق المواطن ازاء هذه العقلية وهي لم تطوق جيد سورية بجميل كجميل انقاذها من عقلية الكتلة ، فكيف ستكون حالنا اذا سمحنا لها بأن تضع في عنق البلاد مثل هذه المنة الممنونة المستغلة إلى أبعد حدود الاستغلال ؟ انكم لم تعانوا ما عانيناه منذ حوالي قرن كامل . فاتركونا وشأننا . أنتم تعارضون الحكومة في دمشق وتوالون الاسرة الحاكمة في الجبل ونحن نعارض هذه الأسرة ولا نوالي تلك الحكومة فأي الموقفين أكثر انسجاماً مع نفسه ؟ . .

ب — أما كوني أخوض معركة فاشلة فهذا لا يهم لأنني لم أرشح نفسي لأفوز بالنيابة بل رشحت نفسي لأثبت لنفسي والآخرين أنني مواطن يحق له ما يحق لسائر المواطنين . ولا تستغرب أن تسمع بانسحابي ، بعد أيام إذا اقتضت المصلحة الشعبية ذلك ، كما لا تستغرب إذا سمعت أن فشل الشعبيين في الانتخابات الجارية كان سبب نجاح الحركة الشعبية على المدى الطويل . .

جـ — أما تناقض موقفي مع موقف المعارضة فأنت تعرف أنني لست ملتزماً بأشخاص ، بقدر ما أنا ملتزم بمبادىء . ولو قرأت كل ما كتبته في (الحضارة) لتبين لك هذا واضحاً كل الوضوح ، فالمبادىء هي هي المقياس ، وإذا كانت المبادىء كلاماً في كلام فعلى الدنيا السلام. وأنا أستغرب كيف تكون هذه المعارضة مع الدكتور سامي طيارة في حمص وهو أمين سر فرع العصبة هناك ضد آل الأتاسي وحلفائهم ثم تكون ضد سعيد أبو الحسن ، أمين سر فرع العصبة هنا ، مع آل الأطرش وحلفائهم قل لي أين هو الموقف المتناقض المتأرجح مثل المصالح الشخصية العابرة التي يوظف لحسابها .

همسة أخيرة أريدك أن تهمسها في أذن الأستاذ المحائري : كنت أعتقد أن اعجاب المعارضة بفيصل الأول وغازي اعجاب بماثله الأول في الثورة العربية الكبرى وما يمثله الثاني من تطلعات عربية جديدة . إلا أنني اكتشفت شيئاً فشيئاً أن هذا الاعجاب ليس بريئاً إلى هذا الحد .

د — بقيت قضية التهديد . أما هذه فلا ، ليتك لم تقلها لأنها القشة التي قصمت ظهر البعير . نحن ، يا أستاذ في هذا البلد بقايا سيوف ، كلنا فضلة القتل ، من الحروب الاهلية في لبنان ، إلى الحروب الطاحنة ضد العثمانيين والفرنسيين . ولهذا فان التهديد لا يجد إلى قلوبنا سبيلاً . واذا كانت قد غرتك الحشود التي رأيتها في عرى فهي لا تغرنا .

غضب الأستاذ الغزي من الجواب الصريح جداً ، وأراد رفيقنا أن يتدخل ، فرجوت منه أن يسكت لأن مجرد وجوده هو في عرى يجرده من مزية الحياد المطلوبة ، ورفض الأستاذ الغزي أن يبيت عندنا فأخذه خالي إلى منزله حيث قضى الليل وغادر القرية صباحاً . ورداً على اجتماع عرى عقدت الهيئة الشعبية مؤتمراً عاماً في المزرعة يوم ٥ تموز حضره ما لا يقل عن خمسة عشر ألفاً من المواطنين ، وقد سبق أن أشرت إلى ما قرر في هذا المؤتمر وفي اجتماع صلخد السابق من مبادىء التزمت بها هيئة الشعب الوطنية .

ولم تكن هذه آخر رسالة تلقيتها من الأستاذ فهمي المحائري فقد كتب إلي رسالة أخرى مفصلة وقد ورد فيها ما أكدته سابقاً من أن الحركة الشعبية في الجبل لها صفة المعارضة في الجبل ولكن الأستاذ المحائري يقول إن لها صفة الموالاة عندهم ، أي عند المعارضين في دمشق ، ولا أدري كيف فاته أن الذي يتولى الحكم في الجبل لا يمكن أن يعتبر معارضاً

للحكومة . وهو يريد الجبل متحداً ليكون مؤثراً ، النوايا ليست طيبة نحوه – أي نحو الجبل – وان المعارضة هي التي جمعت بينهم وبين جماعة الاطارشة الخ . . وهنا طفح الكيل ولم يعد مجال للمجاملة فارسلت إلى الأستاذ المحائري جواباً مطولاً قلت له فيه كل شيء، وقلت له ما يعرفه عن المعارضة وكان يظن أنني لا أعرفه . وقلت له أنني آسف لأنني كنت وراء شهرة أشخاص كثيرين وقد عزفت عن القيام بهذا الدور ، دور الموجه المختبىء لقد أيقظت المعارضة في دمشق بعد نومها نومة أهل الكهف ، ولقد جعلنا سلطان يلعب الدور الكبير الذي لعبه في السياسة السورية في الفترة الأخيرة (تدخله بشأن اخلاء سبيل الأستاذ المحائري مقاومته للمرسوم التشريعي رقم ٥٠، وبيانه (بياني) بهذا الخصوص .

وجرت الانتخابات في ١٧ تموز ١٩٤٧ ، أقرف انتخابات يشهدها شعب ، تصوروا صناديق الاقتراع تحت حراسة دركيين مسلحين يقرؤون كل ورقة يضعها الناخبون في الصناديق ويضعون أية كمية من الأوراق يريدون بلا رقيب ولا حسيب .

تصوروا رجال الدرك وقد ارتدوا الملابس المدنية وراحوا ينتخبون كأنهم مواطنون غير موظفين . تصوروا المساجين المحكومين وقد أخرجوا من السجون ونقلوا بالسيارات إلى مراكز الاقتراع فصوتوا وعادوا إلى السجن . ثم تصوروا نتائج الانتخاب تعلن ومجموعة من الصناديق ما تزال مختومة بالشمع الأحمر محروسة في أماكنها من قبل لجان انتخابية استطاعت أن تصمد وتقاوم عملية التزوير العامة .

على هذا الأساس أعلنت النتائج المتضمنة فوز مرشحي المعارضة ، وهاج الشعب وأصبح الموقف في منتهى الخطورة .

وشكلنا وفداً ونزلنا إلى دمشق لمراجعة الحكومة .

واستقبلنا رئيس مجلس الوزراء جميل مردم بك ، بحضور أحمد الشراباتي وزير الدفاع وعارف الحمزاوي أمين سر رئاسة مجلس الوزراء وكان حاضراً أبو موسى (عقلة القطامي) نائب المسيحيين في الجبل ورفيق سلطان .

ودار الحديث حول تزوير الانتخابات وضرورة اعادتها ولاسيما ان بعض الصناديق التي أعلنت نتيجة ما تضمنته من أصوات ، ما تزال مقفلة (مختومة بالشمع الأحمر) فكيف عرفت نتيجتها وأعلنت قبل أن تفتح ؟ كانت الحجة دامغة لا يمكن الرد عليها . إلا أن السيد أحمد الشراباتي أراد أن يخرجنا عن الموضوع فوجه الكلام إلي وهو يخاطب الوفد قائلاً : « أنتم تراجعوننا كحكومة ، مطالبين بالغاء النتيجة المعلنة وبالتالي اعادة الانتخاب والأستاذ سعيد ما تزال مقالاته التي يهاجمنا بها تدوي في مسامعنا فكيف توفقون بين هذين الموقفين ؟

فقلت للوزير الشراباتي : « أرجو ألا تعتقد أنني غيرت رأيي فيكم كحكومة ، نحن هنا نراجعكم كحكومة قائمة - حكومة واقع - لأنكم المرجع الرسمي الوحيد لاعادة الانتخابات أما رأينا فيكم فلم يتبدل . فتدخل رئيس الوزراء جميل مردم بك بدهائه المعهود وقال مخاطباً الشراباتي : « الأستاذ سعيد أستاذنا ونحن نتحمل نقده ونعتقد أنه يصدر عن قصد حسن فلا يجوز أن نبحث هذا الموضوع بصدد مسألة ا الانتخابات المزورة . »

هنالك قال الشراباتي : « إنني أعرف الأستاذ سعيد وهو من العصبيين البارزين .

قلت له : صحيح انك تعرفني وعندك الخبر اليقين . وقد لمحت بهذه العبارة إلى أنني لم أترك العصبة من أجل منصب وزاري كما فعل هو ، وإنني حاولت بالمراسلة أن أوقظ عصبيي دمشق من سباتهم منذ عام ١٩٤٥

فلم يستجيبوا كلهم والذين استجابوا لم يطل مشوارهم . وأراد أبو موسى (عقله القطامي) أن يتدخل فأساء التدخل إذ قال للشراباتي :

« يا سيدي ، البارحة كتب ، واليوم بطّل فتصديت له وقلت :

« اسمع ، أبا موسى ، أنت عندنا نائب طائفة معينة ولست نائبنا وأنا لم أوكلك لتتكلم عني ، أنا مصر على كل ما كتبته وهو موضوع مستقل عن موضوع المراجعة الآن .

وأنا لست ممن يغيرون رأياً أو مبدأ وأنا قادر على وضع النقاط على الحروف والتفريق بين الأشياء ، فأرجو منك ألا تتدخل فيما لا يعنياك.

وتقرر الغاء النتائج المعلنة واعادة الانتخابات في المحافظة . وصعق خصومنا لهذا القرار فهم ما تعودوا أن يجرؤ أحد على مخالفتهم.

ثار الفريق المنتفع بالانتخابات الملغاة وأخذ يقوم بحركات لازعاج الحكومة المركزية ، واحداث الفوضى ، ووقف الشعبيون إلى جانب القرار في حزم وقالوا لابد من تغيير الجهاز الاداري ، في المحافظة ، قبل إجراء الانتخابات الجديدة وإلاّ فسيحصل ما حصل سابقاً :

أقف بالقارىء الكريم عند هذا الحد لأنه سيقرأ تفاصيل ما جرى عندما تنشر هذهالسيرة الذاتية في كتاب ان شاء الله قريباً . سيقرأ كيف تغير الجهاز وما فعل المحافظ الجديد الاستاذ عارف النكدي ، وعن الوفود التي قدمت لاصلاح ذات البين وهي مؤلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار

اليسار . وعن الصدام المسلح الخاطىء الذي جرى خلال غيابي عن المحافظة وعن المصالحة وبنودها التي وضعتها بالاتفاق مع الأستاذ النكدي.

وفي أحد الأيام ، قال الأستاذ النكدي : أريد لك أن تبتعد قليلاً عن هذه المحافظة — فوجودك فيها صار صعباً جداً : فأنت هدف لعداء أصحاب القديم ، ومجبر على خدمة أصحاب الجديد خدمة مجانية ، وليس لك مورد ، وحالتك ، كما أرى يرثى لها فأجبته :

هل هذا يعني ابعادي ، أم أن هذا يعني إظهاري بمظهر الهارب ؟»

فقال : لا هذا ولا ذاك ، كن واقعياً لقد بات من مصلحتك أن تغادر هذه المحافظة فما رأيك في أن تعين قاضياً في محافظة نائية باعتبار أن هنالك مشروعاً للاصلاح القضائي سيصدر به مرسوم على أساس أزمة تصنيف جديد للقضاة . . ؟

فأجبت : « ليكن ما تريد ، ما دامت أسس الحل قد اتفق عليها وما دام الجبل بعهدتك أنت فلا مانع من المغادرة : وصدر مرسوم التصنيف في نيسان ١٩٤٨ ، وعينت بموجبه معاون نائب عام في القامشلي وعين الأستاذ حسين عبد الدين مستشاراً في محكمة استئناف الحسكة .

وحين غادرت السويداء آخر نيسان ١٩٤٨ لم أكن أعلم أنني سأبني حياة جديدة هناك ، في بقعة ثانية غالية من الوطن العزيز ، حياة حافلة بالنشاط غنية بالتجارب والنتائج وتستحق أن يفرد لها جزء خاص من هذه الذكريات ، أرجو أن يفسح لي مجال من العمر والامكانات لأكتبه وأنشره وإن لم يتح لي ذلك فليس من الصعب الاطلاع على أكثر تفاصيله في مجلدات مجلتي (الخابور) ثم (المواكب) اللتين أصدرتهما هناك .

بعدما استقلت من الوظيفة . وعدت إلى المحاماة في أوائل تموز ١٩٤٩ .
وعلى صفحات الجرائد اليومية في دمشق والسويداء ، وفي القامشلي ذاتها
حيث كانت الخابور أول مجلة تصدر في تلك المنطقة الغالية من الوطن
وظلت من ١٩٥١ حتى ١٩٥٥ ثم سميت المواكب عام ١٩٥٦ وتوقفت
عن الصدور أواخر عام ١٩٥٦ . هذا : وتبعتها فيما بعد جريدتان يوميتان
مما أدى إلى حركة أدبية مباركة . . وفي الدراسة التي كتبتها عن الجزيرة
لدائرة المعارف اللبنانية بناء على طلب الأستاذ الدكتور فؤاد افرام البستاني
والتي ستصدر بحرف الجيم . .

أبنائي الأعزاء كما خاطبتكم في مطلع هذه الذكريات أخاطبكم في
نهايتها . ، لقد عشتم معي هذه الفترة وولدت أميرة هناك في القامشلي ،
وقبل أن أغادر محافظة الجبل كنت قد سجلت بتاريخ ٥ جمادى الثانية
١٣٦٧ ، و ٢٤ نيسان ١٩٤٧ الأسس النهائية للحل السياسي والاجتماعي
لقضية الجبل في صك تاريخي وقعه ممثلو هيئة الشعب الوطنية في قضاء
صلخد ، وجاء متضمناً جميع المبادىء التي انطلقت منها وسعت اليها
الحركة الشعبية .

وحين اتممت هذه الخطوة ووضعت القضية برمتها تحت تصرف
الأستاذ عـارف النكدي مقيـداً بهذه الخطوط اعتبرت أنني وصلت إلى
نهاية المرحلة الاجتماعية في ثورة محافظتنا العزيزة التي بات بعد الآن —
وهذا ما كان يجب أن يكون — احدى محافظات القطر ، لها مالها .
وعليها ما عليها .

وفي ٢٤/ ١٢/١٩٤٨ كرست هذه الاتفاقية بعقد راية شهداء الحركة
الشعبية في مدينة صلخد وقد استدعاني الأستاذ عارف النكدي برقياً

للحضور فاعتذرت وفوضت الأمر لأخي منصور ويمكن مشاهدة صورته وهو يعقد الراية في كتاب « محافظة السويداء الذي وضعه فريق من الاساتذة ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي (سلسلة بلادنا) رقم ٢ عام ١٩٦٢ الصورة شكل ٧ .

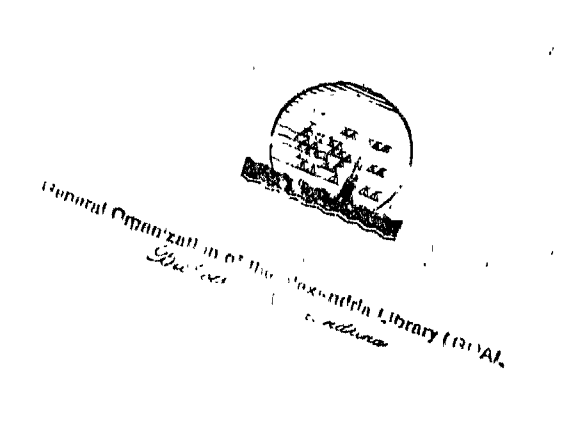
أبنائي الأعزاء ، كنت أقول لكم دائماً ماقاله ذلك العربي حين سئل عن أحب الأولاد إليه : « الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والغائب حتى يعود ، ولي أمنية أخيرة هي ان اقضي آخر أيامي في بيت مريح يجمعنا كلنا فأغمض عيني على تحقيق أجمل حلم بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، في دروب الحياة الصعبة ، دون أن يتسرب اليأس إلى نفسي ودون أن يفارق التفاؤل قلبي ودون أن تزايل الابتسامة شفتي . تغلبت بالحب والمحبة وعطاء الذات على كل عقبة ، ومن يتسلح بالحب والمحبة وعطاء الذات فهو لابد من الظافرين .

* * *

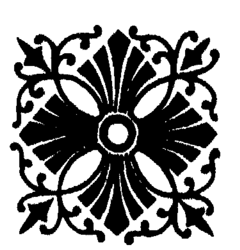
الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة



٢٥٠٠ ط ١/١٠/١٩٩٤



الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٤

سعر النسخة داخل القطر
١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٣٠٠ ل.س